



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٨	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١
٣٨	اشاره
٣٩	اشاره
٤٢	الأمثل من جديد
٤٣	المقدمه
٤٣	اشاره
٤٣	ما هو التفسير؟
٤٤	متى بدأ تفسير القرآن؟
٤٥	خطر التفسير بالرأى:
٤٦	متطلبات العصر:
٤٨	الأمثل بين التفاسير:
٥٠	خصائص هذا التفسير:
٥١	الضحوه الإسلاميه المعاصره و زياده الحاجه إلى تفسير القرآن:
٥٣	سوره الحمد
٥٣	اشاره
٥٥	خصائصها:
٥٩	محتوى السوره:
٦١	لماذا سميت فاتحه الكتاب؟
٦٢	سؤال:
٦٤	الآيات [سوره الفاتحه (١): الآيات ١ الى ٧]
٦٤	اشاره
٦٤	التفسير
٦٤	اشاره

٦٤ ١- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٧ بحوث

٦٧ اشاره

٦٧ ١- هل البسملة جزء من السوره؟

٧٠ ٢- لفظ الجلاله جامع لصفاته تعالى:

٧١ ٣- الرحمه الإلهيه الخاصه و العامه:

٧٥ الآيه [سوره الفاتحه (١): آيه ٢]

٧٥ اشاره

٧٥ التفسير

٧٥ اشاره

٧٥ العالم مغمور فى رحمته

٧٩ بحثان

٧٩ اشاره

٧٩ ١- رفض الآلهه:

٨١ ٢- ربوبيه الله طريق لمعرفه الله

٨٣ الآيه [سوره الفاتحه (١): آيه ٣]

٨٣ اشاره

٨٣ التفسير

٨٤ الآيه [سوره الفاتحه (١): آيه ٤]

٨٤ اشاره

٨٤ التفسير

٨٤ اشاره

٨٤ الركيزه الثانيه: الإيمان بيوم القيامه

٨٨ الآيه [سوره الفاتحه (١): آيه ٥]

٨٨ اشاره

٨٨ التفسير

- ٨٨ اشارة
- ٨٨ الإنسان بين يدي الله
- ٨٩ بحوث
- ٨٩ اشارة
- ٨٩ ١-هو المستعان وحده
- ٩٠ ٢-استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات
- ٩٠ ٣-الاستعانة به في كل الأمور
- ٩٢ الآية [سوره الفاتحه (١): آيه ٦]
- ٩٢ اشارة
- ٩٢ التفسير
- ٩٢ اشارة
- ٩٢ السير على الصراط المستقيم
- ٩٤ ما هو الصراط المستقيم؟
- ٩٧ الآية [سوره الفاتحه (١): آيه ٧]
- ٩٧ اشارة
- ٩٧ التفسير
- ٩٧ اشارة
- ٩٧ خطان منحرفان!
- ٩٨ بحثان
- ٩٨ اشارة
- ٩٨ ١-من هم الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ؟
- ٩٩ ٢-من هم الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، و من هم الضَّالِّينَ ؟
- ١٠٢ سورة البقره
- ١٠٢ اشارة
- ١٠٤ محتوى سورة البقره:
- ١٠٥ فضيله هذه السوره:

- الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٢] ١٠٧
- اشاره ١٠٧
- التفسير ١٠٧
- اشاره ١٠٧
- تحقيق في الحروف المقطعه في القرآن ١٠٧
- الأدب في العصر الجاهلي: ١٠٨
- شاهد ناطق: ١٠٩
- بحوث ١١١
- اشاره ١١١
- ١- لماذا الإشاره إلى البعيد؟ ١١١
- ٢- معنى الكتاب: ١١١
- ٣- ما هي الهدايه؟ ١١٢
- ٤- لماذا اختصت هدايه القرآن بالمتقين؟ ١١٣
- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٣ الى ٥] ١١٤
- اشاره ١١٤
- التفسير ١١٤
- اشاره ١١٤
- آثار التقوى في روح الإنسان و بدنه: ١١٤
- ١- الإيمان بالغيب: ١١٥
- ٢- الارتباط بالله: ١١٧
- ٣- الارتباط بالناس: ١١٨
- ٤- الإيمان بالأنبياء عليهم السلام: ١١٩
- ٥- الإيمان بيوم القيامة: ١٢٠
- بحثان ١٢٢
- اشاره ١٢٢
- ١- مواصله طريق الإيمان و العمل: ١٢٢

- ١٢٢ ٢- ما هي حقيقه التقوى؟
- ١٢٥ الأيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٦ الى ٧]
- ١٢٥ اشاره
- ١٢٥ التفسير
- ١٢٥ اشاره
- ١٢٥ المجموعه الثانيه: الكفار المعاندون
- ١٢٦ بحوث
- ١٢٦ اشاره
- ١٢٦ ١- سلب قدره التشخيص و مسأله الجبر
- ١٢٨ ٢- لماذا يصّر الأنبياء على هدايه هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟
- ١٢٩ ٣- الختم على القلوب:
- ١٣٠ ٤- المقصود من «القلب» في القرآن
- ١٣١ ٥- لماذا جاءت «قلوبهم» و «أبصارهم» بصيغه الجمع، و «سمعهم» بصيغه المفرد؟
- ١٣٣ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٨ الى ١٦]
- ١٣٣ اشاره
- ١٣٣ التفسير
- ١٣٣ اشاره
- ١٣٣ المجموعه الثالثه: المنافقون
- ١٣٦ بحوث
- ١٣٦ اشاره
- ١٣٦ ١- ظهور النفاق و أسبابه:
- ١٣٨ ٢- ضروره معرفه المنافقين في كل مجتمع
- ١٣٩ ٣- سعه معنى النفاق:
- ١٤٠ ٤- مؤامره المنافقين:
- ١٤١ ٥- خداع الضمير:
- ١٤٢ ٦- التجاره الخاسره:

- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٧ الى ٢٠] ١٤٥
- اشاره ١٤٥
- التفسير ١٤٥
- اشاره ١٤٥
- مثالان رائعان لوصف حاله المنافقين: ١٤٥
- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٢] ١٥١
- اشاره ١٥١
- التفسير ١٥١
- اشاره ١٥١
- نعم الأرض و السماء: ١٥٢
- بحث ١٥٦
- اشاره ١٥٦
- الشرك فى أشكال مختلفه: ١٥٦
- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٢٣ الى ٢٤] ١٥٨
- اشاره ١٥٨
- التفسير ١٥٨
- اشاره ١٥٨
- القرآن معجزه خالده: ١٥٨
- بحوث ١٦٠
- اشاره ١٦٠
- ١- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزه؟ ١٦٠
- ٢- القرآن معجزه نبي الإسلام الخالده: ١٦١
- ٣- هل تحدى القرآن؟ ١٦٢
- ٤- هل جىء بمثله؟ ١٦٤
- ٥- شهادات حول القرآن: ١٦٥
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٢٥] ١٦٩

١٦٩ اشارة

١٦٩ التفسير

١٦٩ اشارة

١٦٩ خصائص نعم الجنة:

١٧١ بحوث

١٧١ اشارة

١٧١ ١- «الإيمان» و«العمل»:

١٧٢ ٢- الأزواج المطهرة:

١٧٢ ٣- النعم المادية و المعنوية في الجنة:

١٧٤ الآية [سورة البقرة (٢): آية ٢٦]

١٧٤ اشارة

١٧٤ سبب النزول

١٧٥ التفسير

١٧٥ اشارة

١٧٥ هل الله يضرب المثل؟!:

١٧٧ بحوث

١٧٧ اشارة

١٧٧ ١- أهمية المثل في بيان الحقائق:

١٧٧ ٢- لماذا التمثيل بالبعوض؟:

١٧٩ ٣- هداية الله و إضلاله:

١٨١ الآية [سورة البقرة (٢): آية ٢٧]

١٨١ اشارة

١٨١ التفسير

١٨١ اشارة

١٨١ الخاسرون الحقيقيون:

١٨٣ بحثان

١٨٣ اشارة

١٨٣ ١-أهميه صله الرحم فى الإسلام:

١٨٥ ٢-القطع بدل الوصل:

١٨٦ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

١٨٦ اشارة

١٨٦ التفسير

١٨٦ اشارة

١٨٦ نعمه الحياه:

١٩١ بحوث

١٩١ اشارة

١٩١ ١-التناسخ أو عوده الأرواح

١٩٢ ٢-السموات السبع

١٩٤ ٣-عظمه الكائنات

١٩٥ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

١٩٥ اشارة

١٩٥ التفسير

١٩٥ اشارة

١٩٥ الإنسان خليفه الله فى الأرض

١٩٩ الملائكه فى بودقه الاختبار

٢٠١ جواب على سؤالين

٢٠٣ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

٢٠٣ اشارة

٢٠٣ التفسير

٢٠٣ اشارة

٢٠٣ آدم عليه السلام فى الجنة

٢٠٤ بحثان

٢٠٤ اشارة

٢٠٤ ١-لماذا أبى إبليس؟

٢٠٥ ٢-هل كان التجود لله أم لأدم عليه السلام؟

٢٠٨ بحوث

٢٠٨ اشارة

٢٠٨ ١-ما هي جته آدم عليه السلام؟

٢٠٩ ٢-ما هو ذنب آدم؟

٢١٠ ٣-المقارنه بين معارف القرآن و التوراه:

٢١٢ ٤-المقصود من الشيطان فى القرآن

٢١٥ ٥-لماذا خلق الشيطان؟!

٢١٦ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

٢١٦ اشارة

٢١٦ التفسير

٢١٦ اشارة

٢١٦ عوده آدم عليه السلام إلى الله

٢١٧ بحوث

٢١٧ اشارة

٢١٧ ١-الكلمات التى تلقاها آدم

٢١٨ ٢-سبب تكرار جملة «هبطوا»

٢١٩ ٣-من هم المخاطبون فى جملة «هبطوا»؟

٢٢٠ الآية [سوره البقره (٢): آيه ٤٠]

٢٢٠ اشارة

٢٢٠ التفسير

٢٢٠ اشارة

٢٢٠ ذكر التعم الإلهيه

٢٢١ بحوث

٢٢١ اشارة

٢٢١ ١-اليهود فى المدينه

٢٢٢ ٢-ميثاق بنى اسرائيل:

٢٢٣ ٣-وفاء الله بعهدده

٢٢٤ ٤-لماذا سمى اليهود«بنى اسرائيل»؟

٢٢٤ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٤١ الى ٤٣]

٢٢٤ اشارة

٢٢٤ سبب النزول

٢٢٤ التفسير

٢٢٤ اشارة

٢٢٤ جشع اليهود

٢٢٩ بحث

٢٢٩ اشارة

٢٢٩ هل يؤيد القرآن ما جاء فى التوراه و الإنجيل!؟

٢٢٩ الجواب

٢٣٠ شاهد حتى آخر:

٢٣٣ الآية [سوره البقره (٢): الآيات ٤٤ الى ٤٦]

٢٣٣ اشارة

٢٣٣ التفسير

٢٣٥ بحثان

٢٣٥ اشارة

٢٣٥ ١-ما هو لقاء الله؟

٢٣٦ ٢-سبيل التغلب على الصعاب

٢٣٨ الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

٢٣٨ اشارة

٢٣٨ التفسير

- ٢٣٨ اشارة
- ٢٣٨ أوهام اليهود
- ٢٤٠ القرآن و مسأله الشفاعة
- ٢٤٠ اشارة
- ٢٤٢ ١-المفهوم الحقيقى للشفاعة:
- ٢٤٣ ٢-الشفاعة فى عالم التكوين
- ٢٤٣ ٣-مستندات الشفاعة:
- ٢٤٤ ٤-الشروط المختلفه للشفاعة:
- ٢٤٨ ٥-الشفاعة فى الحديث:
- ٢٤٩ ٦-التأثير المعنوى للشفاعة:
- ٢٥٢ ٧-فلسفه الشفاعة
- ٢٥٣ ٨-شروط «توفّر الشفاعة»
- ٢٥٤ ٩-شبهات حول مسأله الشفاعة
- ٢٥٥ ١٠-الشفاعة و التوحيد
- ٢٥٩ نظره على منطق الوهابيين فى حقل الشفاعة
- ٢٤٣ الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٤٩]
- ٢٤٣ اشارة
- ٢٤٣ التفسير
- ٢٤٣ اشارة
- ٢٤٣ نعمه الحريه
- ٢٤٤ الآيه [سوره البقره (٢): آيه ٥٠]
- ٢٤٤ اشارة
- ٢٤٤ التفسير
- ٢٤٤ اشارة
- ٢٤٤ التجاه من آل فرعون:
- ٢٤٨ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٥١ الى ٥٤]

٢٦٨ اشارة

٢٦٨ التفسير

٢٦٨ اشارة

٢٦٨ أكبر انحرافات بنى إسرائيل

٢٧٠ ذنب عظيم و توبه فريده

٢٧٢ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

٢٧٢ اشارة

٢٧٢ التفسير

٢٧٢ اشارة

٢٧٢ طلب عجيب!

٢٧٤ الآياتان [سوره البقره (٢): آيه ٥٧]

٢٧٤ اشارة

٢٧٤ التفسير

٢٧٤ اشارة

٢٧٤ التعم المتنوعه

٢٧٥ بحوث

٢٧٥ اشارة

٢٧٥ ١-الحياه الجديده بعد التحرر:

٢٧٦ ٢-المَن و السلوى:

٢٧٨ ٣-لماذا قالت الآيه «أُنزلنا»؟

٢٧٩ ٤-ما هو الغمام؟

٢٨٠ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

٢٨٠ اشارة

٢٨٠ التفسير

٢٨٠ اشارة

٢٨٠ عناد بنى إسرائيل

٢٨٣	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٦٠]
٢٨٣	اشاره
٢٨٣	التفسير
٢٨٥	بحوث
٢٨٥	اشاره
٢٨٥	١-الفرق بين العتّى و الإفساد
٢٨٥	٢-المعاجز فى حياه بنى إسرائيل
٢٨٦	٣-الفرق بين الإنفجار و الانبجاس
٢٨٧	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٦١]
٢٨٧	اشاره
٢٨٧	التفسير
٢٨٧	اشاره
٢٨٧	المطالبه بالأطعمه المتنوعه
٢٨٨	بحوث
٢٨٨	اشاره
٢٨٨	١-آراء المفسرين فى كلمه «مصر»
٢٨٩	٢-التنوع و طبيعه الإنسان
٢٩٠	٣-هل «المنّ» و«السلوى» خير الأَطعمه؟
٢٩١	٤-ذله بنى إسرائيل و مسكنتهم
٢٩٢	الآية [سوره البقره (٢): آيه ٦٢]
٢٩٢	اشاره
٢٩٢	التفسير
٢٩٢	اشاره
٢٩٢	القانون العام للتّجاه
٢٩٣	تساؤل هام
٢٩٤	بحوث

٢٩٤ اشارة

٢٩٤ ١-قصة سلمان الفارسي رحمه الله

٢٩٧ ٢-من هم الضابنون؟

٢٩٩ ٣-معتقدات الضابنين

٢٩٩ كتبهم المقدسه:

٣٠١ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

٣٠١ اشارة

٣٠١ التفسير

٣٠١ اشارة

٣٠١ الالتزام بالميثاق

٣٠٢ بحوث

٣٠٢ اشارة

٣٠٢ ١-الميثاق

٣٠٢ ٢-رفع جبل الطور

٣٠٣ ٣-الالتزام و الإرهاب

٣٠٣ ٤-جبل الطور

٣٠٤ ٥-خذوا تعاليم السماء بقوة

٣٠٥ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

٣٠٥ اشارة

٣٠٥ التفسير

٣٠٥ اشارة

٣٠٥ عصاه يوم السبت

٣٠٧ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٦٧ الى ٧٤]

٣٠٧ اشارة

٣٠٨ التفسير

٣٠٨ اشارة

- ٣٠٨ قصة بقره بنى إسرائيل
- ٣١٠ بحوث
- ٣١٠ اشاره
- ٣١٠ ١- أسئلته كثيره تافهه
- ٣١٢ ٢-مدلول هذه الأوصاف:
- ٣١٢ ٣-ما هو دافع القتل؟
- ٣١٣ ٤-العبر فى هذه القصة
- ٣١٤ ٥-الإحسان إلى الأب
- ٣١٦ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٧٥ إلى ٧٧]
- ٣١٦ اشاره
- ٣١٦ سبب النزول
- ٣١٧ التفسير
- ٣١٧ اشاره
- ٣١٧ لا أمل فى هؤلاء
- ٣١٩ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٧٨ إلى ٧٩]
- ٣١٩ اشاره
- ٣١٩ سبب النزول
- ٣١٩ التفسير
- ٣١٩ اشاره
- ٣١٩ خطه اليهود فى استغلال الجهله!
- ٣٢٢ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٨٠ إلى ٨٢]
- ٣٢٢ اشاره
- ٣٢٢ التفسير
- ٣٢٣ بحوث
- ٣٢٣ اشاره
- ٣٢٣ ١-كسب السيئه

- ٣٢٤ ٢-إحاطه الخطيئه
- ٣٢٤ ٣-عنصريه اليهود
- ٣٢٤ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٨٣ الى ٨٦]
- ٣٢٤ اشاره
- ٣٢٧ التفسير
- ٣٢٧ اشاره
- ٣٢٧ التاكثون
- ٣٢٩ بحوث
- ٣٢٩ اشاره
- ٣٢٩ ١-إشاره تاريخيه:
- ٣٢٩ ٢-الازدواجيه فى الالتزام:
- ٣٣١ ٣-منهج البقاء و عوامل السقوط:
- ٣٣٢ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٨٧ الى ٨٨]
- ٣٣٢ اشاره
- ٣٣٢ التفسير
- ٣٣٢ اشاره
- ٣٣٢ القلوب المغلفه
- ٣٣٣ بحوث
- ٣٣٣ اشاره
- ٣٣٣ ١-رساله الأنبياء فى مسيره التاريخ
- ٣٣٤ ٢-ما هو روح القدس؟
- ٣٣٥ ٣-مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين
- ٣٣٦ ٤-قلوب غافله محجوبه
- ٣٣٧ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ٨٩ الى ٩٠]
- ٣٣٧ اشاره
- ٣٣٧ سبب النزول

التفسير ٣٣٨

اشاره ٣٣٨

كفروا بما دعوا الناس اليه ٣٣٨

بحثان ٣٣٩

اشاره ٣٣٩

١-صفقه خاسره ٣٣٩

٢-غضب على غضب ٣٤٠

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٩١ الى ٩٣] ٣٤١

اشاره ٣٤١

التفسير ٣٤١

اشاره ٣٤١

العصبية القوميه لدى اليهود ٣٤١

بحثان ٣٤٣

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٩٤ الى ٩٦] ٣٤٥

اشاره ٣٤٥

التفسير ٣٤٥

اشاره ٣٤٥

فته مغروره: ٣٤٥

بحوث ٣٤٧

اشاره ٣٤٧

١-المقصود من الأعوام الألف ٣٤٧

٣-إفرازات العنصرية: ٣٤٨

٤-عوامل الخوف من الموت: ٣٤٨

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ٩٧ الى ٩٨] ٣٥٠

اشاره ٣٥٠

اسباب النزول ٣٥٠

التفسير ٣٥١

اشاره ٣٥١

قوم جادلون: ٣٥١

جبريل و ميكال ٣٥٢

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ٩٩ الى ١٠١] ٣٥٤

اشاره ٣٥٤

سبب النزول ٣٥٤

التفسير ٣٥٤

اشاره ٣٥٤

الناكثون من اليهود ٣٥٤

بحوث ٣٥٤

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣] ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

التفسير ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

سليمان و سحره بابل ٣٥٧

بحوث ٣٦٠

اشاره ٣٦٠

١-قصة هاروت و ماروت ٣٦٠

٢-لفظ هاروت و ماروت ٣٦١

٣-كيف يكون الملك معلما للإنسان؟ ٣٦١

٤-لا قدره لأحد على عمل دون إذن الله ٣٦٢

٥-السحر و تأريخه: ٣٦٢

اشاره ٣٦٢

التحرف في رأى الإسلام ٣٦٤

السحر في رأى التوراه ٣٦٤

السحر فى عصرنا ٣٦٥

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥] ٣٦٧

اشاره ٣٦٧

سبب النزول ٣٦٧

التفسير ٣٦٨

اشاره ٣٦٨

لا توفّروا للأعداء فرصه الطعن: ٣٦٨

بحث ٣٦٩

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧] ٣٧٠

اشاره ٣٧٠

التفسير ٣٧٠

اشاره ٣٧٠

الغرض من التسخ ٣٧٠

بحوث ٣٧١

اشاره ٣٧١

١- هل يجوز التسخ فى الأحكام؟ ٣٧١

٢- المقصود من الآيه ٣٧٣

٣- تفسير عباره «ننسخها» ٣٧٤

٤- تفسير أو مثلها ٣٧٤

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٠٨] ٣٧٦

اشاره ٣٧٦

سبب النزول ٣٧٦

التفسير ٣٧٧

اشاره ٣٧٧

حجج واهيه ٣٧٧

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٩ الى ١١٠] ٣٧٨

٣٧٨ اشارة

٣٧٨ التفسير

٣٧٨ اشارة

٣٧٨ حسد و عناد

٣٧٩ بحوث

٣٨١ الايتان [سوره البقره (٢): الآيات ١١١ الى ١١٢]

٣٨١ اشارة

٣٨١ التفسير

٣٨٢ بحوث

٣٨٤ الآية [سوره البقره (٢): آيه ١١٣]

٣٨٤ اشارة

٣٨٤ سبب النزول

٣٨٤ التفسير

٣٨٤ اشارة

٣٨٤ تعصب و تناقض

٣٨٤ الآية [سوره البقره (٢): آيه ١١٤]

٣٨٤ اشارة

٣٨٤ سبب النزول

٣٨٧ التفسير

٣٨٧ اشارة

٣٨٧ أظلم الناس

٣٨٨ بحثان

٣٨٨ اشارة

٣٨٨ ١- تخريب المساجد

٣٨٩ ٢- أكبر الظلم

٣٩٠ الآية [سوره البقره (٢): آيه ١١٥]

٣٩٠	اشاره
٣٩٠	سبب النزول
٣٩١	التفسير
٣٩١	اشاره
٣٩١	أينما تولوا فثم وجه الله:
٣٩٢	بحوث
٣٩٢	اشاره
٣٩٢	١- فلسفه القبله
٣٩٣	الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]
٣٩٣	اشاره
٣٩٣	التفسير
٣٩٣	اشاره
٣٩٣	خرافات اليهود و النصارى و المشركين
٣٩٤	بحوث
٣٩٤	اشاره
٣٩٤	١- دلالت نفى الولد
٣٩٥	٢- تفسير كُنْ فَيَكُونُ
٣٩٤	٣- كيف يوجد الشيء من العدم؟
٣٩٤	اشاره
٣٩٤	الجواب
٣٩٨	الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١١٨ الى ١١٩]
٣٩٨	اشاره
٣٩٨	التفسير
٣٩٨	اشاره
٣٩٨	حجج اخرى
٤٠٠	بحثان

٤٠٠ اشاره

٤٠٠ ١- تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ

٤٠٠ ٢-أصلان تربويان

٤٠٢ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

٤٠٢ اشاره

٤٠٢ أسباب النزول

٤٠٣ التفسير

٤٠٣ اشاره

٤٠٣ إرضاء هذه المجموعه محال

٤٠٤ بحوث

٤٠٤ اشاره

٤٠٤ ١-سؤال عن عصمه الأنبياء

٤٠٥ ٢-للاسترضاء حدود

٤٠٥ ٣-إن هدى الله هو الهدى

٤٠٥ ٤-حق التلاوه

٤٠٧ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

٤٠٧ اشاره

٤٠٧ التفسير

٤٠٩ الآية [سوره البقره (٢): آيه ١٢٤]

٤٠٩ اشاره

٤٠٩ التفسير

٤٠٩ اشاره

٤٠٩ الإمامه قمه مفاخر إبراهيم عليه السلام

٤١٠ بحوث

٤١٠ اشاره

٤١٠ ١-المقصود من «الكلمات»

- ٢- من هو الإمام؟ ٤١١
- ٣- الفرق بين التبوّه والإمامه و الرساله ٤١٣
- ٤- الإمامه آخر مراحل مسيره إبراهيم التكاملية ٤١٤
- ٥- من الظالم؟ ٤١٥
- ٦- تعيين الامام من قبل الله ٤١٦
- ٧- جواب عن سؤالين ٤١٧
- ٨- شخصيه إبراهيم المثاليه ٤١٨
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٢٥] ٤٢٠
- اشاره ٤٢٠
- التفسير ٤٢٠
- اشاره ٤٢٠
- عظمه بيت الله ٤٢٠
- بحثان ٤٢١
- اشاره ٤٢١
- ١- الآثار الاجتماعيه و التربويه للبيت الأيمن: ٤٢١
- ٢- بيت الله ٤٢٢
- الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٢٦] ٤٢٣
- اشاره ٤٢٣
- التفسير ٤٢٣
- اشاره ٤٢٣
- إبراهيم يدعو ربه ٤٢٣
- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٧ الى ١٢٩] ٤٢٥
- اشاره ٤٢٥
- التفسير ٤٢٥
- اشاره ٤٢٥
- إبراهيم يبني الكعبه ٤٢٥

٤٢٧ بحثان

٤٢٧ اشاره

٤٢٧ ١-هدف بعثه الأنبياء

٤٢٨ ٢-«التعليم»مقدم أو«التربية»؟

٤٢٩ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٢].

٤٢٩ اشاره

٤٢٩ التفسير

٤٢٩ اشاره

٤٢٩ إبراهيم الإنسان التموذج

٤٣٢ الآياتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٣ الى ١٣٤].

٤٣٢ اشاره

٤٣٢ سبب النزول

٤٣٢ التفسير

٤٣٥ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٣٧].

٤٣٥ اشاره

٤٣٥ سبب النزول

٤٣٦ التفسير

٤٣٦ اشاره

٤٣٦ نحن على حق لا غيرنا!

٤٣٧ بحوث

٤٣٧ اشاره

٤٣٧ ١-وحده دعوه الأنبياء

٤٣٨ ٢-من هم الأسباب؟

٤٣٨ ٣-الحنيف

٤٣٩ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٨ الى ١٤١].

٤٣٩ اشاره

التفسير ٤٣٩

اشاره ٤٣٩

التخلّي عن غير صبغه الله: ٤٣٩

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٤٢] ٤٤٤

اشاره ٤٤٤

التفسير ٤٤٤

اشاره ٤٤٤

تغيير القبله ٤٤٤

بحوث ٤٤٨

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٤٣] ٤٤٩

اشاره ٤٤٩

التفسير ٤٤٩

اشاره ٤٤٩

الأئمه الوسط ٤٤٩

بحوث ٤٥١

اشاره ٤٥١

١- أسرار تغيير القبله ٤٥١

٢- الأئمه الوسط ٤٥٣

٣- الامته الشاهده ٤٥٤

٤- علم الله ٤٥٤

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٤٤] ٤٥٦

اشاره ٤٥٦

التفسير ٤٥٦

اشاره ٤٥٦

كل الوجوه شطر الكعبه ٤٥٦

بحوث ٤٥٧

٤٥٧ اشاره

٤٥٧ ١-نظم الآيات

٤٥٨ ٢-انتظار صعب!

٤٥٨ ٣-معنى الشطر

٤٥٩ ٤-خطاب عام

٤٥٩ ٥-هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى التّبي؟

٤٥٩ ٦-الكعبه مركز دائره كبرى

٤٦١ الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٤٥]

٤٦١ اشاره

٤٦١ التفسير

٤٦١ اشاره

٤٦١ لا يرضون بأى ثمن

٤٦٣ الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

٤٦٣ اشاره

٤٦٣ التفسير

٤٦٣ اشاره

٤٦٣ يعرفون حقّ المعرفه و لكن...

٤٦٥ الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٤٨]

٤٦٥ اشاره

٤٦٥ التفسير

٤٦٥ اشاره

٤٦٥ لكلّ أمه قبله

٤٦٦ بحثان

٤٦٦ اشاره

٤٦٦ ١-يوم يجتمع أصحاب المهدي عليه السلام

٤٦٩ الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٤٩ الى ١٥٠]

٤٦٩ اشارة

٤٦٩ التفسير

٤٧٢ الأيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٥١ الى ١٥٢] -

٤٧٢ اشارة

٤٧٢ التفسير

٤٧٢ اشارة

٤٧٢ مهمته رسول الله:

٤٧٥ بحثان

٤٧٥ اشارة

٤٧٥ ١- أقوال المفسرين في تفسير فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

٤٧٦ ٢- المقصود من ذكر الله

٤٧٨ الأيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٤] -

٤٧٨ اشارة

٤٧٨ سبب النزول

٤٧٨ التفسير

٤٧٨ اشارة

٤٧٨ الشهداء أحياء

٤٨١ بحوث

٤٨١ اشارة

٤٨١ ١- خلود الشهداء

٤٨٢ ٢- الشهداء سعادته في الإسلام

٤٨٣ ٣- الحياه البرزخيه و بقاء الروح

٤٨٤ الأيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٥ الى ١٥٧] -

٤٨٤ اشارة

٤٨٤ التفسير

٤٨٤ اشارة

٤٨٤	الدنيا دار اختبار إلهي
٤٨٤	بحوث
٤٨٤	اشاره
٤٨٤	١- لماذا الاختبار الإلهي؟
٤٨٧	٢- الاختبار الإلهي عام
٤٨٩	٣- طرق الاختبار
٤٨٩	٤- عوامل النجاح في الامتحان
٤٩٢	٥- الاختبار بالخير والشر
٤٩٤	الآية [سوره البقره (٢): آيه ١٥٨]
٤٩٤	اشاره
٤٩٤	التزول
٤٩٥	التفسير
٤٩٥	اشاره
٤٩٥	أعمال الجهله لا توجب تعطيل الشعائر
٤٩٦	بحوث
٤٩٦	اشاره
٤٩٦	١- الصفا و المروه
٤٩٦	٢- من أسرار السعي بين الصفا و المروه
٥٠٠	٣- جواب على سؤال
٥٠٠	٤- معنى التطوع
٥٠١	٥- شكر الله
٥٠٢	الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]
٥٠٢	اشاره
٥٠٢	سبب التزول
٥٠٢	التفسير
٥٠٢	اشاره

٥٠٢ حرمة كتمان الحق

٥٠٤ بحوث

٥٠٤ اشاره

٥٠٤ ١-مفاسد كتمان الحق

٥٠٦ ٢-كتمان الحق في الأحاديث

٥٠٦ ٣-معنى اللعن

٥٠٩ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٦١ الى ١٦٣]

٥٠٩ اشاره

٥٠٩ التفسير

٥٠٩ اشاره

٥٠٩ الذين ماتوا و هم كفار

٥١٠ بحوث

٥١٠ اشاره

٥١٠ ١-يوضح القرآن في مواضع متعدده

٥١٠ ٢-الآيه الثالثه في بحثنا هذا تبين أحديه الله بشكل ينفي كل شرك و انحراف.

٥١١ ٣-ألا يكفى لعن الله؟! ..

٥١٢ الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٦٤]

٥١٢ اشاره

٥١٢ التفسير

٥١٢ اشاره

٥١٢ مظاهر عظمه الله في الكون

٥١٧ الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

٥١٧ اشاره

٥١٧ التفسير

٥١٧ اشاره

٥١٧ أنهم الكفر يتبرءون من أتباعهم!

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٨ الى ١٦٩] ٥٢٠

اشاره ٥٢٠

سبب النزول ٥٢٠

التفسير ٥٢٠

اشاره ٥٢٠

خطوات الشيطان! ٥٢٠

بحوث ٥٢٢

اشاره ٥٢٢

١- أصل الحليه: ٥٢٢

٢- الانحرافات التدريجية ٥٢٣

٣- الشيطان عدو قديم ٥٢٤

٤- طريقه الوسوسة الشيطانية ٥٢٤

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٠ الى ١٧١] ٥٢٦

اشاره ٥٢٦

التفسير ٥٢٦

اشاره ٥٢٦

التقليد الأعمى ٥٢٦

بحثان ٥٢٨

اشاره ٥٢٨

١- سبل المعرفة ٥٢٨

٢- نطق الغراب: ٥٢٩

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٣] ٥٣٠

اشاره ٥٣٠

التفسير ٥٣٠

اشاره ٥٣٠

الطَّيِّبَاتِ وَ الْخَيَّاتِ ٥٣٠

بحوث ٥٣٣

اشاره ٥٣٣

١-فلسفه تحريم اللّوم المحرمه: ٥٣٣

٢-التكرار و التأكيد ٥٣٤

٣-حقن الدم ٥٣٧

الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٤ الى ١٧٦] ٥٣٨

اشاره ٥٣٨

سبب النزول ٥٣٨

التفسير ٥٣٨

اشاره ٥٣٨

إدانه كتمان الحقّ مزه اخرى ٥٣٨

الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٧٧] ٥٤٢

اشاره ٥٤٢

التزول ٥٤٢

التفسير ٥٤٢

اشاره ٥٤٢

أساس البرّ ٥٤٢

الآيتان [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩] ٥٤٧

اشاره ٥٤٧

سبب النزول ٥٤٧

التفسير ٥٤٧

اشاره ٥٤٧

في القصاص حياه ٥٤٧

بحوث ٥٥٠

اشاره ٥٥٠

١-القصاص و العفو تركيب عادل ٥٥٠

٥٥١ ----- ٢-هل يتعارض القصص مع العقل و العواطف الإنسانيه؟

٥٥١ ----- اشارة

٥٥١ ----- الجواب

٥٥٤ ----- ٣-هل انتقص قانون القصص المرأة؟

٥٥٤ ----- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٠ الى ١٨٢]

٥٥٤ ----- اشارة

٥٥٤ ----- التفسير

٥٥٤ ----- اشارة

٥٥٤ ----- الوصيه بالمعروف

٥٦٠ ----- بحوث

٥٦٠ ----- اشارة

٥٦٠ ----- ١-فلسفه الوصيه

٥٦٠ ----- ٢-العداله فى الوصيه

٥٦٢ ----- ٣-الوصايا الواجبه و المستحبه

٥٦٣ ----- ٤-الوصيه قابله للتغيير خلال الحياه

٥٦٤ ----- الآيات [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

٥٦٤ ----- اشارة

٥٦٤ ----- التفسير

٥٦٤ ----- اشارة

٥٦٤ ----- الصوم مدرسه التقوى

٥٦٩ ----- بحوث

٥٦٩ ----- اشارة

٥٦٩ ----- ١-الآثار التربويه و الاجتماعيه و الصحته للصوم

٥٧٢ ----- الآثار الصحيه للصوم

٥٧٣ ----- ٢-الصوم فى الأمم السابقه

٥٧٦ ----- ٣-امتياز شهر رمضان

٥٧٦	٤-قاعده «لا حرج»
٥٧٨	الآيه [سوره البقره (٢): آيه ١٨٦]
٥٧٨	اشاره
٥٧٨	سبب النزول
٥٧٨	التفسير
٥٧٩	بحوث
٥٧٩	اشاره
٥٧٩	١-فلسفه الدعاء
٥٨٢	٢-المفهوم الحقيقي للدعاء
٥٨٣	٣-شروط استجابته الدعاء
٥٨٧	الآياتان [سوره البقره (٢): آيه ١٨٧]
٥٨٧	اشاره
٥٨٧	سبب النزول
٥٨٨	التفسير
٥٨٨	اشاره
٥٨٨	رخصه في أحكام الصوم
٥٩٠	بحوث
٥٩٠	اشاره
٥٩٠	١-الحدود الإلهيه:
٥٩٠	٢-الاعتكاف:
٥٩١	٣-طلوع الفجر:
٦١٢	تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

لكلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلباته، و هي تنطلق من الأوضاع الاجتماعيه و الفكرية السائدة في ذلك العصر، و لكلّ عصر مشاكله و ملابساته الناتجة من تغيير المجتمعات و الثقافات، و هو تغيير لا ينفك عن مسيره المجتمع التاريخيه الفكرية الفاعله، هو ذلك الذي فهم الضرورات و المتطلبات، و أدرك المشاكل و الملابسات.

هذا ما قاله البحاثه الفريد الفقيه و المفسر المعاصر الأمثل، العلامة آيه الله العظمى مكارم الشيرازى في دوافع تأليف تفسيره الأمثل.

و يقول: واجهنا دوما أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات- و خاصه الشباب المتعطش الى نبع القرآن- عن التفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوى ضمنيا على بحث عن تفسير يبين عظمه القرآن عن تحقيق و لا- عن تقليد و يجب على ما فى الساحة من احتياجات و تطّعات و آلام و آمال... تفسير يجدى كل الفئات، و يخلو من المصطلحات العلميه المعقده.

و هذا التفسير دوّن على أساس هذين الهدفين.

و لتنفيذ هذا الهدف العظيم، صمّم القسم الثقافى لمدرسه الامام أمير المؤمنين عليه السلام بعرض جديد لكامل التفسير الأمثل، فأعاد النظر و إمعان فيه بدقه، مع تصحيح الأخطاء المطبعيه و الإنشائيه و الإملائيه، و اضافه كثير من الأحاديث التي كانت محذوفه فى الطبعة الاولى.

نأمل أن يكون مقبولا لدى البارى عزّ اسمه و جميع الباحثين فى حقائق القرآن الكريم.

القسم الثقافى لمدرسه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

المقدمه

اشاره

ما هو التفسير؟

التفسير فى اللغة الإبانة و إماطه اللثام.

و لكن هل يحتاج القرآن إلى إبانة و إماطه لثام... و هو «التور» و «الكلام المبين»؟! كلاً، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب... بل إننا بالتفسير ينبغي أن نكشف اللثام عن روحنا، و نزيح الستار المسدول على بصيرتنا، فنستجلى بذلك مفاهيم القرآن و نعيش أجواءه.

من جهه اخرى، ليس للقرآن بعد واحد... نعم، له بعد عام ميسر للجميع، ينير الطريق، و يهدى البشريه إلى سواء السبيل.

و له أيضا أبعاد اخرى للعلماء و المتفكرين، لأولئك الطامحين إلى مزيد من الارتواء... و هؤلاء يجدون فى القرآن ما يروى ظمأهم إلى الحقيقه، و يغرفون من بحره قدر آنيتهم... و تتسع الآنيه باتساع دائره السعى و الجهد و الإخلاص.

هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون»... بطون القرآن... و هى لا تتجلى للجميع، أو بعبارة أدق لا تقوى كل العيون على رؤيتها.

و التفسير يمنح العيون قوه، و يقشع عن البصائر الحجب و الأستار، و يمنحنا اللياقه لرؤيه تلك الأبعاد بدرجه و اخرى.

و للقرآن أبعاد اخرى تنجلي بمرور الزمان و تعاقب التجارب البشريه و نموّ الكفاءات الفكرية، و هذا ما أشار إليه ابن عباس إذ قال: «القرآن يفسره الزمان».

أضف إلى ذلك أنّ «القرآن يفسّر بعضه بعضاً»، و هذا لا- يتنافى مع كونه نورا و كلاما مبينا، لأنّه كلّ لا- يتجزأ، و جميع لا تفرّد، يشكّل بمجموعه النور و الكلام المبين.

متى بدأ تفسير القرآن؟

تفسير القرآن بالمعنى الحقيقي بدأ منذ عصر رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم، بل من بدء نزول الوحي إلاّ أنّه ك«علم مدوّن» بدأ من زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما تجمع على ذلك أقوال المورّخين و المفسّرين، و رجال هذا العلم يصلون بسلسله أسانيدهم إليه، و لا عجب في ذلك، فهو باب مدينه علم رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم.

إنّ مئات التفاسير كتبت لحدّ الآن، و بلغات مختلفه، و بأساليب و مناهج متنوعه، منها الأدبي، و الفلسفي، و الأخلاقي، و الروائي، و التأريخي، و العلمي، و كلّ واحد من المفسّرين تناول القرآن من زاويه تخصّصه.

و في هذا «بستان» مثمر و مزدهر...، شغف أحدهم بمناظره الشاعرية الخلايه.

و آخر عكف على ما فيه من أشكاليات طبيعیه ترتبط بتكوين النبات و هندسه الأزهار و عمل الجذور.

و ثالث ألفت نظره الى المواد الغذائية المستفاده منه.

و رابع اتّجه إلى دارسه الخواصّ العلاجيّه في نباتاته.

و خامس اهتمّ بكشف أسرار الخلقه في عجائب ثماره اليانعه و أوراده الملوّنه.

و سادس راح يفكّر من أيّ أزهاره يستطيع استخراج أفضل العطور.

و سابع كالتحله لا تفكر إلا بامتصاص رحيق الورد لتهيئه العسل.

و هكذا رواد طريق التفسير القرآني، عكس كل منهم بما يملكه من مرآه خاصه، مظهرا من مظاهر جمال القرآن و أسرارهِ.

واضح أنّ كل هذه التفاسير في الوقت الذي تعتبر فيه تفسيرا للقرآن، إلا أنها ليست تفسيرا للقرآن، لأنّ كل واحد منها يميّط اللثام عن بعد من أبعاد القرآن لا عن كل الأبعاد، و حتى لو جمعناها لتجلى من خلالها بعض أبعاد القرآن لا جميع أبعاده. ذلك لأنّ القرآن كلام الله و فيض من علمه اللامتناهي، و كلامه مظهر لعلمه، و علمه مظهر لذاته، و كلّها لا متناهيهِ.

من هنا، لا ينبغي أن نتوقع استطاعه البشر إدراك جميع أبعاد القرآن، فالكوز لا يسع البحر.

طبعاً، ممّا لا شكّ فيه أنّنا نستطيع أن نعرف من هذا البحر الكبير... الكبير جداً... بقدر سعه آنيهِ فكرنا، و من هنا كان على العلماء فرض أن لا- يتوانوا في كلّ عصر و زمان عن كشف مزيد من حقائق القرآن الكريم، و أن يبذلوا جهودهم المخلصه في هذا المجال ما استطاعوا، عليهم أن يستفيدوا ممّا خلّفه الأسلاف رضوان الله عليهم في هذا المجال، و لكن لا يجوز لهم أن يكتفوا به، فرسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم قال عن كتاب الله العزيز: «لا تحصى عجائبه، و لا تبلى غرائبهِ».

خطر التفسير بالرأى:

أخطر طريقه في تفسير القرآن هي أن يأتي المفسّر إلى كتاب الله العزيز معلّماً لا تلميذاً.

أى يأتي إليه ليفرض أفكاره على القرآن، و ليعرض رؤاه و تصوراتهِ المتولّده من إفرازات البيئه و التخصّيص العلمى، و الاتجاه المذهبيّ الخاص،

و الذوق الشّخصى، باسم القرآن، و بشكل تفسير للقرآن، مثل هذا الشخص لا يتخذ القرآن هاديا و إماما، بل يتّخذهُ وسيله لإثبات نظرياته و تبرير ذوقه و أفكاره.

هذا اللون من تفسير القرآن-أو قل تفسير الأفكار الشخصيه بالقرآن-راج بين جماعه، و ليس وراءه إلا الانحراف... الانحراف عن طريق الله... و الانزلاق فى متاهات الضلال.

إنّه ليس بتفسير، و إنّما هو قسر و فرض و تحميل... ليس باستفتاء، و إنّما إفتاء... ليس بهدايه، و إنّما هو الضلال... إنّهُ مسخ و تفسير بالرأى، و نحن فى منهجنا التفسيري سوف لا ننحو-ياذن الله-هذا النحو، بل نتّجه بكلّ قلوبنا و أفكارنا نحو القرآن لتتلمذ عليه، لا غير.

متطلبات العصر:

لكلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلّباته، و هى تنطلق من الأوضاع الاجتماعيه و المتغيّرات الفكرية و المستجدّات الثقافيه الطارئه على مفاصل الحياه فى ذلك العصر.

و لكلّ عصر مشاكله و ملابساته الناتجه عن تغيير المجتمعات و الثقافات، و هو تغيير لا ينفك عن مسيره المجتمع التاريخيه.

المفكر الفاعل فى الحياه الاجتماعيه هو ذلك الذى فهم الضرورات و المتطلّبات، و أدرك المشاكل و الملابسات... و بعبارة اخرى هو الذى استوعب مسائل عصره.

أمّا أولئك الذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقا، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم إلى عصرهم، أى بسبب فقدانهم عنصر «المعاصره»، فهم الهامشيون

الذين لا- يقدرّون على التأثير و لا على المعالجه، بل يقفون دوما متأسّفين و متحصّرين و شاكين و منتقدين، و يزداد تشاؤمهم و يأسهم باستمرار حتى يقعوا فى طائمه «الانزواء الاجتماعى».

ذلك لأنهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم و مشكله.

هؤلاء يعيشون فى ظلام مطبق، و بسبب عدم تفهّمهم لأسباب الحوادث و عللها و نتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث و يرتبكون و يخافون و يظّلون دون خطّه للمواجهه و الدفاع، و بما أنّ مسيرتهم فى الظلام فسوف تزلّ قدمهم فى كلّ خطوه، و ما أجمل ما

قاله الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللّوابس».

رساله العلماء فى كلّ عصر أن يدركوا بوعى كامل هذه المسائل...هذه الاحتياجات، و هذا الفراغ الروحى و الفكرى و الاجتماعى، و أن يسعوا لمعالجتها بشكل صحيح كى لا يفسحوا المجال للأطروحات المنحرفه أن تخترق الساحه و تملأ الفراغ و تقدّم الحلول الكاذبه.

من المسائل التى تلمّسناها بوضوح عطش الجيل الراهن لدرك المفاهيم الإسلاميه و المسائل الدينيه-و خلافا لما يردده اليائسون و المتشائمون- إنّ هذا الجيل لا- يتوق إلى الفهم فحسب، بل يتلهف إلى التطبيق العملى لهذه المفاهيم و المسائل، و لمس المعطيات الدينيه من خلال العمل بها.

من الواضح أنّ أمام هذا الجيل التّواق مسائل غامضه و نقاط إبهام و مواضع استفهام كثيره، و الخطوه الاولى لتلبيه هذه الحاجات إعادته كتابه التراث العلمى و الفكرى الإسلامى بلغه العصر، و تقديم كلّ هذه المفاهيم الساميه عن طريق هذه اللغه إلى روح الجيل و عقله.

و الخطوه الاخرى استنباط الاحتياجات و المتطلّبات الخاصه بهذا الزمان

من مبادئ الإسلام العامه.

و هذا التفسير دوّن على أساس هذين الهدفين.

الأمثل بين التفاسير:

واجهنا دوما أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات و خاصه الشباب المتعطش إلى نبع القرآن عن التفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوى ضمنا على بحث عن تفسير يبين عظمه القرآن عن تحقيق لا تقليد،و يجيب على ما فى الساحة من احتياجات و تطّاعات و آلام و آمال...تفسير نافع لكلّ الفئات،و يخلو من المصطلحات العلميه المعقّده.

فى الواقع نحن نفتقر إلى مثل هذا التفسير،فالأسلاف و المعاصرون رضوان الله عليهم كتبوا فى حقل التفسير كثيرا،لكن بعضها كتب قبل عدّه قرون و بأسلوب خاصّ لا- يستفيد منه إلا- العلماء و الأدباء،و بعضها مدوّن بمستوى علمى لا- يدركه سوى الخواصّ،و بعضها تناول جانبا معينا من القرآن،و كأنها باقه ورد اقتطفت من بستان مزدان،فهى قبس من هذا البستان،و ليست البستان...و هكذا.

من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدفّقه علينا جوابا مقنعا يرضى هذه الأرواح المتعطشه التّواقه.فألينا على أنفسنا أن نجيب على هذا السؤال عمليا، فالكلام لا يرضى السائلين.

لكننا وجدنا أنفسنا فى خضمّ الأشغال المتزايدة من جهه،و أمام القرآن...

البحر الذى لا ساحل له...من جهه اخرى،فأتى لنا أن نخوض عبابه دون عدّه و وقت و استعداد فكرى،لذلك وقفنا على ضفاف هذا البحر الموّج ننظر إليه بحسره.

و فجأه هداانا الله إلى الطريق الحلّ، و انقدحت فى الذهن فكره العمل الجماعى، فكان أن اجتمع معنا على الطريق عشره من الفضلاء المخلصين الواعين كانوا حقًا مصداق «عشره كامله» فبذلت المساعى الدائبه ليلًا و نهارًا لتثمر خلال مدّه أقصر ممّا توقّعناها هذا الذى يراه القارئ الكريم.

و لكى لا تبقى نقطه غموض أمام القارئ الكريم نشرح باختصار منهج عملنا فى هذا التفسير.

قسّمت الآيات الكريمه أولًا- فى الفروع المختلفه بين الاخوه و بتوجيه موجّه، و درسوا المصادر المختلفه فى التفسير لكبار المفسرين من علماء الشيعة و أهل السنّه، مثل:

١- مجمع البيان للشيخ الطبرسى. ٢- أنوار التنزيل للقاضى البيضاوى.

٣- الدرّ المنثور لجلال الدين السيوطى. ٤- البرهان للمحدّث البحرانى.

٥- الميزان للعلامة الطباطبائى. ٦- المنار، تقرير دروس للشيخ محمّد عبده.

٧- فى ضلال القرآن للأستاذ سيد قطب. ٨- المراغى لأحمد مصطفى المراغى.

٩- مفاتيح الغيب للفخر الرازى. ١٠- روح الجنان لأبى الفتوح الرازى.

١١- أسباب النزول للواحدى. ١٢- تفسير القرطبى لمحمّد بن أحمد الأنصارى القرطبى. ١٣- روح المعانى للعلامة شهاب الدين الآلوسى.

١٤- نور الثقلين لعبد على بن جمعه الحويزى. ١٥- الصافى للملأ- محسن الفيض الكاشانى. ١٦- التبيان للشيخ الطوسى. و تفاسير اخرى...

ثمّ جمعنا من المفاهيم ما يتناسب مع متطلّبات عصرنا و احتياجاته، و فى الجلسات العامه التى عقدناها يومئذ أضفنا إلى كلّ ذلك المستجدات الضروريه من المعارف القرآنيه، و بعد دراسات و مشاورات حول المباحث المختلفه، و مراجعه المصادر المتنوعه، أمليت تلك البحوث و دوّنها الاخوان بسرعه، ثمّ

راجعنا الكتابات و دققنا فيها بصبر وسعه صدر، و أعددناها للطبع، و بعد الطبع أيضا- و قبل مرمله النشر- أعيد النظر فيها مره اخرى.

و كانت نتيجه هذه الجهود ما يراه القارئ العزيز، و نرجو أن يكون بإذن الله نافعا مفيدا للجميع.

خصائص هذا التفسير:

لكى يرد القراء الأعزاء إلى هذا التفسير برؤيه أوضح، و ليجدوا فيه ما يريدونه بشكل أيسر، نذكر باختصار خصائص هذا التفسير و مزاياه:

١- لمّا كان القرآن «كتاب حياه» فإننا لم نركّز في التفسير- على المسائل الأدبيه و العرفانيه، بل بدلا من ذلك عالجن المسائل الحيويه- الماديّه و المعنويّه- و خاصّه المسائل الاجتماعيه، و سعينا إلى إشباعها بحثا و تحليلا، و خاصّه ما يرتبط من قريب بحياه الفرد و المجتمع.

٢- فى ذيل كلّ آيه تناولنا تحت عنوان «بحوث» المسائل المطروحه فى الآيه بشكل مستقل، كالربا، و الرّق، و حقوق المرأه، و فلسفه الحج، و أسرار تحريم القمار، و الخمر، و لحم الخنزير، و مسائل الجهاد الإسلامى، و أمثالها من الموضوعات، كى يستغنى القارئ عن مراجعه الكتب الاخرى فى هذه المجالات.

٣- عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائده القليله، و أعطينا الأهميه لمعانى الكلمات و أسباب النزول ممّا له تأثير فى الفهم الدقيق لمعنى الآيه.

٤- عرضنا التساؤلات و الشبهات و الاعتراضات المطروحه حول أصول الإسلام و فروعه بمناسبه كلّ آيه، و ذكرنا الجواب عليها باختصار، مثل شبهه الآكل و المأكول، و المعراج، و تعدّد الزوجات، و سبب الاختلاف بين إرث المرأه و الرجل، و ديه المرأه و الرجل، و الحروف المقطعه فى القرآن، و نسخ الأحكام، و الغزوات الإسلاميه، و الاختبارات الإلهيه، و عشرات المسائل الاخرى، كى لا

تبقى آية علامه استفهام عند مطالعه تفسير الآيات.

٥- أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلميه المعقده التي تجعل الكتاب خاصا بفئه خاصه من القراء، ولدى الضروره تناولنا ذلك في هامش الكتاب من أجل استفاده المتخصصين.

نسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا لما فيه رضاه، و يوفق كل العالمين لخدمه كتابه العظيم.

الصّحوه الإسلاميه المعاصره و زياده الحاجه إلى تفسير القرآن:

تشهد أمتنا الإسلاميه خلال هذه الأعوام صحوه إسلاميه عامه، تتمثل في رفض كلّ المستوردات الفكرية، و العوده إلى الإسلام، لإقامه حياتها على أساس أحكام الرساله الخاتمه.

هذه الصّحوه تعود إلى فشل كلّ الأطروحات الوضعيه الكافره في تحقيق ما لوحت به من تقدّميه و تحرّر و سعادته كما تعود أيضا إلى العواطف الإسلاميه المتوغّله في أعماق أبناء الامّه.

و يتحمّل العلماء الواعون في هذه المرحله الحساسه مسؤوليات كبرى تفرض عليهم أن يعمّقوا هذا التحرك الواعي بين صفوف الامّه و يجذّروه و يؤصّلوه، كي تكون المسيره على بصيره في حركتها و على يقظه في اتّخاذ قراراتها، و على ثقته من أنّها تسلك الطريق نحو أهدافها الإسلاميه الكبرى دون زيغ أو انحراف أو التقاط.

و كتاب الله هدى و نور، و فيه الإطار العامّ للمسيره، و فيه الزاد اللازم لمواصله الطريق المستقيم نحو ربّ العالمين.

و أخيرا نشكر جهود العلماء و الفضلاء الذين شاركونا في تأليف هذا التفسير الجليل:

١- الشيخ محمّد رضا الآشتياني.

٢- الشيخ محمّد جعفر الإمامي.

٣- الشيخ داود الإلهامي.

٤- الشيخ أسد الله الإيماني ٥- الشيخ عبد الرسول الحسنى.

٦- السيد حسن الشجاعى.

٧- السيد نور الله الطباطبائى.

٨- الشيخ محمود عبد اللهى.

٩- الشيخ محسن القرائتى.

١٠- الشيخ محمّد محمّدى الإشتهاردى و كذلك نشكر الإخوه الأفاضل الأستاذ محمد على آذرشب، الشيخ محمد رضا آل صادق، الأستاذ خالد توفيق عيسى، السيد محمّد الهاشمى، الأستاذ قصى هاشم فاخر، الأستاذ أسد مولوى، الشيخ مهدي الأنصارى و السيد أحمد القبانجى و الشيخ هاشم الصالحى بمساهماتهم فى تنقيح و إخراج هذا السفر الجليل و داموا مشكورين.

نسأل الله سبحانه أن نكون بهذا التفسير قد ساهمنا فى إعلان كلمه القرآن بشأن واقعنا، و بشأن مستقبلنا، و بشأن ما يجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذى تعيش فيه أمتنا.

و نسأله سبحانه أن يوفّق كلّ العالمين على إعلاء رايه القرآن فى العالم و يسدّد خطاهم و ينصرهم على أعدائهم.

نسأله جلّ و علا أن يوفّق العلماء و المفكرين الواعين الملتزمين إلى قياده هذا التحرك الإسلامى المتصاعد فى كلّ أرجاء العالم الإسلامى، قياده أصيله قائمه على هدى القرآن و السنه.

و نتضرّع إليه أن يوفّقنا لإكمال بقيه أجزاء هذا التفسير و أن يتقبّل من كلّ العاملين عليه فى أى سبيل إنّه تعالى سميع مجيب.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

ناصر مكارم الشيرازى قم- الحوزه العلميه ١٤٠٤ هـ

سوره الحمد

اشاره

مكّيه و عدد آياتها سبع آيات

ص: ١٥

خصائصها:

لهذه السورة مكانه متميزه بين سائر سور القرآن الكريم، و تتميز بالخصائص التاليه:

١-سياق السوره-تختلف سوره الحمد عن سائر سور القرآن فى لحنها و سياقها،فسياق السور الاخرى يعبر عن كلام الله،و سياق هذه السوره يعبر عن كلام عباد الله.و عباره اخرى:شاء الله فى هذه السوره أن يعلم عباده طريقه خطابهم له و مناجاتهم إياه.

تبدأ هذه السوره بحمد الله و الثناء عليه،و تستمر فى إقرار الإيمان بالمبدأ و المعاد«بالله و يوم القيامه»و تنتهى بالتضرع و الطلب.

الإنسان الواعى المتيقظ يحسّ و هو يقرأ هذه السوره بأنه يعرج على أجنحه الملائكه،و يسمو فى عالم الروح و المعنويه،و يدنو باستمرار من ربّ العالمين.

هذه السوره تعبر عن اتجاه الإسلام فى رفض الوسطاء بين الله و الإنسان...

هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزائفه المنحرفه،و تعلم البشر أن يرتبطوا بالله مباشرة دونما واسطه،فهذه السوره عباره عن تبلور هذا الارتباط المباشر و الوثيق بين الله و الإنسان...بين الخالق و المخلوق.فالإنسان لا يرى فى مضامين آيات السوره سوى الله...يخاطبه...يناجيه...يتضرع إليه...دونما واسطه حتى و إن كانت الواسطه نبيا مرسلا أو ملكا مقرّبا. و من العجيب أن يحتلّ

هذا الارتباط المستقيم بين الخالق و المخلوق مكان الصدارة فى كتاب الله العزيز!.

٢-سوره الحمد أساس القرآن-

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصارى: «ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله فى كتابه؟» قال جابر: بلى بأبى أنت و أمى يا رسول الله، علمنيها. فعلمه الحمد أم الكتاب، و قال: هى شفاء من كلّ داء، إلا السام، و السام الموت»

(١)

و روى عنه صلى الله عليه و اله و سلم أيضا أنه قال: «و الذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراه، و لا فى الإنجيل و لا فى الزبور و لا فى القرآن مثلها، و هى أم الكتاب»

(٢)

سبب أهميه هذه السوره يتضح من محتواها، فهى فى الحقيقه عرض لكل محتويات القرآن، جانب منها يختص بالتوحيد و صفات الله، و جانب آخر بالمعاد و يوم القيامه، و قسم منها يتحدّث عن الهدايه و الضلال باعتبارهما علامه التمييز بين المؤمن و الكافر و فيها أيضا إشارات إلى حاكميه الله المطلقه، و إلى مقام ربوبيته، و نعمه اللامتناهيه العامه و الخاصه «الرحمانيه و الرحيميه»، و إلى مسأله العباده و العبوديه و اختصاصهما بذات الله دون سواه.

إنّها تتضمّن فى الواقع توحيد الذات، و توحيد الصفات، و توحيد الأفعال، و توحيد العباده.

و بعباره اخرى: تتضمّن هذه السوره مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، و الإقرار باللسان، و العمل بالأركان. و من المعلوم أنّ لفظ «الأم» يعنى هنا الأساس و الجذر.

و لعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:

ص: ١٨

١-٢، ١) -مجمع البيان، و نور الثقلين، مقدمه سوره الحمد.

«إن لكل شيء أساسا...و أساس القرآن الفاتحه».

و من هذا المنطلق أيضا

قال رسول الله صَلَّى الله عليه و اله و سلم فيما روى عنه: «أيما مسلم قرأ فاتحه الكتاب أعطى من الأجر كأنما قرأ ثلثي القرآن، و أعطى من الأجر كأنما تصدق على كل مؤمن و مؤمنه»

(١)

تعبير «ثلثي القرآن»، ربّما كان إشاره إلى أنّ القرآن ينطوى على ثلاثه أقسام: الدّعوة إلى الله، و الإخبار بيوم الحساب، و الفرائض و الأحكام. و سوره الحمد تتضمن القسمين الأولين. و تعبیر «أمّ القرآن» إشاره إلى القرآن يتلخّص من وجهه نظر اخرى في (الإيمان و العمل) و قد جمعا في سوره الحمد.

٣-سوره الحمد شرف النبي صَلَّى الله عليه و اله و سلم-القرآن الكريم يتحدّث عن سوره الحمد باعتبارها هبه إلهيه لرسوله الكريم، و يقرنها بكل القرآن إذ يقول:

وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

(٢)

فالقرآن بعظمته يقف هنا إلى جنب سوره الحمد، و لأهميه هذه السوره أيضا أنّها نزلت مرّتين.

نفس هذا المضمون

رواه أمير المؤمنين على عليه السّلام عن الرسول صَلَّى الله عليه و اله و سلم قال: «إنّ الله تعالى قال لى يا محمّد و لقد آتيناك سبعا من المثاني و القرآن العظيم، فأفرد الامتان على بفاتحه الكتاب و جعلها بإزاء القرآن العظيم، و إنّ فاتحه الكتاب أشرف ما فى كنوز العرش...»

(٣)

١-١) - مجمع البيان، بدايه سوره الحمد.

٢-٢) - سيأتي تفسير «سبعاً من المثاني» في ذيل الآيه المذكوره. انظر: المجلد الثامن من هذا التفسير، ذيل الآيه ٨٧ من سوره «الحجر».

٣-٣) - تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٦، نقلاً عن تفسير البيان.

٤- التأكيد على تلاوة هذه السورة-مما تقدم نفهم سبب تأكيد السّنة بمصادرنا الشيعية و السنّيه على تلاوة هذه السورة-فتلاوتها تبعث الروح و الإيمان و الصفاء فى النفوس، و تقرب العبد من الله، و تقوى إرادته، و تزيد اندفاعه نحو تقديم المزيد من العطاء فى سبيل الله، و تبعده عن ارتكاب الذنوب و الانحرافات. و لذلك كانت أم الكتاب صاعقه على رأس إبليس كما

ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«رأى إبليس أربع رنّات، أولهنّ يوم لعن، و حين أهبط إلى الأرض، و حين بعث محمّد صلّى الله عليه و اله على حين فتره من الرّسل، و حين نزلت أم الكتاب»

(١)

محتوى السورة:

كلّ واحده من الآيات السبع فى هذه السورة تشير إلى حقيقة هامّة:

بِسْمِ اللَّهِ... بدايه لكلّ عمل، و تعلّمنا الاستمداد من البارى تعالى لدى البدء بأى عمل.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ درس فى عوده كلّ نعمه و رعايه إلى الله تعالى، و إلفات إلى حقيقة انطلاق كلّ هذه المواهب من ذات الله تعالى.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ تبين هذه الحقيقة، و هى: إنّ خلق الله و رعايته و حاكميته تقوم على أساس الرّحمه و الرّحمانيه، و هذا المبدأ يشكّل المحور الأساس لنظام رعايه العالم.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ استحضار للمعاد و يوم الجزاء، و لحاكميه الله على تلك

ص: ٢٠

المحكمه الكبرى.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ تَبَيَّنَ التَّوْحِيدَ فِي الْعِبَادَةِ، وَالتَّوْحِيدَ فِي الْاِسْتِعَانَةِ بِالْأَسْبَابِ.

إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ تَوْضُّحَ حَاجَةِ الْعِبَادِ وَرَغْبَتِهِمُ الشَّدِيدَةَ لِلْهَدَايَةِ، وَتَوْكُّدَ حَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ أَلْوَانِ الْهَدَايَةِ إِنَّمَا تَصْدُرُ مِنْهُ تَعَالَى.

وَآخِرُ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَرْسُمُ مَعَالِمَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَتَمَيِّزُ بَيْنَ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَصِرَاطِ الَّذِينَ ضَلُّوا وَالَّذِينَ اسْتَحَقُّوا غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَیُمْكِنُ تَقْسِيمُ هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ مَنَظَارٍ آخَرَ إِلَى قَسْمَيْنِ: قَسْمٌ يَخْتَصُّ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَقَسْمٌ يَتَضَمَّنُ حَاجَاتِ الْعَبْدِ.

وَإِلَى هَذَا التَّقْسِيمِ يَشِيرُ

الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَنَصَفْتُهَا لِي وَنَصَفْتُهَا لِعَبْدِي وَ لِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

إِذَا قَالَ الْعَبْدُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: بَدَأَ عَبْدِي بِاسْمِي وَحَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَتَمِّمَ لَهُ أُمُورَهُ وَأُبَارِكُ لَهُ فِي أَحْوَالِهِ.

فَإِذَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: حَمَدَنِي عَبْدِي وَعَلِمَ أَنَّ النِّعْمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَأَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ فَبَطَّوْلِي، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَضِيفُ لَهُ إِلَى نِعْمِ الدُّنْيَا نِعْمَ الْآخِرَةِ، وَأُدْفَعُ عَنْهُ بَلَايَا الْآخِرَةِ كَمَا دَفَعْتُ عَنْهُ بَلَايَا الدُّنْيَا.

وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: شَهِدَ لِي عَبْدِي أَنِّي الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، أَشْهَدُكُمْ لِأَوْفَرِّ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَ لِأَجْزَلِّ مِنْ عَطَائِي نَصِيبِهِ.

فَإِذَا قَالَ: مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَشْهَدُكُمْ كَمَا اعْتَرَفَ بَأَنِّي أَنَا مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ لِأَسْهَلَنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ حِسَابَهُ، وَ لِأَتَقَبَّلَنَّ حَسَنَاتِهِ، وَ لِأَتَجَاوِزَنَّ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

فَإِذَا قَالَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عَبْدِي، إِيَّايَ يَعْبُدُ أَشْهَدُكُمْ لِأَثْبِينَهُ

على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه في عبادته لى.

فإذا قال: **وَإِيَّاكَ نَشِيتَعِينُ** قال الله تعالى: بى استعان عبدى، و إلى التجأ، أشهدكم لأعينته على أمره، و لأغيثته فى شدائده و لآخذن بیده يوم نوائبه.

فإذا قال: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** إلى آخر السوره قال الله عزّ و جلّ: هذا لعبدى و لعبدى ما سأل و قد استجبت لعبدى و أعطيته ما أمّل و آمنته ممّا منه و جلّ» (١).

لماذا سميت فاتحه الكتاب؟

«فاتحه الكتاب» اسم اتخذته هذه السوره فى عصر رسول الله صلى الله عليه و اله و سلّم، كما يبدو من الأخبار و الأحاديث المنقوله عن النبى الأعظم صلى الله عليه و اله و سلّم.

و هذه المسأله تفتح نافذه على مسأله مهمه من المسائل الإسلاميه، و تلقى الضوء على قضيه جمع القرآن، و توضّح أنّ القرآن جمع بالشكل الذى عليه الآن فى زمن الرسول صلى الله عليه و اله و سلّم، خلافا لما قيل بشأن جمع القرآن فى عصر الخلفاء، فسوره الحمد ليست أول سوره فى ترتيب النزول حتى تسمى بهذا الاسم و لا يوجد دليل آخر لذلك، و تسميتها بفاتحه الكتاب يرشدنا إلى أنّ القرآن قد جمع فى زمن الرسول صلى الله عليه و اله و سلّم بهذا الترتيب الذى هو عليه الآن.

و ثمّه أدله اخرى تؤيد حقيقه جمع القرآن بالترتيب الذى بأيدينا اليوم فى عصر الرسول صلى الله عليه و اله و سلّم و بأمره.

روى على بن إبراهيم، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ رسول الله صلى الله عليه و اله و سلّم قال لعلى عليه السلام:

«يا على، إنّ القرآن خلف فراشى فى الصحف و الحرير و القراطيس، فخذوه و اجمعوه

ص: ٢٢

و لا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التّوراه، وانطلق عليّ عليه السّلام فجمعه في ثوب أصفر، ثمّ ختم عليه»

(١)

و يروى (الخوارزمي) في المناقب عن (علي بن رباح) أنّ علي بن أبي طالب و أبيّ بن كعب جمعا القرآن في عصر رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم.

و روى (الحاكم) في (المستدرک) عن (زيد بن ثابت) قال: «كنا نؤلف القرآن من الرّقاع».

و يقول العالم الجليل السيد المرتضى رحمه الله: «إنّ القرآن كان على عهد رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن» (٢).

و يروى الطبراني و ابن عساکر عن الشعبي أنّ القرآن جمعه سته من الأنصار في عصر النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم (٣).

و يروى قتاده أنّه سأل أنس عن جمع القرآن في عصر النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم فقال:

أربعة من الأنصار هم: أبيّ بن كعب، و معاذ، و زيد بن ثابت، و أبو زيد (٤) و هناك روايات اخرى يطول ذكرها.

على أيّ حال، اتّخذ سورة الحمد اسم (فاتحه الكتاب) دليل واضح على إثبات هذه المسألة، إضافة إلى الأدلة الاخرى المستفيضة في مصادر الشيعة و السنّه.

سؤال:

و هنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم.

و في الجواب نقول: ما روى بشأن جمع القرآن على يد الامام عليّ عليه السّلام بعد

ص: ٢٣

١-١) -تاريخ القرآن، أبو عبد الله الزنجاني، ص ٤٤.

٢-٢) -مجمع البيان، ج ١، ص ١٥.

٣-٣) -منتخب كنز العمال، ج ٢، ص ٥٢.

٤-٤) -صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠٢.

عصر الرسول، لم يكن القرآن وحده، بل مجموعه تتضمن القرآن و تفسيره و أسباب نزول الآيات، و ما شابه ذلك ممّا يحتاجه الفرد لفهم كلام الله العزيز.

و أمّا ما فعله عثمان في هذا الصدد، فتدلّ القرائن أنّه أقدم على كتابه قرآن واحد عليه علامات التلاوه و الإعجام، منعا للاختلاف في القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولا به حتى ذلك الوقت.

و ما نراه من إصرار لدى جماعه على عدم جمع القرآن في عصر رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم، و على نسبه هذا الأمر للخليفه عثمان أو للخليفه الأول أو الثاني، فإنّما يعود إلى ظروف و ملابسات و عصبيات تأريخيه لسنا بصددها الآن.

و إذا رجعنا إلى استقصاء طبيعه الأشياء في مجال جمع القرآن، ألفينا أنّه من غير المعقول أن يترك النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم هذه المهمّه الكبيره، بينما نجده يهتم بدقائق الأمور المرتبطه بالرساله.

أليس القرآن دستور الإسلام، و كتاب هدايه البشريه، و أساس عقائد الإسلام و أحكامه؟ أليس من الممكن أن يتعرّض القرآن- إن لم يجمع- في عصر الرسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم إلى الضياع، و إلى الاختلاف فيه بين المسلمين؟! (حديث الثقلين) المروى في المصادر الشيعيه و السنّيه، حيث أوصى رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم بوديعة: كتاب الله و عترته، يؤكّد أيضا أن القرآن كان قد جمع في مجموعه واحده في عصر الرسول الأعظم.

أمّا اختلاف الروايات في عدد الصحابه الذين جمعوا القرآن خلال عصر النّبي فلا يشكّل عقبه في البحث، و من الممكن أن تتّجه كلّ روايه إلى ذكر عدد منهم.

الآيات [سوره الفاتحه (1): الآيات ١ الى ٧]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

التفسير

اشاره

١- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمه باسم كبير من رجالها. و الحجر الأساس لكل مؤسسه هامه يوضع باسم شخصيه مرموقه فى نظر أصحابها، أى أن أصحاب المؤسسه يبدأون العمل باسم تلك الشخصيه.

و لكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل فى اطروحه أريد لها البقاء و الخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكل ما فى الكون يتجه إلى الزوال و الفناء، إلا ما كان مرتبطا بالذات الأبدية الخالده... ذات الله سبحانه.

إنّ خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم بالله و بالقيم الإنسانيه الإلهيه الخالده كالعده و طلب الحقيقه، و خلود اسم رجل فى التاريخ مثل (حاتم الطائي)، يعود إلى ارتباطه بواحد من تلك القيم هي (السخاء).

صفه الخلود و الأبدية يختص بها الله تعالى من بين سائر الموجودات، و من هنا ينبغي أن يبدأ كل شيء باسمه و تحت ظله و بالاستمداد منه. و لذلك كانت البسملة أول آية في القرآن الكريم.

و البسملة لا ينبغي أن تنحصر في اللفظ و الصورة، بل لا بد أن تتعدى ذلك إلى الارتباط الواقعي بمعناها، و هذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح و يصون من الانحراف، و يؤدي حتما إلى نتيجة مطلوبة مباركة. لذلك

جاء في الحديث النبوي الشريف: «كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو أبترا» (١).

و أمير المؤمنين عليه السلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف قال: «إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملا- فيقول بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يبارك فيه» (٢).

و يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام:

«... و ينبغي الإتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه» (٣).

بعبارة موجزة: بقاء العمل و خلوده يتوقف على ارتباطه بالله.

من هنا كانت الآية الأولى التي أنزلها الله على نبيه الكريم تحمل أمرا لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم الله: إقرأ باسم ربك... (٤).

و لذلك أيضا فإن نوحا عليه السلام- حين يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، و يمخر عباب الأمواج الهادره، و يواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه- يطلب من أتباعه أن يرددوا البسملة في حركات السفينة و سكناتها. و قال ازكبوا فيها بسم الله مجراها و مرساها (٥). و انتهت هذه السفرة المليئة بالأخطار بسلام و بركة كما يذكر القرآن الكريم:

ص: ٢٤

١-١) -بحار الأنوار، ج ١٦، باب ٥٨. نقلا عن تفسير البيان، ج ١، ص ٤٦١.

٢-٢) -بحار الأنوار، مجلد ٩٢، باب ٢٩، ص ٢٤٢.

٣-٣) -الميزان، ج ١، ص ٢١.

٤-٤) -العلق، ١.

٥-٥) -هود، ٤١.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ

(١)

و سليمان عليه السّلام يبدأ رسالته إلى ملكه سبأ بالبسملة: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ... (٢).

و انطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كلّ سور القرآن بالبسملة، كي يتحقّق هدفها الأصيل المتمثل بهدايه البشريه نحو السعادة، و يحالفها التوفيق من البدايه إلى ختام المسيره.

و تنفرد سوره التوبه بعدم بدئها بالبسملة، لأنها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكه و ناكثى الأيمان، و إعلان الحرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

تجدر الإشارة إلى أنّ البسملة تقتصر على صيغه «بسم الله» و لا تقول فيها:

باسم الخالق أو باسم الرزاق و ما شابهها من الصيغ. و السبب يعود إلى أنّ كلمه (الله) -كما سيأتى- جامعها لكلّ أسماء الله و صفاته. أمّا الأسماء الاخرى لله فتشير إلى قسم من كمالاته كالرحمه و الخالقيه.

اتضح ممّا سبق أيضاً أنّ قولنا: «باسم الله» فى بدايه كلّ عمل يعنى «الاستعانه» بالله، و يعنى أيضاً «البدء» باسم الله. و هذان المعنيان يعودان إلى أصل واحد، و إن عمد بعض المفسرين إلى التفكيك بينهما و تقدير كل واحد منهما فى الكلام.

فالمعنيان متلازمان، أى: أبدأ باسم الله و أستعين بذاته المقدّسه.

و طبيعى أنّ البدء باسم الله الذى تفوق قدرته كل قدره، يبعث فىنا القوه، و العزم، و الثقه، و الاندفاع، و الصمود و الأمل أمام الصعاب و المشاكل، و الإخلاص و النزاهه فى الحركه.

ص: ٢٧

(١ - ١) - هود، ٤٨.

(٢ - ٢) - النمل، ٣٠.

و هذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الأعمال باسم الله.

مهما أطلنا الحديث في تفسير هذه الآية فهو قليل، فالمعروف عن عليّ عليه السّلام أنّه بدأ يفسّر لابن عباس آية البسملة في أول الليل، فأسفر الصبح و هو لم يتجاوز تفسير الباء منها، غير أنّنا ننهي البحث بحديث عنه عليه السّلام، و ستكون لنا بحوث أخرى في هذا الصدد خلال بحوثنا القادمة.

دخل عبد الله بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السّلام و بين يديه كرسيّ فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه فمال به حتّى سقط على رأسه فأوضح عن عظم رأسه و سال الدّم، فأمر أمير المؤمنين عليه السّلام بماء فغسل عنه ذلك الدّم ثمّ قال: أدن منّي، فوضع يده على موضحته... «أما علمت أنّ رسول الله حدّثني عن الله جلّ و عزّ: كلّ أمر ذي بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أبترا؟» فقلت: بلى بأبي أنت و أمّي لا أتركها بعدها، قال: «إذا تحظى بذلك و تسعد» (١).

و

قال الصادق عليه السّلام: «و لربّما ترك في افتتاح أمر بعض شيعتنا بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنه الله بمكروه ليتّبهه على شكر الله تعالى و الثناء عليه و يمحو فيه عنه و صمه تقصيره عند تركه قول بسم الله» (٢).

بحوث

إشارة

١- هل البسملة جزء من السّورة؟

أجمع علماء الشيعة على أنّ البسملة جزء من سورة الحمد و كلّ سور القرآن، و كتابتها في مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآني مصون عن أيّ إضافة، و ذكر البسملة معمول به منذ زمن النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم.

ص: ٢٨

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٩٢، الباب ٢٩، ص ٢٤١ و ٢٤٢.

٢- ٢) -نفس المصدر، ص ٢٤٠.

أما علماء السنّه فاختلفوا فى ذلك، و صاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلى:

«أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن و أنها جزء آيه من سورة النمل. و اختلفوا فى مكانها من سائر السور، فذهب إلى أنها جزء آيه من كل سورة علماء السلف من أهل مكه-فقهاؤهم و قراؤهم- و منهم: ابن كثير. و أهل الكوفه و منهم عاصم و الكسائى من القراء، و بعض الصحابه و التابعين من أهل المدينه، و الشافعى فى الجديد و أتباعه، و الثورى و أحمد فى أحد قوليه، و الإماميه، و من مروى عنهم ذلك من علماء الصحابه على و ابن عباس و ابن عمر و أبو هريره، و من علماء التابعين سعيد بن جبير و عطاء و الزهرى و ابن المبارك. و أقوى حججهم فى ذلك إجماع الصحابه و من بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءه(التوبه) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه.

و لذلك لم يكتبوا(آمين) فى آخر الفاتحه...».

ثم ينقل عن مالك و الحنفية و آخرين، أنهم ذهبوا إلى أن البسملة آيه مستقله نزلت لبيان رؤوس السور و الفصل بينها.

و عن حمزه من قراء الكوفه و أحمد«الفقيه السنّى المعروف» أنها من الفاتحه دون غيرها من سور القرآن (1).

و من مجموع ما ذكر استفاد أن الأكتريه الساحقه من أهل السنه يرون أن البسملة جزء من السوره كذلك.

نقل هنا طائفه من الروايات المنقوله فى هذا الصدد بطرق الشيعه و السنه، و بالقدر الذى يتناسب مع هذا البحث التفسيرى:

-1

عن معاويه بن عمّار قال: قلت لأبى عبد الله عليه السّلام: إذا قمت للصّلاه أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فى فاتحه القرآن؟ قال: «نعم» قلت: فإذا قرأت فاتحه القرآن أقرأ بسم الله

ص: ٢٩

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مع السُّورَةِ؟ قال: «نعم» (١).

٢- ما

أخرجه الدار قطنى بسند صحيح عن علي عليه السلام: «أنه سئل عن السبع المثاني، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقيل له: إنما هي ست آيات فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آية» (٢).

٣-

روى البيهقي بسنده عن ابن جبير، عن ابن عباس، قال: «استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (إشارة إلى شيوع عدم قراءتها في مطالع السور) (٣).

أضف إلى ذلك، أن سيره المسلمين جرت دوما على قراءه البسملة في مطالع السور لدى تلاوه القرآن، و ثبت بالتواتر قراءه النبي لها. و كيف يمكن أن تكون أجنيبه عن القرآن و النبي و المسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن؟! و أما ما ذهب إليه بعضهم من احتمال أن البسملة آية مستقلة و ليست جزء من سور القرآن، فهو احتمال واه ضعيف، لأن مفهوم البسملة يشعر ببدايه العمل، و لا يفصح عن معنى منفصل مستقل.

و في اعتقادنا أن الإصرار على فصل البسملة عن السور تعصّب لا مبرر له، و لا ينهض عليه دليل، في حين أن مضمونها مسفر عن أنها بدايه لما بعدها من الأبحاث.

يبقى إيراد واحد، هو أن البسملة لا تحتسب في عدد آيات سور القرآن (عدا بسملة سورة الحمد)، بل يبدأ العدد من الآية التاليه للبسملة.

و الجواب على ذلك ما ذكره (الفخر الرازي) في تفسيره الكبير، إذ قال: لا

ص: ٣٠

١- ١) - الكافي، ج ٣، ص ٣١٢.

٢- ٢) - الإتيان، مجلد ١، ص ١٣٦. نقلا عن البيان، ص ٤٤١.

٣- ٣) - البيهقي، ج ٢، ص ٥٠.

يمنع أن تكون البسملة لوحدها آية في سورة الحمد، وأن تكون جزء من الآيه الأولى في سائر سور القرآن (أى أن مطلع سورة الكوثر مثلاً: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ يُعْتَبَرُ كُلُّ آيَةٍ وَاحِدَةً).

والمسألة-على أى حال-واضحة إلى درجة كبيرة حتى روى: أن معاوية صلى بالناس فى فتره حكومته فلم يقرأ البسملة، فصاح جمع من المهاجرين والأنصار بعد الصلاة: أسرقت أم نسيت؟ (١).

٢- لفظ الجلاله جامع لصفاته تعالى:

كلمه (اسم) أول ما تطالعنا فى البسملة من كلمات، و هو فى رأى علماء اللغه من (السمو) على وزن (العلو)، و معناه الارتفاع، و يفهم أن الشىء بعد التسميه يخرج من مرحله الخفاء إلى مرحله البروز و الظهور و الرقى، أو إنه يرتفع بالتسميه عن مرحله الإهمال و يكتسب المعنى و العلو (٢).

بعد كلمه الاسم نلتقى بكلمه (الله) و هى أشمل أسماء رب العالمين فكل اسم ورد لله فى القرآن الكريم و سائر المصادر الإسلاميه يشير إلى جانب معين من صفات الله. و الاسم الوحيد الجامع لكل الصفات و الكمالات الإلهيه أو الجامع لكل صفات الجلال و الجمال هو (الله).

و لذلك اعتبرت بقيه الأسماء صفات لكلمه (الله) مثل: (الغفور) و (الرحيم) و (السميع) و (العليم) و (البصير) و (الرزاق) و (ذو القوة) و (المتين) و (الخالق).

ص: ٣١

١- ١) - البيهقى، ج ٢، ص ٤٩. و الحاكم فى المستدرک، ج ١، ص ٢٣٣.

٢- ٢) - ذهب بعضهم إلى أن (الاسم) من (السمه) على وزن (الهبه) من ماده (وسم) أى وضع علامه. لان الاسم علامه المعنى. و لكن أكثر علماء اللغه رفضوا هذا الاشتقاق، لأنه من الواضح أن الجذور الاصليه للكلمه تظهر عند الجمع و التصغير فالواو لا تظهر فى الجمع و التصغير (كما تظهر فى المثال الواوى عاده) فنقول فى الجمع أسماء، فى التصغير، سَمَى، و سَمِيَهُ فهو إذن ناقص واوى لا مثال واوى.

□
كلمه(الله)هي وحدها الجامعه،و من هنا اتّخذت هذه الكلمه صفات عديده فى آيه كريمه واحده،حيث يقول تعالى: هُوَ اللهُ
الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ (١) أحد شواهد جامعيه هذا الاسم أنّ الإيمان و
التوحيد لا- يمكن إعلانه إلاّ بعبارته(لا إله إلاّ الله)،و عبارته(لا إله إلاّ القادر...أو إلاّ الخالق...أو إلاّ الرزّاق)لا تفى بالغرض. و لهذا
السبب يشار فى الأديان الاخرى إلى معبود المسلمين باسم (الله)فهذه التسميه الشامله خاصه بالمسلمين.

٣- الرحمة الإلهيه الخاصه و العامه:

المشهور بين جماعه من المفسّرين أنّ صفه(الرحمن)تشير إلى الرحمة الإلهيه العامه،و هى تشمل الأولياء و الأعداء،و المؤمنين و
الكافرين،و المحسنين و المسيئين،فرحمته تعم المخلوقات،و خوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات،و كلّ العباد يتمتعون
بموهبه الحياه،و ينالون حظهم من مائه نعمه اللامتناهيه.و هذه هى رحمته العامه الشامله لعالم الوجود كافه و ما تسبّح فيه من
كائنات.

و صفه(الرحيم)إشاره إلى رحمته الخاصه بعباده الصالحين المطيعين،قد استحقوها بإيمانهم و عملهم الصالح،و حرم منها
المنحرفون و المجرمون.

الأمر الذى يشير إلى هذا المعنى أنّ صفه(الرحمن)ذكرت بصوره مطلقه فى القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها،لكن
صفه(الرحيم)ذكرت أحيانا مقيدده، لدلالاتها الخاصه،كقوله تعالى: وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٢) و أحيانا اخرى مطلقه

كما في هذه السورة.

و في روايه عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «و الله إله كلّ شيء الرّحمن بجميع خلقه، الرّحيم بالمؤمنين خاصّه» (١).

من جهه اخرى، كلمه (الرحمن) اعتبروها صيغه مبالغه، و لذلك كانت دليلا آخر على عموميه رحمته. و اعتبروا (الرحيم) صفه مشبّهه تدلّ على الدوام و الثبات، و هي خاصه بالمؤمنين.

و ثمّه دليل آخر، هو إنّ (الرحمن) من الأسماء الخاصه بالله، و لا- تستعمل لغيره، بينما (الرحيم) صفه تنسب لله و لعباده. فالقرآن وصف بها الرسول الكريم، حيث قال: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢).

و إلى هذا المعنى

أشار الإمام الصادق عليه السّلام، فيما روى عنه: «الرّحمن اسم خاصّ بصفه عامّه، و الرّحيم عامّ بصفه خاصّه» (٣).

و مع كل هذا، نجد كلمه (الرحيم) تستعمل أحيانا كوصف عام. و هذا يعنى أن التمييز المذكور بين الكلمتين إنما هو في جذور كل منهما، و لا يخلو من استثناء.

في دعاء عرفه- المنقول عن الحسين بن علي عليه السّلام- وردت عبارته: «يا رحمن الدّنيا و الآخره و رحيمهما».

نختتم هذا الموضوع بحديث عميق المعنى،

عن رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم قال: «إنّ لله عزّ و جلّ مائه رحمه، و إنّهُ أنزل منها واحده إلى الأرض، فقسيدها بين خلقه، بها يتعاطفون و يتراحمون، و آخر تسعا و تسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة» (٤).

ص: ٣٣

١-١) -الكافي، و توحيد الصدوق، و معانى الأخبار (نقلا عن الميزان).

٢-٢) -التوبه، ١٢٨.

٣-٣) -مجمع البيان، ج ١، ص ٢١.

٤-٤) -نفس المصدر.

لم لم ترد بقيه صفات الله في البسملة؟ في البسملة ذكرت صفتان لله فقط هما: الرحمانيه و الرحيميه، فما هو السبب؟ الجواب يتضح لو عرفنا أن كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفه تعم آثارها جميع الكون و تشمل كل الموجودات، و تنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسه.

هذه حقيقه يوضّحها القرآن إذ يقول: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (١)، و يقول على لسان حمله العرش: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً (٢).

و من جانب آخر نرى الأنبياء و أتباعهم يتوسّلون برحمه الله في المواقف الشديده الحاسمه. فقوم موسى تضرّعوا إلى الله أن ينقذهم من تجرّ فرعون و ظلمه، و توسّلوا إليه برحمته فقالوا: وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ (٣).

و بشأن هود و قومه، يقول القرآن: فَأَنْجِنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا (٤).

من الطبيعي أننا حين نتضرّع إلى الله-نناديه بصفات تتناسب مع تلك الحاجه، فعيسى عليه السلام حين يطلب من الله مائده من السماء، يقول: اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ... وَ ارزُقْنَا وَ اَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥).

و نوح عليه السلام يدعو الله في حط رحاله: رَبِّ اَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَ اَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٦).

و زكريا نادى ربّه لدى طلب الولد الوارث قال: رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَ اَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٧).

ص: ٣٤

١-١ - الأعراف، ١٥٦.

٢-٢ - المؤمن، ٧.

٣-٣ - يونس، ٨٦.

٤-٤ - الأعراف، ٧٢.

٥-٥ - المائده، ١١٤.

٦-٦ - المؤمنون، ٢٩.

٧-٧ - الأنبياء، ٨٩.

للبدء بأي عمل ينبغي -إذن- أن نتوسّل برحمة الله الواسعة، رحمته العامه و رحمته الخاصه. و هل هناك أنسب من هذه الصفه لتحقق النجاح في الأعمال، و للتغلب على المشاكل و الصعاب؟! و القوه التي تستطيع أن تجذب القلوب نحو الله و تربطها به هي صفه الرحمه، إذ لها طابعها العام مثل قانون الجاذبيه، ينبغي الاستفادة من صفه الرحمه هذه لتوثيق العرى بين المخلوقين و الخالق.

المؤمنون الحقيقيون يطهرون قلوبهم بذكر البسمله في بدايه كلّ عمل من كل علقه و ارتباط، و يرتبطون بالله وحده و يستمدون منه العون، و يتوسلون إليه برحمته التي وسعت كلّ شيء.

و البسمله أيضا تعلّمنا أنّ أفعال الله تقوم أساسا على الرحمه، و العقاب له طابع استثنائي لا ينزل إلا في ظروف خاصه،

كما نقرأ في الأدعيه المرويّه عن آل بيت رسول الله: «يا من سبقت رحمته غضبه» (١).

المجموعه البشريه السائره على طريق الله ينبغي أن تقيم نظام حياتها على هذا الأساس أيضا، و أن تقرن مواقفها بالرحمه و المحبه، و أن تترك العنف إلى المواضع الضروريه، «١٣» سورة من مجموع «١١٤» سورة قرآنيه تبدأ بالتأكيد على رحمة الله، و سورة التوبه وحدها تبدأ بإعلان الحرب و العنف بدل البسمله.

ص: ٣٥

اشاره

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

التفسير

اشاره

العالم مغمور في رحمته

بعد البسملة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، و نعمه اللامتناهيه، هذه النعم التي تحيطنا و تغمر وجودنا، و تهدينا إلى معرفه الله من جهه، و تدفعنا على طريق العبوديه من جهه اخرى.

و عند ما نقول أن النعم تشكّل دافعا و محرّكا على طريق العبوديه، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمه حينما تصله النعمه، و مفطور على أن يشكر المنعم على أنعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون في بحوثهم الأوليه لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمرا فطريا و عقليا دافعا إلى معرفه الله سبحانه.

و إنما قلنا إن النعم تهدينا إلى معرفه الله، لأن أفضل طريق و أشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسته أسرار الخليقه، و خاصه ما يرتبط بوجود النعم في حياه الإنسان.

مما تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارته الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و لفهم عمق هذه العبارة و عظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و «المدح» و «الشكر» و النتائج المترتبة على ذلك:

١- «الحمد» فى اللغة: الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبه عن اختيار، أى حينما يؤدى شخص عملاً طيباً عن وعى، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإننا نحمده و نشئ عليه.

و «المدح» هو الثناء بشكل عام، سواء كان لأمر اختياري أو غير اختياري، كمدحنا جوهره ثمينه جميله. و مفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص.

أما مفهوم «الشكر» فأخص من الاثنين، و يقتصر على ما نبديه تجاه نعمه تغدق علينا من منعم عن إختيار (١) .

و لو علمنا أنّ الألف و اللام فى (الحمد) هى لاستغراق الجنس، لعلمنا أنّ كل حمد و ثناء يختص بالله سبحانه دون سواه.

ثناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه تعالى، لأنّ مواهب الواهبين كالأنبياء فى هدايتهم للبشر، و المعلمين فى تعليمهم، و الكرماء فى بذلهم و عطائهم، و الأطباء فى علاجهم للمرضى و تطبيبتهم للمصابين، إنّما هى فى الأصل من ذاته المقدسه. و بعبارة اخرى: حمد هؤلاء هو حمد لله، و الثناء عليهم ثناء على الله تعالى.

و هكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، و السحب بأقطارها، و الأرض ببركاتها، كلّ ذلك منه سبحانه، و لذلك فكّل الحمد له.

و بكلمه أخرى: جملة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إشارة إلى توحيد الذات، و الصفات، و الأفعال (تأمل بدقه).

ص: ٣٧

١ - ١) - «الشكر»، من وجهه نظر اخرى أوسع إطاراً، لأنّ الشكر يؤدى بالقول أحياناً و بالعمل اخرى. أمّا الحمد و المدح فبالقول غالباً.

٢- وصف (اللهم) بأنه (رب العالمين) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء، و كأن سائلا- يقول: لم كان حمد لله؟ فيأتي الجواب: لأنه (رب العالمين).

و في موقع آخر يقول القرآن عن الباري سبحانه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ... (١).

و يقول أيضا: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (٢).

٣- يستفاد من (الحمد) أن الله سبحانه واهب النعم عن إرادته و إختيار، خلافا لأولئك القائلين إن الله تعالى مجبر على أن يفيض بالعباد كالشمس!! ٤- جدير بالذكر أن الحمد ليس بدايه كل عمل فحسب، بل هو نهايه كل عمل أيضا كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه عن أهل الجنة: دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣).

٥- أما كلمه «رب» ففي الأصل بمعنى مالك و صاحب الشيء الذي يهتم بتربيته و إصلاحه. و كلمه «ربييه» و هى بنت الزوجه، و مأخوذه من هذا المفهوم للكلمه. لأن الربييه تعيش تحت رعايه زوج أمها.

و الكلمه بلفظها المطلق تعنى رب العالمين، و إذا أطلقت على غير الله لزم أن تضاف، كأن نقول: رب الدار، و رب السفينه (٤).

و ذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، و هو السيد المطاع، و لكن لا يبعد أن يعود المعنيان إلى أصل واحد (٥).

٦- كلمه «عالمين» جمع «عالم»، و العالم: مجموعه من الموجودات المختلفه

ص: ٣٨

١- ١) - السجده، ٧.

٢- ٢) - هود، ٦.

٣- ٣) - يونس، ١٠.

٤- ٤) - قاموس اللغة، و مفردات الراغب، و تفسير مجمع البيان، و تفسير البيان.

٥- ٥) - لا بد من الالتفات إلى أن (رب) من ماده (رب) لا من (ربو)، أى إنه مضاعف لا ناقص.

ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان و مكان مشتركين، كأن نقول:عالم الإنسان، و عالم الحيوان، و عالم النبات. أو نقول عالم الشرق و عالم الغرب، و عالم اليوم، و عالم الأمس. فكلمه العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، و حين تجمع بصيغه «عالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

و يلفت النظر هنا أن كلمه عالم جمعت هنا جمعا مذكرا سالما، و نعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل فى العاقل عادة، و من هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن كلمه «عالمين» إشاره إلى المجموعات العاقله فى الكون كالبشر، و الملائكته، و الجن، و لكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أى لتغليب المجموعات العاقله على غير العاقله.

٧- يقول صاحب المنار: (و)

يؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن المراد ب(العالمين) الناس فقط (١).

ثم يضيف: و قد وردت كلمه (العالمين) فى القرآن الكريم أيضا بهذا المعنى كقوله: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (٢).

و لكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (عالمين) فى القرآن، لرأينا أن هذه الكلمه وردت فى كثير من الآيات بمعنى بنى الإنسان، بينما وردت فى مواضع اخرى بمعنى أوسع يشمل البشر و سائر موجودات الكون الاخرى، كقوله تعالى:

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(٣)

و كقوله سبحانه: قَالَ فِرْعَوْنُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا (٤).

و

عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى تفسير (رب العالمين) قال: «رب العالمين هم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات و الحيوانات» (٥).

ص: ٣٩

١-١) - المنار، ج ١، ص ٥١.

٢-٢) - الفرقان، ١.

٣-٣) - الجاثية، ٣٦.

٤-٤) - الشعراء، ٢٣ و ٢٤.

٥-٥) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٧.

كلمه عالمين يمكن فهمها فى إطارها الكونى الأوسع، و يمكن فهمها فى إطار عالم (الإنسان) - كما

ورد فى روايه الإمام زين العابدين عليه السلام، لأن الكائن البشرى أشرف المخلوقات، ولأنّ الإنسان هو الهدف الأساس من هذه المجموعه الكبرى و ليس بين الفهمين أى تناقض.

٨- جدير بالذكر أن هناك من قسّم العالم إلى: عالم صغير و عالم كبير، و المقصود من العالم الصغير هو الإنسان، لأنه لوحده ينطوى على مجموعته من نفس القوى المتحكمه فى هذا الكون الفسيح. و الإنسان - فى الواقع - عيئته مصغره لكل هذا العالم.

الذى دعانا إلى التوسّع فى مفهوم كلمه (العالم) هو أن عبارته «ربّ العالمين» جاءت و كأنّها دليل على عبارته (الحمد لله)، أى أننا نقول فى سوره الفاتحه: إن الحمد مختص بالله تعالى لأنه صاحب كل كمال و نعمه و موهبه فى العالم.

بحثان

اشاره

١- رفض الآلهه:

شهد التاريخ البشرى ألوان الانحرافات عن خط التوحيد، و الصفه البارزه فى هذه الانحرافات هو الاعتقاد بوجود آلهه متعدده لهذا العالم، و فكره التعدد انطلقت من ضيق نظره أصحابها الذين راحوا يعينون لكل جانب من جوانب الكون و الحياه إلهًا، و كأنّ ربوبيته العالمين لا - يمكن إناطتها لمصدر واحد!! و راحت بعض الأمم تصنع الآلهه لأمور جزئيه كالحب و العقل و التجاره و الحرب و الصيد.

اليونانيون مثلا كانوا يعبدون اثنتى عشره الهه و وضعوها على قمه (أولمپ)

و كل واحده منها تمثل جانبا من صفات البشر!! (١).

و الكلدانيون اعتقدوا بإله الماء و إله القمر و إله الشمس و إله الزهره، و أطلقوا على كل واحد منها اسما معيناً، و اتخذوا فوق ذلك «مردوخ» إلهها أكبر لهم.

و الروم تعددت آلهتهم أيضاً، و راج سوق الشرك عندهم أكثر من أية أمه أخرى. فقد قسموا الآلهه إلى مجموعتين: آلهه الأسره و آلهه الحكومه. و لم يكونوا يكونون ولاء لآلهه الحكومه، (لعدم ارتياحهم من حكومتهم!).

و قد ورد فى التاريخ أن الروم اتخذوا لهم ثلاثين ألف إله حتى قال أحد رجالهم مازحاً: إن عدد الهتنا من الكثره إلى درجه أنها أكثر من المارّه فى الأزقه و الطرقات، و كل واحد منها مظهر من مظاهر الكون المشهوده، إله مثل إله الزراعه، و إله المطبخ، و إله مستودع الطعام، و إله البيت، و إله النار، و إله الفاكهه، و إله الحصاد، و إله شجره العنب، و إله الغابه، و إله الحريق، و إله بوابه روما، و إله بيت النار (٢).

و للخلاصه، أن البشريه كانت غارقه فى و حل الخرافات كما أنها تعاني الآن أيضاً من ذلك الموروث السقيم.

و فى عصر نزول القرآن كان فى الجزيره العربيه و فى كثير من مناطق العالم، آلهه تعبد من دون الله، كما كانت عبادته الأفراد رائجه، و إلى ذلك يشير القرآن فى خطابه لليهود و النصرى إذ يقول: **اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُفَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (٣).**

بعباره موجزه: حين تنحرف البشريه عن خط التوحيد، و تتورط فى شرك الخرافات و فخاخ الأوهام. فمضافاً الى أنها تساهم فى تغريب العقل و انحطاط الفكر، تؤدى الى تشتت المجتمع و تعمل على تمزيقه.

خط التوحيد الذى دعا إليه الأنبياء يتميز بنبذ الآلهه المتعدده، و هدايه

ص: ٤١

١-١) - أعلام قرآن، ص ٢٠٢.

٢-٢) - تاريخ «آلبرماله»، ج ١، الفصل الرابع.

٣-٣) - التوبه، ٣١.

البشريه نحو الإله الواحد الأحد، وانطلاقاً من هذه الأهميه القصوى للقضاء على الآلهه المتعدده جاء التأكيد القرآنى بعد آيه البسملة بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و بهذا يرسم القرآن الكريم خط البطلان على جميع الآلهه المزيفه و ارباب النوع و يلقي بها فى وادى العدم مكانها الاوّل، و يغرس محلّها أزهار التوحيد و الاتحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرات فى صلواته اليوميه - على الأقل - لترسخ فكره التوحيد، و فكره رفض ربوبيه كل الأرباب و الآلهه، غير ربوبيه الله رب العالمين.

٢- ربوبيه الله طريق لمعرفه الله

كلمه (الربّ)، و إن كانت تعنى فى الأصل المالك و الصاحب، تتضمّن معنى الصاحب المتمهّد بالتربيه.

إمعان النظر فى المسيره التكاملية للموجودات الحيّه، و فى التغييرات و التحولات التى تجرى فى عالم الجماد، و فى الظروف التى تتوفّر لتربيه الموجودات، و فى تفاصيل هذه الحركات و العمليات، هو أفضل طريق لمعرفه الله.

و التنسيق اللاإرادى بين أعضاء جسدنا هو نموذج حيّ لذلك.

لو واجهنا فى حياتنا-مثلاً- حادثه هامه تتطلب منا أن ننهض أمامها بقوه و حزم، فإنّ أوامر منسّقه تصدر خلال لحظه قصيره إلى جميع أجزاء جسدنا بشكل لا إرادى. و بسرعه خاطفه يشتد ضربان قلبنا و تنفسنا، و تتجهز كل قوانا، و تتدفق المواد الغذائيه و الأوكسجين-المحموله عن طريق الدم- إلى جميع الخلايا، و تتأهب الأعصاب و العضلات للعمل و الحركه السريعه، و ترتفع قدره تحمّل الإنسان للمتاعب و الآلام، و يغادر النوم العيون، و يزول التعب من الأعضاء،

و يزول الإحساس بالجوع.

من الذى أوجد هذا التنسيق العجيب فى هذه اللحظه الحساسه، و بهذه السرعه، بين جميع أجزاء وجود الإنسان؟ هل هذه العنايه و التربيه ممكنه من غير الله العالم القادر؟! آيات القرآن الكريم تكثر من عرض نماذج لهذه التربيه الإلهيه، ستتعرض لها فى مكانها إن شاء الله تعالى، و كل واحده منها دليل واضح على معرفه الله.

ص: ٤٣

اشاره

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

التفسير

معنى (الرحمن) و(الرحيم) و اتساع مفهومهما و الفرق بينهما، شرحناه فى تفسير البسملة، و لا حاجة إلى التكرار. و ما نضيفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران فى البسملة و الحمد، «و الملتزمون» بذكر البسملة فى السوره بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين فى صلواتهم اليوميه الواجبه ثلاثين مره. و بذلك يصفون الله برحمته ستين مره يوميا.

و هذا فى الواقع درس لكل جماعه بشرية سائره على طريق الله، و تواقه للتخلق بأخلاق الله. إنه درس يبعد البشريه عن تلك الحالات التى شهدتها تاريخ الرق فى ظل القياصره و الأكاسره و الفراعنه.

القرآن يركز على علاقه الرحمه و الرأفه بين رب العباد و العباد، حيث يقول:

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

(١)

هذه العلاقه نستحضرها مرات يوميا إذ نقول: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لنربى أنفسنا تربيته صحيحه فى علاقتنا بالله، و فى علاقتنا بأبناء جنسنا.

ص: ٤٤

اشاره

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)

التفسير

اشاره

الزكيزه الثانيه:الإيمان بيوم القيامه

هذه الآيه تلفت الأنظار إلى أصل هام آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيامة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وبذلك يكتمل محور المبدأ و المعاد،الذى يعتبر أساس كل إصلاح أخلاقى و اجتماعى فى وجود الإنسان.

تعبير (مالك) يوحى بسيطره الله التامه و هيمنته المستحكمه على كل شىء و على كل فرد فى ذلك اليوم،حيث تحضر البشريه فى تلك المحكمه الكبرى للحساب،و تقف أمام مالکها الحقيقى للحساب،و ترى كل ما فعلته و قالته،بل و حتى ما فكرت به،حاضرا،فلا يضيع أى شىء-مهما صغر-و لا ينسى، و الإنسان-وحده-يحمل أعباء نتائج أعماله،بل نتائج كل سنّه استنّها فى الأرض أو مشروع أقامه.

مالكيه الله فى ذلك اليوم دون شك ليست ملكيه اعتباريه،نظير ملكيتنا للأشياء فى هذا العالم،ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل و وثائق،و يفسخ بموجب تعامل آخر و وثائق اخرى، لكن ملكيه الله لعالم الكون ملكيه حقيقيه،

تتمثل فى ارتباط الموجودات ارتباطا خاصا بالله. و لو انقطع هذا الارتباط لحظه لزالّت الموجودات تماما مثل زوال النور من المصابيح الكهربائيه، حين ينقطع اتصالها بالمولّد الكهربائى.

بعبارة اخرى: مالكيه الله نتيجته خالقيته و ربوبيته. فالذى خلق الموجودات و رعاها و ربّاهَا، و أفاض عليها الوجود لحظه بلحظه، هو المالك الحقيقى للموجودات.

نستطيع أن نرى نموذجا مصغرا للمالكيه الحقيقيه، فى مالكيّتنا لأعضاء بدننا، نحن نملك ما فى جسدنا من عين و أذن و قلب و أعصاب، لا بالمعنى الاعتبارى للملكيه، بل بنوع من المعنى الحقيقى القائم على أساس الارتباط و الإحاطه.

و قد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** بينما هو مالك الكون كله؟ و الجواب هو أنّ الله مالك لعالم الدنيا و الآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز و أظهر، لأن الارتباطات الماديه و الملكيات الاعتباريه تتلاشى كلها فى ذلك اليوم، و حتى الشفاعة لا تتم يومئذ إلا بأمر الله: **يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١)**.

بتعبير آخر: قد يسارع الإنسان فى هذه الدنيا لمساعدته إنسان آخر، و يدافع عنه بلسانه، و يحميه بأمواله، و ينصره بقدرته و أفراده، و قد يشمله بحمايته من خلال مشاريع و مخططات مختلفه، لكن هذه الألوان من المساعدات غير موجوده فى ذلك اليوم. من هنا حين يوجه هذا السؤال إلى البشر: **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ يجيبون: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٢)**.

الإيمان بيوم القيامة، و بتلك المحكمه الإلهيه الكبرى التى يخضع فيها كل

ص: ٤٦

١-١) - الانفطار، ١٩.

٢-٢) - المؤمن، ١٦.

شئ للاحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلازل، ووقايتها من السقوط في المنحدرات، و أحد أسباب قدره الصلاه على النهى عن الفحشاء و المنكر هو أنها تذكر الإنسان بالمبدأ المطلع على حركاته و سكناته و تذكره أيضا بمحكمه العدل الإلهي الكبرى.

التركيز على مالكيه الله ليوم القيامة يقارع من جهة اخرى معتقدات المشركين و منكرى المعاد، لأن الإيمان بالله عقيدة فطريه عامه، حتى لدى مشركى العصر الجاهلى، و هذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (١)** بينما الإيمان بالمعاد ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسأله المعاد بعناد و استهزاء و لجاج: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفَتُرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ (٢)**.

و روى عن على بن الحسين السجاد عليه السلام: «أنه كان إذا قرأ **مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ** يكررها حتى يكاد أن يموت» (٣).

أما تعبير **يَوْمَ الدِّينِ**، فحيثما ورد فى القرآن يعنى يوم القيامة، و تكرر ذلك فى أكثر من عشره مواضع من كتاب الله العزيز، و فى الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ من سوره الإنفطار ورد هذا المعنى بصراحه.

و أما سبب تسميه هذا اليوم بيوم الدين، فلأن يوم القيامة يوم الجزاء، و (الدين) فى اللغه (الجزاء)، و الجزاء أبرز مظاهر القيامة، و فى ذلك اليوم تكشف السرائر و يحاسب الناس عما فعلوه بدقه، و يرى كل فرد جزاء ما عمله صالحا أم طالحا.

و

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: «يوم الدين هو يوم

ص: ٤٧

١-١) - لقمان، ٢٥.

٢-٢) - سبأ، ٧ و ٨.

٣-٣) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٩.

الحساب» (١) (و الدين) استنادا إلى هذه الرواية يعنى (الحساب)، وقد يكون هذا التعبير من قبيل ذكر العله و إرادته المعلول. لأن الحساب دوما مقدمه للجزاء.

من المفسرين من يعتقد أن سبب تسميه يَوْمِ الدِّينِ يعود إلى أن كل إنسان يوم القيامة يجازى إزاء دينه و معتقده. لكن المعنى الأول (الحساب و الجزاء) يبدو أقرب إلى الصحة.

ص: ٤٨

١-١) -مجمع البيان، ذيل الآيه: مالک يوم الدين.

اشاره

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

التفسير

اشاره

الإنسان بين يدي الله

في هذه الآيه يتغير لحن السوره، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربه و التضرع إليه.

الآيات السابقه دارت حول حمد الله و الثناء عليه، و الإقرار بالإيمان و الاعتراف بيوم القيامة، و في هذه الآيه يستشعر الإنسان-بعد رسوخ أساس العقيدة و معرفه الله في نفسه حضوره بين يدي الله... يخاطبه و يناجيه، يتحدث إليه أولاً عن تعبده، ثم يستمد العون منه وحده دون سواه: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

بعبارة اخرى: عند ما تتعمق مفاهيم الآيات السابقه في وجود الإنسان، و تتنور روحه بنور رب العالمين، و يدرك رحمه الله العامه و الخاصه، و مالكيته ليوم الجزاء، يكتمل الإنسان في جانبه العقائدي. و هذه العقيدة التوحيديه العميقه، ذات عطاء يتمثل أولاً: في تربيته الإنسان العبد الخالص لله، المتحرر من العبوديه للآلهه الخشبيه و البشريه و الشهويه، و يتجلى ثانياً: في الاستمداد من ذات الله تبارك و تعالی.

الآيات السابقه تحدثت في الحقيقه عن توحيد الذات و الصفات، و هذه الآيه

تحدّث عن توحيد العباده و توحيد الأفعال.

توحيد العباده:يعنى الاعتراف بأن الله سبحانه هو وحده اللائق بالعباده و الطاعه و الخضوع،و بالتشريع دون سواه، كما يعنى تجنب أى نوع من العبوديه و التسليم،لغير ذاته المقدسه.

و توحيد الأفعال:هو الإيمان بأن الله هو المؤثر الحقيقى فى العالم (لا- مؤثر فى الوجود إلا- الله).و هذا لا- يعنى إنكار عالم الأسباب،و تجاهل المسببات،بل يعنى الإيمان بأن تأثير الأسباب،إنما كان بأمر الله،فالله سبحانه هو الذى يمنح النار خاصيه الإحراق،و الشمس خاصيه الإناره،و الماء خاصيه الإحياء.

ثمره هذا الاعتقاد أن الإنسان يصبح معتمدا على (الله)دون سواه،و يرى أن الله هو القادر العظيم فقط،و يرى ما سواه شبحا لا حول له و لا قوه،و هو وحده سبحانه اللائق بالاتكال و الاعتماد عليه فى كل الأمور.

هذا التفكير يحرر الإنسان من الانشداد بأى موجود من الموجودات، و يربطه بالله وحده.و حتى لو تحرك هذا الإنسان فى دائره استنطاق عالم الأسباب،فإنما يتحرّك بأمر الله تعالى،ليرى فيها تجلّى قدره الله،و هو«مسبب الأسباب».

هذا المعتقد يسمو بروح الإنسان و يوسّع آفاق فكره،ليرتبط بالأبدية و اللانهايه،و يحرر الكائن البشرى من الأطر الضيقه الهابطه.

بحوث

اشاره

١- هو المستعان وحده

تقدم المفعول على الفاعل يفيد الحصر- كما يذكر أصحاب اللغه- و تقدم «إياك»على «نعبد»يدلّ على الحصر،أى أننا نعبدك دون سواك،و نتيجه هذا

ص : ٥٠

الحصر، هو توحيد العباده و توحيد الأفعال.

نعم، نحن محتاجون إلى عونته حتى في العبوديه و الطاعه، و لذلك ينبغي أن نستعين به في ذلك أيضا، كي لا تتسرب إلى أنفسنا أو هام العجب و الرياء و أمثالها من الانحرافات التي تجهض عبوديتنا.

بعبارة اخرى: حين نقول **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** فإن هذه الجملة يشم منها رائحة الاستقلالية، لذلك نتبعها مباشرة بعبارة **إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**، كي نجسّم حاله الأمر بين الأمرين (لا جبر و لا تفويض)، في عبادتنا، و من ثم في كل أعمالنا.

٢- استعمال صيغ الجمع في تعبير الآيات

كلمه «نعبد» و «نستعين» بصيغه الجمع تشير إلى أن العباده-خاصه الصلاه- تقوم على أساس الجمع و الجماعه. و على العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع و الجماعه، حتى حين يقف متضرّعا بين يدي الله، فما بالك في المجالات الاخرى! و هذا الاتجاه في العباده يعنى رفض الإسلام لكل ألوان الفرديه و الانعزال.

الصلاه خاصه-ابتداء من اذانها و إقامتها حتى تسليمها- تدل على أن هذه العباده هي في الأصل ذات جانب اجتماعي، أي أنها ينبغي أن تؤدّى بشكل جماعه، صحيح أن الصلاه فرادى صحيحه في الإسلام، لكن العباده الفرديه ذات طابع فرعى ثانوى.

٣- الاستعانه به في كل الأمور

يواجه الإنسان في مسيرته التكاملية قوى مضاده داخلية (في نفسه)، و خارجية (في مجتمعه)، و يحتاج في مقاومه هذه القوى المضاده إلى العون و المساعدة، و من هنا يلزم على الإنسان عند ما ينهض صباحا أن يكرر عبارة

ليعترف بعبوديته لله سبحانه، و ليستمد العون منه في مسيرته الطويلة الشاقة. و عند ما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلا بعد تكرار هذه العبارة أيضا. و الإنسان المستعين حقًا، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبره المتغترسه. و كل الجواذب الماديه الخادعه، و ذلك ما لا يكون إلا حينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول: إِنَّ صِدْقَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١).

ص: ٥٢

اشاره

إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

التفسير

اشاره

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقَرَّ الإنسان بالتسليم لربِّ العالمين، و يرتفع إلى مستوى العبودية لله و الاستعانه به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأول طلب من بارئه، و هو الهدايه إلى الطريق المستقيم، طريق الطَّهر و الخير، طريق العدل و الإحسان، طريق الإيمان و العمل الصالح، ليهبه الله نعمه الهدايه كما وهبه جميع نعم الاخرى.

الإنسان في هذه المرحله مؤمن طبعاً و عارف برّبّه، لكنه معرّض دوماً بسبب العوامل المضاده إلى سلب هذه النعمه و الانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يكرر عشر مرات في اليوم على الأقل طلبه من الله أن يقيه العثرات و الانحرافات.

أضف إلى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين الله، و له مراتب و درجات لا يستوى في طيها جميع الناس، و مهما سما الإنسان في مراتبه، فثمّه مراتب اخرى أبعد و أرقى، و الإنسان المؤمن تواق دوماً إلى السير الحثيث على هذا السلم الارتقائي، و عليه أن يستمد العون من الله في ذلك.

ثمه سؤال يتبادر إلى الأذهان عن سبب طلبنا من الله الهدايه إلى الصراط المستقيم، ترى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهدايه؟ وكيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين و هم نموذج الإنسان الكامل؟! و فى الجواب نقول:

أولاً: الإنسان معرض فى كل لحظه إلى خطر التعثر و الانحراف عن مسير الهدايه- كما أشرنا إلى ذلك- و لهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى الله، و الاستمداد منه فى تثبيت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغى أن نتذكر دائماً أن نعمه الوجود و جميع المواهب الإلهيه، تصلنا من المبدأ العظيم تعالى لحظه بلحظه. و ذكرنا من قبل أننا و جميع الموجودات (بلحاظ معين) مثل مصابيح كهربائيه، النور المستمر فى هذه المصابيح يعود إلى وصول الطاقه إليها من المولد الكهربائى باستمرار. فهذا المولد ينتج كل لحظه طاقه جديده و يرسلها عن طريق الأسلاك إلى المصابيح لتتحول إلى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصابيح. هذا الوجود، و إن بدا ممتدا مستمرا، هو فى الحقيقه وجود متجدد يصلنا باستمرار من مصدر الوجود الخالق الفياض.

هذا التجدد المستمر فى الوجود، يتطلب باستمرار هدايه جديده، فلو حدث خلل فى الأسلاك المعنويه التى تربطنا بالله، كالظلم و الإثم و... فإن ارتباطنا بمنبع الهدايه سوف ينقطع، و تزيغ أقدامنا فوراً عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرّع إلى الله فى صلواتنا أن لا يعترى ارتباطنا به مثل هذا الخلل، و أن نبقى ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانياً: الهدايه هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجياً مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا. و طريق التكامل - كما هو معلوم - غير محدود، و هو مستمر إلى اللانهايه.

مما تقدم نفهم سبب تضرّع حتى الأنبياء و الأئمه عليهم السلام لله تعالى أن يهديهم

،فالكمال المطلق لله تعالى، وجميع ما سواه يسرون على طريق التكامل،فما الغرابه فى أن يطلب المعصومون من ربهم درجات أعلى؟! نحن نصلى على محمد و آل محمد،و الصلاة تعنى طلب رحمه إلهيه جديده لمحمد و آل محمد،و مقام أعلى لهم.

و الرسول صلى الله عليه و اله و سلم قال: رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١).

و القرآن الكريم يقول: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (٢).

و يقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهَمُ تَقْوَاهُمْ (٣).

و لمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

-١

عن أمير المؤمنين على عليه السلام،قال فى تفسير إهدنا الصَّراطَ الْمُسْتَقِيمَ :

أى:«أدم لنا توفيقك الذى أطعناك به فى ما مضى من أيامنا،حتى نطيعك فى مستقبل أعمارنا» (٤).

-٢

و قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «يعنى أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتك،و المبلغ إلى جنتك،و المانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب،أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك» (٥).

ما هو الصَّراطُ الْمُسْتَقِيمَ؟

هذا الصَّراطُ كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد

ص: ٥٥

١-١ - طه، ١١٤.

٢-٢ - مريم، ٧٦.

٣-٣ - محمد، ١٧.

٤-٤ - معانى الاخبار،و تفسير الإمام الحسن العسكرى،نقلا عن تفسير الصافى ذيل الآيه المذكوره.

٥-٥ - معانى الاخبار،و تفسير الإمام الحسن العسكرى،نقلا عن تفسير الصافى.

و الالتزام بأوامر الله. ولكنه ورد في القرآن بتعابير مختلفه.

فهو الدين القيم ونهج إبراهيم عليه السلام ونفى كل أشكال الشرك كما جاء في قوله تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)، فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من جنبه ايدولوجيه.

و هو أيضا رفض عباده الشيطان و الاتجاه إلى عباده الله وحده، كما في قوله:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

(٢)

، وفيها إشاره إلى جنبه العمليه للدين.

أما الطريق إلى الصراط المستقيم فتم من خلال الاعتصام بالله: وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣).

يلزما أن نذكر أن الطريق المستقيم هو طريق واحد لا أكثر، لأنه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خط مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم في المفهوم القراني، هو الدين الإلهي في الجوانب العقائديه و العمليه، ذلك لأن هذا الدين أقرب طريق للارتباط بالله تعالى. و من هنا أيضا فإن الدين الحقيقي واحد لا أكثر إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (٤).

و سنرى فيما بعد-إن شاء الله-أن للإسلام معنى واسعاً يشمل كل دين توحيدى في عصره، أى قبل أن ينسخ بدين جديد.

من هذا يتضح أن التفاسير المختلفه للصراط المستقيم، تعود كلها إلى معنى واحد.

فقد قالوا: إنه الإسلام.

و قالوا: إنه القرآن.

ص: ٥٦

١-١) - الأنعام، ١٦١.

٢-٢) - يس، ٦١ و ٦٢.

٣-٣) - آل عمران، ١٠١.

٤-٤) - آل عمران، ١٩.

و قالوا: إنه الأنبياء و الأئمه.

و قالوا: إنه دين الله، الذى لا يقبل سواه.

و كل هذا المعانى تعود إلى نفس الدين الإلهى فى جوانبه الاعتقادية و العمليه.

و الروايات الموجوده فى المصادر الإسلاميه فى هذا الحقل، تشير إلى جوانب متعدده من هذه الحقيقه الواحده، و تعود جميعا إلى أصل واحد منها:

عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم: «اهدنا الصراط المستقيم صراط الأنبياء، و هم الذين أنعم الله عليهم (١)» .

و عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى تفسير الايه:

إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

،قال: «الطريق هو معرفه الإمام» (٢) .

و عنه أيضا: «و الله نحن الصراط المستقيم» (٣) .

و عنه أيضا: «الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام» (٤) .

و من الواضح أن النبى صلى الله عليه و اله و سلم، و أئمه أهل البيت عليهم السلام، دعوا جميعا إلى دين التوحيد الإلهى، و الالتزام به عقائديا و عمليا.

و اللافت للنظر، أن «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنه الطريق المستقيم، فكلمه الصراط تتضمن معنى الاستقامه. و صفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفه.

ص: ٥٧

١- (١،٢،٣،٤) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠ و ٢١.

-٢

-٣

-٤

اشاره

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

التفسير

اشاره

خطان منحرفان!

هذه الآيه تفسير واضح للصرط المستقيم المذكور في الآيه السابقه، إنه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمه الهدايه، ونعمه التوفيق، ونعمه القياده الصالحه، ونعمه العلم والعمل والجهاد والشهاده) لا المشمولين بالغضب الإلهي بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائبين عن جاده الحق والهدى:

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

و لأننا لسنا على معرفه تامه بمعالم طريق الهدايه، فإن الله تعالى يأمرنا في هذه الكريمه أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء و الصالحين من عباده:

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، و يحذرننا كذلك بأن أماننا طريقين منحرفين، و هما طريق الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، و طريق الضَّالِّينَ، و بذلك يتبين للإنسان طريق الهدايه بوضوح.

١- من هم الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟

الذين أنعم الله عليهم، تبيينهم الآيه الكريمة من سوره النساء إذ يقول: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (١).

و الآيه- كما هو واضح- تقسم الذين أنعم الله عليهم على أربع مجاميع:

الأنبياء، و الصديقين، و الشهداء، و الصالحين.

لعل ذكر هذه المجاميع الأربع، إشاره إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الإنساني السالم المتطور المؤمن.

المرحلة الاولى: مرحلة نهوض الأنبياء بدعوتهم الإلهيه.

المرحلة الثانيه: مرحلة نشاط الصديقين، الذين تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوه.

المرحلة الثالثه: مرحلة الكفاح بوجه العناصر المضاده الخبيثه فى المجتمع.

و فى هذه المرحلة يقدم الشهداء دمهم لإرواء شجره التوحيد.

المرحلة الرابعه: هى مرحلة ظهور «الصالحين» فى مجتمع طاهر ينعم بالقيم و المثل الانسانيه باعتباره نتيجه للمساعى و الجهود المبذوله.

نحن- إذن- فى سوره الحمد نطلب من الله- صباحا و مساء- أن يجعلنا فى خط هذه المجاميع الأربع: خط الأنبياء، و خط الصديقين، و خط الشهداء، و خط الصالحين. و من الواضح أنّ علينا أن نهض فى كل مرحله زمته بمسؤوليتنا و نؤدى رسالتنا.

ص: ٥٩

٢- من هم الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، و من هم الضَّالِّينَ ؟

يتضح من الآيه الكريمه أن الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و الضَّالِّينَ مجموعتان لا مجموعه واحده، و أما الفرق بينهما ففيه ثلاثه أقوال:

١- يستفاد من استعمال التعبيرين فى القرآن أن «المغضوب عليهم» أسوأ و أخطأ من «الضَّالِّينَ»، أى إن الضَّالِّينَ هم التائبون العاديون، و المغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، و لذلك استحقوا لعن الله و غضبه.

قال تعالى: وَ لَكِن مِّن شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ (١).

و قال سبحانه: وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ (٢).

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

إذن يسلكون-إضافه إلى كفرهم-طريق اللجاج و العناد و معاده الحق، و لا يألون جهدا فى توجيه ألوان التنكيل و التعذيب لقاده الدعوه الإلهيه.

يقول سبحانه: وَ بَأْسًا وَ بَعْضًا مِّنَ اللَّهِ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٣).

٢- ذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود من الضَّالِّينَ المنحرفون من النصارى، و الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ المنحرفون من اليهود.

هذا الفهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوه الإسلاميه. فالقرآن يصرح مرارا أن المنحرفين من اليهود كانوا يكونون عداا شديدا و حقدا دينا للإسلام.

مع أن علماء اليهود كانوا من مبشرى ظهور الإسلام، لكنهم تحوّلوا إلى أعداء الداء للإسلام لدى انتشار الدعوه لأسباب عديده لا مجال لذكرها، منها تعرّض

ص: ٦٠

١-١- النحل، ١٠٦.

٢-٢- الفتح، ٦.

٣-٣- آل عمران، ١١٢.

مصالحهم المادية للخطر. (تماما مثل موقف الصهاينة اليوم من الإسلام و المسلمين).

تعبير الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ينطبق تماما على هؤلاء اليهود، لكن هذا لا- يعنى حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعه من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلى على الفرد.

أما منحرفو النصارى فلم يكن موقفهم تجاه الإسلام يبلغ هذا التعنت، بل كانوا ضالين فى معرفه الحق. و التعبير عنهم بالضالين هو أيضا من قبيل تطبيق الكلى على الفرد.

الأحاديث الشريفه أيضا فسّرت الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ باليهود، و الضَّالِّينَ بمنحرفى النصارى، و السبب فى ذلك يعود إلى ما ذكرناه (١).

٣- من المحتمل أن الضَّالِّينَ إشاره إلى التائبين الذين لا- يصرّون على تضليل الآخرين، بينما الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم الضالون و المضلون الذين يسعون إلى جرّ الآخرين نحو هاويه الانحراف.

الشاهد على ذلك حديث القرآن عن المغضوب عليهم بوصفهم: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (٢) إذ يقول: وَالَّذِينَ يُحِبُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٣).

و يبدو أن التفسير الأول أجمع من التفسيرين التاليين، بل إن التفسيرين التاليين يتحركان على مستوى التطبيق للتفسير الأول. و لا دليل لتحديد نطاق المفهوم الواسع للآيه.

و الحمد لله رب العالمين (نهايه سوره الحمد)

ص: ٦١

١-١) -راجع تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٣ و ٢٤.

٢-٢) -هود، ١٩.

٣-٣) -الشورى، ١٦.

سوره البقره

اشاره

مدتيه و عدد آياتها مائتان و ست و ثمانون آيه

ص: ٦٣

محتوى سوره البقره:

هذه السوره أطول سور القرآن، و من المؤكد أنها لم تنزل مرّه واحده. بل فى مناسبات عديده، حسب متطلبات المجتمع الإسلامى فى المدينه. و تتميز بشمولها لمبادئ العقيد و لكثير من الأحكام العمليه (العباديه، و الاجتماعيه، و السياسيه، و الاقتصاديه). ففى هذه السوره.

١- موضوعات حول التوحيد و معرفه الخالق، عن طريق استنتاج أسرار الكون.

٢- جولات فى عالم المعاد و البعث و النشور مقرونه بأمثله حسيّه، مثل قصّه إبراهيم عليه السّلام و إحياء الطير، و قصّه عزيز عليه السّلام.

٣- آيات ترتبط بإعجاز القرآن و أهميه كتاب الله العزيز.

٤- سرد مطوّل حول وضع اليهود و المنافقين و مواقفهم المعاديه للقرآن و الإسلام و شدّه ضررهم فى هذا المجال.

٥- استعراض لتاريخ الأنبياء، و خاصه إبراهيم و موسى عليهما السّلام.

٦- بيان لأحكام إسلاميه مختلفه مثل: الصلاه، و الصوم، و الجهاد، و الحج، و القبله، و الزواج و الطلاق، و التجاره و الدّين، و الربا، و الإنفاق، و القصاص، و تحريم بعض الأطمه و الأشربه، و القمار، و ذكر نبذه من أحكام الوصيه و أمثالها.

و أما تسميتها بالبقره،فمأخوذه من قصه بقره بنى إسرائيل،التي سيأتى شرحها فى الآيات ٦٧-٧٣ إن شاء الله.

فضيله هذه السوره:

وردت فى فضيله هذه السوره نصوص عديده فى المصادر الاسلاميه،منها:

روى عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم أنه سئل أى سور القرآن أفضل؟قال:«البقره» قيل:أى آيه البقره أفضل؟قال:«آيه الكرسى» (١).

أفضليه هذه السور تعود على ما يبدو إلى جامعيتها.و أفضليه آيه الكرسى تعود إلى محتواها التوحيدي،و سيأتى ذكر ذلك فى تفسيرها بإذن الله.و هذا لا يتنافى مع أفضليه سور اخرى من جهات اخرى.و

روى على بن الحسين عليهما السلام عن النبي صلى الله عليه و اله و سلم أنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم: «من قرأ أربع آيات من أول البقره،و آيه الكرسى،و آيتين بعدها،و ثلاث آيات من آخرها،لم ير فى نفسه و ماله شيئا يكرهه و لا يقربه الشيطان،و لا ينسى القرآن» (٢).

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقه،و هى إن ما ذكر من ثواب و فضيله و جزاء لتلاوه بعض السور و الآيات الخاصه، لا- يعنى-إطلاقا-قراءتها بشكل أورد،و لا-الاكتفاء بترديد ألفاظها،بل التلاوه للفهم،و الفهم من أجل التفكير،و التفكير لغرض العمل.و من الملاحظ أن كل فضيله ذكرت لآيه أو سوره إنما تتناسب كثيرا مع محتوى السوره و الآيه.

ففى فضيله سوره النور ذكر أن من يواظب على قراءتها يصونه الله و أولاده

ص: ٦٦

١- (١،٢) -نور الثقلين، ج ١، ص ٢٦.و مجمع البيان، ج ١، ص ٣٢.

من (الزنا) و ذلك لأن محتوى هذه السوره يتضمن تعاليم فى حقل مكافحه الانحرافات الجنسيه، مثل حث العزاب على الزواج، و الأمر بالحجاب و غضّ الأبصار عما يثير الشهوه، و التحذير من إشاعه الفاحشه و القذف، و كذلك الأمر بإجراء الحد الشرعى على الزانى و الزانيه.

و من الطبيعى أن محتوى هذه السوره-إن دخل حيّز التنفيذ-يصون المجتمع و الأسره من الزنا. و هكذا الآيات المذكوره من سوره البقره، ستكون لها تلك الفضائل حتما إن قرأها الإنسان بامعان و تشبعت نفسه بمحتواها، خاصه و أنها جميعا تدور حول محور التوحيد و الإيمان بالغيب و معرفه الله، و الحذر من وساوس الشيطان.

صحيح أن قراءه القرآن عمل مثاب عليه فى أى حال من الأحوال، لكن الثواب الأساس يترتب على التلاوه المقرونه بالتفكير و العمل.

ص: ٦٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

التفسير

اشاره

تحقيق في الحروف المقطعه في القرآن

تسع وعشرون سوره من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعه، وهذه الحروف - كما هو واضح من اسمها - لا تشكل كلمه مفهومه. هذه الحروف من أسرار القرآن، و ذكر المفسرون لها تفاسير عديده، و أضاف لها العلماء المعاصرون تفاسير جديده من خلال تحقيقاتهم.

جدير بالذكر أن التاريخ لم يحدثنا أن عرب الجاهليه و المشركين عابوا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وجود هذه الحروف المقطعه في القرآن. و لم يتخذوا منها وسيله للطعن و الاستهزاء. و هذا يشير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجود الحروف المقطعه.

اخترنا من التفاسير الكثيره لهذه الحروف، عددا من التفاسير باعتبار مسنديتها و انسجامها مع آخر الدراسات في هذا المجال. و سنذكر هذه التفاسير بالتدرج في بدايه هذه السوره، و سوره آل عمران، و سوره الأعراف، إن شاء الله.

و نبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف إشاره إلى أن هذا الكتاب السماوى، بعظمته و أهميته التى حيرت فصحاء العرب و غير العرب، و تحددت الجن و الإنس فى عصر الرساله و كل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسره فى متناول الجميع.

و مع أن القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائيه و الكلمات المتداوله، فإن ما فيه من جمال العبارة و عمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب و الروح، و يملأ النفس بالرضا و الإعجاب، و يفرض احترامه على الأفكار و العقول.

فى القرآن من الفصاحه و البلاغه ما لا يخفى على أحد، و ليس هذا مجرد ادعاء، فخالق الكون تحدّى بهذا الكتاب جميع (الجن و الإنس)، ليأتوا بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً (1)، و لكنهم عجزوا جميعاً عن ذلك، و تلك دلالة على أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

و كما إن الله تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزه معقده محيره، و كأنواع الطيور الجميله الرائقه، و الأحياء المتنوعه، و النباتات و الزهور المختلفه، و كما إننا ننتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائيه المتداوله، موضوعات و معان ساميه، فى قوالب لفظيه جميله، و عبارات موزونه، و أسلوب خاص مدهش معجز، و هذه الحروف الهجائيه موجوده تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل و عبارات شبيهه بالقرآن.

الأدب فى العصر الجاهلى:

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلى كان عصراً ذهبياً للأدب العربى.

ص: ٦٩

فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير إلى أن العرب الحفاه الجفاه الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبي رفيع. و ما وصلنا من شعر و نثر من تلك الفترة، يشير إلى قدره أولئك على التعبير الجميل الدقيق، و يحتل ذروه الفصاحة فى الأدب العربى.

و كان للأدب سوق رائجه تدلّ على اهتمام العرب بلغتهم و آدابهم، و(سوق عكاظ) و أمثالها من الأسواق الأدبيه تعكس هذا الاهتمام بوضوح.

و السوق المذكور كان يشهد-إضافه إلى المعاملات الاقتصادية و القضايا الاجتماعية-حركه أدبيه تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشعر و النثر، و يتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و(المعلقات السبع) أو(العشر) نموذج لذلك، و كانت القصيده الفائزه تعدّ فخرا كبيرا للشاعر و لقبيلته.

فى مثل هذا العصر من الانتعاش الأدبى، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، و لكنهم عجزوا(سنذكر مزيدا من إعجاز القرآن فى مجال التحدى لدى تفسير الآيه ٢٣ من هذه السوره).

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعه،

حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «كذب قريش و اليهود بالقرآن و قالوا هذا سحر مبين، تقوله، فقال الله: الم، ذلِكَ الْكِتَابُ...: أَيْ يَا مُحَمَّد، هذا الكتاب الذى أنزلته إليك هو الحروف المقطعه التى منها الف و لام و ميم، و هو بلغتكم و حروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين...» (١).

و ثم شاهد آخر

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى قوله: «ثم قال إن الله تبارك و تعالى انزل هذا القرآن بهذه الحروف التى يتداولها جميع العرب، ثم قال:

ص: ٧٠

قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...

(١)

و هناك ملاحظه تؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الحروف المقطعه، و هي أن هذه الحروف في السور الأربع و العشرين التي ذكرناها، يتلوها مباشرة ذكر لعظمه القرآن، و هذا يدل على الارتباط بين الحروف المقطعه و عظمه القرآن. و على سبيل المثال نذكر الآيات التاليه:

١- الر، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (٢).

٢- طس، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُبِينٍ (٣).

٣- الم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٤).

٤- المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ (٥).

بعد البسملة و ذكر الآيه الاولى من سوره البقره يقول تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ. قد يشير هذا التعبير إلى أن الله تعالى و عد نبيّه أن ينزل عليه كتابا يهتدى به من طلب الحق، و لا يشك فيه من كان له قلب أو ألقى السمع و هو بصير، و ها هو سبحانه قد وفى بوعدّه الآن.

و قوله: لَا رَيْبَ فِيهِ ليس ادعاء، بل تقرير لحقيقه قرآنيه مشهوده، هي إنّ القرآن يشهد بذاته على حقاينته. و عبارته اخرى فإن مظاهر الصدق و العظمه و الانسجام و الاستحكام و عمق المعاني و حلاوه الألفاظ و العبارات و فصاحتها من الوضوح بدرجه تبعد عنه كلّ شك.

من المشهود أن مرّ العصور و كثر الدهور لم يقلل من طراوه القرآن، بل إن

ص: ٧١

١-١) - توحيد الصدوق، ص ١٦٢، ط سنه ١٣٧٥ ه.ق..

٢-٢) - هود، ١-٢.

٣-٣) - النمل، ١-٢.

٤-٤) - لقمان، ١-٢.

٥-٥) - الأعراف، ١-٢.

حقائق القرآن، ازدادت وضوحا بتطور العلوم و بانكشاف أسرار الكائنات. و كلما ازداد العلم تكاملا ازدادت آيات القرآن جلاء و سطوعا.

و سنوضح هذه الحقيقه أكثر بإذن الله فى مواضع اخرى من هذا التفسير.

بحوث

إشاره

١- لماذا الإشاره إلى البعيد؟

نعلم أن كلمه (ذلك) إشاره إلى البعيد فى لغه العرب، و قرب القرآن من أيدي الناس يقتضى أن تكون الإشاره للقريب.

السبب فى استعمال اسم الإشاره للبعيد يعود إلى بيان سموّ القرآن و رفعتة، حتى كأنه-فى عظمتة- يحتل نقطه الذروه فى هذا الوجود. و مثل هذا الاستعمال شائع فى سائر اللغات أيضا حين يراد الإشاره إلى شخص ذى منزله كبيره مثلا.

فى بعض مواضع القرآن وردت أيضا كلمه (تلك)، و هى اسم إشاره للبعيد أيضا، مثل: **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)**. و السبب فيه ما ذكرنا.

٢- معنى الكتاب:

«الكتاب» يعنى المكتوب و المخطوط، و لا شك أن المراد منه فى الآيه كتاب الله الكريم.

و هنا يثار سؤال حول سبب استعمال كلمه الكتاب للقرآن و هو آتئذ لم يكتب كلّه.

و فى الجواب نقول: استعمال هذه الكلمه لا يستلزم أن يكون القرآن كله

ص: ٧٢

مكتوبا. لأن اسم القرآن يطلق على كل هذا الكتاب، وعلى أجزائه أيضا.

أضف إلى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحيانا بمعنى أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب فيما بعد، وإن لم يكن كذلك حين إطلاق اسم الكتاب عليه. ففي آية أخرى نقراً: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (١)**. و من المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدون بين الناس قبل نزوله.

و ثمة احتمال آخر و هو إن التعبير بالكتاب يشير إلى كتابه القرآن في «اللوحة المحفوظ» (٢).

٣- ما هي الهداية؟

كلمه (الهدايه) لها عده معانى فى القرآن الكريم، و كلها تعود أساسا إلى معنيين:

١- الهدايه التكوينيّه: و هى قياده رب العالمين لموجودات الكون، و تتجلى هذه الهدايه فى نظام الخليقه و القوانين الطبيعيه المتحكمه فى الوجود. و واضح أن هذه الهدايه تشمل كل موجودات الكون.

يقول القرآن على لسان موسى عليه السلام: **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٣)**.

٢- الهدايه التشريعيّه: و هى التى تتم عن طريق الأنبياء و الكتب السماويه، و عن طريقها يرتفع الإنسان فى مدارج الكمال، و شواهدا فى القرآن كثيره منها قوله تعالى: **وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (٤)**.

ص: ٧٣

١- ١) - ص ٢٩.

٢- ٢) - راجع المجلد السابع من هذا التفسير، ذيل الآيه ٣٩ من سوره الرعد.

٣- ٣) - طه، ٥٠.

٤- ٤) - الأنبياء، ٧٣.

٤- لماذا اختصت هدايه القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هدايه للبشريه جمعاء، فلما ذا خصت الآيه الكريمة المتقين بهذه الهدايه؟ السبب هو أن الإنسان لا يتقبل هدايه الكتب السماويه و دعوه الأنبياء، ما لم يصل إلى مرحله معينه من التقوى (مرحله التسليم أمام الحق و قبول ما ينطبق مع العقل و الفطره).

و بعباره اخرى: الأفراد الفاقدون للإيمان على قسمين:

قسم يبحث عن الحق، و يحمل مقدارا من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق أنى وجده.

و قسم لجوج متعصب قد استفحلت فيه الأهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى فى إطفاء نوره حيثما وجده.

و من المسلم به أن أفراد القسم الأول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أى كتاب سماوى آخر، أما القسم الثانى فلا حظّ لهم فى ذلك.

و بعباره ثالثه: كما إن «فاعليته الفاعل» شرط فى الهدايه التكوينيّه و فى الهدايه التشريعيّه، كذلك «قابليه القابل» شرط فيهما أيضا.

الأرض السبخه لا تثمر و إن هطل عليها المطر آلاف المرات، فقابليه الأرض شرط فى استثمار ماء المطر.

و ساحه الوجود الإنسانى لا تتقبل بذر الهدايه ما لم يتمّ تطهيرها من اللجاج و التعصب و العناد. و لذلك قال سبحانه فى كتابه العزيز أنه: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

إشاره

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

التفسير

إشاره

آثار التقوى فى روح الإنسان و بدنه:

فى بدايه هذه السوره قسم القرآن الناس حسب ارتباطهم بخط الإسلام على ثلاثة أقسام:

١-المتقون:و هم الذين تقبلوا الإسلام فى جميع أبعاده.

٢-الكافرون:و يقعون فى النقطه المقابله للمتقين،و يعترفون بكفرهم،و لا يابون أن يظهرأ عداؤهم للإسلام فى القول و العمل.

٣-المنافقون:و لهم وجهان،فهم مسلمون ظاهرا أمام المسلمين،و كفّار أمام أعداء الدين.و شخصيتهم الأصليه هى الكفر طبعاً و إن تظاهروا بالإسلام.

المجموعه الثالثه تضر بالإسلام-دون شك-أكثر من المجموعه الثانيه، و لذلك فإن القرآن يقابلهم بشده أكثر كما سنرى.

هذه المسأله لا- تختص بالإسلام طبعاً، كل المذاهب فى العالم لها مؤمنون معتقدون، أو معارضون صريحون، أو منافقون محافظون. كما أنها لا تختص بزمان معين، بل هى ساريه فى كل العصور.

الآيات المذكوره تدور حول المجموعه الاولى، و تطرح خصائصهم فى خمس عناوين هى:

١- الإيمان بالغيب:

«الغيب و الشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، و عالم الغيب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغيب» فى الأصل يعنى ما بطن و خفى.

و قيل عن عالم ما وراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسنا. التقابل بين العالمين المذكور فى آيات عديده كقوله تعالى: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١)**.

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطه الفاصله الاولى بين المؤمنين بالأديان السماويه، و بين منكرى الخالق و الوحى و القيامة. و من هنا كان الإيمان بالغيب أول سمه ذكرت للمتقين.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادى، و اجتازوا جدرانها، إنهم بهذه الرؤيه الواسعه مرتبطون بعالم كبير لا- متناه. بينما يصرّ معارضوهم على جعل الإنسان مثل سائر الحيوانات، محصوراً فى موقعه من العالم المادى. و هذه الرؤيه الماديه تقمّصت فى عصرنا صفات العلميه و التقدميه و التطوريه! لو قارنا بين فهم الفريقيين و رؤيتهما، لعرفنا أنّ: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أنّ عالم الوجود أكبر و أوسع بكثير من هذا العالم المحسوس، و خالق عالم الوجود

ص: ٧٤

غير متناه في العلم و القدره و الإدراك، و أنه أزلّي و أبدّي. و أنه صمّم هذا العالم وفق نظام دقيق مدروس. و يعتقدون أن الإنسان-بما يحمله من روح إنسانيه-يسمو بكثير على سائر الحيوانات. و أن الموت ليس بمعنى العدم و الفناء، بل هو مرحله تكاملية في الإنسان، و نافذه تطل على عالم أوسع و أكبر.

بينما الإنسان المادى يعتقد أن عالم الوجود محدود بما نلمسه و نراه. و أن العالم وليد مجموعه من القوانين الطبيعیه العمياء الخاليه من أى هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور. و الإنسان جزء من الطبيعه ينتهى وجوده بموته، يتلاشى بدنه، و تندمج أجزاءه مرّه اخرى بالمواد الطبيعیه. فلا-بقاء للإنسان، و ليس ثمّه فاصله كبيره بينه و بين سائر الحيوانات (1).! ما أكبر الهوه التى تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون و الحياه! و ما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤيه، من حياه اجتماعيه و سلوك و نظام! الرؤيه الاولى تربى صاحبها على أن ينشد الحق و العدل و الخير و مساعده الآخرين. و الثانيه، لا تقدّم لصاحبها أى مبرّر على ممارسه الأمور اللهم إلا ما عاد عليه بالفائده فى حياهه الماديه. من هنا يسود فى حياه المؤمنين الحقيقيين التفاهم و الإخاء و الطهر و التعاون، بينما تهيمن على حياه الماديين روح الاستعمار و الاستغلال و سفك الدماء و النهب و السلب. و لهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطه البدايه فى التقوى.

يدور البحث فى كتب التفسير عن المقصود بالغيب، أهو إشاره إلى ذات البارى تعالى، أم أنه يشمل-أيضا-الوحى و القيامه و عالم الملائكه و كل ما هو وراء الحس؟ و نحن نعتقد أن الآيه أرادت المعنى الشامل لكلمه الغيب، لأن الإيمان بعالم ما وراء الحس- كما ذكرنا-أول نقطه افتراق المؤمنين عن

ص: ٧٧

الكافرين، إضافة إلى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص.

بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام تفسّر الغيب فى الآية، بالمهدى الموعود المنتظر (سلام الله عليه) و الذى نعتقد بحياته و خفائه عن الأنظار، و هذا لا ينافى ما ذكرناه بشأن معنى الغيب، لأن الروايات الواردة فى تفسير الآيات تبين غالبا مصاديق خاصه للآيات، دون أن تحدد الآيات بهذه المصاديق الخاصه، و سنرى فى صفحات هذا التفسير أمثله كثيره لذلك. و الروايات المذكوره بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف فى الواقع توسيع نطاق معنى الإيمان بالغيب، ليشمل حتى الإيمان بالمهدى المنتظر عليه السّلام و يمكننا القول أنّ الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديده.

٢- الارتباط بالله:

الصفة الاخرى للمتقين هى أنهم يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .

«الصّلاه» باعتبارها رمز الارتباط بالله، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ما وراء الطبيعه على ارتباط دائم بالخالق العظيم. فهم لا يحنون رؤوسهم إلا أمام الله، و لا يستسلمون إلا لرب السماوات و الأرض، و لذلك لا معنى فى قاموس حياتهم لعباده الأوثان، أو التسليم أمام الجبابره و الطواغيت.

مثل هذا الإنسان يشعر أنّه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنّه منح لياقه الحديث مع ربّ العالمين، و هذا الإحساس الوجدانى أكبر عامل فى تربيته الموجود البشرى.

الإنسان الذى يقف خمس مرات يوميا أمام الله، يتضرع إليه و يناجيه، ينطع فكره و عمله و قوله بطابع إلهى، و مثل هذا الإنسان لا ينهج طريقا فيه سخط الله (على أن يكون تضرعه لله صادرا عن أعماق قلبه و منطلقا من تمام وجوده) (١).

ص: ٧٨

المتقون-إضافه إلى ارتباطهم الدائم بالخالق-لهم ارتباط وثيق و مستمر بالمخلوقين،و من هنا كانت الصفه الثالثه التى بيئنها لهم القرآن أنهم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

يلاحظ أن القرآن لا يقول:و من أموالهم ينفقون،بل يقول: وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

يلاحظ أن القرآن لا يقول:و من أموالهم ينفقون،بل يقول: وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ،و بذلك وسع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب الماديه و المعنويه.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فسحب،بل ينفقون من علمهم و مواهبهم العقلية و طاقاتهم الجسميه و مكانتهم الاجتماعيه،و بعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجه إلى ذلك دون توقع الجزاء منه.

الملاحظه الاخرى:إن الإنفاق قانون عام فى عالم الخليقه،و خاصه فى التركيب العضوى لكل موجود حى.قلب الإنسان لا يعمل لنفسه فقط،بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن.الدماغ و الرئه و سائر أجهزه البدن تنفق دائما من ثمار عملها،و الحياه الجماعيه-أساسا-لا مفهوم لها دو نما إنفاق (١) .

الارتباط بالناس-فى الحقيقه حصيله الارتباط بالله.فالإنسان المرتبط بالله يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنما هى مواهب إلهيه مودعه لديه لفته زمته معينه.

و من هنا فلا يزعه الإنفاق بل يسره و يفرحه،لأنه بالإنفاق قسّم مال الله بين عباد الله،و بقيت له نتائج هذا العمل و بركاته الماديه و المعنويه.و هذا التفكير يطهر روح الإنسان من البخل و الحسد،و يحوّل الحياه من ساحه لتنازع البقاء إلى مسرح للتعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسئول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين،مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من

(١)

من هذا التفسير).

ص: ٧٩

فى حدىث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بشأن تفسير الآيه وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ يقول: «إِنَّ معناه وَمِمَّا عَلَّمْنَاهُمْ يَبْتُونَ» (١).

بديهى أَنَّ الرّوايه لا- تريد أن تجعل الإنفاق مختصا بالعلم، بل إن الإمام الصادق يريد- بذكر هذا اللون من الإنفاق- أن يوسّع مفهوم الإنفاق كى لا يكون مقتصرًا على الجانب المالى كما يتبادر إلى الأذهان لأول وهله.

و من هنا يتضح ضمنا أن الإنفاق المذكور فى الآيه، لا يقتصر على الزكوات الواجبه و المستحبه، بل يتسع معناه ليشمل كل مساعده بلا مقابل.

٤- الإيمان بالأنبياء عليهم السلام:

الخاصيه الرابعه للمتقين الإيمان بجميع الأنبياء و برسالاتهم الإلهيه؛ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ. و فى هذا التعبير القرآنى إشاره إلى أن المتقين يؤمنون بتوافق دعوه الأنبياء فى المبادئ و الاسس، بأنهم جميعا هداه البشرىه نحو صراط مستقيم واحد، أحدهم يكمل الشوط الذى قطعه سلفه فى قياده البشرىه نحو كمالها المرسوم. و يؤمنون بأن الأديان الإلهيه ليست و سيله للفرقه و النفاق، بل على العكس و سيله للارتباط و عامل للشّد بين أبناء البشر.

الأشخاص الذين يحملون مثل هذه الرّويه و مثل هذا الإدراك، يسعون تطهير أرواحهم من التعصّب، و يؤمنون بما جاء به جميع الأنبياء لهدايه البشر و تكاملهم، و يحترمون كل دعاه و هداه طريق التوحيد.

الإيمان برسالات الأنبياء السابقين، لا يمنع طبعًا من انتهاج رساله خاتم

الأنبياء فى الفكر و العمل، لأن هذه الرساله هى آخر حلقة من السلسله التكاملية للأديان، و عدم انتهاجها يعنى التخلف عن المسيره التكاملية للبشرية.

٥- الإيمان بيوم القيامة:

آخر صفة فى هذه السلسله من الصفات التى قررها القرآن للمتقين وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

إنهم يوقنون بأن الإنسان لم يخلق هملاً- و عبثاً، فالخليقه عينت للكائن البشرى مسيره تكاملية لا تنتهى إطلاقاً بموته، إذ لو كان الموت نهايه المسير لكانت حياه الإنسان عبثاً لا طائل تحته.

المتقون يقرون بأن عداله الله المطلقه تنتظر الجميع، و لا شىء من أعمال البشر فى هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

هذا اللون من التفكير يبعث فى نفس حامله الهدوء و السكينه، و يجعله يتحمل أعباء المسئوليه و مشاقها بصدر رحب، و يقف أمام الحوادث كالطود الأشم، و يرفض الخضوع للظلم. و هذا التفكير يملأ الإنسان ثقه بأن الأعمال-صالحها و طالحها- لها جزاء و عقاب، و بأنه ينتقل بعد الموت إلى عالم أرحب خال من كل ألوان الظلم، يتمتع فيه برحمه الله الواسعه و أطفاه الغزيره.

الإيمان بالآخريه يعنى شقّ حاجز عالم ماده و الدخول إلى عالم أسمى.

و يعنى أن عالمنا هذا مزرعه لذلك العالم الأسمى و مدرسه إعداديه له، و أنّ الحياه فى هذا العالم ليست هدفاً نهائياً، بل تمهيد و إعداد للعالم الآخر.

الحياه فى هذا العالم شبيهه بحياه المرحله الجنينيه، فهى ليست هدفاً لخلق الإنسان، بل مرحله تكاملية من أجل حياه اخرى. و ما لم يولد هذا الجنين سالماً خالياً من العيوب، لا يستطيع أن يعيش سعيداً فى الحياه التاليه.

الإيمان بيوم القيامة له أثر عميق فى تربيته الإنسان. يهبه الشجاعه و الشهامه،

لأن أسمى و سام يتقلده الإنسان فى هذا العالم، هو و سام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهى، و الشهاده أحب شىء للإنسان المؤمن، و بدايه لسعاده الأبدية.

الإيمان بيوم القيامة يصون الإنسان من ارتكاب الذنوب. بعبارة اخرى، يتناسب ارتكابنا للذنوب مع إيماننا بالله و اليوم الآخر تناسباً عكسياً، فكلمة قوى الإيمان قلت الذنوب. يقول الله سبحانه لنبىه داود: **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (١)**.

نسيان يوم الحساب أساس كل طغيان و ظلم و ذنب، و بالتالى أساس استحقاق العذاب الشديد.

آخر آيه فى هذا البحث تشير إلى النتيجة التى يتلقاها المؤمنون المتصفون بالصفات الخمس المذكوره، تقول: **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ... وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**.

و قد ضمن رب العالمين لهؤلاء هدايتهم و فلاحهم، و عبارة مِنْ رَبِّهِمْ إشاره إلى هذه الحقيقة.

و استعمال حرف (على) فى عبارة **عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ** يوحى بأن الهدايه الإلهيه مثل سفينه يركبها هؤلاء المتقون لتوصلهم إلى السعاده و الفلاح. (لأن حرف -على- يوحى غالباً معنى الاستعلاء).

و استعمال كلمه «هدى» فى حاله نكره يشير إلى عظمه الهدايه التى شملهم الله بها.

و تعبير **هُمُ الْمُفْلِحُونَ** يفيد الانحصار كما يذكر علماء البلاغه، أى إن الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين (٢)!

ص: ٨٢

(١-١) -ص، ٢٦.

(٢-٢) -صاحب «المنار» يصر على أن تكرار كلمه «أولئك» فى الآية يفيد الإشاره إلى مجموعتين:

١- مواصلة طريق الإيمان والعمل:

الآيات المذكورة استعملت الفعل المضارع الذى يشير عادة إلى الاستمرار يؤمنون بالغيب- يقيمون الصلاة- ينفقون- وبالآخره هم يوقنون. وهذا يعنى أن المتقين و المؤمنين الحقيقيين هم الذين يواصلون مسيرتهم الحياتيه بثبات و استمرار، دون تعثر أو تلكؤ أو توقف.

هؤلاء ينطلقون منذ البدء بروح البحث عن الحق، وهذا يؤدي بهم إلى تلبية دعوه القرآن، و القرآن بعد ذلك يوجد فيهم الخصائص الخمس المذكوره.

٢- ما هي حقيقه التقوى؟

التقوى من الوقايه، أى الحفظ و الصيانه (١)، و هي بعبارة اخرى جهاز الكبح الداخلى الذى يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

لهذا السبب

وصف أمير المؤمنين على عليه السلام التقوى بأنها الحصن الذى يقى الإنسان أخطار الانزلاق إذ قال: «اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز» (٢).

و فى النصوص الدينيه و الأدبيه تشبيهات كثيره تجسم حاله التقوى، فعن الامام على عليه السلام قال: «ألا- و إن التقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، و أعطوا أزمته، فأوردتهم الجنة» (٣).

(٢)

الاولى- أولئك الذين يتصفون بالإيمان بالغيب، و بإقامه الصلاة، و بالإنفاق. و الثانیه- هم المؤمنون بالوحى السماوى و بالآخره. نحن نستبعد كثيرا هذا التفسير، لأن الصفات الخمس المذكوره مترابطه لا يمكن التفكيك بينها، و كلها تصف مجموعه واحده.

ص: ٨٣

١ - ١) - يقول الراغب فى مفرداته: الوقايه حفظ الشئ مما يؤذيه و يضره، و التقوى جعل النفس فى وقايه مما يخاف، لذلك يسمى الخوف تاره تقوى بينما الخوف سبب للتقوى. و فى عرف الشرع، التقوى حفظ النفس عما يؤثم. و «كمال التقوى» اجتناب المشتبهات.

٢-٢) - نهج البلاغه، الخطبه ١٥٧.

٣-٣) - نهج البلاغه، الخطبه ١٦.

و عبد الله بن المعتز شبه التقوى بحاله رجل يسير على طريق شائك، و يسعى إلى أن يضع قدمه على الأرض بتأن و حذر، كي لا تخزه الأشواك، أو تعلق بثيابه، يقول:

خل الذنوب صغيرها

و كبيرها فهو التقى

و اصنع كماش فوق أر

ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيره

إن الجبال من الحصى! (١)

هذا التشبيه يفيد أيضا أن التقوى لا تعنى العزله و الانزواء عن المجتمع، بل تعنى دخول المجتمع، و خوض غماره، مع الحذر من التلوث بأدرانته إن كان المجتمع ملوثا.

بشكل عام، فإن حاله التقوى و الضبط المعنوى من أوضح آثار الإيمان بالله و اليوم الآخر. و معيار فضيله الإنسان و افتخاره، و مقياس شخصيته فى الإسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** (٢) شعارا إسلاميا خالدا.

يقول الامام على عليه السلام «ان تقوى الله مفتاح سداد، و ذخيره معاد، و عتق من كل ملكه، و نجاه من كل هلكه» (٣).

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب و فروع، منها التقوى المالىه و الاقتصاديه، و التقوى الجنسيه و الاجتماعيه و التقوى السياسيه....

ص: ٨٤

١-١) - تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ١، ص ٦٢.

٢-٢) - الحجرات، ١٤.

٣-٣) - نهج البلاغه، الخطبه ٢٣٠.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

التفسير

اشاره

المجموعه الثانيه: الكفار المعاندون

هذه المجموعه تقف فى النقطه المقابله تماما للمتقين، والآيتان المذكورتان يبينتا باختصار صفات هؤلاء.

الآيه الاولى تقول إن الإنذار لا يجدى نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنتون فى كفرهم إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بعكس الطائفه الاولى المستعدّه لقبول الحق لدى أول ومضه.

هذه المجموعه غارقه فى ضلالها و ترفض الانصياع للحق حتى لو اتضح لديها. من هنا كان القرآن غير مؤثر فى هؤلاء. وهكذا الوعد و الوعيد، لأنهم يفتقدون الأرضيه اللازمه لقبول الحق و الاستسلام له.

الآيه الثانيه تشير إلى سبب هذا اللجاج و التعصب و تقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، و لذلك استحقوا أن يكون لهم

أجهزه استقبال الحقائق معطوبه عند هؤلاء... العين التي يرى المتقون فيها آيات الله، والاذن التي يسمعون بها نداء الحق، والقلب الذي يدركون به الحقائق، كلها قد تعطلت و توقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون و آذان و عقول، لكنهم يفتقدون قدره «الرؤية» و «الإدراك» و «السمع». لأن انغماسهم فى الانحراف و عنادهم و لجاجهم، كلها عناصر تشكل حجابا أمام أجهزه المعرفه.

الإنسان قابل للهدايه طبعاً- إن لم يصل إلى هذه المرحله- مهما بلغ به الضلال أما حينما يبلغ فى درجه يفقد معها حس التشخيص «فلات حين نجاه» لأنه افتقد أدوات الوعى و الفهم، و من الطبيعى أن يكون فى انتظاره عذاب عظيم.

بحوث

أشاره

١- سلب قدره التشخيص و مسأله الجبر

أول سؤال يطرح فى هذا المجال يدور حول مسأله الجبر، التي قد تتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى: **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ...** فهذا الختم يفيد بقاء هؤلاء فى الكفر إجباراً، دون أن يكون لهم اختيار فى الخروج من حالتهم هذه. أليس هذا بجبر؟ و إذا كان جبراً فلما ذا العقاب؟ القرآن الكريم يجيب على هذه التساؤلات و يقول: إن هذا الختم و هذا الحجاب هما نتيجة إصرار هؤلاء و لجاجهم و تعنتهم أمام الحق، و استمرارهم فى الظلم و الطغيان و الكفر. يقول تعالى: **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ (١)** و يقول:

ص: ٨٦

و يقول أيضا: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً (٢).

كل هذه الآيات تقرر أنّ السبب في سلب قدره التشخيص، و توقف أجهزه الإدراك عن العمل يعود إلى الكفر و التكبر و التجبر و اتباع الهوى و اللجاج و العناد أمام الحق، هذه الحالة التي تصيب الإنسان، هي في الحقيقة ردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية في الوجود البشري، أن الإنسان لو تعود على انحراف و استأنس به، يتخذ في المرحله الاولى ماهيه ال«حاله» ثم يتحول إلى «عاده» و بعدها يصبح «ملكه» و جزء من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحيانا درجه لا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عنها أبدا. لكن الإنسان اختار طريق الانحراف هذا عن علم و وعى، و من هنا كان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون في المسأله جبر. تماما مثل شخص فقأ عينيه و سدّ أذنيه عمدا، كى لا يسمع و لا يرى.

و لو رأينا أن الآيات تنسب الختم و إسدال الغشاوه إلى الله، فذلك لأن الله هو الذى منح الانحراف مثل هذه الخاصيه. (تأمل بدقه).

عكس هذه الظاهره مشهود أيضا في قوانين الطبيعه، أى إن الفرد السائر على طريق الطهر و التقوى و الاستقامه تمتد يد الله عز و جل إليه لتقوى حاسه تشخيصه و إدراكه و رؤيته، هذه الحقيقه توضحها الآيه الكريمة. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (٣).

في حياتنا اليوميه صور عديده لأفراد ارتكبوا عملا محرّما، فتألّموا فى البدايه لما فعلوه و اعترفوا بذنبهم، لكنهم استأنسوا تدريجيا بفعالهم، و زالت من

نفوسهم حساسيتهم السابقه تجاه الذنب، و وصل أمرهم إلى حدّ يجدون اللذه و الإنشراح فى الانحراف، و قد يصفون عليه صفه الواجب الإنسانى! أو الواجب الدينى!! و فى تاريخنا الإسلامى ظهر مجرمون سفاكون مولعون بإزهاق الأرواح و التنكيل بالمسلمين كما ذكر فى حالات «الحجاج بن يوسف الثقفى» أنه كان يضع لأعماله الإجراميه تبريرات دينيه، و يقول مثلاً: إن الله سلّطنا على هؤلاء الناس المذنبين لنظلمهم، فهم مستحقون لذلك!! و كذلك قيل إن أحد جنود المغول خطب فى أحد مدن ايران الحدوديه و قال:

-ألستم يعتقدون أن عذاب الله يصيب المذنبين؟ فنحن عذاب الله عليكم، فلا ينبغي لكم المقاومة.

٢- لماذا يصّر الأنبياء على هدايه هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟

و هذا سؤال آخر يطرح فى إطار الآيات المذكوره. و الجواب عليه يتضح لو عرفنا أن العقاب الإلهى يرتبط بمواقف الإنسان العمليه و سلوكه الفعلى، لا بما يكّنه فى قلبه من زيغ و ضلال فقط. من هنا كان لا بدّ من توجيه الدعوه حتى إلى هؤلاء الذين لا يهتدون. بعد ذلك يستحق الفرد العقاب تبعاً لموقفه من الدعوه.

بعبارة اخرى لا بدّ من «إتمام الحجّه» قبل العقاب.

بعبارة موجزه: الثواب و العقاب يتوقفان حتماً على العمل بعد إنجازه، لا على المحتوى الفكرى و الروحى للفرد.

أضف إلى ما سبق: أن الأنبياء بعثوا للناس جميعاً، و هؤلاء الذين طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ قَلِيلُونَ فى المجتمع، أما الأكثرية فهم التائهون الذين يتقبلون الهدايه ضمن برنامج تعليمى تربوى صحيح.

فى الآيات المذكوره و آيات اخرى عبر القرآن عن عمليه سلب حسّ التشخيص و الإدراك الواقعى للأفراد بالفعل «ختم»، و أحيانا بالفعل «طبع» و «ران».

فى اللغه «ختم» الإناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، و أصلها من وضع الختم على الكتب و الأبواب كى لا- تفتح، و الختم اليوم مستعمل فى الاستيثاق من الشئ و المنع منه كختم سندات الأملاك و الرسائل السريه الهامه.

و هناك شواهد من التأريخ تدلّ على أن الملوك و أرباب السلطه كانوا سابقا يختمون صرر الذهب بخاتمهم الخاص و يبعثون بها إلى المنظورين للاطمئنان على سلامه الصرر و عدم التلاعب فى محتوياتها.

و الشائع فى هذا الزمان الختم على الطرود البريديه أيضا، و قد استعمل القرآن كلمه «الختم» هنا للتعبير عن حال الأشخاص المعاندين الذين تراكمت الذنوب و الآثام على قلوبهم حتى منعت كلمه الحق من النفوذ إليها و أمست كالختم لا- سبيل إلى فتحه.

و «طبع» بمعنى ختم أيضا.

أما «ران» فمن «الرين» و هو صدأ يعلو الشئ الجلىّ، و استعمل القرآن هذه الكلمه فى حديثه عن قلوب الغارقين فى أحوال الفساد و الرذيله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١).

المهم أن الإنسان ينبغى أن يكون حذرا لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبه و العمل الصالح، كى لا يتحول إلى صفة ثابتة مختوم عليها فى القلب.

ص: ٨٩

فى حديث عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: «ما من عبد مؤمن إلا و فى قلبه نكته بيضاء، فإذا أذنب ذنبا خرج فى تلك النّكته نكته سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السّواد، فإنّ تمادى فى الذّنوب زاد ذلك السّواد حتّى يغطّى البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبدا، و هو قول الله عزّ و جلّ: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١) .

٤- المقصود من «القلب» فى القرآن

لماذا نسب إدراك الحقائق فى القرآن إلى القلب، بينما القلب ليس بمركز للإدراك بل مضخه لدفع الدم إلى البدن؟! الجواب على ذلك، أن القلب فى القرآن له معان متعدده منها:

١- بمعنى العقل و الإدراك كقوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (٢) .

٢- بمعنى الروح و النفس كقوله سبحانه: وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (٣) .

٣- بمعنى مركز العواطف، كقوله: سَيَأْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ (٤) و قوله: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (٥) .

لمزيد من التوضيح نقول:

فى وجود الإنسان مركزان قويّان هما:

١- مركز الإدراك، و يتكون من الدماغ و جهاز الأعصاب. لذلك نشعر أننا

ص: ٩٠

١- ١) - اصول الكافي، ج ٢، باب الذنوب، ح ٢٠، ص ٢٠٩.

٢- ٢) - ق، ٣٧.

٣- ٣) - الأحزاب، ١٠.

٤- ٤) - الأنفال، ١٢.

٥- ٥) - آل عمران، ١٥٩.

نستقبل المسائل الفكرية بدماعنا حيث يتم تحليلها و تفسيرها. (و إن كان الدماغ و الأعصاب فى الواقع وسيله و آله للروح).

٢-مركز العواطف، و هو عباره عن هذا القلب الصنوبرى الواقع فى الجانب الأيسر من الصدر. و المسائل العاطفيه تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز حيث تنقدح الشراره الاولى.

حينما نواجه مصيبه فإننا نحس بثقلها على هذا القلب الصنوبرى، و حينما يغمرنا الفرح فإننا نحس بالسرور و الإنشراح فى هذا المركز (لا حظ بدقه).

صحيح أن المركز الأصى للإدراك و العواطف هو الروح و النفس الإنسانيه، لكن المظاهر و ردود الفعل الجسميه لها مختلفه. ردود فعل الفهم و الإدراك تظهر أولا فى جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفيه كالحب و البغض و الخوف و السكينه و الفرح و الهم تظهر فى القلب بشكل واضح، و يحسها الإنسان فى هذا الموضوع من الجسم.

مما تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفيه فى القرآن بالقلب (العضو الصنوبرى المخصوص)، و ارتباط المسائل العقليه بالقلب (أى العقل أو الدماغ).

أضف إلى ما تقدم أن عضو القلب له دور مهم فى حياه الإنسان و بقاءه، و توقفه لحظه يؤدى إلى الموت، فما ذا يمنع أن تنسب النشاطات الفكرية و العاطفيه إليه؟!

٥- لماذا جاءت «قلوبهم» و «أبصارهم» بصيغه الجمع، و «سمعهم» بصيغه المفرد؟

يتكرر فى القرآن استعمال القلب و البصر بصيغه الجمع: قلوب و أبصار، بينما يستعمل السمع دائما بصيغه المفرد، فما السرّ فى ذلك؟ قبل الإجابة لا بد من الإشاره إلى أن القرآن استعمل السمع و البصر بصيغه

المفرد أيضا كقوله تعالى: وَ خَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِي وَ قَلْبِي وَ جَعَلَ عَلَيَّ بَصِيرَةً غِشَاوَةً (١).

الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسير «التبيان» ذكر نقلا عن لغوى معروف، أن سبب ذلك قد يعود إلى أحد أمرين:

أولا: إن كلمه «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، و لا حاجه عندئذ إلى جمعها.

ثانيا: إن كلمه «السمع» لها معنى المصدر، و المصدر يدل على الكثير و القليل، فلا حاجه إلى جمعه.

و يمكننا أن نضيف إلى ما سبق تعليلا - ذوقيا و علميا هو أن الإدراكات القلبيه و المشاهدات العينيه تزيد بكثير على «المسموعات»، و لذا جاءت القلوب و الأبصار بصيغه الجمع، و الفيزياء الحديثه تقول لنا إن الأمواج الصوتيه المسموعه معدوده لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما أمواج النور و الألوان المرئيه تزيد على الملايين. (تأمل بدقه).

ص: ٩٢

اشاره

وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْرُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

التفسير

اشاره

المجموعه الثالثه: المنافقون

هذه الآيات تبين- باختصار و عمق- الخصائص الروحيه للمنافقين

الإسلام واجه في عصر انبثاق رساله مجموعه لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا قدره اللازمه للمعارضه.

هذه المجموعه المذبذبه المصابه بازدواج الشخصيه توغلت في أعماق المسلمين، وشكّلت خطرا كبيرا على الإسلام و المسلمين. كان تشخيصهم صعبا لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بين بدقه مواصفاتهم و أعطى للمسلمين في كل القرون و الأعصار معايير حيه لمعرفةهم.

الآيات المذكوره قبلها بينت في مطلعها الخط العام للنفاق و المنافقين: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .**

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعا من الشطاره و الدهاء يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، و يبددون بانحرافهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلا الخسران و العذاب الإلهي. **وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ .**

في الآيه التاليه يبين القرآن أن النفاق في حقيقته نوع من المرض. الإنسان السالم له وجه واحد فقط، و في ذاته انسجام تام بين الروح و الجسد، لأن الظاهر و الباطن، و الروح و الجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمنا فالإيمان يتجلى في كل وجوده، و إذا كان منحرفا فظاهره و باطنه يدلان على انحرافه.

و ازدواجه الجسم و الروح مرض آخر و علّه إضافيه. إنه نوع من التضاد و الانفصال في الشخصيه الإنسانية: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ .**

و بما أنّ سنّه الله في الكون اقتضت أن يتيسر الطريق لكل سالك، و أن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد في وضع قدمه على طريق. و بعبارة اخرى: إن تكريس أعمال الإنسان و أفكاره في خط معين، تدفعه نحو الانغماس و الثبات في ذلك الخط فقد أضاف القرآن قوله: **فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .**

و بما أن الكذب رأس مال المنافقين، يبررون به ما في حياته من متناقضات، و لهذا أشار القرآن في ختام الآيه إلى هذه الحقيقه:
وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، و تذكر أولًا أنهم يتشدقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب و الفساد: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ .

ذكرنا سابقا أن الإنسان، لو تمادى في الغي و الضلال، يفقد قدره التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، و يصبح الذنب و الإثم جزء من طبيعته. و المنافقون أيضا بإصرارهم على انحرافهم يتطبعون بخط النفاق، و تتراءى لهم أعمالهم بالتدريج و كأنهم أعمال إصلاحيه، و تغدو بصوره طبيعته ثانيه لهم.

علامتهم الاخرى: اعتدادهم بأنفسهم و اعتقادهم أنهم ذووا عقل و تدبير، و أن المؤمنين سفهاء و بسطاء: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، قَالُوا: أَوْ نؤمنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟! .

و هكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الانصياع للحق و إتباع الدعوه الإلهيه سفاهه، بينما يرون شيطنتهم و تذبذبهم تعقلا و درايه!! غير أن الحقيقه عكس ما يرون: أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ .

أليس من السفاهه أن لا يضع الإنسان لحياته خطا معيناً، و يبقى يتلون بألوان مختلفه؟ أليس من السفاهه أن يضيع الإنسان وحده شخصيته، و يتجه نحو ازدواجيه الشخصيه و تعدد الشخصيات في ذاته، و يهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب و التآمر و التخريب، و هو مع ذلك يعتقد برجاحه عقله؟! العلامه الثالثه لهؤلاء، هي تلونهم بألوان معينه تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين و لأعدائهم من الشياطين:

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ

!

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، وأن ولاءهم للمؤمنين ظاهري، هدفه الاستهزاء.

و بلهجه قويه حاسمه يرد القرآن الكريم على هؤلاء و يقول: [□]اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١).

الآيه الأخيره توضح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، و خسارتهم في سيرتهم الحياتيه الصّاله: [□]أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ [□]فَمَا رَبِحَتِ [□]بِجَارَتُهُمْ [□]وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

بحوث

اشاره

١- ظهور النفاق و أسبابه:

حينما تندلع الثوره في منطقته معينه، فإن مصالح الفئه الظالمه الناهبه المستبده تتعرض للخطر حتما، خاصه إذا كانت الثوره مثل ثوره الإسلام تقوم على أساس الحقّ و العداله. هذه الفئه تسعى للإطاحه بالثوره عن طريق السخريه و الاستهزاء أولا، ثم بالاستفاده من القوه المسلحه و الضغوط الاقتصاديه، و التضليل الاجتماعي.

و حين تبدو في الأفق علامات انتصار الثوره، تعتمد فئه من المعارضين إلى تغيير موقفها، فتستسلم ظاهريا، و تتحول في الواقع إلى مجموعه معارضه سرّيه.

هؤلاء يسمون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق

ص: ٩٤

١- ١) -يعمهون، من «العمه» أى التردد في الأمر، و أيضا بمعنى عمى القلب و البصيره بسبب التحير (راجع: مفردات الراغب، و تفسير المنار، و قاموس اللغه).

مشتقه من النفق: وهو الطريق النافذ في الأرض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، و هم أخطر أعداء الثورة، لأن مواقفهم غير واضحة، والامّة الشائره لا تستطيع أن تعرفهم و تطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون في صفوف الناس المخلصين الطيبين، و يتسلمون أحيانا المناصب الحساسه في المجتمع.

ثوره الإسلام في عصرها الأول واجهت مثل هذه المجموعه. فبعد الهجره المباركه وضعت أول لبنه للدوله الإسلاميه في المدينه المنوره، و ازداد الكيان الإسلامى الوليد قوه بعد انتصار المسلمين في غزوه «بدر». و هذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينه، و خاصه اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون في المدينه بمكانه ثقافيه و اقتصاديه مرموقه. و هؤلاء أنفسهم كانوا يبشرون قبل البعثه النبويه المباركه بظهور النبى.

كما كان في المدينه أفراد مرشحون للزعامه و الملكيه، لكن الهجره النبويه بدّدت آمال هؤلاء المتضررون من الدعوه رأوا أن الجماهير تندفع نحو الإسلام، و تنقاد إلى النبى الخاتم صلّى الله عليه و اله و سلّم حتى عمّت الدعوه ذويهم و أقاربهم.

و بعد مدّه من الدين الجديد، لم يروا بدّا من الاستسلام و التظاهر بالإسلام، تجنبا لمزيد من الأخطار الاقتصاديه و الاجتماعيه و حذرا من الإباده، خاصه و أن قوّه العربى تتمثل في قبيلته، و القبائل أسلمت للدين الجديد لكن هؤلاء راحوا يخططون خفيه للإطاحه بالإسلام.

بعباره موجزه، إن ظاهره «النفاق» في المجتمع، تعود إلى عاملين: أحدهما، انتصار الثورة و سيطره الرساله الثوريه على المجتمع، و الآخر: انهزام المعارضين نفسيا، و فقدانهم للشجاعه الكافيه لمواجهه المد الجديد، و اضطرارهم إلى الاستسلام الظاهرى أمام الدعوه.

٢- ضرورة معرفه المنافقين فى كل مجتمع

ظاهره النفاق و المنافقين لا- تختص-دون شك-بعصر الرساله الأول، بل هى ظاهره عامه تظهر بشكل و آخر فى كل المجتمعات. من هنا لا- بدّ للجماعه المسلمه أن تعرف أوصافهم كما جاء فى القرآن، كى تحبط مؤامراتهم و تقف بوجههم. فى الآيات السابقه و فى سوره المنافقين و هكذا فى النصوص الإسلاميه وردت للمنافقين أوصاف مختلفه منها:

١- كثره الضجيج و الادعاءات الفارغه، أو بعبارة اخرى كثره القول و قلّه العمل المفيد الممتزن.

٢- التلؤن و التذبذب، فمن المؤمنين يقولون «آمنّا» و مع المعارضين يقولون «إنّا معكم».

٣- الانفصال عن الامه، و تشكيل الجمعيات السريه وفق خطط مبيتته.

٤- المكر و الخداع و الكذب و التملق و النكول و الخيانه.

٥- التعالى على الناس، و تحقيرهم، و اعتبارهم بلهاء سفهاء، إلى جانب الاعتداد بالنفس.

على أى حال، ازدواجيه شخصيه، و التضاد بين المحتوى الداخلى و السلوك الخارجى فى وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديده بارزه مشهوده فى أعمالهم و أقوالهم و سلوكهم الفردى و الاجتماعى.

و ما أجمل تعبير القرآن فى حق هؤلاء إذ يقول: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**، و أى مرض أسوأ من ازدواجيه الظاهر و الباطن، و من التعالى على الناس؟! هذا المرض مثل سائر الأمراض الخفيه التى تصيب القلب لا يمكن إخفاؤه تماما، بل تظهر علائمه بوضوح على جميع أعضاء الإنسان.

فى مجلدات هذا التفسير شرح أو فى لحاله النفاق و المنافقين لدى البحث فى الآيات ١٤١-١٤٣ من سوره النساء (المجلد الثالث).

و فى الآيات ٤٩-٥٧ من سورة التوبة (المجلد السادس).

و فى الآيات ٦٢-٨٥ من سورة التوبة أيضا (المجلد السادس).

٣- سعه معنى النفاق:

النفاق فى مفهومه الخاص- كما ذكرنا- صفه أولئك الذين يظهرن الإسلام، و يبطنون الكفر. لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجيه بين الظاهر و الباطن، و كل افتراق بين القول و العمل. من هنا قد يوجد فى قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

فى الحديث النبوى: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا و إن صام و صلّى و زعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، و إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف» (١).

الحديث لا- يدور هنا طبعا عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذى فى قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفه، و خاصه بشكل رياء، كما

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرياء شجره لا تثمر إلاّ الشّرك الخفى، و أصلها النّفاق» (٢).

و فى نهج البلاغه نصّ رائع فى وصف المنافقين عن أمير المؤمنين على عليه السلام يقول فيه:

(٣)

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، و أحذركم أهل النّفاق، فإنّهم الضّالّون المضلّون، و الزّالّون المزلّون (٤)، يتلوّنون ألوانا، و يفتنون افتنانا (٥)، و يعمدونكم بكلّ عماد، و يرصدونكم

ص: ٩٩

١- ١) - سفينه البحار، ج ٢، ص ٦٠٥.

٢- ٢) - سفينه البحار، ج ١، ماده (رئى).

٣- ٣) - نقل نص الخطبه مع هوامشها كما جاءت فى نهج البلاغه، شرح محمّد عبده، ص ٣٨١ (م).

٤- ٤) - الزالون من زلّ أخطأ. و المزلون من أزلّه إذا أوقعه فى الخطأ.

٥- ٥) - يفتنون أى يأخذون فى فنون من القول لا يذهبون مذهبا واحدا. و يعمدونكم أى يقيمونكم بكل عماد.

بكلّ مرصاد، قلوبهم دويّه (١) و صفاحهم نقيّه. يمشون الخفاء (٢)، و يدبّون الضراء و صفهم دواء، و قولهم شفاء، و فعلهم الداء العياء (٣)، حسده الرّخاء (٤)، و مؤكّدو البلاء، و مقنطو الرّجاء، لهم بكلّ طريق صريع (٥) و إلى كلّ قلب شفيح، و إلى كلّ شجو دموع (٦) يتقارضون الثّناء (٧) و يتراقبون الجزاء: إن سألوا الحفوا (٨)، و إن عدلوا كشفوا...».

٤- مؤامره المنافقين:

المنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا على الإسلام فحسب، بل على كلّ رساله ثوريه تقدميه، حيث ينفذون بين صفوف المسلمين، و يستغلّون كل فرصه للتآمر.

يتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء في صدر الإسلام و يذكر نماذج من أعمالهم.

(٥)

و العماد: ما يقام عليه البناء. أى إذا ملتّم عن أهوائهم أقاموكم عليها بأعمده من الخديعه حتى توافقوهم. و المرصاد محل الارتقاب. و يرصدونكم: يقعدون لكم بكلّ طريق ليحوّلوكم عن الاستقامه.

ص: ١٠٠

١ - (١) - دويّه أى مريضه من الدوى بالقصر و هو المرض. و الصفاح - جمع صفحه: و المراد منها صفاح وجوههم، و نقاوتها: صفاؤها من علامات العداوه و قلوبهم ملتتهه بنارها.

٢ - (٢) - يمشون مشى التستّر. و يدبون: أى يمشون على هيئه ديب الضراء، أى يسرون سرّيات المرض فى الجسم أو سرّيات النقص فى الأموال و الأنفس و الثمرات.

٣ - (٣) - الداء العياء - بالفتح: الذى أعيب الأطباء و لا يمكن منه الشفاء.

٤ - (٤) - حسده: جمع حاسد، أى يحسدون على السعه، و إذا نزل بلاء بأحد أكدوه و زادوه. و إذا رجاى أحد شيئا أوقعوه فى القنوط و اليأس.

٥ - (٥) - الصريع: المطروح على الأرض، أى إنهم كثيرا ما خدعوا أشخاصا حتى أوقعوهم فى الهلكه.

٦ - (٦) - الشجو: الحزن، أى يبكون تصنعا متى أرادوا.

٧ - (٧) - يتقارضون: كل واحد منهم يثنى على الآخر ليثنى الآخر عليه، كأنّ كلا منهم يسلف الآخر دينا ليؤديه إليه، و كل يعمل للآخر عملا يرتقب جزاءه عليه.

٨ - (٨) - الحفوا: بالغوا فى السؤال و الحوا. و إن عدلوا أى لاموا، كشفوا أى فضحوا من يلومونه.

يذكر مثلا استهانه هؤلاء بشخصيه المؤمنين، و بما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١).

و يتخذون أحيانا في اجتماعاتهم السريه قرارات بشأن قطع مساعدتهم الماليه لأصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه و اله و سلم، كى يتفرقوا عن الرساله و الرسول: هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا، وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٢).

كما يتخذون القرارات بإخراج المؤمنين من المدينه بعد انتهاء الحرب و العوده إلى المدينه: لئن رجعنا إلى المدينه لئخرجن الأعرز منها الأذل (٣).

و كانوا يتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفه من قبيل الانشغال بالحصاد مثلا، و يتركون الرسول في ساعات الشده. و هم مع ذلك خائفين من انفضاح أمرهم و انكشاف سرهم.

بسبب هذه المواقف العدائيه التآمريه ركز القرآن على التنديد بالمنافقين في مواضع عديده، و احتوت سوره المنافقين عرضا مفصلا لوضعهم. كما تضمنت سوره التوبه و الحشر و سور اخرى حملات شديده على المنافقين، و تحدثت ثلاث عشره آيه من سوره البقره عن صفاتهم و عواقب مكرهم.

٥- خداع الضمير:

المنافقون يشكلون مشكله كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفون-

ص: ١٠١

١- ١) -التوبه، ٧٩.

٢- ٢) -المنافقون، ٧.

٣- ٣) -المنافقون، ٨.

من جهه-باحضان كل من يظهر الإسلام و بالامتناع عن تفتيش عقائد الأفراد، و مسئولون-من جهه اخرى-عن الحذر من مؤامرات المنافقين و تحركاتهم المشبوهه التي يستهدفون منها الوقوف بوجه رساله،و إن اتخذت هذه التحركات صفه إسلاميه ظاهريه.

المنافقون يظنون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين و يمرروا عليهم مؤامراتهم،بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآنى يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا يُوَضِّحُ مَفْهُومًا دَقِيقًا،فكلمه يخادعون تعنى الخداع المشترك من الطرفين،و تبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون-لعمى بصيرتهم-أن النبى خداع توصل بالدين و النبوه و جمع حوله السدج من الناس ليكون له حكم و سلطان،و من هنا راح المنافقين يتوسلون بخدعه لمقابله خدعه النبى!فالتعبير القرآنى المذكور يوضح إذن لجوء المنافقين إلى الخدعه،و يبين كذلك نظره هؤلاء الخاطئه إلى النبى الأعظم صلى الله عليه و اله و سلم.

ثم ترد الآيه الكريمة على هؤلاء و تقول: وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ ، فالفعل «يخدعون» يوضح أن الخداع من جانب المنافقين فقط، و تؤكد الآيه أيضا أنهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا،لأنهم يبددون.بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الانحراف،و يحرمون أنفسهم من السعاده التى رسم الله طريقها لهم،و يغادرون الدنيا و هم صفر اليدين من كل خير،مثقلون بأنواع الذنوب و الآثام.

لا يمكن لأحد أن يخدع الله طبعاً لأنه سبحانه عالم بالجهر و ما يخفى،و تعبير «يخدعون الله»إما أن يكون المقصود به يخادعون الرسول و المؤمنين،لأن من يخدع الرسول و المؤمنين فكأنه خدع الله(فى القرآن مواضع كثيره عظم فيها الله رسوله و المؤمنين إذ قرن اسمهم باسمه).و إما أن يكون نقص العقل و سوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حدا تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على الله شيئاً من

أعمالهم (شبيه ذلك ما ورد في آيات أخرى من كتاب الله العزيز).

على أئى حال، الآيه المذكوره تشير بوضوح إلى حقيقه خداع الضمير و الوجدان، و أن الإنسان النمحرف الملوث كثيرا ما يعمد إلى خداع نفسه و وجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، و يصبح بالتدريج مقتنعا بأن قبائحه ليست عملا انحرافيا، بل هي أعمال إصلاحيه إِنَّمَا نَحْنُ مُضِلُّوْنَ، و بذلك يخدعون أنفسهم، و يستمرون في غيهم.

ذكر أن أحد القاده الأمريكيين ووجه إليه سؤال حول سبب إلقاء القنبله الذريه على مدينتى (هيروشيما و ناكازاكي) اليابانيتين مما أدى إلى مقتل مائتى ألف إنسان برىء أو أصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! و لو لم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر، و لذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!! المنافقون فى كل عصر و فى عصرنا هذا يتشبثون بمثل هذه الأقاويل لخداع الناس و خداع أنفسهم، فهذا الزعيم الأمريكى يضع أمامه طريقين فقط هما:

استمرار الحرب أو القصف الذرى للمدن الآمنه، متناسيا طريقا ثالثا واضحا و هو الكف عن الاعتداء على الشعوب و ترك الناس أحرارا مع ثرواتهم! و مما تقدم يتضح أن النفاق و سيله لخداع الضمير و شلّ مفعوله، و ما أخطر عمليه شلّ الضمير الإنسانى، الذى يعتبر الواعظ الداخلى و الرقيب اليقظ الأمين و المندوب الإلهى فى نفس الإنسان!!.

٦- التجاره الخاسره:

شبه القرآن الكريم فى مواضع عديده عمل الإنسان فى الحياه الدنيا بالتجاره. و نحن فى الحياه الدنيا تجار نأتى إلى هذا المتجر الكبير برأس مال و هبه لنا الله سبحانه، و عناصره العقل و الفطره و العواطف و الطاقات الجسميه المختلفه

و مواهب عالم الطبيعه، ثم قياده الأنبياء، جمع يربحون و يفوزون و يسعدون، و جمع لا يجنون ربحا، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مالهم، و يفسون بكل ما لهذه الكلمه من معنى. المجاهدون فى سبيل الله من أفراد الجمع الأول، و يقول عنهم الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ (١).

و المنافقون من أبرز نماذج الجمع الثانى، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسه بظاهر الإصلاح و التعقل يقول عنهم: أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

كان بمقدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم، لأنهم كانوا يعيشون إلى جانب ينبوع الوحي الصافى، و فى جو مفعم بالصدق و الإخلاص و الإيمان. لكنهم فوّتوا على أنفسهم هذه الفرصه الفريده العظيمة، و أضاعوا ما وهبهم الله من هدايه فطريه فى ذواتهم، و من هدايه تشريعيه فى إطار نور الوحي، و اشتروا الضلاله و سلكوا طريقا خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوه و يصلوا إلى مآربهم الخبيثه.

و كان فى هذه المقايضه الخاطئه خسارتان:

الاولى: ضياع ثروتهم الماديه و المعنويه. و الثانى: فشلهم فى تحقيق أهدافهم المشؤومه. فالإسلام سرعان ما ضرب بجرانه فى أرجاء الأرض فاضحا خطط المنافقين.

ص: ١٠٤

اشاره

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعِيدٌ وَبَرَقَ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

التفسير

اشاره

مثالان رائعان لوصف حاله المنافقين:

بعد أن بين القرآن صفات المنافقين و خصائصهم، يقدم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

١- مَثَلُهُمُ الْمُنَافِقِينَ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فِي لَيْلِهِ مَظْلَمَةٌ، كِي يَهْتَدِي بِهَا إِلَى طَرِيقٍ وَ يَبْلُغُ مَقْصِدَهُ. فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

لقد ظنَّ هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانيات إناره محدوده.

و لكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جويّه، أو بسبب نفاد الوقود، و ظلّوا حائرين لا يهتدون سبيلا.

ثم تضيف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: صُمُّ بُكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

و المثال المذكور يصوّر بدقّه عمل المنافقين على ساحه الحياه الإنسانيه.

فهذه الحياه مملوءه بطرق الانحراف و الضلال، و ليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهدايه، و هذا الطريق ملئ بالمزالق و الأعاصير. و لا يستطيع الفرد أن يهتدى من بين الطرق الملتويه إلى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتجنب المزالق و يقاوم أمام الأعاصير، إلا بنور العقل و الإيمان، و بمصباح الوحي الوهاج.

و هل تستطيع الشعلة المحدوده المؤقتة التي يضيئها الإنسان، أن تهدي الكائن البشرى في هذا الطريق الشائك الطويل؟! هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنّهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم و مصالحهم لدى المؤمنين و الكافرين. و أن ينضمّوا إلى الفئة الغالبه بعد نهايه المعركه. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء و حنكه. و أرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء و هذه الحنكه، كضوء يشقّ لهم طريق الحياه و يوصلهم إلى مآربهم. لكن الله سبحانه ذهب بنورهم و فضحهم، إذ قال لرسوله: إذا جاءَكَ الْمُتَافِقُونَ قَالُوا:

نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ

(١)

و القرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضا، و يبين كذبهم و نكولهم إذ يقول: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ، وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ (١).

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارته استوقد ناراً أى إنهم استفادوا للإنارة من «النار» ذات الدخان و الرماد و الحريق، بينما يستنير المؤمنون بنور الإيمان الخالص و بضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوى على النار، و إن تظاهروا بنور الإيمان، و إذا كان ثمة نور فهو ضعيف فى قوته و قصير فى مدته.

هذا النور الضعيف المؤقت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير و الفطره التوحيديه، أو إشاره إلى الإيمان الأولى لهؤلاء المنافقين حيث أسدلت عليه ستائر مظلمه على أثر التقليد الأعمى و التعصب المقيت و اللجاج و العدا، فتحولت ساحه حياتهم لا- إلى ظلمه، بل إلى «ظلمات» فى التعبير القرآنى.

و هؤلاء سيفقدون فى النهايه قدره الرؤيه الصحيحه، و الاستماع الصحيح، و النطق الصحيح، و هذه نتيجه طبيعیه- كما ذكرنا سابقا- للاستمرار على الانحراف و الإصرار على الغى، حيث يودى إلى إضعاف آليات الإدراك لدى الإنسان فىرى الحقائق مقلوبه، فالخير فى نظره شرّ، و الملك شيطان، و هكذا.

على أى حال هذا التشبيه يوضح واحده من حقائق النفاق، و هى إن عمر النفاق و التذبذب لا يدوم طويلا، قد يستطيع المنافقون لمدته قصيره أن يتمتعوا بمصونيه الإسلام و الإيمان، و بصدقه الكفار سرا. لكن هذه الحاله مثل شعله

ص: ١٠٧

ضعيفه معرضه لألوان العواصف، سرعان ما تنطفئ، و يظهر الوجه الحقيقي للمنافقين، و يظنون منفورين مطرودين حائرين، مثل إنسان يتخبط في ظلام دامس.

لا بد من الإشارة إلى ما ورد في تفسير الآيه الكريمة: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا (١).

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «أضاءت الأرض بنور محمد صلى الله عليه و اله و سلم كما تضيء الشمس، فضرب الله مثل محمد صلى الله عليه و اله و سلم الشمس و مثل الوصي القمري» (٢).

و هذا يعني أن نور الإيمان و الوحي يغمر العالم كله. و لا يمتلك منه المنافقون شيئاً، حتى لو كان في النفاق نور، فإن مدياته قصيره و دائرته صغيره لا يضيء إلا (ما حوله).

في المثال الثاني صور القرآن حياه المنافقين بشكل ليله ظلماء مخوفه خطرته، يهطل فيها مطر غزير، و ينطلق من كل ناحيه منها نور يكاد يخطف الأبصار، و يملأ الجو صوت مهيب مرعب يكاد يمزق الآذان. و في هذا المناخ القلق ضل مسافر طريقه، و بقي في بلقع فسيح لا ملجأ فيه و لا ملاذ، لا يستطيع أن يحتمي من المطر الغزير، و لا من الرعد و البرق، و لا يهتدى إلى طريق لشده الظلام.

هذه الصوره يرسمها القرآن على النحو التالي: أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا.

هؤلاء يحسبون كل لحظه بخطر، لأنهم يطوون صحراء لا جبال فيها و لا أشجار تحميهم من خطر الرعد و البرق و الصواعق، و نحن نعلم أن خطر الصاعقه

ص: ١٠٨

١-١) - يونس، ٥.

٢-٢) - نور الثقلين، ج ١، ص ٣٦.

يتجه إلى كل ارتفاع على الأرض. لكن الأرض التي يسير عليها هؤلاء خاليه من أى ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، و من هنا فخطر الصاعقه يهددهم كل آن بتحويلهم إلى رماد! (أهميه هذا المثال تتضح لدى أهل الحجاز-حيث الصحارى المنبسطة-أكثر من وضوحها لدى أهالى المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لا يجدون طريقا يسلكونه، ولا دليلاً يهتدون به، خطر صوت الرعد يهدّد أسمعهم، و نور البرق يكاد يذهب بأبصارهم و لو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم إن الله على كل شئ قديرٌ .

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدققين كالسيل الهادر و كالمطر الغزير، لكنهم لم يتخذوا لهم ملجأ آمناً يقيهم من شر صاعقه العقاب الإلهى.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادى المسلح بوجه أعداء الإسلام، يشكل صواعق و حمما تنزل على رؤوس المنافقين. و تسنح أحيانا لهؤلاء المنافقين فرصه للهدايه و اليقظه، لكن هذه الفرصه لا تلبث طويلا، إذ تمرّ كما يمرّ نور البرق، و يعود الظلام يطبق عليهم، و يعودون إلى ضلالهم و حيرتهم.

انتشار الإسلام بسرعه كالبرق الخاطف قد أذهلهم. و آيات القرآن التى تفضح أسرارهم صعقتهم، و فى كل لحظه يحتملون أن تنزل آيه تكشف عن مكائدهم و نواياهم. و هذا ما تعبّر عنه الآيه الكريمة: **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (١)**.

و المنافقون خائفون أيضا أن يأذن الله بمحاربتهم، و أن يحثّ القوه الإسلاميه المتصاعده على مجابتههم، لأنهم كانوا يواجهون مثل هذه التهديدات القرآنيه،

ص: ١٠٩

كقوله تعالى: لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَ قُتِلُوا تَقْتِيلًا (١).

مثل هذه الآيات كانت تنزل كالرعد و البرق على المنافقين، و تتركهم في خوف و ذعر و حيره في المدينة، و تضعهم أمام خطر الإبادة أو الإخراج من المدينة كل حين.

هذه الآيات -و إن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر نزول الوحي- تمتد لتشمل كل المنافقين في التاريخ، لأن خط النفاق يقف دوما بوجه الخط الثوري الصادق الصحيح. و نحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقي عصرنا بدقه. نرى حيرتهم و خوفه و اضطرابهم، و نرى تعاستهم و بؤسهم و انفضاحهم تماما مثل تلك المجموعه المسافره الهائمه في صحراء مقفره و في ليله ظلماء موحشه.

أما بشأن الفرق بين المثالين فتمه تفسيران:

الأول: إن قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي... يصور حاله المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقي، ثم تزعزعوا و اتجهوا نحو النفاق. أما قوله: كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ... فيمثل حاله المنافقين الذين كانوا منذ البدايه في صف النفاق، و لم يؤمنوا بالله قط.

الثاني: أن المثال الأول يتحدث عن حاله الأفراد، و لذلك يقول: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ و الثاني يجسد وضع الأجواء المخيفه المرعبه الخطره التي تحدى بهؤلاء المنافقين، و من هنا جاء التشبيه بالجو المظلم الممطر المليء بالخوف و الذعر و الاضطراب.

ص: ١١٠

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

التفسير

اشاره

فيما سبق من آيات كتاب الله سبحانه تبيّن ثلاث مجموعات هي: مجموعه المتقين، و مجموعه الكافرين، و مجموعه المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهدايه الإلهيه، و المنافقون هم الذين طبع الله على قلوبهم، و المنافقون هم المرضى الذين زادهم الله مرضا، و فقدوا قدره التشخيص نتيجة أعمالهم.

أما الآيات المذكوره فدعت الناس إلى انتخاب طريق المجموعه الاولى، و إلى عباده الله الواحد الأحد.

و في الآيه الكريمه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عدّه ملاحظات نشير إليها فيما يلي:

١- قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ تكرر في القرآن عشرين مرّه تقريبا، و هو نداء عام شامل يشير إلى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيله أو طائفه أو فئه

خاصه، بل يوجه دعوته إلى البشريه عامه لعباده الله، وللثوره على كل ألوان الشرك و الانحراف عن طريق التوحيد.

٢-يركز القرآن، في دعوته إلى عباده الله و إلى شكر الله، على نعمه خلق البشر. و هي نعمه تتجلى فيها قدره الله كما يتجلى فيها علم الله و حكمته و كذلك رحمته العامه و الخاصه. لأن الموجود البشري سيد الموجودات، و مظهر علم الله و قدرته اللامتناهيه و نعمه الكثيره الواسعه.

أولئك الذين يستنكفون عن عباده الله و الخضوع له، غافلون غالباً عن العظمه المنظويه في خلقهم و خلق الذين من قبلهم، و عن اليد المدبره المقدره التي أو جدت هذا الخلق، و أودعت فيه النعمه الدقيقه المدروسه المتجليه في جسم الإنسان و روحه.

فالتذكير بهذه النعمه دليل لمعرفة الله، و محرك للشكر على هذه النعمه.

٣-نتيجه هذه العباده هي التقوى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فعباداتنا لا تزيد الله عظمه و جلالاً، كما أن إعراضنا عن العباده لا ينقص من عظمه الله شيئاً. هذه العبادات مدرسه لتعليم التقوى، و التقوى هي الإحساس بالمسؤوليه و المحرك الذاتى للفرد، و هي معيار قيمه الإنسان و ميزان تقييم شخصيته.

٤-عباره: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّهَا رَدٌّ عَلَى اسْتِدْلَالِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بَرُّوا عِبَادَتَهُمْ لِلْأَصْنَامِ بِتَمَسُّكِهِمْ بِسُنَنِ آبَائِهِمْ. و الآيه الكريمه تشير بهذه العبارة إلى أن الله الواحد الأحد، خالق البشر و خالق آبائهم، و كل شرك يعترى المسيره البشريه في حاضرها و سالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نعم الأرض و السماء:

الآيه التاليه استعرضت قسماً آخر من النعم الإلهيه التي تستحق الشكر،

ذكرت أولاً خلق الأرض: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا .

فهذه الكره السائرة بسرعه مذهله فى الفضاء، قد سخرت للإنسان كى يمتطيها و يستقر عليها دون أن تؤثر عليه حرقتها.

و تتجلى عظمه نعمه الأرض أكثر حين نلاحظ خاصييه الجاذبيه التى تؤمن لنا إمكانيه الاستقرار و إنشاء الأبنيه و المزارع، و سائر مستلزمات الحياه على هذه الأرض. فلو انعدمت هذه الخاصيه لحظه واحده لتناثر كل ما على هذه الأرض من إنسان و حيوان و نبات فى الفضاء! تعبير «فراش» يصور بشكل رائع مفهوم الاستقرار و الاستراحه، كما يصور إضافه إلى ذلك مفهوم الاعتدال و التناسب فى الحراره. هذه الحقيقه يعبر عنها الإمام على بن الحسين عليه السلام مفسرا هذه الآيه إذ

يقول:

«جعلها ملائمته لطباعكم، موافقه لأجسادكم و لم يجعلها شديده الحماة و الحراره فتحرقكم، و لا شديده البروده فتجمدكم، و لا شديده طيب الريح فتصدع هاماتكم، و لا شديده التّن فتعطبكم، و لا شديده اللّين كالماء فتغرقكم، و لا شديده الصّلابه فتمتنع عليكم فى دوركم و أبنتكم و قبور موتاكم... فلذلك جعل الأرض فراشا لكم!» (١).

ثم تتعرض الآيه إلى نعمه السماء فتقول: وَالسَّمَاءِ بِنَاءً .

كلمه «سما» وردت فى القرآن بمعان مختلفه، و كلها تشير إلى العلو، و اقتران كلمه «سما» مع «بناء» يوحي بوجود سقف يعلو البشر على ظهر هذه الأرض. بل إن القرآن صرح بكلمه «سقف» فى بيان حال السماء إذ قال: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (٢).

لعل هذا التعبير القرآنى يثير استغراب أولئك الذين يفهمون موقع الأرض فى الفضاء، فيتساءلون عن هذا السقف... عن مكانه و كيفيته. و لعل هذا التعبير يعيد-

ص: ١١٣

١-١) -نور الثقلين، ج ١، ص ٤١.

٢-٢) -الأنبياء، ٣٢.

بادئ الرأي-إلى الأذهان فرضيه بطليموس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمه بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البطل!! من هنا لا بدّ من توضيح لمفهوم السماء و البناء و السقف في التعبيرات القرآنيه.

ذكرنا أن سماء كل شيء أعلاه، و أحد معانى السماء«جوّ الأرض»، و هو المقصود فى الآيه الكريمة. و جوّ الأرض هو الطبقة الهوائيه الكثيفه المحيطه بالكره الأرضيه، و يبلغ سمكها عدّه مئات من الكيلومترات.

لو أمعنا النظر فى الدور الحياتى الأساس الذى تؤديه هذه الطبقة الهوائيه لفهمنا مدى استحكام هذا السقف و أهميته لصيانته البشر.

هذه الطبقة الهوائيه مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضيه من كل جانب، و قدره استحكامه تفوق قدره أضخم السدود الفولاديه، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعه الشمس الحيويه الحياتيه إلى الأرض.

لو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوما إلى رشق الشهب و النيازك السماويه المتناثره، و لما كان للبشر أمان و لا استقرار على ظهر هذا الكوكب، و هذه الطبقة الهوائيه التى يبلغ سمكها عدّه مئات من الكيلومترات (1) تعمل على إباده كل الصخور المتجهه إلى الكره الأرضيه، و قليل جدا من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذا الحاجز و تصل الأرض لتندّر أهل الأرض دون أن تعكّر صفو حياتهم.

من الشواهد الداله على أن أحد معانى السماء هو«جو الأرض»

حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يتحدث فيه إلى«المفضّل» عن السماء فيقول:

«فكّر فى لون السماء و ما فيه من صواب التدبير، فإنّ هذا اللون أشدّ الألوان موافقه للبصر

ص: ١١٤

١-١) -تذكر كثير من الكتب أن سمك الجوّ المحيط بالأرض يبلغ مائه كيلومتر، و يبدو أن المقصود بهذا السمك هو الطبقة الجويه الكثيفه، لأن العلم الحديث أثبت أن الهواء موجود بشكل رقيق متباعد الجزئيات على بعد مئات الكيلومترات.

و تقويه...» (١).

و من الواضح أن زرقه السماء ليست إلا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض.

ولهذا فإن المقصود بالسماء في هذا الحديث هو جو الأرض نفسه.

و أضيفت كلمه الجوّ إلى السماء في قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ (٢).

و حول معاني السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى في ذيل الآيه ٢٩ من هذه السوره.

و حول معاني السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى في ذيل الآيه ٢٩ من هذه السوره.

بعد ذلك تطرقت الآيه الى نعمه المطر: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... ماء يحيى الأرض و يخرج منها الثمرات.

عبارة وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً تؤكد مرّه اخرى أن المقصود من «السماء» هنا هو جوّ الأرض، لأننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، و الغيوم بخار متناثر في جوّ الأرض.

الإمام على بن الحسين عليه السّلام يتحدّث عن نزول المطر في تفسير هذه الآيه فيقول: «ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم و تلالكم و هضابكم و أوهادكم، ثم فرقه رذاذا و ابلا و هطلا لتشفه أرضوكم، و لم يجعل ذلك المطر نازلا عليكم قطعه واحده فيفسد أرضيكم و أشجاركم و زرعكم و ثماركم» (٣).

ثم تشير الآيه إلى نعمه الثمرات التي تخرج من بركه الأمطار لتكون رزقا لبني البشر فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ .

و إخراج الثمرات مدعاه للشكر على رحمه رب العالمين لعباده، و مدعاه للإذعان بقدره ربّ العالمين في إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتا للإنسان و الحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى:

ص: ١١٥

١-١ - بحار الأنوار، ط الجديد، ج ٣، ص ١١١.

٢-٢ - النحل، ٧٩.

٣-٣ - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤١.

فهذه الأنداد المفتعله و ما تعبدون من دون الله، لم يخلقوكم و لا خلقوا آباءكم، و لا خلقوا ما ترونه حولكم من مظاهر كونه و نعم موفوره.

و«الأنداد» جمع «ند» على وزن ضدّ، و هو الشبيه و الشريك، و واضح أن هذا الشبه قائم فى أذهان المشركين و ليس أمرا واقعيا.

و بعبارة أدق: ندد الشيء و نديده- كما يقول الراغب فى المفردات- مشاركة فى جوهره، و ذلك ضرب من المماثلة، أى المماثلة فى جوهر الذات.

بحث

إشارة

الشرك فى أشكال مختلفة:

لا- بدّ من التأكيد على أن الشرك بالله لا- ينحصر باتخاذ الأوثان الحجرية و الخشبية آلهه من دون الله كما يفعل الوثنيون، أو القول بأن الله ثالث ثلاثة كما تقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع و صورا متنوعه أكثر ضمورا و خفاء.

و بشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير الله فى الحياه هو نوع من الشرك. و هذا ما يعبر عنه ابن عباس إذ يقول:

(الأنداد) هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاه سوداء فى ليله ظلماء، و هو أن يقول: و الله، و حياتك يا فلان، و حياتى!... و يقول: لو لا كلبه هذا لأتانا اللصوص البارحه!... و قول الرجل لصاحبه: ما شاء الله و شئت... هذا كله به شرك (1).

و نقرأ

فى حديث شريف أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه و اله و سلم: ما شاء الله و شئت.

ص: ١١٦

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدًّا؟» مثل هذه التعبيرات التي يشتم منها رائحة الشرك رائجه-مع الأسف-بين سواد المسلمين وغير لائقه بالشخص الموحد، كقولهم: اعتمادى على الله و عليك!!

فى الروايه عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى تفسير قوله تعالى:

وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ

(١)

قال: «قول الرجل لو لا فلان لهلكت، و لو لا فلان لأصبت كذا و كذا، و لو لا فلان لضاع عيالى» (٢).

و سيأتى توضيح أكثر فى هذا المجال فى ذيل الآيه ١٠٦ من سوره يوسف.

ص: ١١٧

١-١ - يوسف، ١٠٦.

٢-٢ - سفينه البحار، ج ١، ص ٦٩٧.

اشاره

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

التفسير

اشاره

القرآن معجزه خالده:

ظاهره الكفر و النفاق، التي دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحيانا عن عدم فهم محتوى النبوه و معجزه الرسول صلى الله عليه و اله و سلم. و الآيات التي نحن بصددھا تعالج هذه المسأله، و تركز على المعجزه القرآنيه الخالده كى تزيل كل شك و ترديد فى رساله نبى الإسلام صلى الله عليه و اله و سلم. تقول الآيه:

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

(١)

ص: ١١٨

١-١) -ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير فى (مثله) يعود على النبى كما يعود الضمير فى (عبدنا) عليه أيضا. و يصبح المعنى حينئذ: لو كنتم فى شك من الوحي فأتوا بشخص أمى مثل محمد يستطيع أن يأتى بمثل هذا القرآن. لكن هذا الاحتمال بعيد، إذ ورد فى موضوع آخر: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ الطور، ٣٤، و فى موضع آخر أيضا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ يونس، ٣٨، و هذه دلالة على أن الضمير فى (مثله) يعود على القرآن.

و بهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسوره من مثله، كى يكون عجزهم دليلا- واضحا على أصاله هذا الوحى السماوى و على الجانب الإلهى للرساله و الدعوه.

و لأجل أن يؤكد هذا التحدى دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل و ادعوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
كلمه «شهداء» تشير إلى الفئه التى كانت تساعدهم فى رفض رساله النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و عباره مِنْ دُونِ اللَّهِ إشاره إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسوره قرآنيه و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، و إلى قدره الله وحده على ذلك.

و عباره إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ تستهدف حثهم على قبول هذا التحدى، و مفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانفضوا إذن لإثبات ادعائكم.

طبيعه التحدى تقتضى أن يكون صارخا إلى أبعد حد ممكن، و أن يكون محفزا للعدو مهما أمكن، و بعباره اخرى أن يثير الحميه فيه، كى يجند كل طاقاته لعمليه المجابهه، حتى إذا فشل و أيقن بعجزه علم أنه أمام ظاهره إلهيه لا بشريه.

من هنا فسياق الآيات التالیه، يركز على عنصر الإثارة و يقول: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ وَ هذه النار ليست حديث مستقبل، بل هى واقع قائم: أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

جمع من المفسرين قالوا: إن المقصود بالحجاره: الأصنام الحجریه، و استشهدوا لذلك بالآيه الكريمه: إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (١) .

جمع آخر قالوا: (الحجاره) إشاره إلى صخور معدنيه كبريتيه تفوق حرارتها

ص: ١١٩

حراره الصخور الأخرى.

و هناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذا التعبير، إلفات النظر إلى شدة حراره جهنم، أى إن حراره جهنم و حريقها يبلغ درجه تشتعل فيها الصخور و الأجساد كما يشتعل الوقود.

و يبدو من ظاهر الآيات المذكوره، أن نار جهنم تستعر من داخل الناس و الحجاره. و لا يصعب فهم هذه المسأله لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوى فى أعماقها على نار عظيمه (أو بعباره اخرى على طاقه قابله للتبديل إلى نار)، و لا يلزم أن نتصور نار جهنم شبيهه بالنار المشهوده فى هذا العالم.

فى موضع آخر يقول تعالى: **نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (١)**.

خلافًا لتيران هذا العالم التى تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحوث

اشاره

١- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزه؟

نعلم أن منصب النبوه أعظم منصب منحه الله لخاصه أوليائه. فكل المناصب عاده تمنح صاحبها القدره للحكم على أبدان الأفراد، إلا منصب النبوه، فالنبي يحكم على الأجسام و القلوب فى مجتمعه. من هنا كان مقام النبوه لا يبلغه مقام فى سموه، و من هنا أيضا كان أذعياء النبوات الكاذبه أخط الناس و أشدهم انحرافا.

و الناس هنا أمام أمرين: إما أن يؤمنوا بدعوات النبوه جميعا، أو يرفضوها

ص: ١٢٠

جميعاً، لو قبلوها جملة لتحولت ساحه الأديان إلى فوضى و هرج و مرج. و لو رفضوها جملة لكان عاقبه ذلك الضلال و الضياع. فالدليل على مبدأ البعثه ذاته يفرض إذن أن يكون الأنبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كي يتميز الصادقون من الكاذبين. أى أن يكونوا مجهزين بالمعجزه الداله على صدق ادعائهم.

و«المعجزه»- كما هو واضح من لفظها-عمل خارق يأتي به النبي و يعجز عن الإتيان به الآخرون.

على النبي صاحب المعجزه أن يتحدى الناس بمعجزته، و أن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

٢- القرآن معجزه نبي الإسلام الخالده:

القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، و لم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتي بمثله، و هو معجزه سماويه كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر- بين معاجز النبي صلى الله عليه و اله و سلم- أقوى سند حي على نبوه الرسول الخاتم، لأنه معجزه «ناطقه» و «خالده» و «عالميه» و «معنويه».

أما أنه معجزه «ناطقه» فإن معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أى أنها كانت بحاجة إلى وجود النبي لكي يتحدث للناس عن معجزته و يتحداهم بها، و معاجز النبي الخاتم- عدا القرآن- هي من هذا اللون. أما القرآن فمعجزه ناطقه.

لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين و يدينهم و يخرج منتصراً من ساحه التحدى. و هو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم فى عصر الرساله. إنه دين و معجزه، إنه قانون، و وثيقه تثبت الهيه القانون.

أما الخلود و العالميه: فإن القرآن حطم سدود «الزمان و المكان» و تعالى عليهما، لأن معاجز الأنبياء السابقين- و حتى معاجز النبي الخاتم غير القرآن-

مسجله على شريط معين من الزمان، و واقعه فى مساحه معينه من المكان، و أمام جمع معدود من الناس، مثل معاجز عيسى عليه السلام كحديثه فى المهد و إحيائه الموتى.

و واضح أن الأحداث المقيده بزمان و مكان معينين تمسى صورتها باهته كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانيه و المكانيه. و هذا من خصائص الأمور الزمانيه.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان و المكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهليه قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشريه قدره فى العلم و الإمكانيات لتستفيد منه أكثر من ذى قبل، و ما لا يرتبط بزمان أو مكان فانه يحوى عناصر الدوام و الخلود وسعه دائرته العالميه، و بديهي أن الدين العالمى الخالد بحاجه إلى مثل هذه الوثيقه العالميه الخالده.

أمّا الصّيفه «المعنويه» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، و نرى أنها كانت غالباً «جسميه» مثل: شفاء الأمراض الجسميه المستعصيه، و تحدث الطفل فى المهد... و كانت تنجه نحو تسخير الأعضاء البدنيه. أما القرآن، فيسخر القلوب و النفوس، و يبعث فيها الإعجاب و الإكبار. إنه يتعامل مع الأرواح و الأفكار و العقول البشريه، و واضح امتياز مثل هذه المعجزه على المعاجز الجسميه.

٣- هل تحدّى القرآن؟

القرآن تحدّى البشريه فى مواضع عديده من سوره، منها:

١- قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (١).

ص: ١٢٢

٢- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ (١).

٣- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢).

٤- الآيه الثالثه و العشرون من سوره البقره التى يدور حولها بحثنا.

القرآن تحدى بصراحه و قوه فى هذه الآيات جميع البشريه، و فى هذه الصراحه و القوه دلالة حيه على حقايقته. و لم يكتف فى تحديه بدعوه الناس إلى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم و شجعهم على ذلك، و عبارات التحفيز نجدها فى قوله تعالى:

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...

فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ...

قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ...

وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...

قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ... لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ... فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا...

هذا التحفيز و الحثّ و الإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أدبيه أو عقائديه، بل فى إطار معركة «سياسيه» «اقتصاديّه» «اجتماعيه»، ضمن إطار معركة حياه أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. و عجز المعارضين أمام هذا التحدى الحياتى الصارخ، يبين بشكل أوضح أبعاد المعجزه القرآنيه.

جدير بالذكر أن تحدى القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل إن هذا التحدى قائم حتى يومنا هذا.

ص: ١٢٣

(١-١) - هود، ١٣ و ١٤.

(٢-٢) - يونس، ٣٨.

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظره على الظروف و الملابسات التى عاصرت نزول القرآن، و على تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابه ما يشبه القرآن.

غير خفى أن رساله فى عصر النزول و ما بعده، واجهت خصوما ألداء من المشركين و اليهود و النصارى و المنافقين. و هؤلاء توسلوا بكل ما لديهم من قوه و حيله للوقوف بوجه الدعوه. (حتى إن بعض المنافقين مثل (ابو عامر) الراهب و من وافقه من المنافقين اتصلوا بأمبراطور الروم للتآمر على الإسلام، و بلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيدوا «مسجد ضرار» فى المدينه، و حدثت على أثر ذلك وقائع عجيبه أشار إليها القرآن فى سورة التوبه).

من الطبيعى أن هؤلاء الأعداء الألداء من المنافقين و غيرهم كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، و يتحينون كل فرصه للإضرار بالمسلمين. و لو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجب على تحدى القرآن، لتهافتوا عليه و نشره و طبلوا له و زمروا، أو لسعوا فى حفظه على الأقل.

و لذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالا ضعيفا أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد الله بن المقفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدره اليتيمه» بينما لا نعر فى هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشاره إلى هذه المعارضه، و لا نعرف لماذا وجهت التهمه إلى ابن المقفع بهذا الكتاب؟ و المتنبى، أحمد بن الحسين الكوفى الشاعر، ذكر فى زمره المعارضين و أصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياه المتنبى و أدبه، أنه كان ينطلق فى شعره غالبا من روح الخيبه فى بلوغ المناصب الرفيعه، و من الحرمان العائلى.

و أبو العلاء المعرى، اتهم بهذا أيضا، و نقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض

مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضه القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمه كتاب الله العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمه الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، و أتى بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجحد، و من ذلك.

١- ما قاله معارضاً سورة «الذاريات»: «و المبذرات بذرا. و الحاصدات حصدا. و الذاريات قمحا. و الطاحنات طحنا. و العاجنات عجنا. و الخابزات خيزا.

و الثاردات ثردا. و اللاققات لقمأ. اهاله و سمنأ» (١).

٢- من النماذج الأخرى لآياته: «يا ضفدع نقي فإِنَّكَ نعم ما تنقين، لا واردا تنفرين، و لا ماء تكدرين» (٢).

٥- شهادات حول القرآن:

يجدر بنا أن نقل جملاً من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضه القرآن.

١- أبو العلاء المعري (المتهم بمعارضه القرآن) يقول:

«و أجمع ملحد و مهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمّد كتاب بهر بالإعجاز، و لقي عدوه بالإرجاز، ما حذى على مثال، و لا أشبه غريب الأمثال،... ما هو من القصيد الموزون، و لا الرجز، و لا شاكل خطابه العرب و لا سجع الكهنه، و جاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، و أن الآيه منه أو بعض الآيه لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتألم في جنح غسق،

ص: ١٢٥

١-١) - إعجاز القرآن، الرافعي.

٢-٢) - نقلاً عن كتاب «إعجاز القرآن» للخطيب، ج ١، ص ٤٨٣.

و الظهره الباديه فى جدوب» (١).

٢- الوليد بن المغيره المخزومى، و هو رجل عرف بين عرب الجاهليه بكياسته و حسن تدبيره، و لذلك سمى «ريحانه قريش»، سمع آيات من سوره «غافر» فرجع إلى قوم من بنى مخزوم فقال لهم:

«و الله لقد سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن، و إن له لحلاوه، و إن عليه لطلاوه، و ان أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق، و إنه ليعلو و ما يعلى عليه» (٢).

٣- العالم المؤرخ البريطانى «كارليل» يقول حول القرآن:

«لو ألقينا نظره على هذا الكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيره، و خصائص أسرار الوجود، مطروحه بشكل واضح فى مضامينه، ممّا يبين بوضوح عظمه القرآن. و هذه الميزه الكبرى خاصه بالقرآن، و لا- توجد فى أى كتاب علمى و سياسى و اقتصادى آخر. نعم، قراءه بعض الكتب تترك تأثيرا عميقا فى ذهن الإنسان، و لكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغى أن نقول:

المزايا الأساسيه للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق و عواطف طاهره، و مسائل كبيره، و مضامين هامه لا يعترىها شك و ترديد. و ينطوى هذا الكتاب على كل الفضائل اللازمه لتحقيق تكامل البشريه و سعادتها» (٣).

٤- جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار إلى محمد و القرآن». يقول:

«القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، و قد يقرؤه شخص من أوله إلى آخره دون أن يحسّ بأى ملل» (٤).

و يقول: «لا خلاف فى أن القرآن نزل بأبلغ لسان و أفصحه، و بلهجه قريش

ص: ١٢٤

١- ١) - رساله الغفران، ص ٢٦٣.

٢- ٢) - مجمع البيان، ج ١٠، سوره المدثر.

٣- ٣) - من مقدمه كتاب «التنظيمات الحضاريه فى الإمبراطوريه الإسلاميه».

٤- ٤) - نفس المصدر، ص ١١١.

أكثر العرب أصاله و أدبا... و ملء بأبلغ التشبيهات و أروعها» (١).

٥-غوره الشاعر الألماني يقول:

«قد يحسّ قراء القرآن للوهله الاولى بثقل فى العبارات القرآنيه، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فيه ينجذب-دون إختيار- إلى جماله الساحر» (٢).

و فى موضع آخر يقول: «لسنين طويله، أبعدنا القساوسه عن فهم حقائق القرآن المقدس و عن عظمه النبى محمّد، و لكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حجب الجهل و التعصب المقيت، و قريبا سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، و يصبح محور أفكار البشريه!» و يقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، و لكن هذا الكتاب ألفت أنظارنا، و حيرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادئ و قوانين علميه كبرى!» ٦- «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد فى المسلمين عزّه نفس و عداله و تقوى لا نرى لها نظيرا فى أيه بقعه من بقاع العالم».

٧-المفكر الفرنسى «جول لا بوم» فى كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر فى العالم على يد المسلمين، و المسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) و هو بحر العلم، و فرّعوا منه أنهارا جرت مياهها فى العالم...».

٨-المستشرق البريطانى دينورت يقول:

«يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعیه و الفلكيه و الفلسفه و الرياضيات التى شاعت فى أوربا، هى بشكل عام من بركات التعاليم القرآنيه، و نحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن أوربا من هذه الناحيه من بلاد الإسلام» (٣).

٩-الدكتور لورا واكسيا واغليرى أستاذة جامعه نابولى فى كتاب «تقدم

ص: ١٢٧

١-١ - نفس المصدر، ص ٩١.

٢-٢ - عن كتاب «الاعتذار إلى محمّد و القرآن».

٣-٣ - المعجزه الخالده.

الإسلام السريع» تقول:

«كتاب الإسلام السماوى نموذج الإعجاز... (القرآن) كتاب لا يمكن تقليده، و أسلوبه لا نظير له فى الآداب، و التأثير الذى يتركه هذا الأسلوب فى روح الإنسان ناشئ عن امتيازاته و سموه... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازى أن يكون من صنع محمد، و هو رجل أمي؟!....»

نحن نرى فى هذا الكتاب كنوزا من العلوم تفوق كفاءه أكثر الناس ذكاء و أكبر الفلاسفه و أقوى رجال السياسه و القانون.

من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلم عالم» (1).

ص: ١٢٨

١- ١) -تقدم الإسلام السريع«نقلا عن محمد و القرآن...».

اشاره

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرِهِ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

التفسير

اشاره

خصائص نعم الجنه:

آخر آيه فى بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآيه تتحدث عن مصير المؤمنين، كى تتضح الحقيقه أكثر بالمقارنه بين الصورتين، على الطريقه القرآنيه فى التوضيح.

المقطع الأول فى الآيه يبشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتين التى تفتقد الماء الدائم، و تسقى بين حين و حين ليس لها حظ كبير من النظاره، فالنظاره تطفح على البساتين التى تمتلك ماء سقى دائم مستمر لا ينقطع أبدا. و مثل هذه البساتين لا يعترىها جفاف و لا تهددها شحه ماء.

و هذه هى بساتين الجنه.

و بعد الإشارة إلى ثمار الجنة المتنوعه تقول الآية: كَلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرِهِ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ .

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعدده:

قال بعضهم: المقصود من قولهم: هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ هو أن هذه النعم أغدقت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل في الحياه الدنيا، و غرسنا بذوره من قبل.

وقال بعض آخر: عند ما يؤتى بالثمار إلى أهل الجنة ثانياه يقولون: هذا الذى تناولناه من قبل، و لكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديدا و لذّه اخرى، فالعنب أو التفاح الذى تناولوه فى هذه الحياه الدنيا مثلا له فى كل مرّه نأكله نفس طعم المرّه السابقه، أمّا ثمار الجنة فلها فى كل مرّه طعم و إن تشابهت أشكالها، و هذه من امتيازات ذلك العالم الذى يبدو أنه خال من كل تكرار! و قال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنة يلقونها شبيهه بثمار هذه الدنيا، فيأمنون بها و لا تكون غريبه عليهم، و لكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعما جديدا لذيذا.

و يجوز أن تكون عباره الآية متضمنه لكل هذه المفاهيم و التفاسير، لأن ألفاظ القرآن تنطوى أحيانا على معان (1).

ثم تقول الآية: وَ أَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا، أى متشابهها فى الجوده و الجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخره بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى، خلافا لثمار هذا العالم المختلفه فى درجه النضج و الرائحه و اللون و الطعم.

و آخر نعمه تذكرها الآية هى نعمه الأزواج المطهره من كل أدران الروح و القلب و الجسد.

أحد منغصات نعم الدنيا زوالها، فصاحب النعمه يقلقه زوال هذه النعمه، و من

ص: ١٣٠

(١-١) - فى بحث «استعمال اللفظ فى أكثر من معنى» أثبتنا إمكان هذه الأمر.

هنا فلا تكون هذه النعم عادة باعثه على السعادة و الاطمئنان. أمّا نعم الجنّة ففيها السعادة و الطمأنينه لأنها خالده لا يعتريها الزوال و الفناء. و إلى هذه الحقيقه تشير الآيه فى خاتمها و تقول: وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

بحوث

اشاره

١- «الإيمان» و «العمل»:

فى كثير من الآيات القرآنيه يقترن ذكر الإيمان بذكر العمل الصالح، حتى كان الاثنين متلازمان دونما افتراق. و الحق كذلك، لأن الإيمان و العمل يكمل بعضهما الآخر.

لو نفذ الإيمان إلى أعماق النفس لتجلت آثاره فى الأعمال حتما، مثله كمثل مصباح لو أضاء فى غرفه لشع نوره من كل نوافذ الغرفه. و مصباح الإيمان كذلك لو شِع فى قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان و أذنه و لسانه و يده و رجله.

يقول تعالى فى الآيه الحاديه عشره من سوره الطلاق: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً .

و يقول فى الآيه الخامسه و الخمسين من سوره النور:

وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .

فالإيمان بمثابه جذر شجره و العمل الصالح ثمرتها. و وجود الثمر السليم دليل على سلامه الجذر. و وجود الجذر السليم يؤدى إلى نمو الثمر الطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحيانا عن أفراد ليس لهم إيمان، و لكن ذلك لا يحدث باستمرار حتما. فالذى يضمن بقاء العمل الصالح هو الإيمان المتغلغل فى أعماق وجود الإنسان، الإيمان الذى يضع الإنسان دوما أمام مسؤولياته.

٢- الأزواج المطهرة:

مِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْوَصْفَ الْوَحِيدَ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ الْقُرْآنُ لِمَدْحِ الْأَزْوَاجِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ هُوَ أَنَّهَا «مَطْهَرَةٌ». وَ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى أَوَّلِ شَرْطٍ فِي الزَّوْجِ هُوَ «الطَّهْرُ». وَ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الشَّرْطِ وَالْأَوْصَافِ ثَانَوِيٌّ.

رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَ خِضْرَاءَ الدَّمَنِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَ مَا خِضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنبَتِ السُّوءِ» (١).

٣- النعم المادية و المعنوية في الجنة:

ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْوَاعَ النَّعْمِ الْمَادِيَةِ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً، وَ أَزْوَاجَ مَطْهَرَةً، وَ ثَمَارَ مُتَنَوِّعَةً، وَ خَالِدِينَ مُتَحَابِّينَ. وَ لَكِنَّهُ ذَكَرَ إِلَى جَانِبِ هَذِهِ النَّعْمِ الْمَادِيَةِ نَعْمًا أَهَمَّ مِنْهَا هِيَ النَّعْمُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ عَظَمَتَهَا بِمُقَايَسَتِنَا، كَقَوْلِهِ: وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ رِضْوَانًا مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٢).

وَ فِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذِكْرِ النَّعْمِ الْمَادِيَةِ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (٣).

لَوْ بَلَغَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ حَيْثُ يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ وَ يَرْضَى عَنِ اللَّهِ لِأَحْسَنِ بَلَدِهِ لَا تَرْقَى إِلَيْهَا لَدَّهُ، وَ لَهَانَتْ فِي نَظَرِ هَذَا الْإِنْسَانِ سَائِرُ اللَّذَاتِ، عِنْدَهَا يَرْتَبِطُ هَذَا الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ وَ لَا يَفْكَرُ بِمَا سِوَاهُ، وَ هِيَ مَرْتَبَةٌ يَعْجِزُ الْقَلَمُ وَ اللِّسَانُ عَنْ وَصْفِ سَمَوَّهَا وَ أَبْعَادِهَا.

بِعِبَارَةٍ مُوجِزَةٍ: كَمَا أَنَّ لِلْمَعَادِ جَانِبًا رُوحِيًّا جَسْمِيًّا، كَذَلِكَ نَعْمُ الْجَنَّةِ ذَاتٌ

ص: ١٣٢

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٤، ص ١٩.

٢-٢) - التوبه، ٧٢.

٣-٣) - البينه، ٨.

جانين أیضا، كى تكون جامعه و قابله لاستفاده أهل الجنة جميعا، كلّ على قدر كفاءته و لياقته.

ص: ۱۳۳

اشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا لِمَا بَعُوضَهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَا
ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

سبب النزول

ذكر جمع من المفسرين عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآيه هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثله في الآيات السابقه
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا... أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ...، وقالوا إن الله أسمى من أن يضرب مثل هذه الأمثال، وبذلك راحوا
يشككون في رساله و في القرآن. و في هذه الظروف نزلت الآيه الكريمة المذكوره.

قال آخرون: عند نزول الآيات التي تضرب الأمثال بالذباب و العنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون و يسخرون.

هل الله يضرب المثل؟!!

الفقره الاولى من الآيه تقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَهُ فَمَا فَوْقَهَا .

ذلك لأن المثل يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة اخرى، المثل وسيله لتجسيد الحقيقه حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعى و تحقيره فإنّ بلاغه الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كما يتضح ضعف أولئك.

في الآيه (٧٣) من سوره الحج مثلاً- يقول سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَاسْتَنْقَدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

يلاحظ في هذا المثل أن الذباب و أمثاله أحسن وسيله لتجسيد ضعف هؤلاء.

و هكذا في الآيه (٤١) من سوره العنكبوت، حين يريد القرآن أن يجسد ضعف المشركين في انتخابهم أولياء من دون الله، يشبههم بالعنكبوت التي تتخذ لنفسها بيتاً، و هو أضعف البيوت و أوهنها: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

من المؤكد أن القرآن لو ساق الأمثله في هذه المجالات على الكواكب و السماوات لما أدى الغرض في التصغير و التحقير، و لما كانت أمثله متناسبه مع أصول الفصاحه و البلاغه، فكأن الله تعالى يريد بهذه الامثله القول: بأنه لا مانع من التمثيل بالبعوضه أو غيرها لتجسيد الحقائق العقليه في ثياب حسنيه و تقديمها للناس.

الهدف هو إيصال الفكره، و الأمثله يجب أن تتناسب مع موضوع الفكره، و لذلك فهو سبحانه يضرب الأمثله بالبعوضه فما فوقها.

و ما المقصود من قَلَّمَا فَوْقَهَا للمفسرين فى هذه رأيان:

الأول: «فوقها» فى الصغر، لأن المقام مقام بيان صغر المثال. و هذا مستعمل فى الحوار اليومى، نسمع مثلاً رجل يقول لآخر: ألا تستحى أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟! فيجب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا فى الصغر.

الثانى: «فوقها» فى الكبر. أى إن الله يضرب الأمثال بالصغير و بالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأى الأول يبدو أنسب.

ثم تقول الآيه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . فهؤلاء، بإيمانهم و تقواهم، بعيدون عن اللجاجه و العناد و الحقد للحقيقه. و يستطيعون أن يروا الحق بجلاء و يدركوا أمثله الله بوضوح.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا

هؤلاء يعترضون على هذه الأمثله لأنها لا تهدى الجميع، و يزعمون أنها لو كانت من عند الله لاهتدى بها الناس جميعاً، و لما أدت الى ضلال أحد! فيجيبهم الله بعبارة قصيره تحسم الموقف و تقول: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

فكل هذه الأمثله من الله، و كلها نور و هدايه، لكنها تحتاج إلى عين البصيره التى تستفيد منها، و مخالفه المخالفين تنطلق من نقص فيهم، لا من نقص فى الآيات الإلهيه (1).

ص: ١٣٦

١-١) - جمع من المفسرين قالوا: إن عبارة يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا... ليس حكاية عن لسان المشركين، بل هو حديث الله. و يكون المعنى بذلك «أن الله يجيب على هؤلاء المعترضين الذين قالوا: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ و يقول سبحانه: إن الله يضل به كثيرا و يهدى به كثيرا، و لكن لا يضل إلا الفاسقين». (أما التفسير الأول فيبدو أنه أصح).

١- أهمية المثال في بيان الحقائق:

الأمثلة المناسبة لها دور حساس: و عظيم في التوضيح و الإقناع و الإفهام.

المثال المناسب قد يقرب طريق الفهم إلى الأذهان بحيث نستعوض به عن الاقتحام في الاستدلالات الفلسفية المعقدة.

و أهم من ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغنى عن الأمثلة المناسبة في تعميم و نشر الموضوعات العلمية الصعبة بين عامه الناس.

و لا يمكننا أن ننكر دور المثال في إسكات الأفراد المعاندين اللجوجين المتعنتين.

على كل حال، تشبيه «المعقول» ب«المحسوس» أحد الطرق المؤثرة في تفهيم المسائل العقلية، على أن يكون المثال - كما قلنا - مناسباً، و إلا فهو مضلّ و خطر.

من هنا نجد في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شيقه مؤثره، ذلك لأنه كتاب لجميع البشر على اختلاف عصورهم و مستوياتهم الفكرية، إنه كتاب في غاية الفصاحة و البلاغه (١).

٢- لماذا التمثيل بالبعوض؟

المعاندون اتخذوا من صغر البعوضه و الذبابه ذريعه للاستهزاء بالأمثله القرآنيه.

لكنهم لو أنصفوا و أمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب

ص: ١٣٧

(١- ١) - حول دور الأمثال في حياه البشر، راجع الآيه ١٧ من سوره الرعد في المجلد السابع من هذا التفسير.

الخلقه و عظيم الصنع و الدقه ما يحير العقول و الألباب.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بشأن خلقه هذا الحيوان الصغير:

«إنما ضرب الله المثل بالبعوضه لأنّ البعوضه على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره و زياده عضوين آخرين فأراد الله سبحانه أن يتّبه بذلك المؤمنين على لطف (لطيف) خلقه و عجب صنعه» (١).

يريد الله سبحانه بهذا المثل أن يبين للمؤمنين دقه الصنع في الخلق، التفكير في هذا الموجود الضعيف على الظاهر، و الشبيه بالفيل في الواقع، يبين للإنسان عظمه الخالق.

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف، ذو فتحة دقيقه جدا، و له قوه ماصه تسحب الدم.

منح الله هذا الحيوان قوه هضم و تمثيل و دفع، كما منحه أطرافا و أذنا و أجنحه تتناسب تماما مع وضع معيشته. هذه الحشره تتمتع بحساسيه تشعر فيها بالخطر بسرعه فائقه و تفرّ عند ما يدهمها عدوّ بمهاره عجيبه، و هي مع صغرها و ضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول في هذا الصدد:

«كيف و لو اجتمع جميع حيوانها من طيرها و بهائمها و ما كان من مرحها و سائمها، و أصناف أسناخها و أجناسها، و متبلده أممها و أكياسها، على إحداث بعوضه ما قدرت على إحداثها، و لا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، و لتحيّرت عقولها في علم ذلك و تاهت، و عجزت قواها و تناهت، و رجعت خاسئه حسيره، عارفه بأنّها مقهوره، مقرّه بالعجز عن إنشائها، مدعنه بالضعف عن إفنائها» (٢).

ص: ١٣٨

١- (١) - تفسير البرهان، ج ١، ص ٧٢.

٢- (٢) - نهج البلاغه، شرح محمد عبده، الخطبه ١٨٦، ص ٢٧٥.

ظاهر عباره الآيه المذكوره يوحى بأن الهدايه و الضلال جبريان و مرتبطان بإرادته الله تعالى. بينما عباره الأخيره من الآيه توضح أن الهدايه و الضلال مترتبان على أعمال الإنسان نفسه.

و لمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الإنسان و تصرفاته لها نتائج و ثمار معينه. لو كان العمل صالحاً فنتيجته مزيد من التوفيق و الهدايه فى السير نحو الله و مزيد من أداء الأعمال الصالحه. يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (١).

و إن جنح الإنسان نحو المنكرات، فان الظلمات تتراكم على قلبه، و يزداد نهماً لارتكاب المحرمات، و قد يبلغ به الأمر إلى أن ينكر خالقه، قال تعالى: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاىَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (٢). و قال أيضاً: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (٣).

و الآيه التى يدور حولها بحثنا شاهد آخر على ذلك حيث يقول تعالى: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

مما تقدم يتضح أن الإنسان حرّ فى انتخاب الطريق فى بدايه الأمر، و هذه حقيقه يقبلها ضمير كل إنسان، ثم على الإنسان بعد ذلك أن ينتظر النتائج الحتميه لأعماله.

بعباره موجزه: الهدايه و الضلاله- فى المفهوم القرآنى- لا يعينان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطى، بل إن الهدايه- المفهومه من الآيات المتعدده- تعنى توفر سبل السعاده، و الإضلال: يعنى زوال الأرضيه المساعد له، دون أن يكون هناك إجبار فى المسأله.

ص: ١٣٩

١- ١) - الأنفال، ٢٩.

٢- ٢) - الروم، ١٠.

٣- ٣) - الصف، ٥.

توفّر السبيل (الذى نسميه التوفيق)، و زوال هذه السبيل (الذى نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح الله فردا توفيق الهدايه، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنما ذلك نتيجة الأعمال المباشره لهذا الفرد أو ذاك.

و يمكن التمثيل لهذه الحقيقه بمثال بسيط: حين يمرّ الإنسان قرب هاويه خطره، فإنه يتعرّض لخطر الانزلاق و السقوط فيها كلما اقترب منها أكثر.

كما أن احتمال سقوطه فى الهاويه يقلّ كلما ابتعد عنها أكثر، و الحاله الاولى هدايه و الثانيه ضلال.

من مجموع ما ذكرنا يتضح الجواب على ما يثار من أسئله فى حقل الهدايه و الضلال.

٤- «الفاسقون»: هم المنحرفون عن طريق العبوديه، لأن الفسق فى اللغه إخراج النوى من التمر، ثم انتقل إلى الخروج عن طريق الله.

اشاره

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

التفسير

اشاره

الخاصون الحقيقيون:

هذه الآيه الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآيه السابقه عن ضلال هذه الفئة، و تذكر لهم ثلاث صفات:

١- إنهم يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ .

هؤلاء لهم مع الله عهود و موثيق، مثل عهد التوحيد، و عهد الربوبيه، و عهد عدم اتباع الشيطان و هوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، و تمردوا على أوامر الله، و اتبعوا أهواءهم و ما أراد الشيطان لهم.

طبيعه هذا العهد: يثار سؤال حول العهد المبرم بين الله و الإنسان، فالعهد عقد ذو جانبين، و قد يقول قائل: متى أبرمت مع الله عهدا من العهود المذكوره؟ الجواب على هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن الله سبحانه أودع في أعماق النفس الإنسانية شعورا خاصا و قوى خاصه يستطيع بها أن يهتدى إلى الطريق

الصحيح، ويتجنب مزلق الشيطان و أهواء النفس، ويستجيب لداعى الله.

هذه القوى الفطريه يعبر عنها القرآن بالعهد الإلهى، و هو فى الحقيقه «عهد تكوينى» لا تشريعى أو قانونى. يقول تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ!؟ (١).

و واضح أنّ الآيه تشير إلى فطره التوحيد العبوديه و الميل إلى الاتجاه نحو التكامل فى النفس الإنسانيه.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه فى فهم العهد الإلهى،

ما جاء فى أول خطب نهج البلاغه عن أمير المؤمنين على عليه السلام: حيث قال: «فبعث فيهم رسله و واطر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته».

بتعبير آخر: كل موهبه يمنحها الله للإنسان يصحبها عهد طبيعى بين الله و الإنسان، موهبه العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، و موهبه الاذن تنطوى على عهد مدوّن فى ذات الخلقه يفرض الاستماع إلى نداء الحق... و بهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطريه المودعه فى نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبه له فى مسير منحرف.

الفاسقون، ينفضون بعض هذه العهود الفطريه الإلهيه، أو جميعها.

٢- الصفه الاخرى لهؤلاء الفاسقين هى أنهم... يَقَطُّعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ... .

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن القطع المذكور فى الآيه يعنى قطع الرحم، لكن مفهوم الآيه- فى نظره أعمق- أعم من ذلك، و ما قطع الرحم إلّا- أحد مصاديقها، لأن الآيه تتحدث عن قطع الفاسقين لكل ارتباط أمر الله به أن يوصل، بما فى ذلك رابطه الرحم، رابطه الصداقه، و الروابط الاجتماعيه، و الرابطه بهداه البشريه إلى

ص: ١٤٢

اللّه، و الارتباط باللّه. و لا دليل على حصر الآيه برابطه الرحم.

بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الآيه تشير إلى قطع الارتباط بالأنبياء و المؤمنين، و بعضهم فسّرها بالارتباط بأئمه أهل البيت عليهم السلام (١). و واضح أن هذه التفاسير تبين جزء من المفهوم الكلى للآيه.

٣- علامه الفاسقين الثالثه هي الفساد: ... وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .

و من الواضح أن يكون هؤلاء مفسدين، لأنهم نسوا اللّه و عصوه، و خلت نفوسهم من كل عاطفه إنسانيه حتى تجاه أرحامهم، هؤلاء لا يتحركون إلا على خط مصالحهم و أهدافهم الذاتيه الدنيه، و لا يهتمهم على هذا الطريق أن يعيشوا في الأرض فسادا، و يرتكبوا كل لون من الانحراف.

و تؤكد الآيه في الخاتمه أن أولئك هم الخاسرون .

و أى خسران أكبر من تبديد كل القوى الماديه و المعنويه المودعه في الإنسان الرّاميه لإسعاده، و إهدارها على طريق الشقاوه و التعاسه و الانحراف؟! نعم، هؤلاء الفاسقون الذين خرجوا عن خط إطاعه اللّه ليس لهم مصير سوى الخسران.

بحثان

اشاره

١- أهميه صله الرحم في الإسلام:

الآيه المذكوره أعلاه، و إن تحدثت عن كل ارتباط أمر اللّه به أن يوصل، إلا أن الارتباط الرحمي دون شك أحد مصاديقها البارزه.

لقد أعار الإسلام اهتماما بالغا بصله الرحم و بالتودّد إلى الأهل و الأقارب.

و نهى بشدّه عن قطع الارتباط بالرحم.

ص: ١٤٣

١- (١) - نور الثقلين، ج ١، ص ٤٥، لمزيد من التوضيح في هذا المجال راجع المجلد السابع من هذا التفسير ذيل الآيه ٢١ من سوره الرعد.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَصَوِّرُ أَهْمِيهِ صَلَهِ الرَّحْمِ

بقوله: «صلة الرّحم تعمّر الدّيار و تزيد في الأعمار، و إن كان أهلها غير أختيار» (١).

و عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «صل رحمك و لو بشر به ماء، و أفضل ما يوصل به الرّحم كفّ الأذى عنها» (٢).

الإمام علي بن الحسين السّجاد عليه السّلام يحذّر ولده من صحبه خمس مجموعات، إحداها قطاع الرّحم، و

يقول: «... و إيتاك و مصاحبه القاطع لرحمه فإني وجدته ملعونا في كتاب الله».

و يقول سبحانه: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (٣).

السبب في كل هذا التأكيد الإسلامي على الرّحم هو أن عمليه إصلاح المجتمع و تقويه بنيته و صيانه مسيره تكامله و عظمته في الحقول الماديه و المعنويه، تفرض البدء بتقويه اللّبنات الأساسيه التي يتكون منها البناء الاجتماعي، و عند استحكام اللّبنات و تقويتها يتم إصلاح المجتمع تلقائيا.

الإسلام مارس هذه العمليه على النحو الأكمل في بناء المجتمع الإسلامي القوي الشامخ، و أمر بإصلاح الوحدات الاجتماعيه. و الكائن الإنساني لا يأبى عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمه لتقويه ارتباط أفراد الأسره، لاشتراك هؤلاء الأفراد في الرّحم و الدم.

و واضح أن المجتمع يزداد قوه و عظمه كلما ازداد التماسك و التعاون و التعاضد في الوحدات الاجتماعيه الصغيره المتمثله بالأسره. و إلى هذه الحقيقه قد يشير

الحديث الشريف: «صلة الرّحم تعمّر الديار».

ص: ١٤٤

١-١ - سفينه البحار (ماده رحم).

٢-٢ - سفينه البحار (ماده رحم).

٣-٣ - محمّد، ٢٢.

٢- القطع بدل الوصل:

ذكرت الآيه الكريمة: أَنَّ الْفَاسِقِينَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ فِي هَذَا الصَّدَدِ يَثَارُ سَوَالٌ يَقُولُ: هَلِ الْقَطْعُ مُمْكِنٌ قَبْلَ الْوَصْلِ؟ وَ الْجَوَابُ: إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْوَصْلِ اسْتِمْرَارَ الرُّوَابِطِ الَّتِي أَقْرَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ عِبَادِهِ، أَوْ بَيْنَ عِبَادِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ بِشَكْلِ طَبِيعِي وَ فِطْرِي.

بعبارة اخرى، إن الله سبحانه أمر بالحفاظ على هذه الروابط الفطرية و الطبيعية و بصيانتها، لكنّ المذنبين يقطعونها (تأمل بدقه).

اشاره

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

التفسير

اشاره

نعمه الحياه:

القرآن في الآيتين يلفت أنظار البشر إلى عظمه الخالق عن طريق ذكر بعض النعم الإلهيه و بعض المظاهر المدهشه للخلقه. و بذلك يكمل الأدله التي أوردها في الآيتين (٢١ و ٢٢) من هذه السوره حول معرفه الله.

القرآن يبدؤ في أدلته من نقطه لا- تقبل الإنكار، و يركز على مسأله (الحياه) بكل ما فيها من تعقيد و غموض، و يقول: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .

و في هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياه...لقد كان ميتا تماما مثل الأحجار و الأخشاب و لم يكن فيه أى أثر للحياه، لكنه الآن يتمتع بنعمه الحياه، و بنعمه الشعور و الإدراك.

من الذى منح الإنسان نعمه الحياه؟ هل أن الكائن البشرى هو الذى منح نفسه الحياه؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياه موهوبه للإنسان من لدن عالم قادر...عالم برموز الحياه و قوانينها المعقده...و قادر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الإنسان بمن أحياه بعد موته؟! أجمعت العلماء اليوم أن مسأله الحياه أعقد مسأله فى عالمنا هذا، لأن لغز الحياه لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدّم هائل فى حقل العلم و المعرفة.قد يستطيع العلم فى المستقبل أن يكتشف بعض أسرار الحياه... لكن السؤال يبقى قائما بحاله: كيف يكفر الإنسان بالله و ينسب هذه الحياه بتعقيداتها و غموضها و أسرارها إلى صنع الطبيعه العمياء الصّماء الفاقده لكل شعور و إدراك؟! من هنا نقول إن ظاهره الحياه فى عالم الطبيعه أعظم سند لإثبات وجود الله تعالى. و القرآن يركز فى الآيه المذكوره على هذه المسأله بالذات، و هى مسأله تحتاج إلى مزيد من الدراسه و التعمق، لكننا نكتفى هنا بهذه الإشاره.

بعد التذكير بهذه النعمه، تؤكد الآيه على دليل واضح آخر و هو «الموت» ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .

ظاهره «الموت» يراها الإنسان فى حياته اليوميّه، من خلال وفاه من يعرفهم و من لا- يعرفهم، و هذه الظاهره تبعث أيضا على التفكير، من الذى قبض أرواحهم؟ ألا- يدلّ سلب الحياه منهم على أن هناك من منحهم هذه الحياه؟ نعم...إن خالق الحياه هو خالق الموت أيضا، و إلى ذلك تشير الآيه الكريمه:

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ أَهْسُنْ عَمَلًا

(١)

بعد أن ذكرت الآيه هذين الدليلين الواضحين على وجود الله، تناولت المعاد

ص: ١٤٧

١-١) - الملك، ٢.

و الحياه بعد الموت: ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .

و يأتي ذكر المعاد فى سياق هذه الآيه ليبين أن مسأله الحياه بعد الموت (المعاد) مسأله طبيعیه جدا لا تختلف عن مسأله إحياء الإنسان فى هذه الدنيا بل إنها أيسر من الخلق الاول (مع أن السهل و الصعب ليس لها مفهوم بالنسبه للقادر المطلق). و هل بمقدور إنسان أن ينكر إمكان المعاد و هو يرى أنه خلق من عناصر ميتة؟! و هكذا، و بعبارة موجزه رائعه يفتح القرآن أمام الإنسان سجل حياته منذ ولادته و حتى بعثه.

و فى نهايه الآيه يقول تعالى: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. و المقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم الله تعالى يوم القيامة. و الرجوع غير البعث. و القرآن يفصل بين الاثنين كما فى قوله تعالى: وَ الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (١).

قد يكون الرجوع فى الآيه الكريمه إشاره إلى معنى أدق، هو إن جميع الموجودات تبدأ مسيره تكاملها من نقطه العدم التى هى نقطه «الصفرة» و تواصل السير نحو «اللانهايه» التى هى ذات الله سبحانه و تعالى. من هنا فإن هذه المسيره لا تتوقف لدى الموت، بل تستمر فى الحياه الاخرى على مستوى أسمى.

بعد ذكر نعمه الحياه و الإشاره إلى مسأله المبدأ و المعاد، تشير الآيه إلى واحده اخرى من النعم الإلهيه السابقه و تقول: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .

و بهذا تعين الآيه قيمه الإنسان فى هذه الأرض، و سيادته على ما فيها من موجودات. و منها نستطيع أن نفهم المهمه العظيمه الثقليه الموكوله إلى هذا المخلوق

ص: ١٤٨

١-١) - الأنعام، ٣٦.

فى ساحة الوجود.

و فى القرآن آيات اخرى تؤكد على مكانه الإنسان الساميه، و توضّح أن هذا الكائن هو الهدف النهائى من خلق كل موجودات الكون.

وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ

(١)

و ثمه آيات اخرى تحدثت عن هذا المفهوم بالتفصيل كقوله تعالى (٢).

وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ...

(٣)

وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ...

(٤)

وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...

(٥)

و سخر لكم البحر... (٦).

وَ سَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ...

(٧)

و تعود الآيه إلى ذكر أدله التوحيد و تقول: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الفعل «استوى» من «الاستواء» و هو التسلط و الإحاطه الكامله و القدره على الخلق و التدبير، و كلمه «ثم» فى الآيه لا تعنى لزاما التأخير الزمانى، بل تعنى أيضا التأخير فى البيان و توالى فى ذكر الحقائق.

ص: ١٤٩

-
- ١-١) - الجاثيه، ١٣.
 - ٢-٢) - هناك دراسه أو فى لهذا المفهوم فى الجزء السابع من هذا التفسير، ذيل الآيه ٢ من سوره الرعد، و ذيل الآيتين ٣٢ و ٣٣ من سوره إبراهيم.
 - ٣-٣) - إبراهيم، ٣٢.
 - ٤-٤) - إبراهيم، ٣٢.
 - ٥-٥) - إبراهيم، ٣٣.
 - ٦-٦) - الجاثيه، ١٢.
 - ٧-٧) - إبراهيم، ٣٣.

١- التناسخ أو عوده الأرواح

الآية المذكوره أعلاه من الآيات التي ترفض بوضوح فكره التناسخ، فالمعتقدون بالتناسخ يؤمنون بأن الإنسان يعود بعد الموت ثانيه إلى هذه الحياه، بعد أن تحلّ روحه في جسم آخر (و نطفه اخرى)، و يحيا في هذه الدنيا حياه اخرى، و قد تتكرر هذه العوده مرات، و تكرر هذه الحياه يسمى بالتناسخ أو عوده الأرواح.

الآية تصرح بعدم وجود أكثر من حياه واحده بعد الموت، هي حياه البعث و النشور. و بعبارة اخرى توضح الآيه أن للإنسان حياتين و مماتين لا أكثر، و كان الإنسان ميتا يوم كان جزءا من الطبيعه غير الحيه، ثم أحياه الله يوم ولد، ثم يميته، ثم يعيده. و لو كان التناسخ صحيحا لكان للإنسان أكثر من مماتين و حياتين.

هذا المفهوم مذكور في آيات اخرى أيضا، سنشير إليه في موضعه (١).

فكره التناسخ إذن مرفوضه قرآنيا، كما أنه مرفوضه عقليا، و هي نوع من الرجعيه و الانتكاس في قانون التكامل (٢).

جدير بالذكر أن هذه الآيه لا تشير إلى الحياه البرزخيه (الحياه بين الموت و النشور) كما توهم البعض، بل إلى الحياه بعد الموت في هذه الدنيا (إحياء الإنسان بعد تكونه من مواد طبيعیه ميتة)، ثم الموت بعد هذه الحياه الدنيويه، ثم الحياه الاخرى، و استمرار المسيره التكاملية نحو الله.

ص: ١٥٠

١-١) -موضوع «الرجعه» لا يعارض هذا المفهوم، لأنه محدود بعدد خاص من الأشخاص، و ليس بقانون عام. و الآيه المذكوره تتحدث عن قضيه عامه.

٢-٢) -درسنا هذه المسأله في «عود الأرواح و الارتباط بالأرواح».

كلمه «سما» تشير إلى جهه عليا، و لها مفهوم واسع ذو مصاديق مختلفه.

و لذلك كان لها استعمالات عديده فى القرآن الكريم:

١-أطلقت أحيانا على «الجهه العليا» المجاوره للأرض كقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضْيَأُهَا [□] ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (١).

٢-و عنى بها القرآن تاره المنطقه البعيده عن سطح الأرض: وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا (٢).

٣-عبر القرآن بها فى موضع آخر عن (الغلاف الجوى) المحيط بالأرض:

وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا

(٣)

. لأن هذا الغلاف يقى الكره الأرضيه من الصخور السماويه (النيازك) التى تتجه إلى الأرض ليلا- و نهارا بفعل جاذبيه الأرض، لكن اصطدام هذه الصخور بجو الأرض يؤدى إلى اشتعالها و من ثم تحوّلها إلى رماد.

٤-و أراد القرآن بالسما فى موضع آخر (الكرات العليا): ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ (٤).

نعود الآن إلى «السموات السبع» لنرى ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرين و العلماء المسلمين فى ذلك.

١-منهم من قال إنها السّيارات السّبع (٥) فى اصطلاح الفلكيين القدماء: أى

ص: ١٥١

١-١) -إبراهيم، ٢٤.

٢-٢) -ق، ٩.

٣-٣) -الأنبياء، ٣٢.

٤-٤) -فصلت، ١١.

٥-٥) -منهم من قسّم كرات المنظومه الشمسيه العشر (تسع سيارات معروفه إضافه سياره كانت موجوده بين المريخ و المشترى، ثم تهشمت و ظلت بقاياها تدور فى نفس المدار) إلى مجموعتين: مجموعه تحت مدار الأرض (عطارد و الزهره) و مجموعه خارج مدار الأرض و فوقه، و هى سبع سيارات. و لعلهم بهذا أرادوا تفسير السموات السبع بالكرات السبع الخارجيه. (تأمل بدقه).

عطارد و الزهره و المريخ و المشترى و زحل و القمر و الشمس.

٢- و منهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمه للغلاف الجوى المحيط بالكره الأرضيه.

٣- و منهم من قال إن العدد (سبعه) لا يراد به هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثره، أى أن معنى «السموات السبع» هو السموات و الكرات الكثيره فى الكون.

و لهذا نظير فى كلام العرب و فى القرآن، كقوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَاحٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ (١)**.

و واضح أن المقصود بالسبعه فى هذه الآيه ليس العدد المعروف، لأن علم الله لا ينتهى حتى و لو أن البحر يمده من بعده الآلاف المؤلفه من الأبحر.

٤- الأصح فى رأينا أن المقصود بالسموات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. و تكرر هذه العبارة فى آيات الذكر الحكيم يدل على أن العدد المذكور فى هذا الآيات لا يعنى الكثره، بل يعنى العدد الخاص بالذات.

و يستفاد من آيات اخرى أن كل الكرات و السيّارات المشهوده هى جزء من السماء الاولى، و ثمه سته عوالم اخرى خارجه عن نطاق رؤيتنا و وسائلنا العلميه اليوم. و هذه العوالم السبعه هى التى عبّر عنها القرآن بالسموات السبع.

يقول تعالى: **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ (٢)**.

و يقول أيضا: **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٣)**.

و يتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه و ما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الاولى، و ما وراء هذه السماء ست سماوات اخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

ص: ١٥٢

١-١ - لقمان، ٢٧.

٢-٢ - فصلت، ١٢.

٣-٣ - الصافات، ٦.

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصه للبشر اكتشفت عجائب و مجاهيل عظيمه.علم الفلك تقدّم إلى مرحله بعيده جدا فى الرصد عن طريق التلسكوبات،ثم توقفت قدره الرؤيه إلى أكثر من ذلك.

أبعد ما اكتشفته دوائر الأرصاد الفلكى العالميه حتى الآن مسافه فى الكون تعادل ألف مليون(مليار)سنه ضوئيه.و الراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بدايه الكون لا نهايته.و ما يدريك أن العلم سيكتشف فى المستقبل سماوات و عوامل اخرى! من الأفضل أن نسمع هذا الحديث عن لسان مرصد عالمى كبير.

٣-عظمه الكائنات

المرصد ل«بالومر» يصف عظمه الكون كالاتى:

«...قبل نصب مرصد بالومر، كان العالم فى نظرنا لا يزيد على خمسمائه سنه ضوئيه.لكن هذا الناظور وسّع عالمنا إلى ألف مليون سنه ضوئيه.و اكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديده التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنه ضوئيه.أما بعد هذه المسافه فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئا،أى أن النور لا ينفذ إليه كى يؤثر على صفحه التصوير فى المرصد.

و من دون شك أن هذا الفضاء المهيب المظلم يحتوى على مئات الملايين من المجرات التى تحافظ بجاذبيتها على هذا العالم المرئى.

كل هذا العالم العظيم المرئى الحاوى على مئات آلاف الملايين من المجرات ليس إلا جزءا صغيرا جدا من عالم أعظم.و لسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم الأعظم» (١).

ص: ١٥٣

اشاره

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

التفسير

اشاره

الإنسان خليفه الله في الأرض

الآيات السابقة ذكرت أن الله سبحانه خلق ما في الأرض جميعا للإنسان، و في هذه الآيات تقرير صريح لخلافه الإنسان و قيادته، و توضيح لمكانته المعنويه التي استحق بها كل هذه المواهب.

في هذه الآيات عرض لخلقه آدم (أبو البشر)، و في الآيات ٣٠ إلى ٣٩ تركيز على ثلاث مسائل أساسيه هي:

١- إخبار الله ملائكته بشأن خلافه الإنسان في الأرض، و ما دار في المشهد من حوار.

٢- أمر الله تعالى ملائكته بإكرام و تعظيم الإنسان الأول، و هذا ما نجده في مواضع عديدة من القرآن الكريم بمناسبات مختلفه.

٣- شرح وضع آدم و حياته في الجنه، و الحوادث التي أدت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبه آدم، و حياته هو و ذريته في الأرض.

الآيات المذكوره تتحدث عن المرحله الاولى، حين شاء الله أن يخلق على ظهر الأرض موجودا، يكون فيها خليفته، و يحمل أشعه من صفاته، و تسمو مكانته على مكانه الملائكه، و شاء سبحانه أن تكون الأرض و نعمها و ما فيها من كنوز و معادن و إمكانات تحت تصرف هذا الإنسان.

مثل هذا الموجود بحاجه إلى قسط وافر من العقل و الشعور و الإدراك و الكفاءه الخاصه، كي يستطيع أن يتولى قياده الموجودات الأرضيه.

و بهذه المناسبه تقول الآيه الاولى: **وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**، و الخليفه هو النائب عن الغير. أما هذا الغير الذي ينوب الإنسان عنه فاختلفت فيه أقوال المفسرين....

منهم من قال إنه خليفه الملائكه الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الأرض. و منهم من قال إنه خليفه بشر آخرين أو موجودات اخرى كانت تعيش قبل ذلك على الأرض.

و ذهب بعضهم إلى أن الخليفه إشاره إلى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق.

و الحق أن المقصود بالخليفه هو خليفه الله و نائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين، لأن سؤال الملائكه بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الأرض و يسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأن نيابه الله في الأرض لا

تتناسب مع الفساد و سفك الدماء.

مسأله «تعليم الأسماء» لآدم التي سيأتي شرحها، وهكذا سجود الملائكة لآدم من أدله ما ذهبنا إليه في تفسير معنى الخليفة.

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يشير أيضا إلى هذا المعنى في تفسير هذه الآيات إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ حُجَجِهِ كُلِّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ وَهُمْ أَرْوَاحٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِأَنْكُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَسْبِيحِكُمْ وَتَقْدِيسِكُمْ مِنْ آدَمَ فَقَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَقَفُوا عَلَى عَظِيمٍ مِنْزَلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ ذَكَرَهُ فَعَلِمُوا أَنََّّهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونُوا خُلَفَاءَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَحُجَجِهِ عَلَى بَرِيَّتِهِ ثُمَّ غَيَّبَهُمْ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَاسْتَعْبَدَهُمْ بِوَلَايَتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» (١).

ثم تذكر الآيه سؤال الملائكة الذي وجهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين: **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسِفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟** الله سبحانه أجاب الملائكة جوابا مغلقا اتضح في المراحل التالية: **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**.

الملائكة كانوا عالمين- كما يبدو من تساؤلهم- أن هذا الإنسان موجود يفسد في الأرض و يسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك؟! قيل إن الله سبحانه أوضح للملائكة من قبل على وجه الإجمال مستقبل الإنسان، وقيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارته «في الأرض»، لأنهم علموا أن هذا الإنسان يخلق من التراب، والمادة لمحدوديتها هي حتما مركز

ص: ١٥٦

١- ١) - «الميزان» ج ١، ص ١٢١. نقلا عن معاني الأخبار، وهذا الحديث و إن كان يوضح أكثر مكانه الأنبياء و الأئمة- لا ينحصر بهذه الصفوه المقدسه بل إنهم المصدق الأتم و الأكمل لهذا الموضوع.

للتنافس و النزاع. و هذا العالم المحدود المادى لا يستطيع أن يشبع طبيعه الحرص فى الإنسان. و هذه الدنيا لو وضعت بأجمعها فى فم الإنسان فقد لا تشبعه. و هذا الوضع -إن لم يقترن بالالتزام و الشعور بالمسؤوليه- يؤدى إلى الفساد و سفك الدماء.

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ تنبؤ الملائكه يعود إلى تجربتهم السابقه مع مخلوقات سبقت آدم، و هذه المخلوقات تنازعت و سفكت الدماء و خلفت فى الملائكه انطبعا مرًا عن موجودات الأرض.

هذه التفاسير الثلاثه لا تتعارض مع بعضها. و قد يكون موقف الملائكه من استخلاف آدم ناشئًا عن هذه الأسباب الثلاثه معا.

الملائكه بينوا حقيقه من الحقائق. و لذلك لم ينكر الله عليهم قولهم، بل أشار إلى أن ثمة حقائق اخرى إلى جانب هذه الحقيقه، حقائق ترتبط بمكانه الإنسان فى الوجود؛ و هذا ما لم تعرفه الملائكه.

الملائكه يعلمون أن الهدف من الخلقه هو العبوديه و الطاعه، و كانوا يرون فى أنفسهم مصداقا كاملا- لذلك، فهم فى العباده غارقون. و لذلك فهم -أكثر من غيرهم- للخلافه لائقون، غير عالمين أن بين عباده الإنسان الملىء بألوان الشهوات، و المحاط بأشكال الوسوس الشيطانيه و المغريات الدنيويه و بين عبادتهم -و هم خالون من كل هذه المؤثرات- بون شاسع. فأين عباده هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتيه، من عباده تلك الموجودات التى تعيش على ساحل آمن؟! ماذا تعرف الملائكه من أبناء آدم أمثال محمّد صلّى الله عليه و اله و سلّم و ابراهيم و نوح و موسى و عيسى و الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام و عباده الله الصالحين و الشهداء و المضحّون من الرجال و النساء الذين قدّموا وجودهم على مذبح العشق الإلهي، و الذين تساوى ساعه من تفكّرهم سنوات متماديه من عباده الملائكه.

الجدير بالذكر، إن الملائكه ركنوا فى بيان فضلهم إلى ثلاثه امور: التسبيح

و الحمد، و التقديس، أمّا التسييح و الحمد فمعنا هما واضح، و هو تنزيه الله عزّ و جلّ من كل نقص و الاعتراف له بكل كمال و جمال. أمّا ما هو معنى التقديس؟ البعض يرى أنه عبارته عن تنزيه الله عزّ و جلّ عن كل نقص، و هو معنى التسييح المتقدم.

و لكن آخرين ذهبوا إلى ان التقديس من مادته «قدس» أى تطهير الأرض من الفاسدين و المفسدين، أو تطهير النفس من كل رذيله، أو تطهير الجسم و الروح لله.

و الشاهد على ذلك كلمه «لك»، فى جملة «نقدس لك» لأن الملائكة لم يقولوا «نقدسك» بل «نقدس لك»، أى تطهر المجتمع و الأرض لك.

و فى الحقيقة أن مرادهم هو القول بأن الهدف إذا كان هو الطاعة و العبودية فنحن على أتم الاستعداد. و لو كان هو العبادة فنحن فى هذه الحالة دائماً، و إذا كان المقصود هو تطهير النفس أو تطهير الأرض فسوف ننفذ هذا الأمر. فى حين أن الإنسان المادى مضافاً إلى فساده. فإنّه يفسد الأرض.

و من أجل أن تتضح الحقيقة للملائكة أقدم الله سبحانه على هذه التجربة ليعلموا الفرق الشاسع بينهم و بين آدم عليه السلام.

الملائكة فى بودقه الاختبار

كان آدم يملك -بفضل الله- قابليه خارقه لفهم الحقائق، و شاء الله أن ينقل هذه القابليه من مرحله القوّه إلى مرحله الفعل، و هذا ما عبر عنه القرآن بقوله:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

اختلف المفسرون فى تفسير «تعليم الأسماء»، و من المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الأسماء دون المعانى. فذلك لا يكسب آدم فخراً بل المقصود هو معانى الأسماء و المفاهيم و المسميات.

هذا العلم بالكون و بأسرار الموجودات و خواصها، كان مفخره كبيره لآدم طبعاً.

عن أبي العباس قال: سألت الإمام الصادق عليه السّلام عن قول الله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، مَاذَا عَلَّمَهُ؟» قال: «الأرضيين و الجبال و الشعاب و الأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: و هذا البساط ممّا علّمه» (1).

علم الأسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفه الأسماء و أسرارها و كفياتها و خواصها. و الله سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب الماديّه و المعنويّه في الكون على طريق تكامله.

كما منح الله آدم قابليه التسميه، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، و بذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها. و هذه نعمه كبرى، نفهمها لو عرفنا أن علوم البشريه تنقل عن طريق الكتب و المدونات. و ما كان هذا التدوين مقدورا لو لا وضع الأسماء للأشياء و خواصها.

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...

و أمام هذا الاختبار تراجع الملائكه لأنهم لم يملكوا هذه القدره العلميه التي منحها الله لآدم، قالوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

و هكذا أدركت الملائكه تلك القدره التي يحملها آدم، التي تجعله لائقا لخلافه الله على الأرض. و فهمت مكانه هذا الكائن في الوجود.

و حان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات و أسرارها أمام الملائكه:

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

و هنا اتضح للملائكه أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

عبارة مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ إشاره إلى أن الملائكه كانوا يخفون شيئا لم

ص: ١٥٩

يظهره في أقوالهم. قال بعض المفسرين: إنها إشارة إلى حالة استكبار إبليس الذي كان يومئذ بين الملائكة. و كان يكتم إصراره على عدم الخضوع لآدم.

و من المحتمل أيضا أن تكون العبارة إشارة إلى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافه الإلهيه على الأرض. فهم أشاروا إلى مثل هذا الاعتقاد و لم يصرّحوا به.

جواب على سؤاليين

و يبقى سؤالان في هذا المجال، الأوّل يدور حول تعليم الله لآدم، كيف تمّ ذلك؟ و لو قدّر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لأنّوا نفس فضيله آدم، فهل هناك مفخره يمتلكها آدم و لا تمتلكها الملائكة؟ أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أن هذا التعليم تكويني، أي إن الله أودع هذا العلم في وجود آدم بالقوه، و دفعه خلال مدّه قصيره إلى المرحله الفعلية.

إطلاق كلمه «تعليم» في القرآن على «التعليم التكويني» ورد في موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: عَلَّمَ الْبَيَانَ (١) و واضح أن الله سبحانه علّم الإنسان البيان في مدرسه الخلقه، أي منحه الكفاءه و الخصائص الفطريه اللازمه للبيان و الكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقه خاصه، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، و هذه الحقيقه فهمها الملائكة و تقبلوها بعد أن مرّوا بتلك التجربه المذكوره في الآيه. و لعلمهم اعتقدوا في البدايه أنهم يحملون الكفاءه اللازمه لهذا الهدف، لكن الله بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم و كفاءه آدم بتجربه تعليم الأسماء.

ص: ١٦٠

أمّا السّؤال الثّانى فيربط بالضمير «هم» في قوله تعالى: تُعَمَّ عَرَضَهُمْ وَأَسْمَائِهِمْ و باسم الإشارة هؤلاء في الآية. فالمعروف أنّ «هم» و«هؤلاء» يستعملان في العاقل، وهذا لا ينسجم مع تفسير «الأسماء» بأنهم أسرار الخلقه و فهم خواص جميع الموجودات.

و الجواب هو أنّ استعمال الضمير «هم» و اسم الإشارة «هؤلاء» لا يختص بالعاقل، بل قد يستعملان في جمع مكوّن من عاقل و غير عاقل، و قد يستعملان في جمع غير عاقل. كقوله تعالى: رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (١) و الضمير «هم» في الآية يعود على الكواكب و الشمس و القمر التي رآها يوسف.

ص: ١٦١

١-١) - يوسف، ٤.

اشاره

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلِيسَۙ اَبٰى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ (٣٤) وَ قُلْنَا يَاۤ اٰدَمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّٰلِمِيْنَ (٣٥) فَآزَلَهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَاَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيْهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوْا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ اِلٰى حِيْنٍ (٣٦)

التفسير

اشاره

آدم عليه السلام فى الجنه

ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمه الإنسان، و يقول: وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلِيسَۙ اَبٰى وَ اسْتَكْبَرَ، وَ كَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ .

يبدو للوهله الاولى أن مسأله السجود لآدم جاءت بعد تجربه الملائكه المذكوره فى الآيات السابقه و بعد تعليم الأسماء. و لكن لو أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم لألفينا أن موضوع السجود جاء بعد اكتمال خلقه الإنسان مباشره، و قبل امتحان الملائكه.

يقول تعالى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سٰجِدِيْنَ ،

السجود إذن جاء مباشرة بعد نفخ الروح فى الإنسان، و هذا المعنى جاء فى الآيه ٧٢ من سوره (ص) (١).

ثمه دليل آخر على هذه المسأله هو أن استجابته الملائكه لأمر الله بالسجود، لو كانت بعد اتضاح مكانه آدم، لما اعتبرت مفخره للملائكه.

على أى حال، الآيه المذكوره تقرير قرآنى واضح صريح لشرف الإنسان و عظمه مكانته. فكل الملائكه يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

حقا، إن هذا الموجود، اللائق لخلافه الله على الأرض، و المؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل و تربيته أبناء عظام كالأنبياء و خاصه النبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم، يستحق كل احترام.

نحن نشعر بالتعظيم و التكریم لمن حوى بعض العلوم و علم شيئا من القوانين و المعادلات العلميه، فكيف حال الإنسان الأول مع كل تلك العلوم و المعارف الزاخره عن عالم الوجود؟!

بحثان

اشاره

١- لماذا أبى إبليس؟

«الشيطان» اسم جنس شامل للشيطان الأول و لجميع الشياطين. أمّا «إبليس» فاسم علم للشيطان الذى وسوس لآدم. و إبليس - كما صرح القرآن - ما كان من جنس الملائكه و إن كان فى صفوفهم، بل كان من طائفه الجن، و هى مخلوقات ماديه. قال تعالى: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ (٢).

ص: ١٦٣

١- ١) - إلى هذا أشار أيضا الألوسى فى روح المعانى، و الفخر الرازى فى التفسير الكبير.

٢- ٢) - الكهف، ٥٠.

باعثه على الامتناع عن السجود كبر و غرور و تعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغي أن يؤمر آدم بالسجود له، وسيأتي شرح ذلك في تفسير الآيه ١٢ من سورة الأعراف (١).

كفر إبليس كان يعود إلى نفس السبب أيضا، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهي، و بذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائديا. و هكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته و طاعاته نتيجة كبره و غروره. و هكذا تكون دوما نتيجة الكبر و الغرور.

و عبارته **كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** تشير إلى أن إبليس كان قبل صدور الأمر الإلهي إليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة و طاعه الله، و أسرّ في نفسه الاستكبار و الجحود. لعله عزم في قراره نفسه أن لا- يخضع لو صدرت إليه أوامر بالخضوع و السجود. و من المحتمل أن تكون عبارته **مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** إشاره إلى ذلك.

و ورد هذا المعنى في حديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام. قال إبليس «لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته إلى أن قال: ثم قال الله تعالى للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد» (٢).

٢- هل كان السجود لله أم لآدم عليه السلام؟

لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لا معبود غير الله، و توحيد العبادة يعني أن لا نعبد إلا الله.

من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم يعني «سجده عباده» قطعا. بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم

ص: ١٦٤

١-١) - راجع المجلد الرابع من هذا التفسير.

٢-٢) - تفسير الميزان، ج ١، ص ١٢٥.

جاء في «عيون الأخبار» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كان سجودهم لله تعالى عبوديته، ولآدم إكراما وطاعة، لكننا في صلبه» (١).

بعد هذا المشهد و مشهد اختبار الملائكة، أمر آدم و زوجته أن يسكنا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَ كُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** (٢).

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خلق للعيش على هذه الأرض. لكن الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنة، وهي روضه خضراء موفوره النعمه في هذا العالم، و خاليه من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحله مكوث آدم في الجنة كانت مرحله تحضيريه لعدم ممارسه آدم للحياه على الأرض و صعوبه تحمّل المشاكل الدنيويه بدون مقدمه، و من أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، و لتفهيمه أهميه حمل هذه المسؤوليات و التكاليف الإلهيه في تحقيق سعادته، و لإعطائه صورته عن الشقاء الذي يستتبع إهمال هذه التكاليف، و لتنبهه بالمحظورات التي سيواجهها على ظهر الأرض.

و كان من الضروري أيضا أن يعلم آدم بإمكان العوده إلى الله بعد المعصيه.

فمعصيه الله -لا تسدّ إلى الأبد- أبواب السعاده أمامه، بل يستطيع أن يرجع و يعاهد الله أن لا يعود لمثلها، و عند ذاك يعود إلى النعم الإلهيه.

ينبغي أن ينضح آدم عليه السلام في هذا الجوّ إلى حد معين، و أن يعرف أصدقاءه و أعداءه، و يتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض. نعم، كانت هذه مجموعه من التعاليم الضروريه التي تؤهله للحياه على ظهر الأرض.

ص: ١٦٥

١-١) -نور الثقلين، ج ١، ص ٥٨.

٢-٢) -الرغد على وزن الصمد يعنى الكثير و الواسع و الهنيء، و عبارته «حيث شئتما» تعنى: من أى مكان شئتما في الجنة، أو من أى نوع شئتم من فاكهه الجنة.

كانت هذه مقدمات تأهيله يحتاجها آدم و أبناء آدم في حياتهم الجديدة.

و لعل الفترة التي قضاها آدم في الجنة أن ينهض بمسؤوليه الخلافة على الأرض كانت تدريبيه أو تمرينيه.

و هنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهي يقضى بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلا أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم و ذريته، فطفق يوسوس لآدم و يعده و وزجه- كما يبدو من سائر آيات القرآن الكريم- بالخلود و باتخاذ شكل الملائكة و أقسم أنه لهما من الناصحين. (١)

تقول الآية بعد ذلك: فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (٢).

نعم. أخرجنا من الجنة حيث الراحة و الهدوء و عدم الألم و التعب و العناء، على أثر وسوسة الشيطان.

و صدر لهما الأمر الإلهي بالهبوط وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .

و هنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أخرج من الجوّ الهادى الملىء بنعم الجنة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان. و هبط في جوّ مفعم بالتعب و المشقة و العناء. مع أن آدم كان نبيا و معصوما، فإن الله يؤاخذ الأنبياء بترك الأولى- كما سنرى- كما يؤاخذ باقى الأفراد على ذنوبهم. و هو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

ص: ١٦٦

١-١) -الأعراف، ٢٠ و ٢١.

٢-٢) -مرجع الضمير في «عنها» إمّا أن يعود على «الجنة» و يكون معنى «مما كانا فيه» في هذه الحالة: من مقامهما الذى كانا فيه. و إمّا أن يعود على «الشجرة» فيكون معنى الآية: إن الشيطان أزلهما بوسيلة الشجرة، و أخرجهما من الجنة التى كانا فيها.

١- ما هي جنة آدم عليه السلام؟

يبدو أن الجنة التي مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنة التي وعد بها المتقون. بل كانت من جنات الدنيا، وصدقنا منعمًا خلأبا من أصقاع الأرض. و دليلنا على ذلك:

أولاً: الجنة الموعودة في القيامة نعمه خالده، و القرآن ذكر مرارا خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانياً: إبليس الملعون ليس له طريق للجنة، و ليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثاً: وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات تصرّح بذلك.

منها ما

روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه سئل عن جنة آدم، فقال: «جنة من جنات الدنيا، يطلع فيها الشمس و القمر، و لو كان من جنات الآخرة ما خرج منها أبداً» (١).

من هذا يتضح أن هبوط آدم و نزوله إلى الأرض لم يكن مكانيا بل مقاميا.

أى أنه هبط من مكانته السامية و من تلك الجنة المزدانه.

من المحتمل أيضا أن تكون هذه الجنة غير الخالده في إحدى الكواكب السماويه، و في بعض الروايات الإسلاميه إشارة إلى أن هذه الجنة في السماء.

غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء في هذه الروايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنة هي غير جنة الخلد الموعوده. لأن جنة آدم بدايه مسير الإنسان و جنة الخلد نهايتها. و هذه مقدمه لأعمال الإنسان و مراحل حياته، و تلك نتيجة أعمال الإنسان و مسيرته.

ص: ١٦٧

المكانه التي ذكرها القرآن لآدم ساميه و رفيعه،فهو خليفه الله في الأرض و معلم الملائكه،و على درجه كبيره من التقوى و المعرفه،و هو الذي سجدت له ملائكه الله المقربين.و من المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب،إضافه إلى أنه كان نبيا،و النبي معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذي صدر عن آدم.و توجد لذلك ثلاثه تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

١- ما ارتكبه آدم كان «تركا للأولى»أو بعباره اخرى كان «ذنبا نسبيا»،و لم يكن «ذنبا مطلقا».

الذنب المطلق،و هو الذنب الذي يستحق مرتكبه العقاب أيا كان،مثل الشرك و الكفر و الظلم و العدوان.و الذنب النسبي هو الذي لا يليق بمرتكبه أن يفعله لعلو منزله ذلك الشخص،و إن كان ارتكابه مباحا،بل مستحبا أحيانا من قبل الأفراد العاديين.على سبيل المثال،نحن نؤدى الصلاه بحضور القلب تاره،و بعدم حضور القلب تاره اخرى.و هذه الصلاه تتناسب و شأننا،لكن مثل هذه الصلاه لا- تليق بأفراد عظام مثل رسول الله صَلَّى الله عليه و اله و سلم.صلاه الرسول ينبغى أن تكون بأجمعها اتصالا عميقا بالله تعالى،و إن فعل الرسول غير ذلك فلا يعنى أنه ارتكب محرّما،بل يعنى أنه ترك الاولى.

و آدم كان يليق به أن لا يأكل من تلك الشجره،و إن كان الأكل منها غير محرّم بل «مكروها».

٢- نهى الله لآدم إرشادى،مثل قول الطيب:لا تأكل الطعام الفلانى فتمرض.

و الله سبحانه قال لآدم:لا تقرب هذه الشجره فتخرج من الجنّه.و آدم فى أكله من الشجره خالف نهيا إرشاديا.

٣- الجنّه التي مكث فيها آدم لم تكن محلا للتكليف،بل كانت دوره اختباريه

و تمهيديه لآدم كى يهبط بعدها إلى الأرض. و كان النهى ذا طابع اختياري (١).

٣- المقارنه بين معارف القرآن و التوراه:

أكبر مفاخر آدم و أعظم نقاط قوته التى جعلته زبده الكون و مسجود الملائكه هى - كما يظهر من الآيات - تعليمه الأسماء و اطلاعه على حقائق الكون و أسرارہ.

واضح أن آدم خلق لهذه العلوم، و أبناء آدم - إن أرادوا التكامل - عليهم أن يستزيدوا من هذه العلوم، و تكاملهم يتناسب مرادفا مع معلوماتهم عن أسرار الخليفه.

نعم، القرآن يصرح بأن عظمه آدم تكمن فى هذه النقطة. و لكن التوراه تذهب إلى أن سبب خروج آدم من الجنه و خطيئته الكبرى هو اتجاهه نحو العلم و معرفه الصالح و الطالح! جاء فى الفصل الثانى من «سفر التكوين» من التوراه:

«و أخذ الربّ الإله آدم و وضعه فى جنّه عدن ليعلمها و يحفظها. و أوصى الربّ الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنّه تأكل آكلًا. و أمّا شجره معرفه الخير و الشرّ فلا تأكل منها.

لأنك يوم تأكل منها موتا تموت».

و جاء فى الفصل الثالث من التوراه:

«و سمعا صوت الربّ الإله ماشيا فى الجنّه عند هبوب ريح النهار. فاقتبأ آدم و امرأته من وجه الربّ الإله فى وسط شجر الجنّه. فنادى الربّ الإله آدم و قال له أين أنت. فقال سمعت صوتك فى الجنّه فخشيت لأنى عريان فاقتبأت. فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجره التى أوصيتك أن لا- تأكل منها. فقال آدم: المرأه التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجره فأكلت....

ص: ١٦٩

١ - ١) - لمزيد من التوضيح فى هذا المجال، راجع المجلد الرابع من هذا التفسير، ذيل الآيات (١٩-٢٢) من سوره الأعراف، و المجلد العاشر ذيل الآيه (١٢١) من سوره طه.

وقال الربّ الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير و الشرّ، والآن لعلّه يمدّ يده و يأخذ من شجره الحيوه أيضاً و يأكل و يحيا إلى الأبد. فأخرجه الربّ الإله من جنّه عدن ليعمل الأرض الّتي أخذ منها. فطرد الإنسان و أقام شرقىّ جنّه عدن الكروبيم و لهيب سيف متقلّب لحراسه طريق شجره الحيوه!! من هذه «الأسطورة التافهه»، الّتي تعرضها التوراه الحاليه باعتبارها واقعا تاريخيا يتبين لنا رأى التوراه الحاليه فى سبب خروج آدم من الجنّه، فهو على رأى هذه الأسطورة معرفه آدم بالخير و الشرّ، و ذنبه الأكبر هو الاتجاه نحو العلم و المعرفه!! و إن لم يمدّ آدم يده إلى «شجره الخير و الشرّ» لبقى جاهلا حتى بقبح التعرّى، و لما أخرج من الجنّه، بل كان فيها خالداً.

فيا عجباً، لم إذا حزن آدم على خروجه من الجنّه إذا كان خروجه قد اقترن باكتسابه العلم و المعرفه و بتمييزه بين الخير و الشرّ، إنها صفاقه رابحه تلك الّتي حصل عليها آدم، فلما ذا ندم عليها؟! و يتضح من ذلك أنّ أسطورة التوراه تقع فى النقطه المقابله للاتجاه القرآنى الّذى يرى أن مكانه الإنسان و مقامه و سرّ خلقته تكمن فى «تعليمه الأسماء».

أضف إلى ما سبق أن هذه الأسطورة تتضمّن مفاهيم مشينه مخجله بشأن الله سبحانه و بشأن المخلوقات، كل واحد منها تثير الدهشه أكثر من غيرها، و هى عباره عن:

١- نسبه الكذب إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (كما جاء فى الجمله ١٧ من الاصحاح الثانى: أما شجره معرفه الخير و الشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت)! ٢- نسبه البخل إلى الله سبحانه (كما جاء فى الجمله ٢٢ من الاصحاح الثالث:

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير و الشرّ. و الآن لعله

يمدّ يده و يأخذ من شجره الحياه أيضا و يأكل و يحيا إلى الأبد)! ٣- إمكان وجود الشريك لله تعالى (كما فى العبارة السابقة: قد صار كواحد منا).

٤- نسبة الحسد إلى الله (و يستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضا).

٥- تجسيم الله سبحانه (...و سمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار)! ٦- نسبة الجهل إلى الله بالحوادث التى تقع قريبا منه (كما تقول هذه التوراه:

فاختبا آدم و امرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم و قال له: أين أنت؟! (و لا بدّ من التأكيد هنا أن هذه الخرافة لم تكن فى التوراه المنزله، بل أضيفت فيما أضيف إلى التوراه).

٤- المقصود من الشيطان فى القرآن

كلمه الشيطان من ماده «شطن» و «الشاطن» هو الخبيث و الوضيع. و الشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصى، إنسانا كان أو غير إنسان، و تعنى أيضا الروح الشريره البعيده عن الحق. و بين كل هذه المعانى قدر مشترك.

و الشيطان اسم جنس عام، و إبليس اسم علم خاص، و بعبارة اخرى، الشيطان كل موجود مؤذ مغو طاغ متمرد، إنسانا كان أم غير إنسان، و إبليس اسم الشيطان الذى أغوى آدم و يتربص هو و جنده الدوائر بأبناء آدم دوما.

من مواضع استعمال هذه الكلمه فى القرآن يفهم أن كلمه الشيطان تطلق على الموجود المؤذى المضر المنحرف الذى يسعى إلى بث الفرقه و الفساد و الاختلاف. مثل قوله تعالى:

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ...

(١)

و فى استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة على استمرار إرادته الشيطان على هذا النحو.

و الاستعمال القرآنى لكلمه شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوه الإلهيه، كقوله تعالى:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

(٢)

كلمه الشيطان أطلقت على إبليس أيضا بسبب فساده و انحرافه.

و الميكروبات المضرة تشملها كلمه الشيطان أيضا، كما

ورد عن على أمير المؤمنين عليه السلام: «لا- تشربوا الماء من ثلمه الإناء و لا من عروته، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقَعْدُ عَلَى الْعُرُوهِ وَ الثَّلْمِ»

(٣).

و روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «و لا- يشرب من أذن الكوز، و لا- من كسره إن كان فيه، فَإِنَّهُ مَشْرَبُ

الشَّيَاطِينِ» (٤).

و عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم: «لا يَطْوُلَنَّ أَحَدُكُمْ شَارِبَهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَّخِذُهُ مَخْبِئًا يَسْتَتِرُ بِهِ» (٥).

و من الواضح أننا لا- نقصد أن معنى كلمه الشيطان هو الميكروب أينما وردت هذه الكلمه، بل نقصد أن الكلمه لها معان

متعدده، أحد مصاديقها الواضحه «إبليس» و جنده و أعوانه. و مصاديقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون.

و وردت فى مواضع اخرى بمعنى الميكروبات المؤذيه (تأمل بدقّه)!

ص: ١٧٢

١-١ - المائده، ٩١.

٢-٢ - الأنعام، ١١٢.

٣-٣ - كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأَطعمه و الأشربه، باب الأوانى.

٤-٤) - كتاب الكافي، ج ٦، كتاب الأَطعمه و الأَشربه، باب الأواني.

٥-٥) - كتاب الكافي، ج ٦، ص ٤٨٧، ح ١١.

٥- لماذا خلق الشيطان!؟

يثار أحيانا سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوى. و فى الجواب نقول:

أولاً: لم يخلق الله الشيطان، شيطانا. و الدليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله و على الفطره الطاهره. لكنه بعد تحرره أساء التصرف، و عزم على الطغيان و التمرد.

إنه إذن خلق طاهرا، و سلك طريق الانحراف مختارا.

ثانيا: وجود الشيطان لا- يسبب ضررا للأفراد المؤمنين، و لطلاب طريق الحق، فى منظار نظام الخليقه. بل إنه وسيله لتقدمهم و تكاملهم، إذ إن التطور و التقدم يتم من خلال صراع الأضداد.

بعبارة أوضح: قوى الإنسان و طاقاته الكامنه لا تتأهب و لا تتفجر إلا حينما يواجه الإنسان عدوا قويا. هذا العدو يؤدى إلى تحريك طاقات الإنسان و بالتالى إلى تقدمه و تكامله.

الفيلسوف المعاصر «توينبى» يقول: «لم تظهر فى العالم حضاره راقية إلا بعد تعرّض شعب من الشعوب إلى هجوم خارجى قوى. و هذا الهجوم يؤدى إلى تفجير النبوغ و الكفاءات، لصنع مثل هذه الحضاره».

اشاره

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

التفسير

اشاره

عوده آدم عليه السلام إلى الله

بعد حادثه وسوسه إبليس، و صدور الأمر الإلهي لآدم بالخروج من الجنه، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أنه أخرج من ذلك الجوّ الهادئ المنعم على أثر إغواء الشيطان، ليعيش في جوّ جديد مليء بالتعب و النصب. و هنا أخذ آدم يفكر في تلافى خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه و هو نادم أشدّ الندم.

و أدركته رحمه الله في هذه اللحظات كما تقول الآية فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

«التوبه» في اللغة بمعنى «العوده»، و هي في التعبير القرآني، بمعنى العوده عن الذنب، إن نسبت إلى المذنب. و إن نسبت كلمه التوبه إلى الله فتعني عودته سبحانه إلى الرحمه التي كانت مسلوبه عن العبد المذنب. و لذلك فهو تعالى «تَوَّابٌ» في

بعبارة اخرى «توبه» العبد عودته إلى الله، لأن الذنب فرار من الله و التوبه رجوع إليه. و توبه الله، إغداق رحمته على عبده الآثب (1)

صحيح أن آدم لم يرتكب محرّماً، و لكن ترك الأولى يعتبر معصيه منه. و لذلك سرعان ما تدارك الموقف، و عاد إلى خالقه.

و سنتحدث فيما بعد عن المقصود ب«الكلمات» في الآية.

على أيّ حال، لقد حدث ما لا ينبغي أن يحدث- أو ما ينبغي أن يحدث- و قبلت توبه آدم، لكن الأثر الوضعي للهبوط في الأرض لم يتغير، كما يذكر القرآن: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، فَأَمَّا يَا تَيْنُكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَنْ تَبَعَ هُدًى فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

بحوث

إشارة

١- الكلمات التي تلقاها آدم

تعددت الآراء في تفسير «الكلمات»، التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه.

المعروف أنها الكلمات المذكوره في الآية ٢٣ من سورة الأعراف: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسِنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

و قال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك خير الغافرين».

ص: ١٧٥

١ - ١) - و لذلك، توبه العبد تتعدى بحرف الجر (إلى)، و توبه الله تتعدى ب (على)، فيقال في الأولى «تاب إليه» و في الثانية «تاب عليه»، راجع التفسير الكبير للفخر الرازي و تفسير الصافي، ذيل آيات بحثنا.

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

«اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

و هذا ما نقل في روايه عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام (١).

مثل هذه التعبيرات ذكرها القرآن على لسان يونس و موسى عليهما السلام. يونس ناجى ربه فقال: سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٢). و موسى أيضا: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ (٣).

و في روايات وردت عن طرق أهل البيت عليهم السلام أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله و هم: محمّد و عليّ و فاطمه و الحسن و الحسين -عليهم أفضل الصلاة و السلام- و آدم توسل بهذه الكلمات ليطلب العفو من رب العالمين فعفا عنه.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها، و لعلّ آدم تلقى من ربه كل هذه الكلمات، كي يحدث فيه تغيير روحي تام بعد أن يعي حقيقة هذه الكلمات، و ليشمله بعد ذلك لطف الله و رحمته.

٢- سبب تكرار جملة «اهبطوا»

الأمر بالهبوط تكرر في الآيتين: ٣٦ و ٣٨ من هذه السور، أي قبل توبه آدم و حواء و بعدها. للمفسرين رأيان في سبب التكرار، بعضهم قالوا للتأكيد، و آخرون قالوا إن موضوع الجملة الاولى يختلف عن موضوع الجملة الثانية.

و الظاهر أن الجملة الثانية توضح لآدم مسأله عدم انتفاء الأمر بالهبوط في

ص: ١٧٦

(١-١) -مجمع البيان، ذيل الآيات التي نحن بصدددها.

(٢-٢) -الأنبياء، ٨٧.

(٣-٣) -القصص، ١٦.

الأرض بعد قبول التوبه، و عدم الانتفاء هذا يعود إمّا إلى أن آدم قد خلق منذ البدايه لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعى لعمله. و هذا الأثر الوضعى لا يتغير بالتوبه.

٣- من هم المخاطبون فى جمله «اهبطوا»؟

الضمير فى «اهبطوا» للجمع، بينما عدد المخاطبين اثنان فقط، هما آدم و زوجته. و الجمع هنا ناظر إلى النتيجة التى تستتبع هبوط آدم و حواء فى الأرض.

فأبناؤهما و أجيال البشر بعد هما سيستقرون على هذه المعموره.

ص: ١٧٧

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

التفسير

اشاره

ذكر النعم الإلهيه

مرّت بنا فى الآيات السابقه قصّه خلافه آدم فى الأرض، و موقف الملائكه منه، ثم نسيانه العهد الإلهى و هبوطه إلى الأرض، و بعد ذلك توبته.

و من أحداث قصّه آدم عليه السلام، اتضح أن الساحه الكونيه تنطوى دوما على قوتين: قوه الحق و قوه الباطل. و هاتان القوتان متقابلتان و متصارعتان، و من اتبع الشيطان فى هذا الصراع فقد اختار طريق الباطل، و مصيره الابتعاد عن الجنّه و السعاده، و معاناه المصائب و الآلام، و من ثمّ الندم. و من التزم بأوامر الله و نواهيه و تغلب على وساوس الشيطان و أتباعه، فقد سار على طريق الحق، و ابتعد عن نكد العيش و ضنكه و آلامه.

لما كانت قصّه بنى إسرائيل ابتداء من تحررهم من السيطره الفرعونيّه و استخلافهم فى الأرض، و مرورا بنسيان العهد الإلهى، و انتهاء بسقوطهم فى حضيض الانحراف و العذاب و المشقه، تشبه إلى حد كبير قصه آدم، بل هى فرع

من ذلك الأصل العام، فإن الله سبحانه في آيه بحثنا و عشرات الآيات الأخرى التالیه، بین مقاطع من حياه بنى إسرائيل و مصيرهم، لإكمال الدرس التربوى الذى بدأ بقصه آدم.

يوجه القرآن خطابه إلى بنى إسرائيل و يقول: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

الأوامر الثلاثة التى تذكرها الآيه الكريمة و هى: تذكر النعم الإلهيه، و الوفاء بالعهد، و الخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشريه.

تذكر النعم الإلهيه يحفز الإنسان للاتجاه نحو معرفه الله سبحانه و شكره.

و استشعار العهد الإلهي الذى يستتبع النعم الإلهيه يدفع الكائن البشرى إلى النهوض بمسؤولياته و واجباته. ثم الخوف من الله وحده-دون سواه-يمنح الإنسان العزم على تحدى كل العقبات التى تقف بوجه تحقيق أهدافه و الالتزام بعهده. لأن الخوف الموهوم من هذا و ذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الإلهي.

و ظاهره الخوف كانت متغلغله فى أعماق نفوس بنى إسرائيل نتيجة السيطره الفرعونه الطويله عليهم.

بحوث

إشاره

١- اليهود فى المدينه

يحتل الحديث عن اليهود قسما هاما من سوره البقره، التى هى أول سوره نزلت فى المدينه كما صرح بذلك بعض العلماء، لأن اليهود كانوا أشهر مجموعه من أهل الكتاب فى المدينه، و كانوا قبل ظهور النبى صلى الله عليه و اله و سلم ينتظرون رسولا بشرت به كتبهم الدينيه، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانه اقتصاديه مرموقه، و لذلك كله كان لليهود نفوذ عميق فى المدينه.

ولما ظهر الإسلام، باعتباره الرسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللامشروعه و انحرافاتهم و غطرستهم، فمضافا إلى عدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوه، وبدأوا يحكون ضدها المؤامرات التي لا زالت مستمره بعد أربعة عشر قرنا من البعثه النبويه المباركه.

الآيه المذكوره و آيات تاليه أنحت باللائمه الشديده على اليهود، و هزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسه من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعيه لاستيقظ و اتجه نحو الإسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس ملء بالعبر للمسلمين.

و سنقف في آيات تاليه بإذن الله عند دروس من تاريخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، و انفلاق البحر لهم، و غرق الفرعونيين، و ميعاد موسى في جبل الطور، و عباده بنى إسرائيل للعجل في غياب موسى، و الأمر بالتوبه و قتل النفس، و نزول النعم الخاصه الإلهيه، و أمثالها من الدروس.

٢- ميثاق بنى إسرائيل:

ميثاق بنى إسرائيل الإلهي يتكون من اثني عشر بندا، عشر منها ذكرت في آيتين متواليتين من هذه السوره.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَ الْيَتَامَىٰ، وَ الْمَسَاكِينِ، وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَ آتُوا الزَّكَاةَ...

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَفْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

(١)

ص: ١٨٠

و بندان ذكرا فى الآيه الكريمه:

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمُ بِرُسُلِي، وَ عَزَّزْتُموهُمْ...

(١)

و هما: الإيمان بالأنبياء و مؤازرتهم.

كان بنو إسرائيل قد وعدوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، و لما دُخِلَ كُمْ جَزَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لكنهم نقضوا الميثاق، و لا يزالون حتى اليوم ينقضونه.

و كان نتيجة ذلك التشيت و التشريد، و سيقون كذلك ما داموا ناكثين. و إذا رأينا لهم يوما جوله و ضجيجا بفضل الدعم الاستكبارى لهم، فإن هذه الجوله سرعان ما ستخبو إن شاء الله أمام صوله أبناء الإسلام... و ها نحن نرى فى الأفق بوادر الصحوه الإسلاميه التى تدفع بالشباب أن يتخلوا عن المدارس الفكرية المنحرفة و الاتجاهات القوميه و العنصريه الكافره و يقضوا على هذا الضجيج.

٣- وفاء الله بعهده

نعم الله تستتبعها دوما قيود و شروط، و إلى جانب كل نعمه، مسئوليته و شرط.

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى قوله اللهم عزّ و جلّ: أَوْفُوا بِعَهْدِي قَالَ: قَالَ بولايه أمير المؤمنين عليه السلام «أوف بعهدهم أوف لكم بالجنّه» (٢).

و لا عجب إن ورد الإيمان بولايه على عليه السلام فى هذا الحديث، باعتباره جزءا من العهد. لأن الإيمان بالأنبياء و مؤازرتهم، من بنود العهد مع بنى إسرائيل، و يستتبع ذلك الإيمان بخلفاء الأنبياء باعتبارهم امتدادا لمسأله القيادة و الولايه و هذه المسأله ينبغى تحقيقها بشكل يتناسب مع زمانها. موسى عليه السلام فى زمانه كان

ص: ١٨١

١- (١) - المائده، ١٢.

٢- (٢) - تفسير نور الثقلين، المجلد الأول الصفحه ٧٢.

يتولى مسئولية القيادة والولاية، والرّسول الخاتم صلّى الله عليه و اله و سلّم هو الذى كان يتولى هذه المسئولية فى عصره، ثم تولّاها فى زمن تال على بن أبى طالب عليه السّلام.

جمله **إِيَّايَ فَارْهَبُونِ** تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمه فى طريق الوفاء بالعهد الإلهى، و على الخوف من الله وحده دون سواه، و هذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إِيَّايَ» على جمله «فارهبون».

٤- لماذا سمي اليهود «بنى إسرائيل»؟

«إسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، و فى سبب تسميه يعقوب بهذا الاسم، ذكر المؤرّخون غير المسلمين عللا ممزوجه بالخرافه.

ورد فى «قاموس الكتاب المقدس»: «أن إسرائيل تعنى الشخص المنتصر على الله!!» و يقول: «و هذه الكلمه لُقّب بها يعقوب بن إسحاق بعد أن صرع الملك الإلهى».

و يقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته و استقامته و إيمانه، و فى هذه الحاله غير الله اسمه إلى «إسرائيل»، و وعده أن يكون أبا لكل الطوائف... ثم مات بعد أن هرم، و دفن كما يدفن السلاطين الدنيويون و أطلق اسم يعقوب و إسرائيل على جميع قومه».

و يقول تحت كلمه «إسرائيل»: «لهذا الاسم معان كثيره، يقصد به أحيانا نسل إسرائيل و نسل يعقوب» (١).

أمّا علماؤنا كالمفسر المعروف «الطبرسى رحمه الله» فيقول فى «مجمع البيان»: إن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام و إن «أسر» تعنى «العبد» و «ئيل»

ص: ١٨٢

بمعنى الله، فيكون معنى إسرائيل عبد الله.

واضح أن ما تتحدث عنه التوراه من مصارعه بين يعقوب و الملك الإلهى، أو بين يعقوب و الله، خرافه و سخافه لا تتناسب إطلاقاً مع الكتاب الإلهى، و هى أوضح دليل على تحريف التوراه الموجوده.

ص: ١٨٣

اشاره

وَ آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَتُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين العظام روايه عن الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام: في سبب نزول هذه الآيه قال: «كان حى بن أخطب و كعب بن أشرف و آخرون من اليهود، لهم مأكله على اليهود فى كل سنه، فكرهوا بطلانها بأمر النبى صلى الله عليه و اله و سلم، فحرفوا لذلك آيات من التوراه فيها صفته و ذكره فذلك الثمن الذى أريد فى الآيه» (١).

التفسير

اشاره

جشع اليهود

الآيات المذكوره أعلاه تتطرق إلى تسعه من بنود العهد الذى أخذه الله على

ص: ١٨٤

يقول تعالى: وَ آمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أى أن البشائر التى زفتها التوراه و الكتب السماويه الاخرى بشأن النبى الخاتم، و الأوصاف التى ذكرتها لهذا النبى و الكتاب السماوى تنطبق على محمّد صلى الله عليه و اله و سلم، و على القرآن المنزل عليه، فلما ذا لا- تؤمنون به؟! ثم يقول سبحانه: وَ لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ أَى- لا عجب أن يكون المشركون و الوثنيون فى مكه- كفّارا بالرساله، بل العجب فى كفركم، بل فى كونكم روادا للكفر، و سابقين للمعارضه. لأنكم أهل الكتاب، و كتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبى، و كنتم لذلك تترقبون ظهوره. فما عدى ممّا بدا؟ و لماذا كنتم أول كافر به!؟

إنه تعنتهم الذى لولاه لكانوا أول المؤمنين برساله النبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم.

المقطع الثالث من الآيه يقول: وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا .

آيات الله، لا ينبغى -دون شك- معاوضتها، بأى ثمن، قليلا كان أم كثيرا.

و فى تعبير هذه الآيه إشاره إلى دناءه هذه المجموعه من اليهود، التى تنسى كل التزاماتها من أجل مصالحتها التافهه. هذه الفئه، التى كانت قبل البعثه من المبشرين بظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و اله و سلم، و بكتابه السماوى، أنكرت بشارات التوراه و حرفتها، حين رأت مصالحتها معرضه للخطر، و علمت أن مكانتها الاجتماعيه معرضه للإنيهار عند انكشاف الحقيقه للناس.

فى الواقع، لو أعطيت الدنيا بأجمعها لشخص ثمنا لإنكار آيه واحده من آيات الله، لكان ثمنا قليلا، لأنّ هذه الحياه فانيه، و الحياه الاخرى هى دار البقاء و الخلود. فما بالك بإنسان يفرط بهذه الآيات الإلهيه فى سبيل مصالحه التافهه؟! فى المقطع الرابع تقول الآيه: وَ إِنِّي آتِي فَاتَّقُونِ، و الخطاب موجّه إلى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، و أن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم،

و تطلب منهم أن يخشوا الله وحده، أى أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

فى البند الخامس من هذه الأوامر ينهى الله سبحانه عن خلط الحق بالباطل [□] وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ .

و فى البند السادس ينهى عن كتمان الحق: ... وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب و جريمه، و الآيه تقول لهم: قولوا الحق و لو على أنفسكم، و لا تشوهوا وجه الحقيقه بخلطها بالباطل و إن تعرضت مصالحكم الآنيه للخط.

البند السابع و الثامن و التاسع من هذه الأوامر بيينه قوله تعالى: [□] وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

البند الأخير يأمر بالصلاه جماعه، غير أن «الركوع» هو الذى ذكر دون غيره من أجزاء الصلاه، و لعل ذلك يعود إلى أن صلاه اليهود كانت خاليه من الركوع، تماما، بينما احتل الركوع مكان الركن الأساسى فى صلاه المسلمين.

و من الملفت للنظر أن الآيه لم تقل «أدوا الصلاه»، بل قالت: [□] أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، و هذا الحث يحمّل الفرد مسئوليته خلق المجتمع المصلى، و مسئوليته جذب الآخرين نحو الصلاه.

بعض المفسرين قال إن تعبير «أقيموا» إشاره إلى إقامه الصلاه كامله، و عدم الاكتفاء بالاذكار و الأوراد، و أهم أركان كمال الصلاه حضور القلب و الفكر لدى الله سبحانه، و تأثير الصلاه على المحتوى الداخلى للإنسان (1).

هذه الأوامر الأخيره تتضمن فى الحقيقه: أولا بيان ارتباط الفرد بخالقه (الصلاه)، ثم ارتباطه بالمخلوق (الزكاه)، و بعد ذلك ارتباط المجموعه البشرىه مع

ص: ١٨٤

بحث

اشاره

هل يؤيد القرآن ما جاء في التوراه و الإنجيل!؟

فى مواضع عديده يصرح القرآن بتصديقه لما جاء فى الكتب الإلهيه السابقه، كما جاء فى الآيه المذكوره: مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ و كما جاء فى الآيتين ٨٩ و ١٠١ من سوره البقره: مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ. و فى الآيه ٤٨ من سوره المائده: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ .

بعض دعاه اليهوديه و النصرانيه. استدلوا بهذه الآيات لإثبات عدم تحريف التوراه و الإنجيل. و قالوا: إن التوراه و الإنجيل فى عصر نبي الإسلام لا- يختلفان حتما عما عليه الآن. و إن أصابهما تحريف فهذا التحريف يعود إلى فتره سابقه على ذلك العصر. و لما كان القرآن قد أيد صحه التوراه و الإنجيل الموجودين فى عصر نبي الإسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحه هذين الكتابين الموجودين بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن فى مواضع عديده وجود علائم نبي الإسلام و دينه فى تلك الكتب المحرفه التى كانت موجوده فى أيدي اليهود و النصراني آنذاك. و هذا يعنى وجود حقائق فى تلك الكتب لم تمتد إليها يد التحريف، ذلك لأن التحريف لا يعنى تغيير كل نصوص تلك الكتب السماويه، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، و من تلك الحقائق علامات النبى الخاتم (و لا زالت بعض هذه البشائر

مشهوده فى الكتب الموجوده الآن).

بعثه النبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم و كتابه السماوى تصديق لما جاء فى تلك الكتب من علامات، أى تحقيق عملى لتلك العلامات. و كلمه التصديق بمعنى (التحقيق العملى) وردت فى مواضع اخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبىه إبراهيم عليه السلام:

فَدَصَّدَقْتَ الرَّؤْيَا

(١)

أى أنك قد حققت عمليا رؤياك.

و تصرح الآيه ١٥٧ من سوره الأعراف بأن الرسول الأعظم صلى الله عليه و اله و سلم تحقيق عملى لما يجدونه مكتوبا فى التوراه و الإنجيل: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... (٢).

على أى حال، ليس فى الآيات المذكوره دلالة على تصديق جميع محتويات التوراه و الإنجيل، بل دلالتها تقتصر على «التصديق العملى» لما جاء فى الكتب الموجوده بيد اليهود و النصارى بشأن النبى الخاتم و كتابه. هذا، إلى جانب وجود آيات عديده فى القرآن تتحدث عن تحريف اليهود و النصارى لآيات التوراه و الإنجيل، و هو شاهد حى صريح على مسأله التحريف.

شاهد حى آخر:

«فخر الإسلام»-الذى كان من كبار قساوسه المسيحيين، و تتلمذ عند علمائهم حتى حاز مراتب كبيره فى الدراسات الكنيسيه- يتحدث فى مقدمه كتابه «أنيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحيه إلى الإسلام فيقول:

«...بعد بحث طويل و عناء كبير و تجوال فى المدن، عثرت على قسيس كبير متميز فى زهده و تقواه، كان يرجع إليه الكاتوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه

ص: ١٨٨

١-١) -الصفات، ١٠٥.

٢-٢) -الأعراف، ١٥٧.

زمنًا مذاهب النصراري، و كان له طلاب كثيرون، و لكنه كان ينظر إليّ من بينهم نظره خاصه، و كانت كل مفاتيح البيت بيدي، إلا مفتاحا واحدا لغرفه صغيره، احتفظ به عنده....

و في يوم اعتلت صحه القسيس، فقال لي: قل للطلاب إنى لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» فى السريانيه، و «پريكلتوس» فى اليونانيه... و استمر بينهم النقاش، و كل كان يدلى برأيه....

بعد أن عدت إلى الأستاذ سألتى عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: و ما رأيك؟ قلت: اخترت الرأى الفلانى.

قال القسيس: ما قصيرت فى عملك، و لكن الحق غير ذلك. لأن حقيقه هذا الأمر لا- يعلمها إلا الراسخون فى العلم، و قليل ما هم، أكثر فى الإلحاح عليه أن يوضح لى معنى الكلمه، فبكى بكاء مزا و قال: لم أخف عليك شيئا... إن لفهم معنى هذه الكلمه أثرا كبيرا، و لكنه إن انتشر فستعرض للقتل! فإن عاهدتنى أن لا تفشيه فسأخبرك... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لأحد، فقال: إنه اسم من أسماء نبى المسلمين، و يعنى «أحمد» و «محمد».

ثم أعطانى مفتاح الغرفه و قال: افتح الصندوق الفلانى، و هات الكتابين اللذين فيه، جئت إليه بالكتابين و كانا مكتوبين باليونانيه و السريانيه على جلد، و يعودان إلى عصر ما قبل الإسلام.

الكتابان ترجمتا «فارقليطا» بمعنى أحمد و محمّد، ثم أضاف الأستاذ: علماء النصراري كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد و محمّد»، و لكن بعد ظهور محمّد صلى الله عليه و اله و سلم، غيروا هذا المعنى حفظا لمكانتهم و رئاستهم و أولوه، و اخترعوا له معنى آخر لم يكن على الإطلاق هدف صاحب الإنجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجىء الإسلام، وكرر ذلك ثلاثاً، ثم قلت:

ما هي طريقه النجاه و الصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمد صلى الله عليه و اله و سلم.

قلت: و هل التابعون له ناجون؟ قال: إى و الله، و كرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الأستاذ و بكيت كثيراً ثم قال: إذا أردت الآخرة و النجاه فعليك بدين الحق... و أنا أدعو لك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لى يوم القيامة أنى كنت فى الباطن مسلماً، و من أتباع محمد صلى الله عليه و اله و سلم... و ما من شك أن الإسلام هو دين الله اليوم على ظهر الأرض» (١).

و كما يلاحظ فإن هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه و اله و سلم من تحريف لتفسير اسم النبى و علاماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.

ص: ١٩٠

١-١) -نقلاً باختصار عن «الهدايه الثانيه» مقدمه كتاب «أنيس الأعلام».

اشاره

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَإِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

التفسير

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

؟! هذا السؤال الاستنكارى-و إن كان موجهًا إلى بنى إسرائيل كما يتبين من سياق الآيات السابقة و التالى-له حتما مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضا.

قال «الطبرسى رحمه الله» فى «مجمع البيان»: هذه الآيه خطاب لعلماء اليهود.

وَبَخِهِمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ تَرَكَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ.

و قال أيضا: كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما أنتم عليه و لا يؤمنون هم.

لذلك كانت الآيه الأولى من الآيات التى يدور حولها بحثنا تحمل توبيخا لهذا العمل: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا

!؟ منهج الدعاه إلى الله يقول على أساس العمل أولاً ثم القول. فالداعيه إلى الله يبلغ بعمله قبل قوله، كما

جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

كونوا دعاه الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاه بألستكم (١).

التأثير العميق للدعوه العمليه يأتي من قدره مثل هذه الدعوه على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعيه العامل، و يرى أن هذا الداعيه مؤمن بما يقول و أن ما يقوله صادر عن القلب. و الكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب.

و أفضل دليل على إيمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما

يقول على عليه السلام: «أيها الناس إني و الله ما أحثكم على طاعه إلا و أسبقكم إليها، و لا أنهاكم عن معصيه إلا و أتناهي قبلكم عنها» (٢).

و في حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً و عمل بغيره» (٣).

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم و تفرق عامه الناس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه و اله و سلم، و لذلك حذروا ما ورد بشأن صفات نبي الإسلام في التوراه.

و القرآن يحث على الاستعانه بالصبر و الصلاه للتغلب على الأهواء الشخصيه و الميول النفسيه، فيقول في الآيه التاليه: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ ثُمَّ يُؤَكِّدُ أَنْ هَذِهِ اسْتِعَانَةٌ ثَقِيلَةٌ لَا يَنْهَضُ بِعَبْثِهَا إِلَّا الْخَاشِعُونَ: وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ .

و في الآيه الأخيره من هذه المجموعه وصف للخاشعين: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ .

ص: ١٩٢

١-١) - سفينه البحار، ماده «عمل».

٢-٢) - نهج البلاغه، الخطبه ١٧٥.

٣-٣) - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٤.

كلمه «يظنون» من ماده «ظنّ» و قد تأتي بمعنى اليقين (١). و فى هذا الموضوع تعنى الإيمان و اليقين القطعى. لأن الإيمان بقاء الله و الرجوع إليه، يحيى فى قلب الإنسان حاله الخشوع و الخشيه و الإحساس بالمسؤوليه، و هذا أحد آثار تربيته الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربيته الفرد مائلاً-دوماً أمام مشهد المحكمه الكبرى، و تدفعه إلى النهوض بالمسؤوليه و إلى الحق و العدل.

و يحتمل أن يكون استعمال «الظن» فى الآيه للتأكيد، أى أن الإنسان لو ظنّ بالآخره فقط، فظنه كاف لأن يصدّه عن ارتكاب أى ذنب. و هو تقرير لعلماء اليهود و تأكيد على أنهم لا يمتلكون إيماناً باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلو ظنوا بالآخره لأحسوا بالمسؤوليه، و كفوا عن هذه التحريفات! (٢)

بحثان

إشارة

١- ما هو لقاء الله؟

عبارة «لقاء الله» وردت مرارا فى القرآن الكريم، و تعنى بأجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهي أن المقصود بلقاء الله ليس هو اللقاء الحسي، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأن الله ليس بجسم، و لا يحده مكان، و لا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدته آثار قدره الله و جزاءه و عقابه و نعمه و عذابه على ساحه القيامة، كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطنى و القلبى، لأن الإنسان يصل درجه كأنه يرى

ص: ١٩٣

١- ١) -يقول الراغب فى المفردات: الظن اسم لما يحصل عن أماره متى قويت أدت إلى العلم، و متى ضعفت جدا لم يتجاوز حدّ التوهم.

٢- ٢) -المنار، ج ١، ص ٣٠٢، و الميزان، ج ١، ص ١٥٤. و تفسير روح المعانى، ج ١، ص ٢٢٨. و فى آيات اخرى إشارة إلى هذا المعنى كقوله تعالى: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (الكهف، ١٠).

اللّه بصيرته أمامه، بحيث لا يبقى في نفسه أى شك و ترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطهر و التقوى و العباده و تهذيب النفس في هذه الدنيا.

في «نهج البلاغه» نقرأ: أن «ذعلب اليماني» و هو من فضلاء أصحاب الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، سأل علياً هل رأيت ربك؟ أجابه على: أ فأعبد ما لا أرى؟! و حين طلب ذعلب مزيداً من التوضيح قال الإمام:

«لا تدركه العيون بمشاهده العيان، و لكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (1).

هذا الشهود الباطنى ينجلي للجميع يوم القيامة، و لا يبقى أحد إلا و قد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمه اللّه و قدرته في ذلك اليوم.

٢- سبيل التغلب على الصعاب

ثمه منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب و المشاكل، أحدهما داخلى، و الآخر خارجى.

أشارت الآيه إلى هذين المنطلقين بعبارة «الصبر» و «الصلاه». فالصبر هو حاله الصمود و الاستقامه و الثبات في مواجهه المشاكل، و الصلاه هي وسيله الارتباط باللّه حيث السند القوى المكين.

كلمه «الصبر» فسرت في روايات كثيره بالصوم، لكنها لا تنحصر حتماً بل الصوم أحد المصاديق الواضحه البارزه للصبر. لأن الإنسان يحصل في ظل هذه العباده الكبرى على الإراده القويه و الإيمان الراسخ و القدره على التحكم في الميول و الرغبات.

روى بعض المفسرين في تفسير هذه الآيه: أن النبى صلّى اللّه عليه و اله و سلم كان إذا أحزنه أمر

ص: ١٩٤

استعان بالصلاه و الصوم (١).

و عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضّأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيهما، أما سمعت الله تعالى يقول: واستعينوا بالصبر و الصلاه» (٢).

التوجه إلى الصلاه و التضرع إلى الله سبحانه يمنح الإنسان طاقة جديدة تجعله قادرا على مواجهه المشاكل.

و فى كتاب «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «كان علىّ عليه السلام إذا هاله أمر فزع إلى الصلاه ثم تلا هذه الآية: واستعينوا بالصبر و الصلاه».

نعم، الصلاه تربط الإنسان بالقدره اللامتناهيه التى لا يقهرها شىء. و هذا الإحساس يبعث فى الإنسان قوّه و شهامه على تحدى المشاكل و الصعاب.

ص: ١٩٥

١-١) - الطبرسى، مجمع البيان، ذيل الآية المذكوره.

٢-٢) - نفس المصدر.

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

التفسير

اشاره

أوهام اليهود

في هذه الآيات خطاب آخر إلى بني إسرائيل فيه تذكير بنعم الله: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .

هذه النعم سابغة واسعه النطاق، ابتداء من الهدايه و الإيمان، و انتهاء بالنجاه من فرعون و نيل العظمه و الاستقلال.

ثم تشير الآيه من بين كل هذه النعم إلى نعمه التفضيل على بقيه البشر، و هي نعمه مركبه من نعم مختلفه، و تقول: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

لعل البعض تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمره على مرّ العصور. لكن دراسه سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من أفراد عصرهم و منطقتهم، لا تفضيلا مطلقا. فالقرآن الكريم يخاطب

المسلمين فى آيه اخرى و يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... (١).

كما يتحدث القرآن عن وراثته بنى إسرائيل للأرض فيقول: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا (٢).

و واضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، و المقصود من الآيه مشارق المنطقه التى كانوا يعيشون فيها و مغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على أفراد منطقتهم.

الآيه التاليه ترفض أو هام اليهود، التى كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرون على دفع فديه و بدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوه فى هذه الحياه الدنيا.

القرآن يخاطبهم و يقول: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا. وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ. وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ .

الحاكم أو القاضى فى تلك المحكمه الإلهيه، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآيه الكريمة: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٣).

إن الآيه المذكوره من سوره البقره، تشير فى الواقع إلى ما يجرى من محاولات فى هذه الحياه الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب.

ففى الحياه الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامه عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أما فى الآخره فإنه: لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ .

و ربما يلجأ المذنب فى هذه الحياه إلى الشفعا ليقذوه مما ينتظره من الجزاء، و يوم القيامه... لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .

و إذا لم توجد الشفعا، يتقدم الإنسان فى الحياه الدنيا بدفع (العدل) و هو بدل

ص: ١٩٧

١-١ - آل عمران، ١١٠.

٢-٢ - الأعراف، ١٣٧.

٣-٣ - الشعراء، ٨٨ و ٨٩.

الشيء من جنسه، أما في الآخرة ف لا يُؤخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .

□ و إذا لم تنفع الوسائل المذكوره كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه و يخلصوه من الجزاء، و في الآخرة لا يقوم بنجاتهم أحد و لا هُمْ يُنصَرُونَ .

القرآن الكريم يؤكد أن الأصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كلياً عما هو السائد في هذه الحياه، فالسبيل الوحيد للنجاه يوم القيامة، هو الإيمان و التقوى و الاستعانه بلطف البارئ تعالى.

تاريخ الشرك و تاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، ملئ بأفكار خرافيه تدور حول محور التوسل و بمثل الأمور التي ذكرتها الآيه الكريمه للفرار من العقاب الاخرى. صاحب المنار يذكر مثلاً، أن الناس في بعض مناطق مصر- كانوا يدفعون مبلغاً من المال إلى الذي يتعهد غسل الميت، و يسمون هذا المبلغ أجره الانتقال إلى الجنه (١).

و في تاريخ اليهود نقرأ أنهم كانوا يقدمون القرابين للتكفير عن ذنوبهم، و إن لم يجدوا قرباناً كبيراً يكتفون بتقديم زوج من الحمام. (٢)

و في التاريخ القديم كانت بعض الأقسام تدفن مع الميت حليه و أسلحته، ليستفيد منها في الحياه الاخرى (٣).

القرآن و مسأله الشفاعة

اشاره

العقاب الإلهي في هذه الحياه الدنيا و في الآخرة، لا ينزل بساحه الإنسان دون شك من أجل الانتقام. بل إن العقوبات الإلهيه تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، و تؤدي في النتيجة إلى تقدم الإنسان و تكامله. من هنا يجب الاحتراز عن أي شيء يضعف من قوه عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجراه

ص: ١٩٨

١-١) - المنار، ج ١، ص ٣٠٦.

٢-٢) - المنار، ج ١، ص ٣٠٦.

٣-٣) - الميزان، ج ١، ص ١٥٦.

على ارتكاب المعاصي و الذنوب.

من جهه اخرى، لا يجوز غلق باب العوده و الإصلاح بشكل كامل فى وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم و للعوده إلى الله و إلى الطهر و التقوى.

«الشفاعه» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل، إنها وسيله لعوده المذنبين و الملوئين بالخطايا، و بمعناها الخاطى تشجع على ارتكاب الذنوب.

أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح و الخاطى لمسأله الشفاعه، أنكروا هذه المسأله بشكل كامل، و اعتبروها شبيهه بالوساطات التى تقدم إلى السلاطين و الحكام الظالمين.

و ثمه مجموعه كالهيايين استندوا إلى الآيه الكريمة: لا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ فَأَنْكَرُوا الشَّفَاعَةَ تماماً، دون الالتفات إلى سائر الآيات فى هذا المجال.

اعتراضات المنكرين لمسأله الشفاعه يمكن تلخيصها بما يلى:

١- الاعتقاد بالشفاعه، يضعف روح السعى و المثابره فى نفس الإنسان.

٢- الاعتقاد بالشفاعه، انعكاس عن ظروف المجتمعات المتأخره و الإقطاعيه.

٣- الاعتقاد بالشفاعه، يؤدى إلى التشجيع على ارتكاب الذنوب و ترك المسؤوليات.

٤- الاعتقاد بالشفاعه، نوع من الشرك بالله، و هو معارض للقرآن! ٥- الاعتقاد بالشفاعه، يعنى تغيير أحكام الله و تغيير إرادته و أوامره! و لكن كل هذه الاعتراضات ناتجه- كما سنرى- عن الخلط بين الشفاعه بمفهومها القرآنى، و الشفاعه بمعناها المنحرف الرائج بين الجهله من الناس.

و لما كانت هذه المسأله فى جانبها الإيجابى و السلبي ذات أهميه بالغه، فعلىنا أن ندرسها بالتفصيل من حيث مفهومها و فلسفتها، و ارتباطها بعالم التكوين،

و موقعها فى القرآن و الحديث،وصلته بالتوحيد و الشرك، كى يزول كل إبهام يرتبط بالآيه المذكوره و سائر الآيات فى حقل الشفاعة.

١- المفهوم الحقيقى للشفاعة:

كلمه «الشفاعة» من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشىء إلى مثله»، يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد». ثم أطلقت على انضمام الفرد الأقوى و الأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدته هذا الضعيف، و لها فى العرف و الشرع معنيان متباينان كل التباين:

أ: إن الشفاعة لدى السواد تعنى أن الشفيع يستفيد من مكانته و شخصيته و نفوذه، لتغيير رأى صاحب قدره بشأن معاقبه من هم تحت سيطرته.

و الشفيع قد يرعب صاحب قدره هذا، أو قد يستعطفه، أو قد يغير أفكاره بشأن ذنب المجرم و استحقاقه للعقاب... و أمثال هذه الأساليب.

الشفاعة بهذا المعنى هى -بعبارة موجزه- لا تعنى حدوث أى تغيير فى المحتوى النفسى و الفكرى للمجرم أو المتهم. بل إن كل التغييرات و التحولات تتوجه نحو الشخص الذى تقدم إليه الشفاعة (تأمل بدقه).

هذا اللون من الشفاعة ليست له مكانه فى المفهوم الدينى على الإطلاق. لأن الله سبحانه و تعالى لا يخطأ حتى يتوسط الشفيع فى تغيير رأيه، و لا- يحمل تلك العواطف الموجوده فى نفس الإنسان كى يمكن إثارة عواطفه، و لا يهاب نفوذ شخص كى ينصاع لأوامره، و لا يدور ثوابه و عقابه حول محور غير محور العداله.

ب: المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له».

أى أن الشخص المشفوع له يوفر فى نفسه الظروف و الشروط التى تؤهله للخروج من وضعه السىء الموجب للعقاب، و ينتقل - عن طريق الشفيع إلى وضع مطلوب حسن يستحق معه العفو و السماح. و الإيمان بهذا النوع من الشفاعة - كما

سنرى-يربى الإنسان، و يصلح الأفراد المذنبين، و يبعث فيهم الصحوه و اليقظه.

و الشفاعه فى الإسلام لها هذا المفهوم السامى.

و سنرى أن كل الاعتراضات و الانتقادات و الحملات التى توجه إلى مسأله الشفاعه، إنما تنطلق من فهم الشفاعه بالمعنى الأولى المنحرف، و لا تلتفت إلى المعنى الثانى المنطقى المعقول البناء.

هذا تفسير مقتضب للونين من ألوان الشفاعه: أحدهما «تخديرى»، و الآخر «بناء».

٢- الشفاعه فى عالم التكوين

التفسير الصحيح و المنطقى للشفاعه- بالمفهوم الذى مرّ بنا- له مصاديق كثيره فى عالم التكوين و الخلقه، (إضافه إلى عالم التشريع). الطاقات الأقوى فى هذا العالم تنضم إلى الأضعف منها لتسيّرها نحو أهداف بّناءه.

الشمس تشرق و الأمطار تتساقط، لتفجّر القوّه الكامنه فى البذره لتحركها نحو الإنبات، و نحو شقّ جسم التربه و الخروج إلى الفضاء الذى استمدت البذره منه طاقات النموّ و التكامل.

هذه الظواهر هى فى الحقيقه شفاعه تكوينيه على صعيد قيامه الحياه الدنيا.

و لو انطلقنا من هذه النماذج الكونيه فى الشفاعه لفهم الشفاعه على صعيد التشريع، لابتعدنا عن الانحراف، و سنوضح ذلك قريباً.

٣- مستندات الشفاعه:

القرآن الكريم تحدث فى ثلاثين موضعاً عن مسأله «الشفاعه» (بهذا اللفظ)،

ص: ٢٠١

و هناك إشارات اخرى إلى هذه المسأله دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة فى القرآن إلى المجموعات التاليه.

المجموعه الاولى: آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: **أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَ لَا خَلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ (١)**، و كقوله تعالى:

وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ

(٢)

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصوره لانقاذ المجرمين غير الإيمان و العمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادى، أو طريق الصداقه و الخله، أو طريق الشفاعة.

و يقول تعالى بشأن بعض المجرمين: **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٣)**.

المجموعه الثانيه: آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى، كقوله سبحانه: **مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ (٤)** و **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا (٥)**.

المجموعه الثالثه: آيات تجعل الشفاعة متوقفه على إذن الله تعالى كقوله: **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦)**، و قوله **وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (٧)**.

المجموعه الرابعه: آيات تبين شروطا خاصه للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحيانا فى رضا لله سبحانه: **وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى (٨)**.

و استنادا إلى هذه الآيه، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئك الذين بلغوا مرتبه «الارتضاء» أى القبول لدى الله سبحانه و تعالى.

و يتمثل الشرط أحيانا بالعهد عند الله:

ص: ٢٠٢

١-١) -البقره، ٢٥٤.

٢-٢) -البقره، ٤٨.

٣-٣) -المدثر، ٤٨.

٤-٤) -السجده، ٤.

٥-٥) - الزمر، ٤٤.

٦-٦) - البقره، ٢٥٥.

٧-٧) - سبأ، ٢٣.

٨-٨) - الأنبياء، ٢٨.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

(١)

والمقصود من هذا العهد الإيمان بالله ورسوله.

ويتحدث القرآن عن سلب صلاحية الاستشفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمين، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (٢).

مما تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الإلهي، والوصول إلى منزله نيل رضا الله، واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

٤- الشروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة في مفهوم الإسلام مقيده بشروط، هذه الشروط تحدد تاره الخطيئة التي يستشفع المذنب لها، وتحدد تاره اخرى الشخص المشفوع له، كما تقيده من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقي للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمة ذنوب كالظلم مثلا- خارجه عن دائره الشفاعة حيث يقول القرآن ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ كما مر، ولو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع- كما سنرى من خلال الأحاديث- فان الشفاعة تقتصر حينئذ على المجرمين النادمين السائرين على طريق إصلاح أنفسهم، وشفاعه في هذه الحاله ستكون دعاهم للتوبه و للندم (سنجيب أولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج إلى الشفاعة).

كما أن الشفاعة- وطبقا للآيه ٢٨ من سوره الأنبياء- لا تشمل إلا أولئك المرتقين إلى درجه «الارتضاء» و إلى درجه الالتزام بالعهد الإلهي كما مر أيضا في الآيه ٨٧ من سوره مريم.

ص: ٢٠٣

١-١) - مريم، ٨٧.

٢-٢) - غافر، ١٨.

الارتضاء، واتخاذ العهد، يعينان على المستوى اللغوي و كذلك ما ورد من الروايات فى تفسير هذه الآيات الإيمان بالله و الحساب و الميزان و الثواب و العقاب، و الاعتراف بالحسنات و السيئات، و بما أنزل الله، إيماننا عميقا فى الفكر، ظاهرا فى العمل... إيماننا يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمه إنسانيه، و يدفعه إلى إعاده النظر فى منهج حياته.

يقول تعالى: **وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَّهَهُ اللَّهُ تَوَابًا رَحِيمًا (١)**، هذه الآية تجعل الاستغفار مقدمه لشفاعه رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم.

و يقول: **قَالَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَهْلَكَ وَ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، قَالَ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (٢)**، آثار الندم واضحه على إخوه يوسف فى طلبهم من أبيهم.

و يقول سبحانه: **وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاعْفُزْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٣)** فاستغفار الملائكه و شفاعتهم تقتصر على الأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله.

و هنا يطرح أيضا سؤال بشأن جدوى الشفاعه للأفراد المؤمنين السالكين سبيل الله، و سنجيب على ذلك فى دراسه حقيقه الشفاعه.

و بشأن الشفاعه ذكر القرآن لهم شرطا فى قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ (٤)**. من هنا فالمشفوع له أيضا ينبغى أن يسلك طريق الحق فى القول و العمل، كى يكون له ارتباط بالشفيع، و هذا الارتباط الضرورى بين الشفيع و المشفوع له يعتبر بدوره عاملا بناء فى تعبئه الطاقات على طريق الحق.

ص: ٢٠٤

١-١) - النساء، ٦٤.

٢-٢) - يوسف، ٩٧ و ٩٨.

٣-٣) - المؤمن، ٧.

٤-٤) - الزخرف، ٨٦.

في الروايات الإسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة و توضّح ما خفى منها، من ذلك:

-١-

في تفسير «البرهان» عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم يقول: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمّتي...» راوى الحديث ابن أبي عمير يقول: فقلت له: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر و الله يقول وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى و من يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى به؟ فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلا ساءه ذلك و ندم عليه و قد قال النبي صلى الله عليه و اله و سلم كفى بالندم توبه... و من لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له الشفاعة و كان ظالما و الله تعالى ذكره يقول مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١) صدر الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبي الكبائر. لكن ذيل الحديث يوضح أن الشرط الأساسي في قبول الشفاعة هو الإيمان الذي يدفع المجرم إلى مرحلة الندم و جبران ما فات، و يبعده عن الظلم و الطغيان و العصيان. (تأمل بدقه).

-٢-

في كتاب «الكافي» عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في رساله كتبها إلى أصحابه قال: «من سرّه أن ينفعه شفاعه الشافعين عند الله فيطلب إلى الله أن يرضى عنه»

(٢)

يتبين من سياق الروايه، أن كلام الإمام يستهدف إصلاح الخطأ الذي وقع فيه بعض أصحاب الإمام في فهم مسأله الشفاعه: و يرفض بصراحه مفهوم الشفاعه الخاطئ المشجع على ارتكاب الذنوب.

-٣-

و عن الصادق عليه السلام أيضا: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم و العابد، فإذا وقفا بين يدي الله عزّ و جلّ قيل للعابد: انطلق إلى الجنّه، و قيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن

ص: ٢٠٥

١-١) -تفسير البرهان، ج ٣، ص ٥٧.

٢-٢) -عن بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣٠٤ الطبعه القديمه.

تأديك لهم» (١).

فى هذا الحديث نجد ارتباطا بين «تأديب العالم» و«شفاعته لمن أدّبهم» و هذا الارتباط يوضح كثيرا من المسائل المبهمة فى بحثنا هذا.

أضف إلى ما سبق أن فى اختصاص الشفاعة بالعالم و سلبها من العابد، دلالة اخرى على أن الشفاعة فى المفهوم الإسلامى ليست معاملته و عقدا و تلاعبا بالموازن، بل مدرسه للتربيه، و تجسيد لما مرّ به الفرد من مراحل تربويه فى هذا العالم.

٦- التأثير المعنوى للشفاعة:

ما ذكرناه من روايات بشأن الشفاعة هو غيض من فيض، فالروايات فى هذا المجال كثيره تبلغ حدّ التواتر، و إنما اخترنا منها ما يتناسب مع بحثنا.

النوى الشافعى (٢) فى شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضى عياض -و هو من كبار علماء أهل السنه-، أنّ أحاديث الشفاعة متواتره (٣).

ابن تيميه (المتوفى ٧٢٨هـ) و محمّد بن عبد الوهاب (المتوفى ١٢٠٦هـ)، مع ما لهما من تعصب و لجاج فى مثل هذه الأمور، يقرّان بتواتر هذه الروايات.

ثمه كتاب دراسى معروف و متداول بين «الوهابيه» هو «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ينقل عن «ابن القيم» ما يلى:

«الرابع: شفاعته فى العصاه من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

و الأحاديث بها متواتره عن النّبى صلّى الله عليه و اله و سلّم و قد أجمع عليها الصحابه و أهل السنه

ص: ٢٠٦

١-١) -الإختصاص، للمفيد، نقلا عن البحار، ج ٣، ص ٣٠٥.

٢-٢) -هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجرى، و النووى نسبه إلى مدينه «النوى» قرب دمشق.

٣-٣) -البحار، ج ٣، ص ٣٠٧.

قابطه و بدعوا من أنكرها و صاحوا به من كل جانب و نادوا عليه بالضلال» (١).

و قبل أن ندرس الآثار الاجتماعيه و النفسيه لمسأله الشفاعه و الاشكاليات الأربع حول فلسفه الشفاعه، نلقى نظره على الآثار المعنويه لهذه المسأله فى إطار آراء الموحّدين المؤمنين بالشفاعه، فمثل هذه النظره تمهّد السبيل لدراستنا القادمه فى حقل الشفاعه و معطياتها الاجتماعيه و النفسيه. (٢)

اختلف علماء العقائد المسلمون فى كيفيه التأثير المعنوى للشفاعه. فقال جمع يسمون «الوعيديه»، و هم المؤمنون بخلود مرتكبي الكبائر فى جهنم: إن الشفاعه ليس لها أثر على إزاله آثار الذنوب، بل تأثيرها يقتصر على زياده الثواب و على التكامل المعنوى.

و«التفضيليه» و هم من يعتقد بعدم خلود مرتكبي الكبائر فى جهنم، فيذهبون إلى أن الشفاعه تشمل المذنبين، و تؤثر فى إسقاط العقاب عنهم.

أما «الخواجه نصير الدين الطوسى رحمه الله» فيؤيد كلا الأمرين فى كتابه «تجريد الاعتقاد» و يرى وجود كلا الأثرين للشفاعه.

«العلامة الحلى رحمه الله» شرح عبارته الطوسى فى كتابه «كشف المراد» و لم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعه لغويا و مقارنتها بالشفاعه التكويتيه، لما ترددنا فى صحه ما ذهب إليه المحقق الطوسى.

فمن جهه، ثمه

روايه معروفه عن الإمام الصادق عليه السلام هي: «ما من أحد من الأولين و الآخرين إلاّ و هو محتاج إلى شفاعه محمد صلى الله عليه و اله و سلم يوم القيامه» (٣).

و استنادا إلى هذه الروايه، يحتاج إلى الشفاعه كل الناس، حتى التائبون

ص: ٢٠٧

١-١ -فتح المجيد، ص ٢١١.

٢-٢ -ينبغى الالتفات إلى أننا نعالج هذه المسأله من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

٣-٣ -نقلا عن البحار و كتب اخرى.

المغفور لهم، و في مثل هذه الحالة لا بدّ أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، في الحطّ من الذنوب، و في علوّ المنزله.

أما الروايات التي تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين و المذنبين.

و من جهة اخرى ذكرنا أن الشفاعة تعنى انضمام الفرد الأشرف و الأقوى إلى الفرد الأضعف لمساعدته هذا الضعيف، و هذه المساعدة قد تكون لزياده نقاط القوّه، و قد تكون لإزاله نقاط الضعف.

في الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشاعه في مسيره حركه التكامل و النمو، فإنّ الكائنات الأضعف تحتاج إلى عوامل أقوى لإزاله عوامل التخريب تاره (كحاجه النباتات إلى نور الشمس لإباده الآفات)، و تاره اخرى لزياده نقاط القوّه و سرعه التطور (كحاجه النباتات إلى نور الشمس من أجل النمو)، و هكذا الطالب يحتاج إلى الأستاذ لإصلاح أخطائه من جهة، و لزياده معلوماته من جهة اخرى.

كل ذلك يدلّ على أن للشفاعة أثرين، و لا تقتصر على دائره إزاله آثار الذنب و الإثم (تأمل بدقّه).

مما تقدم نفهم أن التائبين بحاجه أيضا إلى الشفاعة مع علمنا بأن التوبه وحدها كافيه لغفران الذنوب، و ذلك لسببين:

١- التائبون بحاجه إلى الشفاعة لزياده مكانتهم المعنويه، و لتقدمهم في مضمار التكامل و الارتقاء، و ان كان الغفران يتحقق بالتوبه.

٢- ثمه خطأ وقع فيه كثيرون في فهم التوبه، إذ تصوروا أنّ التوبه من الذنب قادره على إرجاع الإنسان إلى حاله ما قبل ارتكاب الذنب، بينما التوبه ليست- كما ذكرنا في موضعه- سوى مرحله أولى، إنها كالدواء الذي يقطع عوارض المرض، و انقطاع العوارض لا يعنى عوده الإنسان إلى حالته الطبيعیه، بل يعنى انتقاله إلى

حاله نقاهه يحتاج خلالها إلى تقوية بنيته الجسميه،ليعود بعد مده إلى مرحله ما قبل المرض.

بعبارة اخرى،للتوبه مراحل،و الندم على الذنب و العزم على التطهر فى المستقبل هو المرحله الاولى للتوبه. و المرحله النهائيه تتحقق حين يعود التائب إلى حاله ما قبل الذنب من كل النواحي.و فى هذه المرحله تكون شفاعه الشافعين ذات أثر و عطاء.

أفضل شاهد على هذا ما ورد فى القرآن و ذكرناه من قبل بشأن استغفار الرسول صلى الله عليه و اله و سلم للتائبين،و توبه إخوه يوسف و استغفار يعقوب لهم،و أوضح من كل ذلك استغفار الملائكه للصالحين و المصلحين الوارد فى الآيات المذكوره آنفا.

(تأمل بدقه)!

٧- فلسفه الشفاعه

مرّ بنا فيما سبق «مفهوم» الشّفاعه و«أسانيدها»،و نستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفه الشفاعه على الصعيد الاجتماعى و النفسى.

و بشكل عام و انطلاقا من مفهوم الشفاعه نستطيع أن نتلمس الآثار التاليه فى المؤمنين بالشفاعه.

«مكافحه روح اليأس» من أهم آثار الشفاعه فى نفس المعتقدين بها.مرتكبو الجرائم الكبيره يعانون من و خز الضمير، كما يشعرون بياس من عفو الله،و لذلك لا يفكّرون بالعوده و لا بإعادته النظر فى طريقه حياتهم الآثمه.و قد يدفعهم المستقبل المظلم إلى التعنت و الطغيان،و إلى التحلل من كل قيد تماما،كالمرضى اليائس من الشفاء الذى يتحلل من أى نظام غذائى،لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

قلق الضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدى إلى اختلالات نفسيه،و إلى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمع الباعث على تلوّثه.و بذلك يتبدل المذنب إلى

عنصر خطر، و إلى مصدر قلق اجتماعى.

الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذه نحو النور، و يبعث فيه الأمل بالعفو و الصفح، و هذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، يعيد النظر فى مسيره حياته، بل و يشجعه على تلافى سيئات الماضى.

و الإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسى و الروحى للمذنب، و يفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول أن الاهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بئىء، قادر أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فردا صالحا. و انطلاقا من هذا الفهم نجد أن مختلف قوانين العالم وضعت فسحه أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبد باحتمال العفو بعد مده إن أصلحوا أنفسهم، كى لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم بذلك و يتبدلوا إلى عناصر خطره داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسيه.

٨- شروط «توفر الشفاعة»

الشفاعة بمعناها الصّحيح لها قيود و شروط متعدده الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لا بدّ أن يسعوا لتوفير شروط الشّفاعة كى يشملهم عطاؤها، و أن يجتنبوا الذنوب التى تقضى على كل أمل فى الشفاعة كالظلم، و أن يستأنفوا حياه جديده قائمه على أساس تغيير عميق فى أنفسهم و أن يتوبوا من الذنب أو يهيموا بالتوبه على الأقل من أجل بلوغ درجه «الارتضاء» و اتخاذ «العهد الإلهى» (بالتفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفه الأحكام و القوانين الإلهيه، أو يقللوا من هذه المخالفه ما أمكنهم، و يعمقوا فى أنفسهم الإيمان باللّه و اليوم الآخر.

من جهه اخرى لا بدّ لنيل شفاعة «الشفيع»، أن يسعى الفرد لإيجاد نوع من

التشابه و السخيه و إن كان ضعيفا بينه و بين الشفيع .

و كما أن «الشفاعه التكوينية» لا تتم إلا بوجود نوع من السخيه و التسليم و الاستعداد فى الموجود الأضعف، كذلك الشفاعة التشريعيه لا تتحقق إلا بتوفر مثل هذه القابليات، (تأمل بدقه).

و بهذا يتضح بجلاء أن الشفاعة بمعناها الصحيح لها دور فعال فى تغيير وضع المجرمين و إصلاحهم .

٩- شبهات حول مسأله الشفاعة

ذكرنا أن بين «الشفاعة» فى مفهومها المنحرف و «الشفاعة» فى مفهومها الإسلامى الصحيح بونا شاسعا. المفهوم الأول يقوم على أساس تغيير وجهه نظر «المستشفع»، و الآخر يدور حول محور التغييرات المختلفه فى وضع المستشفع له .

واضح أن الشفاعة بمفهومها الأول مرفوضه لأنها تقتل روح السعى و المثابره فى النفوس... و تشجع على ارتكاب الذنوب... و تعتبر انعكاسا عن المجتمعات المتخلفه و الإقطاعيه... و تتضمن أكثر من ذلك نوعا من الشرك و الانحراف عن خط التوحيد .

لا شك أن الإنسان المسلم يتعد عن خط التوحيد لو اعتقد بإمكان تقديم «وساطه» إلى الله كما تقدم «الوساطات»، إلى أصحاب النفوذ فى هذه الدنيا. لأن مثل هذا الفرد قد اعتقد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم الله! و بإمكان خفاء أمر من أمور «المستشفع» على الله! أو بوجود مصدر يمكن أن يطفى الإنسان به غضب الله أو يكسب به وده و رضاه!، أو بحاجه الله إلى مكانه بعض عباداه و بسبب احتياجه إليهم يقبل شفاعتهم. أو أنه تعالى يقبل شفاعتهم بسبب خوفه من

نفوذهم!!تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

كل هذه المعانى تبعدنا من أصل التوحيد و تؤدي بنا إلى السقوط فى وادى الشرك... إنها المفهوم السلبي للشفاعه و السائد لدى العرف العام.

أما الشفاعه بمعناها الصحيح الذى ذكرناه،فلا تنطوى على هذه العيوب،بل إنها أكثر من ذلك تصلح العيوب،و تعمق النقاط الإيجابيه فى الكائن البشرى.

هذا النوع من الشفاعه لا يشجع على ارتكاب الذنب،بل يدفع إلى ترك الذنوب.

لا يدعو إلى التقاعس و التماهل،بل يبعث فى الإنسان روح الأمل التى يستتبعها عاده تصعيد الإراده لتلافى أخطاء الماضى.

هذه الشفاعه لا ترتبط بالمجتمعات المتخلفه،بل هى وسيله تربويه فعّاله لإصلاح المجرمين و المذنبين و المعتدين.

ليست هذه الشفاعه بشرك،بل هى عين التوحيد و التأكيد على التوجه إلى الله و الاستمداد من صفاته و إذنه و أمره.

و لمزيد من التوضيح نتحدث أكثر عن مسأله الشفاعه و التوحيد.

١٠- الشَّفَاعَة وَ التَّوْحِيد

الفهم الخاطى لمسأله الشَّفَاعَة آثار اعتراض فئتين على ما بينهما من تضاد.

الفئه الاولى:اعترضت على الشفاعه من منطلق مادى و اعتبرتها عاملا للتخدير و لإيماته روح السِّحْرِ و المثابره،و قد أجبنا على اعتراضات هذه الفئه فيما سبق.

الفئه الاخرى:اعترضت على الشفاعه من منطلق السلفيه،و اعتبرتها شركا و انحرافا عن خط التوحيد،و يمثل هذه الفئه«الوهابيون»و من لَفَّ لَفْهَم.و الإجابة على اعتراضات الوهابيين و إن كانت تحتاج إلى إطاله و خروج عن طريقه التفسير

إلا أنها ضروريه لأسباب عديده.

لا بد من الالتفات أولا إلى أن الحركة الوهابيه، التي ظهرت خلال القرنين الأخيرين في الجزيرة العربية على يد «محمّد بن عبد الوهاب» لم تتجه في أفكارها المتطرفه الجافه إلى معارضه مدرسه أهل البيت عليهم السّلام فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنه أيضا.

محمّد بن عبد الوهاب (المتوفى ١٢٠٦ هـ) استقى أفكاره من «ابن تيميه» (أحمد بن عبد الحلیم الدمشقي المتوفى سنه ٧٢٨ هـ)، أى قبل أربعه قرون تقريبا من ظهور الوهابيه، و يعتبر المنظر لهذه الحركة.

استطاع عبد الوهاب خلال الأعوام (١١٦٠-١٢٠٦ هـ) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدويه المتنقله في الجزيرة العربية و يبثّ فيهم تعصبا أعمى باسم الدفاع عن التوحيد و مكافحه الشرك، و عيّد البدو و المتعصبين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، و استطاع بذلك أن يكتسب قدره سياسيه و يسيطر بشكل مباشر و غير مباشر على الحكم، و أراق من أجل ذلك دماه كثيره من المسلمين في أرض الجزيرة العربية و خارجها.

في سنه ١٢١٦ هـ (عشر سنوات بعد وفاه مؤسس الحركة الوهابيه) هاجمت جماعه من الوهابيين مدينه كربلاء قادمه من صحراء الجزيرة العربية، و استغلوا فرصه سفر أهالى المدينه إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير، فدخلوا المدينه و قاموا بتخريب و هدم مرقد سيد الشهداء الحسين بن على عليه السّلام و سائر المراقد الشريفه في هذه المدينه، و نهبوا ما فيها من أبواب ذهبيه و نفائس، و قتلوا ما يقرب من خمسين شخصا عند ضريح الحسين، و خمسمائه شخص في صحن الروضه المشرفه، كما قتلوا أعدادا كبيره في سائر أنحاء المدينه، حتى بلغ عدد المقتولين في ذلك الهجوم الوهابي خمسه آلاف إنسان، و لم يسلم منهم حتى الشيوخ و العجائز و الأطفال، كما نهبوا كثيرا من البيوت.

ص: ٢١٣

فى عام ١٣٤٤ أفتى فقهاء المدينه الخاضعون لجهاز الحكم الوهابى بهدم قبور أئمه الإسلام و أولياء الله الصالحين، و نفذت هذه الفتوى فى اليوم الثامن من شؤال من السنه المذكوره، و هم المنفذون أن يهدموا قبر رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم أيضا، لولا تراجعهم أمام صيحات اعتراض المسلمين.

أتباع محمد بن عبد الوهاب يتميزون على العموم بالخشونه و التصلب و السطحيه و اللجاج و البعد عن المنطق و التعقل و قد حصروا الإسلام-عمدا أو غفله- فى إطار مكافحه عدد من الظواهر كالشفاعه و زياره القبور و التوسل، و بذلك أبعدها أتباعهم و من خضع لسيطرتهم عن المسائل الإسلاميه الحياتيه، و خاصه فيما يرتبط بالعداله الاجتماعيه، و مكافحه السيطره الاستعماريه، و التصدى للثقافه الماديّه و للمدارس الإلحاديّه.

لذلك لا تجد فى أوساط الوهابيين حديثا عن هذه المسائل، بل تسود أجواءهم حاله فظيعة من الغفله و الركود.

نعود إلى رأى هذه الفئه بشأن الشفاعه، هؤلاء يقولون: لا يحق لأحد أن يستشفع برسول الله، و أن يقول: «يا محمد اشفع لى عند الله» لأن الله سبحانه يقول:

وَ أَنَّ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا

(١)

و فى رساله «كشف الشبهات» لمحمد بن عبد الوهاب نقرأ ما يلى:

«فإن قال أن النبى صلى الله عليه و اله و سلم أعطى الشفاعه و أطلبه ممّا أعطاه الله. فالجواب أن الله أعطاه الشفاعه و نهاك عن هذا و قال: فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا و أيضا فإن الشفاعه أعطاهها غير النبى، فصح أن الملائكه يشفعون و الأولياء يشفعون...

أتقول أن الله أعطاهم الشفاعه فاطلبها منهم؟ فإن قلت هذا رجعت إلى عباده الصالحين» (٢).

ص: ٢١٤

١-١) -الجن، ١٨.

٢-٢) -كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب، نقلا عن رساله البراهين الجليه، ص ١٧.

و يقول محمّد بن عبد الوهاب فى رساله أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفه أربع قواعد.

الأولى: إنّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم مقرّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر... لقوله تعالى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ... (١)**.

الثانية: إنهم يقولون ما دعونا الأصنام و توجهنا إليهم إلا لطلب القرب و الشفاعة... و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (٢).

الثالثة: إنّه صلى الله عليه و اله و سلم ظهر على قوم متفرقين فى عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، و بعضهم الأنبياء الصالحين، و بعضهم الأشجار و الأحجار، و بعضهم الشمس و القمر، فقاتلهم و لم يفرق بينهم.

الرابعة: إن مشركى زماننا أغلظ شركا من الأولين، لأن أولئك يشركون فى الرخاء و يخلصون فى الشده، هؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ... (٣) (٤)**.

و من العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجراه فى تكفير المسلمين بحيث يبيحون نهب أموال المسلم و سفك دمه بسهولة، و قد فعلوا ذلك فى تاريخهم مرارا.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» فى كتابه «الهدية السنيه»:

«إن الكتاب و السنّه دلاّ على أن من جعل الملائكة و الأنبياء أو ابن عباس أو أبا طالب أو... وسائط بينهم و بين الله ليشفعوا لهم عند الله لأجل قربهم إلى الله- كما يفعل عند الملوك- إنه كافر مشرك حلال الدم و المال! و ان قال أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمّدا رسول الله و صلى و صام!! (٥).

ص: ٢١٥

١-١ - يونس، ٣١.

٢-٢ - يونس، ١٨.

٣-٣ - العنكبوت، ٦٥.

٤-٤ - رساله أربع قواعد، ص ٢٤-٢٧ طبع المنار بمصر (نقلا عن كتاب كشف الارتباب، ص ١٦٣).

٥-٥ - الهدية السنيه، ص ٦٦ (نقلا عن البراهين الجليه، ص ٨٣).

و مع هذا الإفتاء يتضح حال المسلمين في جميع أقطار العالم الإسلامي الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب الله و سنّه نبيّه صلّى الله عليه و اله و سلّم.

روح البطش و السفك و اللجاجة في هؤلاء لا تخفى على أحد، و هكذا جهلهم بالمسائل الإسلامية و القرآنية.

نظره على منطق الوهابيين في حقل الشفاعة

و هكذا يظهر ممّا نقلنا عن مؤسس الحركة الوهابية «محمد بن عبد الوهاب» أنّ اتّهام الوهابيين بالشرك للمؤمنين بالشفاعة يستند إلى مسألتين:

١- التشابه بين المؤمنين بشفاعة الأنبياء و الصالحين، و بين المشركين في عصر الجاهلية.

٢- نهى القرآن عن عبادة غير الله و عن دعوته فرد مع الله: **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١)**، و الاستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الاولى، ارتكب الوهابية خطأ فظيحا، و ذلك للأسباب التالية:

أولا: القرآن أقرّ منزلة الشفاعة بصراحه لجمع من الأنبياء و الصالحين و الملائكة كما مرّ، لكنه قيدها بإذن الله. و ليس من المعقول إطلاقا أن يكون الله قد نهى عن الاستشفاع المشروط بإذن الله بمن قد منحهم هو سبحانه هذه المنزلة.

و صرّح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، و هكذا صرّح بطلب الصحابة إلى النبي صلّى الله عليه و اله و سلّم أن يستغفر لهم أيضا.

أليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الاستشفاع برسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم بعبارة: «اشفع لنا عند الله» هي نفسها عبارة إخوة يوسف إذ قالوا لأبيهم:

ص: ٢١٦

كيف يجرأ هؤلاء على إلقاء تهمه الشرك على من يؤمن بما يصريح به القرآن، بل ويستبيحون دمه و ماله؟! لو كان هذا العمل شركا، فلم لم ينة يعقوب بنيه عن ذلك.

ثانيا: لا- يوجد أدنى شبه بين «عبده الأصنام» و«الموحدين المؤمنين بالشفاعة بإذن الله»، لأن الوثنيين كانوا يعبدون الأصنام و يتخذونها شفعا، بينما المسلمون المؤمنون بالشفاعة لا تخطر في ذهنهم عباده الشفعا، بل يستشفعون بهم إلى الله، و طلب الشفاعة لا ارتباط له بمسأله العباده كما سنبين.

عبده الأصنام كانوا يتعجبون من عباده الإله الواحد الأحد: أَ جَعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٢).

الوثنيون كانوا يجعلون الوثن في منزله الله: تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٣).

الوثنيون كانوا يعتقدون بتأثير الأوثان على حياتهم و مصيرهم و وجودهم، كما تذكر كتب التاريخ، و المسلمون المؤمنون بالشفاعة يعتقدون بانفراد الله في التأثير، و لا يرون لموجود آخر غير الله استقلالاً في التأثير.

و المقارنه بين الرؤيتين مقارنه جاهله مجافيه للمنطق.

أما بشأن المسأله الثانيه، علينا أولاً أن نفهم معنى «العباده» لو فسّرنا العباده بأنها كل لون من ألوان الخضوع و الاحترام، لكان ذلك يعني حرمه الاحترام و الخضوع لأحد غير الله، و هذا ما لا يقره مسلم. و لو فسّرنا العباده أنها كل ألوان الطلب، فهذا يعني أن التقدم بالطلب من أيه جهه هو شرك، و هذا يخالف ضروريات العقل و الدين. كما أن العباده لا يمكن فهمها على أنها كل لون من ألوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الأفراد لمسؤوليهم و رؤسائهم في المؤسسات

ص: ٢١٧

١-١ - يوسف، ٩٧.

٢-٢ - ص، ٥.

٣-٣ - الشعراء، ٩٧ و ٩٨.

والتنظيمات الاجتماعيه من أولى ضروريات الحياه البشريه، كما أن أتباع الأنبياء و أئمه الدين من الواجبات الحتميه للمتدينين.

من هنا فالعباده لا- تعنى كل ذلك، بل هى الحد الأعلى للخضوع و التواضع المعبرين عن الارتباط المطلق و التسليم بلا منازع للمعبود، و إيكال كل عواقب الأمور إليه.

و هل فى طلب الشفاعه من الشفعاء أثر من الآثار المذكوره للعباده.

أمّا بشأن النهى عن دعوه أحد سوى الله، فلا يعنى النهى عن نداء الأفراد، كأن نقول يا علىّ و يا حسن و يا أحمد، و لا يعنى النهى عن الاستعانه بالأفراد، لأن التعاون أحد الأركان الأساسيه للحياه الاجتماعيه و قد عمل به الأنبياء و الأولياء كافه، و لم يرفضه الوهابيون أنفسهم.

أمّا الأمر الذى يمكن الاعتراض عليه فهو ما أوضحه «ابن تيميه» فى رساله «زياره القبور» إذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد إن كان ممّا لا يقدر عليه إلاّ الله فسائله من المخلوق مشرك من جنس عباد الملائكه و التماثيل و من اتّخذ المسيح و أمه إلهين، مثل أن يقول لمخلوق حى أو ميت: اغفر ذنبى أو انصرنى على عدوى أو اشف مريضى أو عافنى أو عاف أهلى أو دابتي، أو يطلب منه وفاء دينه من غير جهه معينه أو غير ذلك.

و إن كان ممّا يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه فى حال دون حال، فان مسأله المخلوق قد تكون جائزه و قد تكون منهيها عنها قال الله تعالى: فَإِذَا فَرَّغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ و

أوصى النبى صلى الله عليه و اله و سلم ابن عباس: إذا سألت فاسئلى الله، و إذا استعنت فاستعن بالله. و أوصى طائفه من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان سوط أحدهم يسقط من كفه فلا يقول لأحد ناولنى إياه. و قال: فهذه المنهى

عنها و الجائزه طلب دعاء المؤمن لأخيه» (١).

نحن أيضا نقول: من الشرك أن يطلب الإنسان من أحد شيئا يختص به الخالق، و من الشرك أن يتجه الإنسان في ذلك الطلب إلى فرد يعتبره قادرا بشكل مستقل عن تلبية ذلك الطلب. أما إذا طلب الإنسان من أحد شفاعه منحها له الله، فما ذلك بشرك، بل هو عين الإيمان و التوحيد، و يشهد على ذلك كلمه «مع» في قوله تعالى: **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** التي تفيد أن المنهى عنه هو دعوه شخص نعتبره في منزله الله، و نعتبره مصدرا مستقلا في التأثير. (تأمل بدقه).

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ و تحريف و قر الفرصه لأعداء الدين كى يطعنوا في المقدسات الدينيه، كما أدى إلى ظهور تفسيرات و استنتاجات خاطئه لدى بعض المجموعات الإسلاميه، ممّا جرّ بدوره إلى تفرقه صفوف المسلمين.

و الفهم الصحيح للشفاعه يؤدي كما رأينا إلى سموّ أخلاق المجتمع و تكاملها.

و إلى إصلاح الأفراد الفاسدين، كما يؤدي إليه قطع دابر الطعانين، و إلى إحلال الوحده بين المسلمين.

نأمل من العلماء و المفكرين الإسلاميين أن يتعمقوا في تحليل هذه المسأله قرآنيا و منطقيا، كى يسدّوا الطريق أمام طعن أعداء الإسلام و يساهموا في رصّ الصفوف.

ص: ٢١٩

(١-١) - زياره أهل القبور، ص ١٥٢، نقلا عن كشف الارتباب، ص ٢٤٨.

اشاره

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

التفسير

اشاره

نعمه الحريه

في هذه الآيه اشاره إلى نعمه كبيره اخرى، من بها الله سبحانه على بنى إسرائيل، وهى نعمه تحريرهم من براثن الظالمين: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

القرآن يعبر عن العذاب الذى أنزله فرعون بنى إسرائيل بفعل يَسُومُونَكُمْ من «سام» التى تعنى فى الأصل الذهاب فى ابتغاء الشئ، واستعمال هذا الفعل بصيغه المضارع يشير إلى استمرار العذاب، وإلى أن بنى إسرائيل كانوا دوما تحت التعذيب من قبل الفراعنه.

و القرآن عبّر بكلمه «البلاء» عمّا كان ينزل بنى إسرائيل من عذاب يتمثل فى قتل الذكور و استخدام الإناث لخدمه آل فرعون، و استثمار طاقات بنى إسرائيل

لخدمه الاقباط و إشباع رغبات و نزوات المستكبرين.

و البلاء يعنى الامتحان،فالحوادث و المصائب التى نزلت ببني إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتى البلاء بمعنى العقاب،لأن بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمه ربهم،فكان ما أصابهم من آل عمران عقابا على كفرانهم.

و ذكر بعض المفسرين معنى ثالثا للبلاء،و هو النعمة،و بذلك يكون البلاء العظيم يعنى النعمة العظيمه،و المقصود منها نعمه النجاه من آل فرعون (١).

على كل حال،يوم نجاه بنى إسرائيل من آل فرعون يوم تاريخى مهم،رگز عليه القرآن فى مواضع عديده و لنا وقفات اخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمّى ذبح الأبناء و استحياء النساء عذابا.و لو عرفنا أن استحياء النساء يعنى استبقاءهنّ،و تركهن أحياء،لاّتضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضا مثل عذاب القتل.و هذا المعنى يشير إليه

الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام إذ يقول: «الموت فى حياتكم مقهورين و الحياه فى موتكم قاهرين» (٢).

عملية الإماتة كانت شاملة للذكور و الإناث مع اختلاف فى ممارسه هذه العملية،و فى عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضا بأساليب اخرى،و ذلك عن طريق قتل روح الرجوله فى الذكور،و دفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بنى إسرائيل و استحياء نسائهم،يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون فى منامه.و لكن السبب ليس الرؤيا

ص: ٢٢١

١-١) -يقال بلى الثوب أى خلق،و بلوته:اختبرته كأنى أخلقتة من كثره اختياري له،و سمى الغمّ بلاء من حيث إنه يبلى الجسم،و سمى التكليف بلاء لأن التكليف مشاقّ على الأبدان و لأنها اختبارات،و لأن اختبار الله تعالى للعباد تاره بالمسارّ ليشكروا و تاره بالمضار ليصبروا،فصارت المنحه و المحنه جميعا بلاء.(المفردات،ماده: بلى).

٢-٢) -نهج البلاغه،الخطبه ٥١.

وحدها- كما سننّ ذلك في تفسير الآيه الرابعه من سوره القصص- بل أيضا خوف الفرعونيّين من اشتداد قوه بنى إسرائيل و تشكيلهم خطرا على سلطه آل فرعون.

ص: ٢٢٢

اشاره

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

التفسير

اشاره

النَّجَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ:

الآيه السابقه أشارت إلى نجاه بنى إسرائيل من براثن الفرعونيين، و هذه الآيه توضح طريقه النجاه، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ .

قضيه غرق آل فرعون فى البحر و نجاه بنى إسرائيل وردت فى سور عديده مثل سوره الأعراف الآيه (١٢٦). و سوره الأنفال، الآيه (٥٤). و سوره الإسراء الآيه (١٠٣). و الشعراء الآيه (٦٣ و ٦٦). و الزخرف، (٥٥). و الدخان، الآيه (١٧) و ما بعدها.

فى هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أمّا هذه الآيه فاكتفت بالإشاره إلى هذه النعمه الإلهيه فى معرض دعوه بنى إسرائيل إلى قبور الرساله الخاتمه (١).

حادثه الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابته فرعون و قومه لدعوه

ص: ٢٢٣

موسى عليه السلام مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك امر أن يخرج مع بنى إسرائيل فى منتصف الليل من مصر، و عند وصولهم النيل، علموا أن فرعون و جيشه يلاحقونهم، فاعتري، بنى إسرائيل خوف و اضطراب شديد. فالبحر أمامهم و العدو وراءهم. و فى هذه اللحظات الحساسه، امر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعدده عبر منها بنو إسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون فى وسطه، فغرقوا جميعا و نجا بنو إسرائيل، و هم ينظرون إلى هلاك أعدائهم.

الهدف من تذكير بنى إسرائيل بهذا الحدث الذى بدأ بخوف شديد و انتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر و للسير على طريق الرساله الإلهيه المتمثله فى دين النبى الخاتم.

كما أنه تذكير للبشرية بالامداد الإلهى الذى يشمل كل أمه سائره بجد و إخلاص على طريق الله.

اشاره

وَ إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
 (٥٢) وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ اَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
 فَتُوبُوا اِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ اِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

التفسير

اشاره

أكبر انحرافات بنى إسرائيل

فى هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بنى إسرائيل، و على أكبر انحراف أصيبوا به فى تاريخهم الطويل، و هو الانحراف عن مبدأ التوحيد، و الاتجاه إلى عبادة العجل. و هذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، و تحذير لهم من تكرار هذه التجربة فى مواجهه الدين الخاتم: وَ إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ هِيَ لِيَالِي افتراق موسى عن قومه، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَنْتُمْ ظَالِمُونَ .

شرح هذا المقطع من تاريخ بنى إسرائيل سيأتى فى سوره الأعراف الآيه

(١٤٢) و ما بعدها، و فى سورة طه الآيه (٣٦) و ما بعدها.

و خلاصته، إن موسى عليه السلام بعد نجاه بنى إسرائيل من قبضه الفراعنه امر بالذهاب إلى جبل الطور مده ثلاثين ليله لتسلم ألواح التوراه، ثم مدّت هذه الليالى إلى أربعين ليله من أجل اختبار قومه. و استغل السامرى الدجال هذه الفرصه، فجمع ما كان لدى بنى إسرائيل من ذهب الفراعنه و مجوهراتهم، و صنع منها عجلا له صوت خاص، و دعا بنى إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بنى إسرائيل، و بقى هارون-أخو موسى و خليفته-مع أقلية من القوم على دين التوحيد، و حاول هؤلاء الموحدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، و أوشك المنحرفون أن يقضوا على حياه هارون أيضا.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيرا لما رآه من قومه، و وبّخهم بشده فتاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، و أدركوا خطاهم و طلبوا التوبه، فجاءهم أمر السماء بتوبه ليس لها نظير، سندكرها فيما يلى.

فى الآيه التاليه يقول سبحانه: **ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** و بعد إشاره إلى ما جاء بنى إسرائيل من هدايه تشريعيه: **وَ إِذِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**.

كلمتا «الكتاب» و «الفرقان» قد تشيران كلاهما إلى التوراه، و قد يكون المقصود من «الكتاب» التوراه و «الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز بإذن الله، لأن الفرقان يعنى فى الأصل ما يفرق بين الحق و الباطل.

ثم يشير القرآن إلى طريقه التوبه المطروحه على بنى إسرائيل: **وَ إِذِ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**.

ص: ٢٢٤

و«البارى» هو الخالق، و فى الكلمه إشاره إلى أن هذا الأمر الإلهى بالتوبه الشديده صادر عمّن خلقكم، و عمّن هو أعرف بما يضرّكم و ينفعكم.

ذنب عظيم و توبه فريده

لا شك أن عباده عجل السامرى لم تكن مسأله هيئه، لأن بنى إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله و معجزات نبيهم موسى عليه السلام، ثم نسوا ذلك دفعه، و خلال فتره قصيره من غياب النبى انحرفوا تماما عن مبدأ التوحيد و عن الدين الإلهى.

كان لا بدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهره الخطره، كى لا تعود إلى الظهور ثانيه خاصه بعد وفاه صاحب الرساله.

و من هنا كانت الأوامر الإلهيه بالتوبه شديده لم يسبق لها نظير فى تاريخ الأنبياء، و تقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبه بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقه تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شده عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهيه أن يقتل المذنبون بعضهم بعضا، و فى ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء و المعارف على يديه، و ما ينزل به -هو نفسه- من عذاب القتل.

و جاء فى الأخبار أن موسى أمر فى ليله ظلماء كل الجانحين إلى عباده العجل، أن يغتسلوا و يرتدوا الأكفان و يعملوا السيف بعضهم فى البعض الآخر.

و لعلك تسأل عن السبب فى قساوه هذه التوبه و لماذا لم يقبل الله تعالى منهم التوبه دون إراقه للدماء؟ الجواب: إن السبب فى شدّه هذا الحكم -كما ذكرنا- يعود إلى عظمه الذنب الذى ارتكبه بعد كل ما شاهدوه من آيات و معجزه، و إلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوه و مستقبلها لأن اصول و مبادئ جميع الأديان السماويه يمكن

اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعنى انهيار جميع اللبناآ الفوقيه و المبانى الحضاريه للدين، فلو تساهل موسى عليه السلام مع ظاهره عباده العجل، لأمكن أن تبقى سنّه فى الأجيال القادمه، خاصه و أن بنى إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوما متعنتين لجوجين.

و لا بدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعا للأجيال التاليه عن السقوط فى هاويه الشرك.

و لعل فى عبارته قوله تعالى: [□]ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِشَارُهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى.

ص: ٢٢٨

اشاره

وَ إِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

التفسير

اشاره

طلب عجب!

هاتان الآيتان تذكران بنى إسرائيل بنعمه إلهيه اخرى، كما توضحان فى الوقت نفسه روح اللجاج و العناد فى هؤلاء القوم، و تبيان ما نزل بهم من عقاب إلهى، و ما شملهم الله به من رحمه بعد ذلك العقاب.

تقول الآيه الاولى: وَ إِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً .

هذا الطلب قد ينم عن جهل بنى إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدى حواسه. و لذلك يرمى إلى أن يرى الله بعينه.

أو قد يحكى هذا الطلب عن ظاهره لجاج القوم و عنادهم التى يتميزون بها دوما.

على أى حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحه أن يروا الله جهره، و جعلوا ذلك شرطا لإيمانهم.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهره من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهره هذه لا تطيق رؤيه كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤيه الله سبحانه نزلت الصاعقه على الجبل و صحبها برق شديد و رعد مهيب

و زلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ .

اغتم موسى لما حدث بشدّه، لأن هلاك سبعين نفرا من كبار بنى إسرائيل، قد يوفر الفرصه للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضججه بوجه نبيهم. لذلك تضرّع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياه، فقبل طلبه و عادوا إلى الحياه: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

هذا باختصار شرح الواقعة، و سيأتى تفصيلها فى سورة الأعراف، الآية ١٥٥، و سورة النساء الآية ١٥٣ (١) .

هذه القصة تبين من جانب آخر ما عاناه الأنبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصه، و كان العناد يبلغ ببعض الأقوام حدا يطلبون فيه أن يروا الله جهره، شرطا لإيمانهم. و حينما يواجه هذا الطلب غير المنطقي بجواب إلهي مناسب حاسم تحدث للنبي مشكله اخرى. و لو لا لطف الله و تنيته لما كان بالإمكان المقاومه تجاه كل هذا العناد.

هذه الآية تشير ضمنا إلى إمكان «الرجعه»، أى الرجوع إلى هذه الحياه الدنيا بعد الموت. لأن وقوعها فى مورد يدل على إمكان الوقوع فى موارد اخرى.

و لكن عدد من مفسرى أهل السنه أولوا «الموت» فى هذه الآية إلى غير المعنى الظاهر لعدم رغبتهم فى قبول «الرجعه» (٢) .

ص : ٢٣٠

١-١) -راجع المجلدين الثالث و الخامس من هذا التفسير.

٢-٢) -ذهب صاحب المنار، إلى أن المقصود بالبعث بعد الموت، منح الذريه الكثيره لبنى إسرائيل كى لا ينقطع نسلهم، و قال الآلوسى فى «روح المعانى» إن الموت هنا يعنى الغيبوبه، و البعث يعنى صحوه بنى إسرائيل من غيبوبتهم، و راح بعض يفسر الموت بالجهل، و البعث بالتعليم. و لكن هذه المعانى كلها بعيده عن هذه الآية و الآيات المشابهه لها فى سورة الأعراف، و لا تليق بمفسر ينشد فهم الحقيقه.

اشاره

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

التفسير

اشاره

النعم المتنوعه

بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات ٢٣-٢٩ من سوره المائده، أن بنى إسرائيل أمروا لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدسه، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، وأصروا على عدم الذهاب ما دام فيها قوم جبارون (العمالقه)، و أكثر من ذلك تركوا أمر مواجهه هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له:

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

(١)

تألم موسى لهذا الموقف و دعا ربه قال رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢) فكتب عليهم التيه أربعين عاما فى صحراء سيناء.

ص: ٢٣١

١-١ (١) - المائده، ٢٤.

٢-٢ (٢) - المائده، ٢٥.

مجموعه من التائبين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى الله، فشمل الله سبحانه بنى إسرائيل ثانيه برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي تشير الآيه إلى بعضها: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .

و الظل له أهميه الكبرى لمن يطوى الصحراء طيله النهار و تحت حراره الشمس اللافحه،خاصه أن مثل هذا الظل لا يضيق الفضاء على الإنسان و لا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذى تشير إليه الآيه الكريمه،ليس من النوع العابر الذى يظهر عادة فى سماء الصحراء،و لا يلبث أن يتفرق و يزول،بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بنى إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافى.

و إضافه إلى الظل فإنّ الله سبحانه و فرّ لبنى إسرائيل بعد تيههم الطعام الذى كانوا فى أمسّ الحاجه إليه خلال أربعين عاما خلت من ضياعهم: وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَ السَّلْوٰ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: وَمَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . و سنشرح «المن» و«السلوى» فى البحوث الآتية.

بحوث

اشاره

١- الحياه الجديده بعد التحرر:

الامه التى تتحرر بعد عصر من الذل و الاستضعاف و الاستعباد،لا تستطيع أن تتخلى تماما عن حالتها النفسيه و الثقافيه الموروته عن عصر الطاغوت،و لا بدّ من فتره برزخيه تمر بها كى تكون قادره على إقامه حكم الله فى الأرض،وفق معايير إلهيه بعيده عن مؤثرات عصر الطاغوت.

و سواء امتدت هذه الفتره البرزخيه أربعين عاما كما حدث لبنى إسرائيل،أو

أقل أو أكثر، فهي فترة عقاب إلهي هدفها التزكية و الإصلاح و البناء لأنّ مجازاه الله ليست لها جنبه انتقاميه.

و لا بدّ أن يبقى بنو إسرائيل فترة أربعين عاما من «التيه» في الصحراء ليتربّى جيل جديد حامل لصفات توحيديه ثوريه، و مؤهل لإقامه الحكم الإلهي في الأرض المقدسه.

٢- المنّ و السّلوى:

تعددت أقوال المفسرين في معنى هاتين الكلمتين، و لا حاجة إلى استعراضها جميعا، بل نكتفي بذكر معناهما اللغوي، ثم نذكر تفسيراً واحداً لهما هو في اعتقادنا أوضح التفاسير و أقربها إلى الفهم القرآني.

«المنّ» شيء كالطلّ فيه حلاوه يسقط على الشجر (١) أو بعباره اخرى هو عصاره شجر ذات طعم حلو، و قيل طعم حلو ممزوج بالحموضه.

و «السّلوى» يعنى التسلّى، و قال بعض اللغويين و جمع من المفسرين إنه «طائر».

و روى عن النّبي صلّى الله عليه و اله و سلّم: «إن الكماه من المنّ».

و ذهب البعض إلى أن «المنّ» هو جميع ما أنعم الله تعالى على بنى إسرائيل و منّ عليهم. و «السّلوى» هي جميع المواهب و الملكات النفسانيه التي توجب لهم التسليه و الهدوء النفسى.

و هو مع مخالفته لرأى معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآيه حيث تقول:

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

و في هذا التعبير دلالة واضحة على أن المنّ

ص: ٢٣٣

و السلوى نوعان من الطعام. و هذه العبارة وردت كذلك فى الآيه ١٦٠ من سوره الاعراف.

و تذكر التوراه أن «المنّ» حبّ يشبه بذر الكزبره يتساقط على الأرض ليلا، و كان بنو إسرائيل يجمعونه و يصنعون منه خبزا ذا طعم خاص.

و ثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيره النافعه التى هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على أشجار تلك المنطقه فأفرزت عصاره حلوه استفاد منها بنو إسرائيل.

و احتمال بعضهم أن يكون «المنّ» نوعا من العسل الطبيعى حصل عليه بنو إسرائيل فى الجبال و المرتفعات المحيطه بصحراء التيه. و هذا التفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراه و الإنجيل) حيث جاء: «الأراضى المقدسه معروفه بكثرتها أنواع الأوراد و الأزهار، و من هنا فإن مجاميع النحل تبني خلاياها فى أخاديد الصخور و على أغصان الأشجار و ثنايا بيوت الناس، بحيث يستطيع أفقر الناس أن يتناول العسل» (١).

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، و أجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتى على شكل أسراب كبيره إلى تلك الأرض، و كان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

فى النصوص المسيحيه تأييد لهذا الرأى حيث ورد فى تفسير على العهدين ما يلى: «اعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيره من افريقيا، فتتجه إلى الشمال، و فى جزيره كبرى وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفا فى الفصل الواحد... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، و خليج العقبه و السويس، و يدخل شبه جزيره سيناء و بعد دخوله لا يستطيع أن يطير فى ارتفاعات شاهقه لشده ما

ص: ٢٣٤

لاقاه من تعب و عناء فى الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض و لذلك يمكن اصطياده بسهولة... و ورد ذكر ذلك فى سفر الخروج و سفر الأعداء من التوراه» (١).

يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف فى تلك الأرض.

شاء الله بفضلله و منه أن يكثر هذا الطير فى صحراء سيناء آنئذ لسدّ حاجه بنى إسرائيل من اللحوم، و لم تكن هذه الكثره من الطير طبيعیه فى تلك المنطقه.

٣- لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟

عبرت الآية الكريمه عن نعمه تقديم المن و السلوى بالإنزال، و ليس الإنزال دائما إرسال الشىء من مكان عال، كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (٢).

واضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال فى مثل هذه المواضع:

إما أن يكون «نزولا مقاميا» أى نزولا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافه، يقال أنزلت فلانا: أى أضفته، و النزل (على وزن رسل) ما يعدّ للنازل من الزاد، و منه قوله تعالى: فَتَنْزِلُ مِنْ حَمِيمٍ (٣) و قوله سبحانه: خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (٤).

و تعبير «الإنزال» للمنّ و السلوى، قد يشير إلى أن بنى إسرائيل كانوا ضيوف الله فى الأرض، فاستضافهم بالمنّ و السلوى.

و يحتمل أن يكون الإنزال بمعنى الهبوط من الأعلى لأن النعم المذكوره و خاصه (السلوى) تهبط إلى الأرض من الأعلى.

ص: ٢٣٥

١- ١) - قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٨٣.

٢- ٢) - الزمر، ٦.

٣- ٣) - الواقعه، ٩٣.

٤- ٤) - آل عمران، ١٩٨.

قيل: الغمام و السحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الأبيض، و ذكروا فى وصفه أنه ابرد و أرق من السحاب، و الغمام فى الأصل من الغمّ و هو تغطيه الشىء، و سمى الغمام بهذا الاسم لأنه يغطى صفحه السماء، و سمى الهَمّ غما بهذا الاسم لأنه يحجب القلب (١).

على أى حال، قد يشير تعبير «الغمام» إلى أن بنى إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة إلى تمتعهم بالنور الكافى لبياض هذه السحبه.

ص: ٢٣٦

١- ١) - تفسير «روح المعانى» فى تفسير الآيه المذكوره، و المفردات ماده «غم».

اشاره

وَ إِذْ قُلْنَا اَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَ اَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

التفسير

اشاره

عناد بنى إسرائيل

و هنا نصل إلى مقطع جديد من حياه بنى إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسه. تقول الآيه الاولى: وَ إِذْ قُلْنَا اَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَ الْقَرْيَةَ كِل مَكَانٍ يَعْشَى فِيهِ جَمْعٌ مِّنَ النَّاسِ، و يشمل ذلك المدن الكبيره و الصغيره، خلافا لمعناها الرائج المعاصر، و المقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآيه: فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَ اَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً أَى حِطَّ عَنَّا خَطَايَانَا، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

كلمه «حِطَّة» فى اللغة، تأتى بمعنى التناثر و المراد منها فى هذه الآيه الشريفه، آلهنا نطلب منك أن تحط ذنوبنا و أوزارنا.

أمرهم الله سبحانه أن يرددوا من أعماق قلوبهم عبارته الاستغفار المذكورة، و يدخلوا الباب، و يبدو أنه من أبواب بيت المقدس (١)، و قد يكون هذا سبب تسميته أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطه».

و الآية تنتهى بعبارته وَ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أَى أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافه إلى غفران الخطايا.

و القرآن يحدثنا عن عناد مجموعه من بنى إسرائيل حتى فى ترتيب عبارته الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا عبارته بل بدلوها بعبارته اخرى فيها معنى السخرية و الاستهزاء، و القرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: فَتَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ و كانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول:

فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

و «الرجز» أصله الاضطراب- كما يقول الراغب فى مفرداته- و منه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

و يقول «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: إنَّ الرجز يعنى العذاب عند أهل الحجاز،

و يروى عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ أَلِهِ وَ سَلَّمَ قوله بشأن مرض الطاعون: «إنَّه رجز عذب به بعض الأمم قبلكم» (٢).

و من هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» فى بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعته بين بنى إسرائيل و أهلكت جمعا منهم.

قد يقال إن الطاعون لا- ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذى هبَّ بأمر الله آنذاك فى بيته بنى إسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطرابا فى المشى و الكلام، و هذا

ص: ٢٣٨

١- ١) -على روايه أبى حيان الأندلسى، نقلا عن تفسير «الكاشف».

٢- ٢) -راجع حول معنى «الجز» الجزء الخامس من هذا التفسير.

يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماما.

و من الملفت للنظر أيضا أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فقط، و لم يشمل جميع بنى إسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيدا آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعه من بنى إسرائيل بعباره: [□]بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

و الآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنه من سنن الله تعالى، هى أن الذنب حينما يتعمق فى المجتمع و يصبح عادة اجتماعيه، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهى.

ص: ٢٣٩

اشاره

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

التفسير

انفجار العيون في الصّحراء تذكير آخر بنعمه اخرى من نعم الله على بنى إسرائيل: وهذا التذكير تشير إليه كلمه «إذ» المقصود منها (و اذكروا إذ)، وهذه النعمه أهدقها الله عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمسّ الحاجه إلى الماء و هم في وسط صحراء قاحله، فطلب موسى عليه السلام من الله عزّ و جلّ الماء: وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ، فتقبل الله طلبه، و أمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا بعدد قبائل بنى إسرائيل.

و كل عين جرت نحو قبيله بحيث أن كل قبيله كانت تعرف العين التي تخصّها قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ .

كثرت الأقوال في طبيعه الحجر الذى انفجرت منه العيون، و كيفية ضربه بالعصا، و القرآن لا يزيد على ذكر ما سبق.

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطله على الصحراء و تدل جملة «انبجست» الوارده فى الآيه ١٦٠ من سورة الأعراف على أن المياه جرت قليله أولاً، ثم كثرته حتى ارتوى منها كل قبائل بنى إسرائيل مع مواشيهم و دوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعیه، لكن الحادته هنا مقرونه بالإعجاز كما هو واضح.

ثمه أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنو إسرائيل معهم، و متى احتاجوا إلى الماء ضربه موسى بعصاه فيجرى من الماء. و ليس فى القرآن ما يثبت ذلك، و إن أشارت إليه بعض الروايات.

فى الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراه:

فقال الرب لموسى سر قدام الشعب و خذ معك من شيوخ إسرائيل و عصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك و اذهب-ها أنا أقف أمامك هناك على الصخره فى حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل» (١).

لقد منّ الله على بنى إسرائيل بإنزال المنّ و السلوى، و فى هذه المره يمنّ عليهم بالماء الذى يعزّ فى تلك الصحراء القاحله، ثم يقول سبحانه لهم: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

و فى هذه العبارة حث لهم على ترك العناد و إيذاء الأنبياء، و أن يكون هذا أقل شكرهم لله على هذه النعم.

ص: ٢٤١

١- الفرق بين العثي و الإفساد

نهى الله سبحانه بنى إسرائيل عن الفساد بفعل لا تَعَثُوا، من العثي و هو شدة الفساد، و تشبه في معناها «العيث»، إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذى يدرك حسا، و العثي فيما يدرك حكما (١). و بهذا يكون معنى لا تَعَثُوا هو معنى «المفسدين» و لكنه مع تأكيد أشد.

و قد تشير عبارته النهي بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطه صغيره، و اتساعها و اشتدادها بعد ذلك. أى تبدأ بالفساد و تنتهى بالعثي الأرض، و هو شدة الفساد و اتساعه.

٢- المعاجز فى حياه بنى إسرائيل

قد تثير مسأله انفجار الماء من الحجر و ما شابهها من المعاجز فى حياه الأنبياء تساؤلات فى ذهن أولئك الذين لم يستوعبوا منطق الإعجاز. و لا- نريد هنا أن نتعرض إلى مسأله الإعجاز، لأنها تحتاج إلى بحث مستقل. و نكتفى بالقول: إن المعجزه ليست أمرا محالا، و ليست استثناء فى قانون العليّه. بل إنها خرق لما ألفناه و اعتدنا عليه، أو بعباره اخرى، خرق لما ألفناه فى حياتنا اليوميّه من ارتباط بين العله و المعلول.

و طبيعى أن تغيير مسير العلل و المعلولات ليس بعسير على الله سبحانه، و لو خلق الله هذه العلل و المعلولات منذ البدء بشكل آخر غير ما هى عليه اليوم، لكان هذا الذى نألفه اليوم خارقا للعاده.

باختصار، خالق عالم الوجود و نظام العليّه حاكم على ما خلق لا محكوم له.

ص: ٢٤٢

و فى حياتنا اليوميه صور كثيره للاستثناءات فى النظام القائم للعلل و المعلولات.

و مسأله الإعجاز لا تشكل أيه مشكله عقليه أو علميه.

٣- الفرق بين الانفجار و الانبجاس

فى الآيه المذكوره ورد الفعل «انفجر» ليعبر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انبجس» فى الآيه ١٦٠ من سوره الأعراف ليشير إلى نفس الحقيقه مع فارق هو أن الأول يفصح عن شده تدفق الماء، و الثانى عن سيلانه بشكل هادئ.

لعل آيه سوره الأعراف تتحدث عن المرحله الأولى من ظهور الماء، و جريانه بشكل هادئ لا يثير فزع القوم، و لا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآيه التى نحن فى صددنا إلى المرحله النهائيه حيث اشتد جريان الماء.

و الراغب فى مفرداته يفسر الانبجاس و الانفجار بشكل يتناسب مع ما أشرنا إليه إذ يقول: بجس الماء و انبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق. و الانفجار يستعمل فيه و فيما يخرج من شىء واسع.

اشاره

وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ^{٦١} قَالَ أَسْتَشْبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِإِلَادِي هُوَ خَيْرٌ إِهْبَطُوا مَصِيرًا فَإِنَّ لَكُمْ ^{٦٢} مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسِيكَةُ وَبِأَوْ بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

التفسير

اشاره

المطالبه بالأطعمه المتنوعه

بعد أن شرحت الآيات السابقه نعم الله على بنى إسرائيل، ذكرت هذه الآيه صوره من عنادهم و كفرانهم بهذه النعم الكبرى.

تحدث الآيه أولا عن مطالبه بنى إسرائيل نبيهم بأطعمه متنوعه بدل اطعام الواحد(المن و السيلوى): وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا .

فخاطبهم موسى قَالَ أَسْتَشْبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِإِلَادِي هُوَ خَيْرٌ إِهْبَطُوا

و يضيف القرآن: وَ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَ الْمَسِيرَ كَنَّهُ وَ بَاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ .

بحوث

اشاره

١- آراء المفسرين في كلمه «مصر»

من المفسرين من قال إن المقصود من كلمه «مصر» في الآيه الكريمه هو المفهوم العام للمدينه. وقوله سبحانه: اِهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ، أى إنكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار و بناء الذات، و ليس هذا مكان الأطمعه المتنوعه، اذهبوا إلى المدن حيث التنوع في المأكولات، و لكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

و يستدل أصحاب هذا الرأي بأن بنى إسرائيل لم يطلبوا العوده إلى «مصر» موطنهم السابق و لم يعودوا إليه إطلاقاً (١).

و منهم من اختار هذا التفسير لمصر، و أضاف إليه أن المقصود من قوله تعالى:

اِهْبُطُوا...

هو أن بقاءكم في الصحراء و اقتصاركم على الطعام الواحد يعودان إلى ضعفكم، فكونوا أقوياء، و حاربوا الأعداء، و حرروا من سيطرتهم مدن الشام و الأرض المقدسه، ليتوفر لكم ما شئتم (٢).

و هناك رأى ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف.

و يكون المعنى عندئذ: إنكم في هذه الصحراء الخاليه من الأطمعه المتنوعه

ص: ٢٤٥

١-١) -التنوين في كلمه (مصر) دليل على تنكيرها، و على عدم اختصاصها بالأرض المعروفه.

٢-٢) -تفسير المنار، ذيل الآيه المذكوره.

تملكون الإيمان و الحريه و الاستقلال،و إن أبيتم إلاّ أن تكون لكم أطمعه متنوعه، فارجعوا إلى مصر حيث الذل و الاستعباد،لتأكلوا من فتات موائد الفراعنه.إن مشتتهات بطونكم أنستكم ما كنتم تعاون منه من ذل و استعباد،و ما حصلتم اليوم عليه من حريه و رفعه و افتخار،و ما تتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحریتكم (1).

و يبدو أن التفسير الأول أنسب من التاليين.

٢-التنوع و طبيعه الإنسان

التنوع هو-دون شك-من متطلبات البشر،و حبّ التنوع خصله طبيعیه فى البشر.و الإنسان-إن استمرّ على تناول طعام معين لمدّه طويله-يميل ذلك الطعام.

فلم إذن توجه اللوم و التفریح إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات و الخيار و الثوم و العدس و البصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟! الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياه الإنسانیه تقوم على أساس حقائق هامه لا يمكن التخلّى عنها،هى الإيمان و الطهر و التقوى و التحرّر.و قد تمرّ الجماعه البشريه بمرحله يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام و الشراب و اللذائذ الاخرى.و هنا تصبح الجماعه أمام خيارين،إمّا أن تنغمس فى اللذات و تترك قيمها و شرفها،أو تضحى بلذاتها من أجل إنسانيتها و كرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

و لا بدّ من الإشارةه إلى أن حقيقه حبّ التنوع استغلها الطامعون و المستعمرون دوما،ليدفعوا الشعوب إلى هاويه حياه استهلاكيه شهوانيه هابطه،يعيش الأفراد

ص: ٢٤٤

١-١) فى ظلال القرآن.

فيها بين المعلق و المضع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، و غافلين عن النير الذي يطوق أعناقهم.

٣- هل «المن» و «السلوى» خير الأَطعمه؟

حين طلب بنو إسرائيل أطمعه متنوعه جاءهم التفرير بالقول: أَتَشْتَبِدُونَ الَّذِي هُوَ أَذْنِي بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟! أى أ تختارون الأدنى و تتركون الأفضل؟! و يبدو أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن و السلوى. غير أن التفصيل الذى يطرحه القرآن هنا يعود إلى الحياه بكل أبعادها، و التفرير يتجه إلى بنى إسرائيل لرغبتهم فى التنوع مع ما قد يكشف هذا التنوع من ذلّ و هوان.

و على صعيد القيمه الغذائية، فإن الأطمعه النباتيه التى طلبها بنو إسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعاً، غير أن مقدار الموارد الغذائية النافعه الموجوده فى «المن» - و هو العسل أو ماده سكرية مقويه - و كذلك فى لحوم السلوى يفوق ما فى الأطمعه النباتيه المذكوره، كما أن المن و السلوى أسهل هضماً من الحبوب المذكوره (١).

و لا بأس من الإشاره إلى أن «القوم» الذى طلبه بنو إسرائيل فسّر بالحنطه مره و بالثوم مره اخرى، و لكلّ من المادتين قيمتها الغذائية، و يرى بعض أن تفسير القوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن يطلب القوم طعاماً خالياً من القمح (٢).

ص: ٢٤٧

١-١ - راجع: «قرآن بر فراز قرون و اعصار»، (فارسي)، ص ١١٢.

٢-٢ - تفسير القرطبي.

تفيد الآيه الكريمه أن بنى إسرائيل ضُربَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بَأُوْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ لِعَامِلِينَ:

الأول- لكفرهم بآيات الله، و انحرافهم عن خط التوحيد.

الثانى- لقتلهم الأنبياء بغير حق.

ظاهره الانحراف عن خط التوحيد و ظاهره القسوه و الفظاظه، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، و لا زالتا سببا لشقاوتهم و طيشهم و تعاستهم (١).

فى تفسير الآيه ١١٢ من سوره آل عمران تحدثنا بالتفصيل عن مصير اليهود و حياتهم التعيسه، (المجلد الثانى من هذا التفسير).

ص: ٢٤٨

١- ١) -نحن إذ نكتب هذه السطور، تصلنا أنباء عما ارتكبه هؤلاء القوم فى لبنان، من أعمال قاسيه و حشيه ذهب ضحيتها الآلاف من المدتين العزل، خلال مجازر و حشيه. قل أن شهد لها التاريخ نظيرا. و سيدفع هؤلاء المجرمون الثمن غاليا لفعاليتهم الشنعاء هذه، وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

التفسير

اشاره

القانون العام للتجاه

بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآيه الكريمه مبدأ عاما فى التقييم وفق المعايير الإلهيه. و هذا المبدأ ينص على أن الإيمان و العمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، و ليس للتظاهر و التصنع قيمه فى ميزان الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

هذه الآيه تكررت مع اختلاف يسير فى سوره المائده، الآيه ٧٢ و فى سوره الحج الآيه ١٧.

سياق الآيه فى سوره المائده يشير إلى أن اليهود و النصارى فخرُوا بدينهم، و اعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، و ادعوا بأن الجته خاصه بهم دون غيرهم.

و لعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضا، و لذلك نزلت هذه

الآية الكريمة تؤكد أن الإيمان الظاهري لا قيمة له في الميزان الإلهي، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى و أتباع الأديان الأخرى. و لتقول الآية أيضا: إن الأجر عند الله يقوم على أساس الإيمان الحقيقي بالله و اليوم الآخر إضافة إلى العمل الصالح. و هذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقية و الابتعاد عن كل خوف و حزن.

تساؤل هام

بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التي نحن بصددنا وسيله لبث شبهه مفادها أن العمل بأى دين من الأديان الإلهيه له أجر عند الله، و ليس من اللازم أن يعتنق اليهودى أو النصرانى الإسلام، بل يكفى أن يؤمن بالله و اليوم الآخر و يعمل صالحا.

الجواب: نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا، و الكتاب العزيز يقول: **وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ (١)**.

كما أن القرآن ملئ بالآيات التي تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، و تلك الشبهه تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقى للآيه الكريمة.

و نذكر تفسيرين لها من أوضح و أنسب ما ذكره المفسرون:

١- لو عمل اليهود و النصارى و غيرهم من أتباع الأديان السماويه بما جاء فى كتبهم، لآمنوا حتما بالنبي صلى الله عليه و اله و سلم، لأن بشارات الظهور و علائم النبي و صفاته المذكوره فى هذه الكتب السماويه، و سيأتى شرح ذلك فى تفسير الآيه ١٤٦ من سوره البقره.

ص: ٢٥٠

٢- هذه الآيه تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين فى بدايه ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم و أجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، ترى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم و إيمانهم؟! الآيه المذكوره نزلت لتقول إن كل أمه عملت فى عصرها بما جاء به نبيها من تعاليم السماء و عملت صالحا؛ فإنها ناجيه، و لا خوف على أفراد تلك الامه و لا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، و المسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبي الإسلام.

و هذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآيه كما سيأتى.

بحوث

اشاره

١- قِصه سلمان الفارسى رحمه الله

إكمالاً للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآيه كما جاء فى جامع البيان للطبرى:

«كان سلمان من جنديسابور، و كان من أشرفهم، و كان ابن الملك صديقا له مؤاخيا، لا يقضى واحد منهم أمرا دون صاحبه. و كانا يركبان إلى الصيد معا. فبينما هما فى الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، و هو يبكى.

سألاه: ما هذا؟ قال: إن كنتما تريدان أن تعلمما ما فيه فانزلا، حتى أعلمكما. فنزلا إليه.

فقال لهما: هذا كتاب من عند الله، أمر فيه بطاعته، و نهى عن معصيته، فيه ان لا- تزنى و لا- تسرق و لا- تأخذ أموال الناس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، و هو

الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى.

فوقع فى قلوبهما، و تابعا، فأسلما.

و قال لهما: إن ذبيحه قومكما عليكم حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه.

ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاما، و دعى إليه الأشراف، فأبى ابن الملك أن يحضر الوليمه، فدعاه أبوه فقال له: ما أمرك هذا؟ قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابني؟ قال: صدق ابنك.

قال له: لو لا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، و لكن اخرج من أرضنا. فأجّله أجلا.

قال سلمان: فقمنا نبكى عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين فأنا فى بيعه فى الموصل، مع ستين رجلا نعبد الله فيها، فأتونا فيها، فخرج الراهب، و بقى سلمان و ابن الملك، فجعل يقول لابن الملك: انطلق بنا، و ابن الملك يقول: نعم.

و جعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلما أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتى أتاهم، فنزل على صاحبه، و هو ربّ البيعه، و كان أهل تلك البيعه من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد فى العباده و يتعب نفسه.

قال له الشيخ يوما: إنك غلام حدث، تتكلف من العباده ما لا تطيق، و أنا خائف أن تفترو و تعجز، فارق بنفسك، و خفف عليها.

قال له سلمان: أ رأيت الذى تأمرنى به أهو أفضل أو الذى أصنع؟ قال: بل الذى تصنع.

قال: فخلّ عنى، ثم إن صاحب البيعه دعا، فقال: إني رجل أضعف عن عباده هؤلاء، و أنا أريد أن أتحول من هذه البيعه إلى بيعه اخرى هم أهون عباده من هؤلاء، فإن شئت أن تقيمها هنا فأقم، و إن شئت أن تنطلق معى فانطلق.

قال له سلمان: أى البيعتين أفضل حالا؟ قال: هذه.

قال سلمان: فأنا أكون فى هذه، وأوصى صاحب البيعه عالم البيعه بسلمان، فكان سلمان يتعبد معهم.

ثم إن الشيخ العالم عزم أن يأتى بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معى فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم.

فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: بل تنطلق معى، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس.

فقال الشيخ لسلمان: أخرج فاطلب العلم، فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوما حزينا. فقال له الشيخ: ما لك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء و أتباعهم.

فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن فإنه بقى نبي ليس من نبي بأفضل منه، وهذا زمانه الذى يخرج فيه، ولا أرانى أدركه، وأما أنت فشاب لعلك تدركه، وهو يخرج فى أرض العرب، فإن أدركته فأمن به و اتبعه، فقال له سلمان: فأخبرنى عن علامته بشىء، قال: نعم، هو مختوم فى ظهره بخاتم النبوه. وهو يأكل الهديه و لا يأكل الصدقه.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدى عودتهما من بيت المقدس، ففقدته فى الطريق، و بينما هو يبحث عنه إذ رآه رجلان عربيان من بنى كلب، فأسراه، و أخذاه معهما إلى المدينة، قال سلمان: فأصابنى من الحزن شىء لم يصبنى مثله قط، فاشترته امرأه من جهينه، فكان يرعى عليها هو و غلام لها يتراوحان الغنم هذا يوما و هذا يوما. فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمّد صلى الله عليه و اله و سلم فبينما هو يرعى يوما إذ أتاه صاحبه الذى يعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبي؟! فقال له سلمان: أقم فى الغنم حتى آتيك.

فذهب سلمان إلى

المدينة، فنظر إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَدَارَ حَوْلَهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ مَا يَرِيدُ.

فَأَرْسَلَ ثَوْبَهُ حَتَّى خَرَجَ خَاتَمَهُ. فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ وَكَلِمَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ فَاشْتَرَى طَعَامًا وَجَاءَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا هَذَا؟ قَالَ سَلْمَانٌ: هَذِهِ صَدَقَةٌ. قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهَا فَأَخْرَجَهَا فَمَلَأَ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ انْطَلَقَ فَاشْتَرَى طَعَامًا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَدِيَّةٌ. قَالَ: فَاقْعُدْ، فَاقْعُدْ فَأَكَلَا جَمِيعًا مِنْهَا. فَبَيْنَا هُوَ يَحْدُثُهُ، إِذْ ذَكَرَ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُمْ، فَقَالَ: كَانُوا يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَيُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّكَ سَتُبْعَثُ نَبِيًّا. فَلَمَّا فَرَّغَ سَلْمَانٌ مِنْ ثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا سَلْمَانُ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى سَلْمَانَ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

٢- من هم الصَّابئون؟

يقول الزَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: الصَّابِئُونَ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ نُوْحٍ (١) وَذَكَرَهُمْ إِلَى جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَدِينُونَ بِدِينِ سَمَاوَى وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَاعْتَبَرَ الْبَعْضُ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، وَقِيلَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَجُوسٌ، وَوَلِيَوا كَذَلِكَ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَهُمْ إِلَى جَانِبِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمَجُوسِ إِذَا قَالَ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا... (٢).

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ وَأَصْحَابُ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ فِي تَشْخِصِ هَوِيهِ الصَّابِئِينَ، وَوَجْهَ تَسْمِيَتِهِمْ.

«الشَّهْرِسْتَانِيُّ» فِي «الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ» يَقُولُ: الصَّابِئَةُ مِنْ صَبَأٍ أَيْ انْحَرَفَ عَنِ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُؤُلَاءِ قَوْمٌ انْحَرَفُوا عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَدِينِ الْأَنْبِيَاءِ فَهَمْ «صَابِئَةٌ».

وَ يَقُولُ «الْفِيَوْمِيُّ» فِي «الْمَصْبَاحِ الْمُنِيرِ» إِنَّ «صَبَأً» تَعْنِي الْخُرُوجَ مِنَ الدِّينِ

ص: ٢٥٤

١-١) - المفردات، مادة صبا.

٢-٢) - الحج، ١٧.

إلى دين آخر.

و فى معجم (دهخدا) الفارسى: الصابئون جمع صابئ و هى كلمه مشتقه من (ص-ب-ع) العبريه التى تعنى الغوص فى الماء (أو التعميد)، و سقطت العين فى التعريب، و تسمى هذه الطائفه التى تسكن خوزستان باسم (المغتسله) لذلك.

دائره المعارف الفرنسيه، فى المجلد الرابع، ص ٢٢، ذكرت أن هذه الكلمه عريه و تعنى الانغماس فى الماء أو التعميد.

(جسينوس) الألمانى يذهب إلى أن هذه الكلمه عريه، و لا يستبعد أن تكون مشتقه من كلمه تعنى «التجم».

صاحب كتاب «كشاف اصطلاح الفنون» يقول: «الصابئون فرقه تعبد الملائكه و يقرءون (الزبور) و يتجهون نحو القبله».

و جاء فى كتاب «التنبه و الإشراف» نقلا عن «الأمثال و الحكم» ص ١٦٦٦:

«قبل أن يطرح (زراتشت) دعوه المجوسيه على (جشتاسب)، و كان أهل هذه الديار على مذهب (الحنفاء)، و هم الصابئون، و هو دين جاء به (بوذاسب) على عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفه يعود إلى قله أفرادها و إصرارهم على إخفاء تعاليمهم، و امتناعهم عن الدعوه إلى دينهم، و اعتقادهم أن دينهم خاص بهم لا- عام لكل الناس، و أن نبيهم مبعوث إليهم لا- لغيرهم. و لذلك أحيطوا بكثير من الغموض و اكتفتهم الأسرار، و هم يتجهون نحو الانقراض.

الالتزام بتعاليمهم على غايه الصعوبه، ففيها أنواع الأغسال و التعميدات فى الشتاء و الصيف، و يميلون إلى الانزواء و الابتعاد عن غير أبناء دينهم و يحرمون تزوج النساء من غير الصابئين، و كثير منهم اعتنق الإسلام نتيجة اختلاطهم بالمسلمين.

ص: ٢٥٥

يعتقد الصابئة أن أول كتاب مقدّس سماوى نزل على آدم، وبعده على نوح، ثم على سام، ثم على «رام»، ثم على إبراهيم الخليل، ثم على موسى، وأخيرا على يحيى بن زكريا.

كتبهم المقدسه:

١- «كيزاربا» و يسمى أيضا «سدره» أو «صحف» آدم، وفيه آراء حول كيفية بدء الخلق.

٢- كتاب «أدر أفشادهي» أو «سدرادهي» ويتحدث عن يحيى و تعاليمه و يعتقد الصابئة أنه موحى إلى يحيى عن طريق جبرائيل.

٣- كتاب «قلستا» و فيه تعاليم الزّواج و الزّوجيه، و هذا إلى جانب كتب كثيره اخرى يطول ذكرها.

يبدو ممّا سبق أنّ هؤلاء أتباع يحيى بن زكريا، الذي يسميه المسيحيون يحيى المعمّد، أو يوحنا المعمّد (١).

صاحب كتاب «بلوغ الإرب» له رأى آخر بشأن الصّابئه، يقول:

«هم من يعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك و لا يسكن و لا يسافر و لا يقيم إلا بنوء من الأنواء و يقول مطرنا بنوء كذا... (٢).

و هؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل عليه السّلام و هو أهل دعوته و كانوا بحرّان، فهى دار الصّابئه، و كانوا قسمين: صابئه حنفاء، و صابئه مشركين، و المشركون منهم يعظمون الكواكب السبعه و البروج الاثني عشر، و يصورونها في هياكلهم... و يتخذون لها أصناما تخصصها و يقربون لها القرابين.

و طوائف منهم يصومون شهر رمضان و يستقبلون في صلواتهم الكعبه

ص: ٢٥٦

١-١) - راجع لمزيد من التوضيح كتاب «آراء و عقائد بشرى» (فارسي).

٢-٢) - الأنواء جمع نوء و هو النّجم مال للغروب، بلوغ الإرب جزء، ٢٦، ص ٢٢٢-٢٢٨.

و يعظمون مكه و يرون الحج إليها و يحرمون الميتة و الدم و لحم الخنزير و يحرمون من القرايات فى النكاح ما يحرم المسلمون، و على هذا المذهب كان جماعه من أعيان الدوله ببغداد منهم هلال بن المحسن الصّابى صاحب الديوان الإنشائى و صاحب الرسائل المشهوره، و كان مع المسلمين و يعبد معهم و يزكى و يحرم المحرمات، و كان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين و ليس على دينهم، و أصل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم و مذاهبهم و يخرجون من قبيح ما هم عليه قولا و عملا، و لهذا سموا صابئه، أى خارجين، فقد خرجوا عن تقييدهم بجمله كل دين و تفصيله إلا ما رأوه فيه من الحق (١)».

من مجموع ما سبق يتبين أن الصابئين كانوا فى الأصل أتباع أحد الأنبياء و إن اختلف المحققون فى تعيين نبيهم. و تبين أيضا أن عدد هؤلاء قليل و هم فى حاله انقراض.

ص: ٢٥٧

١-١) - بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٢٣-٢٢٥.

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

التفسير

اشاره

الالتزام بالميثاق

هاتان الآياتن تطرحان مسأله أخذ ميثاق بنى إسرائيل بشأن العمل بالتوراه، ثم نقضهم للميثاق: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ وَ الطُّورَ وَ الطُّورَ جبل و سيأتى ذكره. و قلنا لكم: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، و اجعلوا التوراه دوما نصب أعينكم: وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

لكنكم نقضتم الميثاق و جعلتموه وراء ظهوركم: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

١- الميثاق

المقصود من الميثاق في الآيه الكريمة هو نفس ما جاء في الآيه ٤٠ من هذه السوره و ما سيأتى في الآيتين ٨٣ و ٨٤ أيضا. مواد هذا الميثاق عبارته عن:

توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامه الصلاه، وأداء الزكاه، واجتناب سفك الدماء. هذه المواد وردت في التوراه كذلك.

من الآيه ١٢ لسوره المائده يتضح أيضا أن الله أخذ ميثاق بني إسرائيل أن يؤمنوا بجميع الأنبياء و يساندوهم، و أن ينفقوا في سبيل الله. و في هذه الآيه ضمان للقوم بدخول الجنه إن عملوا بهذا الميثاق.

٢- رفع جبل الطور

أما بشأن كيفية رفع جبل الطور في قوله تعالى: **وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ** يقول الطبرسى عن أبى زيد: حدث هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئكم بالألواح و فيها التوراه و الحلال و الحرام فاعملوا بها، قالوا: و من يقبل قولك؟! فأرسل الله عزّ و جلّ الملائكه حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به و إلا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراه و سجدوا لله تعالى ملاحظين الجبل (أى و هم ينظرون إلى الجبل من طرف خفى)، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقى وجوههم.

مضمون هذه الآيه ورد مع تفاوت بسيط في الآيه ٩٣ من سوره البقره و ١٥٤ النساء، و ١١٧ الأعراف.

الطبرسى - كما ذكرنا - و جمع من المفسرين - يذهبون إلى أن جبل الطور رفع

فوق رؤوس بني إسرائيل بأمر الله لا يجاد الظل عليهم (١)، و هناك من يقول إن زلزالا شديدا ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو إسرائيل ظل قمه الجبل على رؤوسهم من شدة الاهتزاز، و ترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هداً بفضل الله و استقرّ الجبل (٢).

و يحتمل أيضا أن تكون قد انفصلت من الجبل صخره عظيمه بأمر الله على أثر زلزال شديد أو صاعقه، و مرّت فوق رؤوسهم فى لحظات، فرأوها و تصوروا أنها ستسقط عليهم.

٣- الالتزام و الإرهاب

مسأله رفع الجبل فوق بني إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالاً- بشأن إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف و الإرهاب.

هناك من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ينطوى على إرهاب و تخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمه له.

و الأصح أن نقول: لا- مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق بالقوّه. و هذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم و عنادهم و غرورهم، و من ثم دفعهم للفكر الصحيح، كى يؤدوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادته و إختيار.

على أى حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العمليه، لا بالجانب الاعتقادى، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

٤- جبل الطّور

اختلف المفسرون فى المقصود من جبل «الطّور»، منهم من قال: إنه نفس

ص: ٢٦٠

١- ١) -مجمع البيان و تفاسير اخرى، ذيل الآيه ١٧١ من سوره الأعراف.

٢- ٢) -المنار، فى تفسير الآيه المذكوره.

الجبل الذى أوحى فيه إلى موسى. وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. وجاء تعبير (الجبل) بدل كلمه الطور فى قوله تعالى: وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ (١).

٥- خذوا تعاليم السماء بقوه

خاطب الله سبحانه بنى إسرائيل فقال: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ و عن هذه الآيه

سئل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن المقصود من القوه فى هذه الآيه:

«أ بقوه بالأبدان أم بقوه فى القلوب»؟ قال: «بهما جميعا» (٢).

و هذا الأمر الإلهى يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهيه فى كل زمان و مكان، و يطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى الماديه و القوى المعنويه معا، لصيانته خط التوحيد و إقامه حاكميه الله فى الأرض.

ص: ٢٤١

١-١) -تفسير أبى الرزى و التفسير الكبير للزراى، ذيل الآيه التى نحن بصدددها، و الآيه فى سوره الأعراف، ١٧١.

٢-٢) -رواه العياشى، نقلا عن مجمع البيان.

اشاره

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

التفسير

اشاره

عصاه يوم السبت

هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان-كآيات السابقه-عن روح العصيان و التمرد المتغلغله فى اليهود،و التصاقهم الشديد بالمسائل الماديه: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١).

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا

أى جعلناها عبره لتلك الامه و لأمم تليها وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

ملخص الحادثه التى تشير إليها الآية:«أن الله سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا- أى أن يقطعوا أعمالهم-يوم السبت،و هذا الأمر شمل طبعاً أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك،و شاء الله أن يختبر هؤلاء،فكثرت

ص: ٢٦٢

الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت في بقية الأيام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت. فعاقبهم الله على عصيانهم و مسخهم على هيئته حيوان».

و هل كان هذا المسخ جسمى أم نفسى و أخلاقى؟ و أين كان يسكن هؤلاء القوم؟ و بأيه حيله توسلوا للصيد؟ هذا ما سنجيب عليه و على غيره من المسائل المرتبطه بهذا الموضوع فى المجلد الخامس من هذا التفسير، لدى توضيح الآيات ١٦٣-١٦٦ من سوره الأعراف.

و قوله تعالى: **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** إشاره إلى فوريه المسخ الذى تم بأمر إلهى واحد.

و من المفيد أن ننقل فى هذا المجال روايه عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام فى تفسير قوله تعالى **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا...** قالوا: **لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيْهَا** إى لما معها ينظر إليها من القرى (فى زمان تلك الامه)، **وَ مَا خَلَفَهَا** نحن (المسلمون) و لنا فيها موعظه (١).

ص: ٢٦٣

(١-١) -مجمع البيان، فى تفسير الآيه المذكوره.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالِ اعْوِذْ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا بَكَرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شَرِيهَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَيُوتَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

قصة بقره بنى إسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثه اخرى من حوادث تاريخ بنى إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه فى الآيات السابقه، و لعله يعود إلى أن هذه الحادثه ذكرت فى هذا الموضوع -لا- غير- من القرآن الكريم، و إلى أنها تتضمن عبرا كثيره تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بنى إسرائيل و عنادهم، و مستوى إيمانهم بكلام موسى عليه السلام، و أهم من كل هذا البرهنه على إمكان المعاد.

الحادثه (كما يبينها القرآن و كتب التفسير) على النحو التالى: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، و لم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثه، كل قبيله تتهم الاخرى بالقتل. توجهوا إلى موسى ليقضى بينهم. فما كانت الأساليب الاعتياديه ممكنه فى هذا القضاء. و ما كان بالإمكان إهمال هذه المسأله لما سترتب عليها من فتنه بين بنى إسرائيل. لجأ موسى -ياذن الله- إلى طريقه إعجازيه لحل هذه المسأله كما ستوضحها الآيات الكريمه (1).

ص: ٢٦٥

١ - ١) فى الفصل الحادى و العشرين من سفر التثنيه فى العهد القديم وردت إشاره عابره لهذه القصة. و ما ورد فى التوراه الحاليه ليس بسرد للحادثه و إنما إعطاء حكم من الأحكام، و هذا نص السفر المذكور من الجمله ١ إلى ٩: «إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتملكها واقعا فى الحقل لا يعلم من قتله -يخرج شيوخك و قضاتك و يقيسون إلى المدن التى حول القتل- فالمدينه القربى من القتل يأخذ شيوخ تلك المدينه عجله من البقر لم يحرق عليها لم تجر بالنير- و ينحدر شيوخ تلك المدينه بالعجله إلى واد دائم السيلا ن لم يحرق فيه و لم يزرع، و يكسرون عنق العجله فى الوادى- ثم يتقدم الكهنه بنو لاوى لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه و يباركوا باسم الرب و حسب قولهم تكون كل خصومه و كل ضربه- و يغسل جميع شيوخ تلك المدينه القريين من القتل أيديهم على العجله المكسوره العنق فى الوادى- و يصرحون و يقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم و أعيننا لم تبصر- اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يا رب و لا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم- فتنزع الدم البرىء من وسطك إذا عملت الصالح فى عينى الرب».

يقوله سبحانه في هذه الآيات: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

أى إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، و أنبياء الله مبرأون من ذلك.

بعد أن أيقنوا جديده المسأله، قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ . و عبارته «ربك» تتكرر فى خطاب بنى إسرائيل لموسى، و تنطوى على نوع من إساءه الأدب و السخرية، و كأن رب موسى غير ربهم!! موسى عليه السلام أجابهم: قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ أَى إنها لا كبيره هرمه و لا صغيره، بل متوسطه بين الحالتين: فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ .

لكن بنى إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا ؟ أجابهم موسى: قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْئِهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ أَى إنها حسنه الصفرة لا يشوبها لون آخر.

و لم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصروا على لجاجهم، و ضيقوا دائره انتخاب البقره على أنفسهم.

عادوا و قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ طالبين بذلك مزيدا من التوضيح، متذرعين بالقول: إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ .

أجابهم موسى قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقَى الْحَرْثَ أَى ليست من النوع المذلل لحرث الأرض و سقيها.

مُسَلَّمَةٌ

من العيوب كلها.

لَا شَيْءَ فِيهَا

أى لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ .

ص: ٢٦٦

فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

أى أنهم بعد أن وجدوا بقره بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا آى فاختلقتم فى القتل و تدافعتم فيه. وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِنَعْصِهَا

أى اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقره، كى يحيى و يخبركم بقاتله. كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

و بعد هذه الآيات الينات، لم تلن قلوب بنى إسرائيل، بل بقيت على قسوتها و غلظتها و جفافها. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً .

إنها أشد قسوه من الحجاره، لأن بعض الحجاره تنفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياہ أو تسقط من خوف الله: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجِرُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

لكن قلوب بنى إسرائيل أشد قسوه من الحجاره، فلا- تنفجر منها عاطفه و لا علم، و لا تنبع منها قطره حب، و لا تخفق من خوف الله.

و الله عالم بما تنطوى عليه القلوب و ما تفعله الأيدى: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

بحوث

اشاره

١- أسئلة كثيره نأفبه

«السؤال» دون شك مفتاح لحل المشاكل، و وسيله لإزالة الجهل و الإبهام، لكنه مثل بقيه الأمور، إن تجاوز حدّه و جاء فى غير موضعه فإنه يدلّ على

ص: ٢٦٧

الانحراف و يؤدي إلى أضرار، و من ذلك ما نراه في هذه القصة.

بنو إسرائيل أمروا أن يذبحوا بقره. و كان بإمكانهم أن يذبحوا أيه بقره شأؤوا، لأن الأمر الإلهي لم يحدّد شكل البقره و نوعها، و لو أراد الله بقره بعينها لحدّد مواصفاتها حين الأمر. لكن الله أمرهم أن يذبحوا «بقره» و صيغه التنكير تدل على عدم إرادته التحديد.

هؤلاء المعاندون أبوا إلا أن يطرحوا أسئلته متكرره، أملا في تضييع الحقيقه و إخفاء القاتل، و بقوا يصرون على ترددهم في الذبح حتى النهايه، و هذا ما تشير إليه عبارته: فَذَبَّحُواهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

و في الآيات ما يشير إلى أن مجموعه من بنى إسرائيل -على الأقل- كانت تعرف القاتل، و قد يكون القتل قد تمّ بمؤامره بين هؤلاء الأفراد، لكنهم كانوا يكتمون الأمر، و لهذا يقول سبحانه: وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .

أضف إلى ما سبق أنّ أهل العناد و اللجاج يكثرن دائما من الجدل و الإحتجاج على كل شىء.

و ثمة قرائن في الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفه كامله بالله و لا بالنبي المرسل إليهم، لذلك قالوا له بعد كل أسئلتهم: أَلَمْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، و كأنّ ما جاء به حتى ذلك الوقت كان باطلا!! و الملاحظ أن الله سبحانه ضيق عليهم دائره الانتخاب، و اشتد بذلك عليهم التكليف كلما زادوا في أسئلتهم، لأنهم مستحقون لمثل هذا العقاب. و لذلك نرى في الأثر حثّ على السكوت عمّا سكت عنه تعاليم السماء ففي ذلك حكمه.

عن النبي صلّى الله عليه و اله و سلّم: «أنهم أمروا بأذني بقره و لكنهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم» (1).

ص: ٢٤٨

٢-مدلول هذه الأوصاف:

كان تكليف بنى إسرائيل- كما ذكرنا-مطلقا غير مقيد بمواصفات معينه.لكن لجاج هؤلاء ضيق عليهم الدائره و غير عليهم حكم التكليف (١).

إلى جانب هذه الحقيقه،ثمه حقيقه اجتماعيه قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التى ذكرت للبقره.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أن البقره التى كتب لها أن تحيى فردا ميتا ينبغى أن لا- تكون«ذلولاً»أى تأبى التسليم و الخضوع الأعمى.كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان اخرى.

و هذا يعنى أن القائد الذى يستهدف إحياء المجتمع ينبغى أولاً أن يكون متحررا من تأثيرات الضغوط الاجتماعيه التى يمارسها أصحاب الثروه و الجاه و القوه،و أن يستسلم لله وحده دون أن تأخذه فى ذلك لومه لائم،كما أن القائد يجب أن يكون مبرءا من أى لون غير اللون التوحيدى،و مثل هؤلاء الأفراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور الناس باتزان و اعتدال و يبعثوا فى قلوب و أفكار أمتهم الخصب و الحياه.

أما المنشد نير الدنيا و الخاضع لها و المشوب بالألوان و الأهواء فلا يستطيع أن يحيى القلوب الميتة،و لا يقدر أن ينهض بدور الإحياء.

٣-ما هو دافع القتل؟

تذكر كتب التاريخ و التفسير أن دافع القتل فى هذه الحادثه إما المال،أو الزواج.

ص: ٢٦٩

١ - ١) -هذه القصة تشير إلى جواز نسخ الحكم قبل العمل وفق ما تقتضيه المصلحه،و تشير أيضا إلى وجود النسخ فى دين موسى، كما تدل على أن التكليف قد يكون له طابع العقاب.و هذه مباحث سنطرحها فى محلها.

من المفسرين من قال: إن ثريا من بنى إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه، فطال عمر هذا الثرى و لم يطق الوارث مزيدا من الانتظار، فقتله خفيه ليحصل على أمواله، و ألقى جسده فى الطريق، ثم بدأ بالصراخ و العويل، و شكى الأمر إلى موسى.

و قال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنه القليل، فرفض ذلك، و زوج ابنته إلى أحد أخيار بنى إسرائيل. ففعد له و قتله، ثم شكى القاتل الأمر إلى موسى.

و من الممكن أن تشير القصة إلى حقيقه هى: إن كل المفاسد و الجرائم مصدرها فى الغالب أمران: الطمع فى المال، و الطمع فى الجنس.

٤- العبر فى هذه القصة

هذه القصة لها دلالات على قدره الله اللامتناهيه، و كذلك على مسأله المعاد، و لذلك وردت فى الآيه ٧٣ عباره **كَذَلِكَ يُخِي** **اللَّهُ الْمَوْتَى** إشاره إلى مسأله المعاد، و عباره **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ** تأكيد على قدره الله و عظمته.

إضافه إلى ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنه من سنن الله تعالى، و هى أن الامه تستوجب غضب الله حين تصر على عنادها و لجاجها و استهتارها بكل شىء.

العبارات التى وردت على لسان بنى إسرائيل فى هذه القصة توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروه فى إهانته النبى، بل و بلغت بهم الجراه إلى إساءه الأدب تجاه رب العالمين.

فى البدايه قالوا لنبىهم: **أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا؟** و بذلك اتهموا نبىهم بارتكاب ذنب الاستهزاء بالآخرين.

و فى مواضع عديده خاطبوه بعبارته **أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ**، و كأن رب موسى غير

رَبِّهِمْ، مع أن موسى قد قال لهم: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ .

و قالوا له أيضا: اُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ و يعنون بذلك أن كلام موسى أدى إلى ضلالهم في تشخيص البقره، ثم يخاطبوه في النهايه: أَلَا نَحْنُ بِالْحَقِّ .

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم و تعنتهم و غرورهم و لجاجهم.

و هذه القصة من جهه اخرى تعلمنا أننا ينبغي أن لا نتزمت و لا نتشدد في الأمور كي لا يتشدد الله معنا.

و لعل انتخاب البقره للذبح يستهدف غسل أدمغه هؤلاء القوم من فكره عباده العجل.

٥-الإحسان إلى الأب

يذكر المفسرون أن البقره التي ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيده لا تشاركها بقره اخرى في ذلك، و لذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمان باهظ.

و يقولون: إن هذه البقره كانت ملكا لشاب صالح على غايه الثبر بوالده. هذا الرجل و اتته سابقا فرصه صفقه مربحه، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقدا. و كانت النقود في صندوق معلق مفتاحه تحت و ساده والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائما، فأبى إيقاظه و إزعاجه، ففضل أن يترك الصفقه على أن يوقظ والده.

و قال بعض المفسرين: «كان البائع على استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفا نقدا، و لكن الرجل أبى أن يوقظ والده و اقترح شراء تلك البضاعه بثمانين ألفا على أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده. و أخيرا لم تتم صفقه المعامله، و لذا أراد الله تعالى تعويضه على إثارة هذا بمعامله اخرى و فيره الربح.

وقالوا أيضا: بعد أن استيقظ الوالد و علمه بالأمر، أهدى لولده البقره المذكوره، فدّرت عليه ربعا عظيما» (١).

و إلى هذه القصّه يشير

رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم إذ يقول: «أنظروا إلى الثبر ما بلغ بأهله» (٢).

ص: ٢٧٢

١-١ - تفسير ابن كثير، ج ١.

٢-٢ - تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٨٨.

اشاره

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

سبب النزول

روى عن الإمام أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام أنه قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطنين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما فى التّوراه من صفه محمد، فنهاهم كبرائوهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما فى التّوراه من صفه محمد فيحاجوكم به عند ربكم فنزلت هذه الآيه» (١).

ص: ٢٧٣

لا أمل في هؤلاء

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، و في هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين و يقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرون على تحريف الحقائق و نكران ما عقلوه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم و قد كان فريقٌ منهم يسامعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون! و هذه عظه للمسلمين، و دفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود و جذبهم إلى الدين الجديد.

الآيتان الكريمتان توضحان أن السبب في عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزه القرآنيه و سائر المعاجز النبويه الاخرى، إنما يعود لعناد متأصل في هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام الله عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرفوه بعد عودتهم.

من عبارته و قد كان فريقٌ منهم... نفهم أن بنى إسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقاً منهم - و من المحتمل أن يشكل عددهم أكثرية بنى إسرائيل - كانوا هم المحرفين.

ورد في أسباب النزول أن مجموعه من بنى إسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن الله قال لموسى: اعملوا بأوامرى قدر استطاعتكم، و اتركوها متى تعذر عليكم العمل بها!» و كان ذلك أول تحريف في بنى إسرائيل.

على أى حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الإسلاميه بعد إعلانها لأنهم أهل كتاب (خلافاً للمشركين)، و لأنهم قرءوا صفات النبى صلى الله عليه و اله و سلم في كتبهم. لكن القرآن يوجه أنظار المسلمين إلى سوء السابقه لدى هؤلاء القوم، و يوضح لهم أن الانحراف النفسى يدفع إلى الإعراض عن الحقيقه،

مهما كانت هذه الحقيقه واضحه بينه.

الآيه التاليه تلقى الضوء على حقيقه مره اخرى بشأن هذه الزمره المنافقه و تقول: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضِّهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! من المحتمل أيضا أن تتحدث هذه الآيه فى صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالايمن لدى لقائهم بالمسلمين، و يبرزون إنكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون أولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا فى التوراه من أسرار.

هذه الآيه-على أى حال-تأييد للآيه السابقه،التي نهت المسلمين عن عقد الأمل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عباره بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قد تعنى الميثاق الإلهى الذى كان محفوظا لدى بنى إسرائيل.وقد تشير إلى الأسرار الإلهيه المرتبطه بالشريعاه الجديده.

و يتضح من الآيه أن إيمان هذه الفئه المنافقه من اليهود، كان ضعيفا إلى درجه أنهم تصوروا الله مثل إنسان عادى، و ظنوا أنهم إذا أخفوا شيئا عن المسلمين فسيخفى عن الله أيضا.

لذلك تقول الآيه التاليه بصراحه: أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ!؟

ص: ٢٧٥

اشاره

وَمِنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَلْمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

سبب النزول

عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبي الإسلام في التوراه من أجل صيانه مصالحهم، واستمرار الأموال التي كانت تتدفق عليهم سنويا من جهله اليهود. فعند ظهور النبي صلى الله عليه و اله و سلم غيروا ما ذكر من صفاته في التوراه و أبدلوها بصفات اخرى على العكس منها، كي يمؤهوا الأمر على الأميمين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النبي في التوراه، فمتى ما سألو علماءهم عن هذا النبي الجديد قرءوا لهم الآيات المحرفه من التوراه لإقناعهم بهذه الطريقه.

التفسير

اشاره

خطه اليهود في استغلال الجهله!

بعد الحديث عن انحرافات اليهود في الآيات السابقه، قسّمت هاتان الآيتان

اليهود على مجموعتين: أميين و علماء ماكرين،(هناك طبعا أقلية من علمائهم آمنت و التحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعه الاولى يقول تعالى: وَ مِنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .

و الأعميون جمع أمي، و الأعمى غير المدارس. و سموا بذلك لأنهم فى معلوماتهم كما ولدتهم أمهاتهم، أو لشده تعلق أمهاتهم بهم، صعب عليهم فراقهم جهلا، و منعهم من الذهاب إلى المدرسه (١).

و الأمانى جمع امنيه، و لعل الآيه تشير هنا إلى الامتيازات الموهومه التى كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ (٢)، و كقولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ (٣).

و من المحتمل أيضا أن يكون المقصود من الأمانى الآيات المحرفه التى كان علماء اليهود يشيعونها بين الأميين من الناس، و هذا المعنى ينسجم أكثر مع قوله تعالى: لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ .

و على أى حال عبارته: إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ دلالة واضحة على بطلان أتباع الظن فى فهم أصول الدين و معرفه مدرسه الوحى، و لا بد من التبع و التحقيق فى هذا الأمر.

ثمّه مجموعه اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، و إلى هؤلاء يشير القرآن: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ...

وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ...

ص: ٢٧٧

١- ١) -معنى «الأمي» بحث بشكل أوفى فى تفسير الآيه ١٥٧ من سوره الأعراف، راجع المجلد الخامس.

٢- ٢) -المائده، ١٨.

٣- ٣) -آل عمران، ٢٤.

و من العبارة الأخيرة نفهم الهدف الدنىء لهؤلاء، و كذلك عاقبتهم الوخيمه.

و قد أورد بعض المفسرين حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامه:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا- يعرفون الكتاب إلا بما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمهم بتقليدهم و القبول من علمائهم؟ و هل عوام اليهود إلا كعوامنا، يقلدون علماءهم- إلى أن قال- فقال عليه السلام: «بين عوامنا و عوام اليهود فرق من جهه، و تسويه من جهه، أما من حيث الاستواء فإن الله ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذم عوامهم، و أما من حيث اافتراقوا فإن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح، و أكل الحرام، و الرشاء و تغيير الأحكام، و اضطروا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق، لا يجوز أن يصدق على الله، و لا على الوسائط بين الخلق و بين الله، فلذلك ذمهم، و كذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، و العصبية الشديده، و التكالب على الدنيا و حرامها، فمن قلد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقه علمائهم، فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا على هواه، مطيعا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه، و ذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا كلهم، فإن من ركب من القبائح و الفواحش مراكب علماء العامه، فلا تقبلوا منهم عنا شيئا، و لا- كرامه، و إنما كثر التخليط فيما يتحتمل عنا أهل البيت لذلك، لأن الفسقه يتحملون عنا فيحرفونه بأسره لجهلهم، و يضعون الأشياء على غير وجهها لقله معرفتهم و آخرون يتعمدون الكذب علينا» (1) و اضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبدى فى الأحكام، بل يشير إلى اتباع العلماء من أجل تعلم أصول الدين، لأن الحديث يتناول معرفه النبىء، و هذه المعرفه من أصول الدين، و لا يجوز فيها التقليد التعبدى.

ص: ٢٧٨

اشاره

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

التفسير

غرور و ادعاء فارغ يشير القرآن الكريم هنا إلى واحده من ادعاءات اليهود الداله على غرورهم، هذا الغرور الذي يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً

، ثم تجيبهم الآية بأسلوب مفحم:

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، و أن عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشريه، و أن مدينهم لن يدخلوا جهنم سوى أيام قليله ليتنعموا بعدها بالجنه، من مظاهر أنانيه هؤلاء و استفحال ذاتياتهم.

ادعاء اليهود المذكور فى الآيه الكريمه لا ينسجم مع أى منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين أفراد البشر أى تفاوت فى نيل الثواب و العقاب أمام الله سبحانه و تعالى.

بم استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الإلهى؟! الآيه الكريمه تدحض مزاعمهم بدليل منطقى، و تفهمهم أن مزاعمهم هذه إما أن تكون قائمه على أساس عهد لهم اتخذوه عند الله، و لا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على الله.

ثم تبين الآيه الكريمه التاليه قانونا عاما يقوم على أساس المنطق و تقول:

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

و هذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئه و قوم.

و بشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبينه الآيه التاليه:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

بحوث

اشاره

١- كسب السيئه

الكسب و الاكتساب: الحصول على الشىء عن إرادته و اختياره، من هنا عبارته بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً إشاره إلى أولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم و انتخاب. و تعبير الآيه بكلمه «كسب» قد يكون إشاره إلى المحاسبه الخاطئه العاجله التى يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظانا أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعاً، و يتحمل بتركه خساره! و إلى مثل هؤلاء المذنبين تشير آيه كريمه ستأتى بعد عدد من الآيات إذ يقول سبحانه: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

٢- إحاطه الخطيئه

الخطيئه تستعمل غالبا فى الذنوب التى لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت فى هذه الآيه بمعنى الذنوب الكبيره (١)، أو بمعنى آثار الذنب فى قلب الإنسان و روحه (٢) .

مفهوم إحاطه الخطيئه يعنى انغماس الفرد فى الذنب إلى درجه يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعبارة أوضح، الذنوب الكبيره و الصغيره تبدأ على شكل «فعل» ثم تتحول إلى «حاله» و مع الاستمرار و الإصرار تتحول إلى «ملكه». و عند اشتدادها تغمر وجود الإنسان و تصبح عين وجوده. عندئذ لا تجدى مع هذا الفرد موعظه و لا يؤثر فيه توجيه و لا نصيح، إذ أنه عمل عن اختيار على قلب ماهيته فمثلهم مثل دوده القز التى تلف حولها من نسيج الحرير حتى تسمى سجينه عملها.

الآيه الكريمه تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الأفراد فى النار، و هذا يعنى أن هؤلاء يغادرون الدنيا و هم مشركون. لأن الشرك هو الذنب الوحيد الذى لا يغفره الله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (٣) .

٣- عنصريه اليهود

نفهم من الآيات الكريمه أن روح التمييز العنصرى لدى اليهود، التى هى

ص: ٢٨١

١-١) -التفسير الكبير، الفخر الرازى، الآيه المذكوره.

٢-٢) -الميزان، الآيه المذكوره.

٣-٣) -النساء، ٤٨.

مبعث كثير من مشاكل الساحة العالميه اليوم، كانت راسخه لدى اليهود منذ تلك الأيام. و كانوا يعتقدون بوجود تفوق و امتياز لعنصر بنى إسرائيل على سائر الأجناس البشرية الاخرى. و لا زالت هذه الذهنيه سائده لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم. و هذا التعصب العنصرى هو الأساس الذى تقوم عليه الدوله الصهيونيه الغاصبه اليوم.

هؤلاء يعتقدون بأن عنصرهم متميز عن سائر البشر لا فى هذه الدنيا فحسب، بل فى الاخره أيضا، حيث لا ينال المجرم منهم -على رأيهم- سوى عقوبه خفيفه قصيره. و هذه التصورات المغلوطة هى التى دفعتهم إلى أن يرتكبوا ألوان الجرائم و الموبقات (1).

ص: ٢٨٢

١-١) فى تفسير الآيه ١٢٣ من سوره النساء بحثنا أيضا فى هذه الامتيازات الكاذبه (المجلد الثالث من هذا التفسير).

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَىٰ فَفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)

تقدم ذكر ميثاق بنى إسرائيل، ولكن الآيات السابقة لم تتعرض إلى تفاصيل هذا الميثاق على النحو المذكور فى هذه الآيات. يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى مواد هذا الميثاق، وهى بأجمعها-أو معظمها-من المبادئ الثابتة فى الأديان الإلهية. ووجوده بشكل من الأشكال فى كل الأديان السماوية.

القرآن يندد فى هذه الآيات بشدة باليهود لنقضهم هذه العهود، و يتوعدهم نتيجة لهذا النقص بالخزى فى الحياة الدنيا و العذاب فى الآخرة.

بنود هذا العهد الذى أقر به بنو إسرائيل:

١- التوحيد و إخلاص العبودية لله و إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ .

٢- الإحسان إلى الوالدين: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .

٣- الإحسان إلى الأقارب و اليتامى و الفقراء: وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسْكِينِ .

٤- التعامل الصحيح مع الآخرين: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا .

٥- إقامة الصلاة: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ .

٦- إيتاء الزكاة: وَ آتُوا الزَّكَاةَ .

ثم تذكر الآيه الكريمه نقض القوم للميثاق و عدم وفائهم بالعهد: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ .

٧- عدم سفك الدماء: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ .

٨- عدم إخراج بنى جلدتكم من ديارهم: وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ .

٩- إفداء الأسرى، أى بذل المال لتحريرهم من الأسر(و هذا البند نفهمه من

عبارة أَفْتُوْمُنُونَ بِيْغُضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِيْغُضٍ، و سياتى ذكرها).

ثم تذكر الآيه إقرار القوم بالميثاق: ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ .

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بنى إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم و تشريد بعضهم الآخر: ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ . و يشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ .

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء فى مواقفهم، إذ يحاربون بنى جلدتهم و يخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا فى الأسر: وَ إِنْ يَأْتَوْكُمْ أُسَارَىٰ يُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ .

فهم يفادونهم استنادا إلى أوامر التوراه، بينما يشردونهم و يقتلونهم خلافا لما أخذ الله عليهم من ميثاق: أَفْتُوْمُنُونَ بِيْغُضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِيْغُضٍ؟! و من الطبيعى أن يكون هذا الانحراف سببا لانحطاط الإنسان فى الدنيا و الآخرة:

فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ

و انحرافات أيه أمه من الأمم لا بد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمه، ذلك لأن الله سبحانه و تعالى أحصاها عليهم بدقه: وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

الآيه الأخيره تشير إلى تخبط بنى إسرائيل و تناقضهم فى مواقفهم، و المصير الطبيعى الذى ينتظرهم نتيجة لذلك: أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ .

١- إشارة تاريخية:

فى الآيات إشارة لتناقض بنى إسرائيل فى مواقف بعضهم من البعض الآخر.

قيل فى ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوما أخرجوهم من ديارهم، و قد أخذ عليهم الميثاق إن لا يسفكوا دماءهم و لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، و أخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم بعضا أن يفادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فأمنوا بالفداء ففدوا و كفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم».

و

روى فى المعنى بهذه الآية: «أن قريظه و النضير كانا أخوين كالأوس و الخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج و كانت قريظه مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقه حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما فى التوراه، و الأوس و الخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنّه و لا نارا و لا قيامه و لا كتابا، فأنبأ الله تعالى اليهود بما فعلوه» (١).

و هكذا سقط اليهود و غيرهم من أهل العناد فى مثل هذه التناقضات فى حياتهم لانحرافهم عن خط العبوديه التامه لله تعالى.

٢- الازدواجيه فى الالتزام:

مرّ بنا أن القرآن الكريم يوبّخ اليهود بشدّه على التزامهم ببعض الأحكام الإلهيه و تركهم لبعضها الآخر، و ينذرهم بخزى الدنيا و بعذاب الآخرة و خاصه فى عملهم بالأحكام الجزئيه، و مخالفتهم لأهم الأحكام الشرعيه. أى قانون حرمه إراقه الدماء، و تهجير من يشاركهم فى العقيدته من ديارهم و أوطانهم.

ص: ٢٨٦

هؤلاء فى الواقع التزموا بالاحكام التى تنسجم مع مصالحهم الدنيويه من الأحكام، أما حين تقتضى مصلحتهم أن يريقوا دم الآخرين و يستضعفوه، فلا يألون جهدا فى ارتكاب كل ذلك مخالفين بذلك أهم أحكام رب العالمين.

التزامهم بفداء الأسرى لا ينطلق من روح تعبدية، بل من روح مصلحيه ترى أنّ من مصلحتها أن تفدى الأسرى اليوم، كى تفدى هى حين تقع بالأسر فى المستقبل.

العمل بالأحكام المنسجمه مع مصالح الإنسان الدنيويه، ليس دلالة على طاعه الله و عبادته، لأن الدافع لم يكن الاستجابه إلى دعوه الله بقدر ما كان استجابته لنداء الذات و المصالح الذاتيه. روح الطاعه تبرز لدى التزام الإنسان بما لا ينسجم مع مصالحه الآنيه الذاتيه. و هذا هو المعيار الذى يميّز به المؤمن عن العاصى، فالازدواجيه فى الالتزام بأحكام الله تعالى، تدلّ على روح العصيان، بل أحيانا على عدم الإيمان و بعبارة اخرى، إن الإيمان يظهر أثره فيما لو كان القانون على خلاف مصالح الفرد و مع ذلك يلتزم به الفرد، و إلا فان العمل بالاحكام الشرعيه، إذا اتفقت مع المصالح الشخصيه لا يعتبر افتخارا و لا علامه على الإيمان و لهذا يمكن تمييز المؤمنين عن المنافقين من هذا الطريق فالمؤمنون يلتزمون بجميع الأحكام، و المنافقون يذهبون إلى التبعيض.

و مصير هذه الأئمه- بالتعبير القرآنى- الخزى فى الدنيا و أشدّ العذاب فى الآخره... و لا خزى أكبر من سقوط هذه الأئمه السائره على خط الازدواجيه بيد الغزاه الأجنب، و هبوطها فى مستنقع الذله على الساحه العالميه.

هذه السنّه الكونيه لا تقتصر على بنى إسرائيل، بل هى ساريه فى كل زمان و مكان، و تشملنا نحن المسلمين أيضا. و ما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض فى مجتمعاتنا اليوم! و ما أشقى هؤلاء فى الدنيا و الآخره!

الآيات الكريمة في معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح سننا كونه في بقاء الشعوب و انحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامّة و رفعتها و عزتها في المنظار القرآني، اعتماد الامّة على قوّه اللّٰه و قدرته الأبديّه و خضوعها له وحده دون سواه و خشيته وحده دون غيره:

لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

و من عوامل البقاء أيضا التلاحم الاجتماعى بين أفراد الامّة، و هذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامه أفراد المجتمع من الفقراء و المساكين و غيرهم من الناس.

إزاله التمييز الطبقي و رفع الهوه السحيقه الفاصله بين الأغنياء و الفقراء فى المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاه، و من عوامل بقاء المجتمع أيضا و رفعته.

أما عوامل السقوط فهي عباره عن تفكك البنيه الاجتماعيه، و نشوب النزاعات و الحروب الداخليه بين أفراد المجتمع، و استضعاف بعضهم بعضا. لَا تَشْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ...

ثم الانزدواجيه فى الالتزام بأحكام اللّٰه تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآتيه الذاتيه الضيقه، فيلتزموا بالقوانين التى تحفظ لهم منافعهم الشخصيه، و يتركوا القوانين النافعه للمجتمع أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ .

هذه هي الأسباب و العلل فى تكامل و انحطاط الأمم و الحضارات فى منظور القرآن.

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسِكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

التفسير

اشاره

القلوب المغلقة

الحديث في هاتين الآيتين عن بنى إسرائيل، وإن كانت المفاهيم و المعايير التي تطرحها الآيتان عامه و شامله.

تقول الآيه الاولى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ثم تذكر بعثه الأنبياء بعد موسى مثل داود و سليمان و يوشع و زكريا و يحيى... وَ قَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، و تشير إلى بعثه عيسى وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، لكن تعامل بنى إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائما على أساس نزعات هوى النفس أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسِكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ؟! او كان موقفهم إِمَّا اغتيال شخصيه النبى أو شخص النبى: فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا

لو كان اغتيال الشخصيه كافيا لتحقيق أهدافهم الدنيئه اكتفوا بذلك، وإن لم يكن كافيا سفكوا دمه!! ذكرنا فى تفسير الآيات السابقه عند حديثنا عن الازدواجيه فى الالتزام بالاحكام الإلهيه أن معيار الإيمان و التسليم هو الالتزام بما لا تهوى النفس، لأن كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميولهم و أهوائهم.

و من جانب آخر يستفاد من الآيه أن القاده الإلهيين لم يكونوا يأنهون بمعارضه أصحاب الأهواء، و هذا هو شأن القائد لمنهج الحق. و لو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قاده لطلاب صراط الحق. بل أتباع لطلاب الدنيا.

الآيه التاليه تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوه الأنبياء لهم أو دعوه النبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم: **قَالُوا: قُلُوبُنَا غُلْفٌ و الغلف جمع أغلف أى مغلف.**

نعم، إنها كذلك مغلفه و بعيده عن نفوذ النور الإلهى إليها، لأن أصحابها لعنوا بعد التماذى فى الكفر بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً **مَا يُؤْمِنُونَ .**

قد تشير الآيه إلى اليهود الذين كذبوا الأنبياء و قتلوهم، و قد تشير إلى اليهود المعاصرين للنبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم ممن وقف بوجه رساله. لكنها على أى حال تبين حقيقه هامه هى: إن الانغماس فى الأهواء يبعد الفرد عن الله، و يسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقه تجد لها طريقا إلى نفسه.

بحوث

اشاره

١- رساله الأنبياء فى مسيره التاريخ

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوما بوجه دعوه الأنبياء، لأنها كانت تهدد مصالحهم الآئيه التافهه، و تحريف الرسالات الإلهيه أحد السبل التى انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربه الدعوه، لذلك كان لا بد من توالى الرسل -

على مرّ التاريخ-لمواصله بقاء خط النبوه على الأرض، و لإتمام الحجه على البشريه، قال سبحانه: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا (١) هذا المفهوم عبّر عنه

أمير المؤمنين على عليه السّلام بقوله: «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكرهم منسى نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول» (٢).

هدف بعثه الأنبياء على مرّ العصور التاريخيه إذن هو تذكير البشر بنعم الله سبحانه، و دعوتهم إلى الالتزام بميثاق الفطره، و إحياء دعوات الأنبياء السابقين.

هنا يثار سؤال حول سبب ختم النبوه بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و سنجيب عليه إن شاء الله في تفسير الآيه ٤٠ من سوره الأحزاب.

٢- ما هو روح القدس؟

للمفسرين آراء مختلفه في معنى روح القدس:

١- قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآيه على هذا إن الله أيد عيسى بجبرائيل. و شاهدهم على ذلك قوله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (٣) و وجه تسميه جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، و الجانب الروحي في الملائكه أمر واضح، و إطلاق كلمه «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، و إضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى طهر هذا الملك و قداسته الفائقه.

٢- و قيل إن «روح القدس» هو القوه الغيبية التي أيدت عيسى عليه السلام، و بهذه القوه الخفيه الإلهيه كان عيسى يحيى الموتى.

ص: ٢٩١

١- ١) - المؤمنون، ٤٤.

٢- ٢) - نهج البلاغه، الخطبه الاولى.

٣- ٣) - النحل، ١٠٢.

هذه القوّة الغيبية موجوده طبعا بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجه إيمانهم. وهذا الإمداد الإلهي هو الذي يعين الإنسان في أداء الطاعات و تحمل الصعاب، و يقيه من السقوط في الذنوب و الزلات. من هنا

ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قوله لحسان: «لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»

و قول بعض أئمه أهل البيت لشاعر قرأ أبياتا ملتزمه: «إنّما نفث روح القدس على لسانك».

٣- من المفسرين من قال إن روح القدس هو «الإنجيل» (١) و يبدو أن التفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.

٣- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد في قاموس الكتاب المقدس: «إن روح القدس هو الألقوم الثالث من الألقانيم الثلاثة الإلهية. و يقال له (الروح)، لأنه مبدع الحياه، و يسمى مقدسا لأن من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، و لما له من علاقه بالله و المسيح يسمى أيضا (روح الله) و (روح المسيح)».

و ورد أيضا في هذه القاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذي يؤنسنا فهو الذي يحثنا دوما إلى قبول و فهم الاستقامه و الإيمان و الطاعه، و يحيى الأشخاص الذين ماتوا في الذنوب و الخطايا، و يطهرهم و ينزههم و يجعلهم لائقين لتمجيد حضره واجب الوجود».

و كما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارات إلى معنيين لروح القدس: الأول، إن روح القدس أحد الأرباب الثلاثة، و هذه هي عقيدة التثليث، و هي عقيدة شرك بالله و مرفوضه، و الثاني يشبه التفسير الثاني المذكور أعلاه.

ص: ٢٩٢

كان اليهود فى المدينه يقفون بوجه الدعوه، و يمتنعون عن قبولها، و يتذرعون لذلك بمختلف الحجج، و الآيه التى نحن بصددھا تشير إلى واحده من ذرائعهم.

وَ قَالُوا: قُلُوبُنَا غُلْفٌ

و لا ينفذ إليها قول!! كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيد مقاتلهم، فكفرهم و نفاقهم أسدل على قلوبهم حجب من الظلمات و الذنوب، و ابتعدوا عن رحمه الله، فقليلًا ما يؤمنون .

و هذه مسأله تطرحها آيه اخرى من قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١).

ص: ٢٩٣

اشاره

وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِنَسِي مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَبِئْسَ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

سبب النزول

روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر (مكان هجره) محمد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما بين (جبلي) غير واحد، فخرجوا يطلبون الموضوع، فمروا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد و أحد سواء، ففتفروا عنده، فنزل بعضهم بتيماء و بعضهم بفدك و بعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمروا بهم أعرابي من قيس فتكادوا منه (أى استأجروا إبله) و قال لهم: أمر بكم ما بين غير و أحد، (فعلموا أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فأذنا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال:

ذلك غير، و هذا أحد، فنزلوا عن ظهر إبله، و قالوا: قد أصبنا بغيتنا فلا- حاجه بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت، و كتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك و خير أنا قد أصبنا الموضوع فهلّموا

إلينا، فكتبوا إليهم أنا قد استقرت بنا الدار و اتخذنا بها الأموال، و ما أقربنا منكم، فإن كان ذلك فما أسرعنا إليكم، و اتخذوا بأرض المدينة أموالا فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبعا فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصروهم ثم آمنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إننى قد استطبت بلادكم، و لا- أرانى إلا- مقيما فيكم. فقالوا له: ليس لك ذلك، إنها مهاجر نبي، و ليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فيانى مخلف فيكم من أسرتى من إذا كان ذلك ساعده و نصره، فخلف حين تراهم الأوس و الخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجكم من ديارنا و أموالنا، فلما بعث الله محمدا عليه السلام آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود، و هو قوله تعالى: ﴿وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا... إِلَى آخِرِ آيَةِ﴾. نعم، هذه الفئة التى كانت تبحث بولع شديد عن منطلق البعثة المحمديه، لتكون أول من تؤمن برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و كانت تفتخر أمام الأوس و الخزرج بأنها ستكون من خاصة صحابه النبى المبعوث، إذا هى تقف- بسبب لجاجها و عنادها - إلى جانب أعداء النبى، بينما التف حول الرسول من كان بعيدا عن هذه الأجواء.

التفسير

إشاره

كفروا بما دعوا الناس إليه

هذه الآيات تتحدث أيضا عن اليهود و موافقهم، هؤلاء- كما ورد فى أسباب النزول- هاجروا ليتخذوا من يثرب سكنا بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنها أرض الرسول المرتقب، و بقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النبى الذى بشرت به التوراه، كما كانوا ينتظرون الفتح و النصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبى، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول و عن رساله و لمَّا جاءهم كتابٌ من عند الله مُصِدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ... فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

و هكذا تستطيع الأهواء و المصالح الشخصيه أن تقف بوجه طالب الحقيقه، مهما كان الفرد عاشقا لهذه الحقيقه و تواقا للوصول إليها فيتركها و يعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضا أن تحوّل هذا الفرد إلى عدوّ لدود لهذه الحقيقه.

ما أشدّ خساره هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم و هاموا في الأرض بحثا عن علامات أرض الرساله، ثم ها هم خسروا كل شىء، و باعوا أنفسهم بأسوأ ثمن:

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ

لقد ضيعوا كل شىء و كأنهم أرادوا أن يكون النبي الموعود من بنى إسرائيل، و لهذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاء الله: أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

و لذلك شملهم غضب الله المتوالى: فَبَاؤُا بِغَضَبِ عَلِيٍّ غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

بحثان

اشاره

١- صفة خاسره

إنه لخسران عظيم أن تنهتيا للإنسان كل سبل الهدايه ثم يعرض عنها لأمر تافهه، و اليهود المعاصرون للنبي الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم هم من أولئك، توقرت لهم كل هذه السبل، بل تحركوا زمتا يتبعون مصدر هذه الهدايه، و عثروا بعد جهد على مبتغاهم حين حطوا رحالهم بين «الغير» و «أحد» انتظارا للنبي الموعود، ثم إذا هم يخسرون كل شىء، حين علموا أن هذا النبي المبعوث ليس من بنى إسرائيل، أو أنه لا يحقق مصالحهم الشخصيه.

ما أكبر الخساره حين يبيع الإنسان نفسه بهذا الشكل و يشتري بها غضب الله عزّ و جلّ! بينما ليس لوجود الإنسان ثمن إلا الجنّه كما

يقول أمير المؤمنين

على عليه السلام: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تتبعوها إلا بها» (١).

عبارة «اشترء النفس» أى بيعها توحى أن الاتجاه نحو طريق الضلال بيع للنفس، و كأن الكافر يبيع شخصيته الإنسانية، لأن الكفر يهدم قيمه الإنسان من الأساس، و بعبارة اخرى إنه يكون كالعبيد الذين باعوا أنفسهم فأمسوا اسرى بيد الآخرين... أجل إنهم أسرى الأهواء و عبيد الشيطان.

٢- غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بنى إسرائيل حين تاهوا فى صحراء سيناء بأنهم **وَبَاؤُاْ بِغَضَبِ اللَّهِ** بسبب كفرهم بآيات الله و قتلهم الأنبياء و فى سورة آل عمران الآية ١٢، ورد هذا المعنى أيضا و أن اليهود بسبب كفرهم بآيات الله و قتلهم الأنبياء باءوا بغضب من الله تعالى. و هذا هو الغضب الاول.

و هؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثه المحمديه ساروا على طريق أسلافهم فى الكفر بالرساله، و زادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرسول و تأمرهم على الدعوه و لذلك قال عنهم «فباء و بغضب على غضب».

و «باء» بمعنى رجعوا-و أقاموا فى المكان- و هنا تعنى استحقاقهم لعذاب الله. فكأنهم عادوا و هم محملون بهذا الغضب الإلهي، أو كأنهم اتخذوا موقفا يغضب الله.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النبي المنقذ، قبل دعوه موسى و قبل دعوه النبي الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم، و كان موقفهم من الرسولين الكريمين واحدا، هو النكول و الإعراض، و استحقوا غضب الله و سخطه مره بعد اخرى.

ص: ٢٩٧

اشاره

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصِدَقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

التفسير

اشاره

العصبيه القوميه لدى اليهود

يشير القرآن مره اخرى إلى عصبيه اليهود القوميه و يقول:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا وَرَاءَهُ

فهم لم يؤمنوا بالانجيل و لا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصريه و المصلحيه، فيجرون على رفض الدعوه التي جاءت تصديقا لما معهم فى التوراه

و يكشف القرآن زيف ادعائهم مره اخرى حين يقول لهم: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراه تبيح لهم قتل الأنبياء؟! و هذا الذى يقوله بنو إسرائيل: نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ينطلق من روح ذاتيه فرديه أو فئويه، و هى تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاء على كل المحاور الذاتيه فى حركه الإنسان و موافقه، و تكريس نشاطات الفرد حول محور العبوديه لله لا غير.

بعباره اخرى، لو كان الانصياع للأوامر الإلهيه متوقفا على نزولها عليهم، فهو الشرك لا الإيمان، و هو الكفر لا الإسلام، و مثل هذا الانصياع ليس بدليل على الإيمان قط.

و عبارة بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تحمل مفهوم نفى كل ذاتيه بشريه فى رساله، بما فى ذلك ذات النبى المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمّد و عيسى و موسى عليهم أفضل الصلاه و السلام، بل التأكيد على الإيمان بما أنزل الله تعالى.

و يعرض القرآن وثيقه اخرى لإدانه اليهود و لكشف زيف ادعائهم فيقول:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ

ما هذا الانحراف نحو عباده العجل بعد أن جاءكم البيئات إن كنتم فى إيمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقًا، فلم تبدل إيمانكم إلى كفر عند غياب موسى و ذهابه إلى جبل الطور، و بذلك ظلمتم أنفسكم و مجتمعكم و الأجيال المتعاقبه بعدكم؟! فى الآيه الثالثه يطرح القرآن وثيقه إدانه اخرى، فيشير إلى مسأله ميثاق جبل الطور و يقول: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

و ما كان عصيانهم إلا عن انغماس في حب الدنيا الذي تمثّل في حبّ عجل السامري الذهبي: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ وَ لَذَا نَسُوا اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ؟! كيف يجتمع الايمان بالله مع قتل أنبيائه و عباده العجل و نقض العهود و الموائيق الالهيه المؤكده؟! أجل قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١).

بحثان

١- عبارته قَالُوا: سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا ليست حكاية عمّا قالوه بألسنتهم، بل حسب الظاهر هي تعبير عن واقع عملي لهؤلاء القوم، و كنايه رائعه عن انحرافهم.

٢- عبارته وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ هي أيضا كنايه رائعه تعبّر عن وضع هذه الجماعه.

و الاشراب له معنيان كما ورد في المفردات: الإحكام كقولك «أشربت البعير» إذا شددت رقبته بالحبل. و كذلك الإرواء، و يكون المعنى على الوجهين أن حبّ العجل قد غمر قلوب بني إسرائيل و استحكم في أنفسهم.

و العبارة توحى أيضا ما يصدر عن هؤلاء القوم من انحراف، إنما هو ظاهره طبيعیه ناتجه عن تغلغل روح الشرك في قلوبهم. و القلوب التي أشربت الشرك لا يصدر عنها إلا القتل و الإنكار و الخيانه.

و تتبين أهميه الموضوع أكثر لو طالعنا مقدار ما أكدت عليه الديانه اليهوديه

ص: ٣٠٠

من تقييح لعملية القتل و نهى عنها فقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٧٨: «القتل العمدى و تقييحه كان على درجه من الأهميه لدى بنى إسرائيل، بحيث لا تبرأ ذمه القاتل له لولجا إلى الأماكن المقدسه، بل لا بدّ إنزال عقوبه القصاص به بأى حال من الأحوال».

هذا هو معنى قتل الإنسان فى نظر التوراه، فما بالك بقتل الأنبياء؟

ص: ٣٠١

اشاره

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدُّرُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَ لَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَ لَتَجِدَنَّهْم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُرَخَّرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

التفسير

اشاره

فئه مغروره:

يبدو من تاريخ اليهود-مضافا لما أخبر القرآن عنه- أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئه متميزه فى العنصر، و متفوقه على سائر الأجناس البشرى، و كانوا يعتقدون أن الجنه خلقت لهم لا لسواهم، و أن نار جهنم لن تمسهم، و أنهم أبناء الله و خاصته، و أنهم يحملون جميع الفضائل و المحاسن.

هذا الغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآيه (١٨) من سوره المائده تقول عن لسانهم: نَحْنُ أِبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَجْبَاؤُهُ. و فى الآيه ١١١ من سوره

البقره نرى ادعاء آخر لهم: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، وهكذا فى الآيه ٨٠ من سوره البقره: وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً .

هذه التصورات الموهومه كانت تدفعهم من جهه إلى الظلم و الجريمه و الطغيان، و تبعث فيهم -من جهه اخرى- الغرور و التكبر و الاستعلاء.

و القرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جوابا دامغا إذ يقول: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

ألا تحبون رحمه الله و جواره و نيل النعيم الخالد فى الجنان؟ ألا يحب الحبيب لقاء حبيبه؟! لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا و أن الجنة خالصه لنا دون سائر الناس:

أو أن النار لا تمسنا إلا أياما معدودات -إلى توهين إيمان المسلمين و تخدير عقائدهم.

لماذا تفرون من الموت، و كل ما فى الآخرة من نعيم هو لكم كما تدعون؟! لماذا هذا الالتصاق بالأرض و بالمصالح الذاتيه الفرديه، إن كنتم مؤمنين بالآخرة و بنعيمها حقا؟! بهذا الشكل فضح القرآن أكذوبه هؤلاء و بين زيف ادعائهم.

فى الآيه التاليه تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

هؤلاء يعلمون ما فى ملف أعمالهم من وثاق سوداء و من صحائف إدانه، و الله عليهم بكل ذلك، و لذلك فهم لا- يتمنون الموت، لأنه بدايه حياه يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآيه الأخيره تذكر انشداد هؤلاء بالأرض و حرصهم الشديد على المال و المتاع: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَ تَذَكَّرُ الْآيَةَ أَنْ حَرَصَهُمْ هَذَا يَفُوقُ حَرَصَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .

المشركون ينبغي أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال و المتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الادعاءات الفارغه، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

و بلغ شغفهم بالدنيا أنه يودُّ أحدَهُمْ لو يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفا من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذى يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، و لا يغيّر من مصيره شيئا و ما هو بمزخزجِه مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ إذ كل شيء محصى لدى الله، و لا يعزب عن عمله شيء و الله بصيرٌ بما يعملون .

بحوث

اشاره

١- المقصود من الأعوام الألف

فى قوله تعالى: يودُّ أَحَدُهُمْ لو يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ليس هذا العدد المعروف، بل يعنى العمر الطويل المديد، فهو ليس للعدد، بل للتكثير.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن العرب لم تكن تعرف آنذاك عددا أكبر من الألف، و لم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، و لذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة! (١).

٢- تنكير الحياه فى تعبير الآيه و لتجدد نهم أحرص الناس على حياهِ تفيده- كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين- الاستهانه و التحقير، أى إن هؤلاء حريصون حتى على أئفه حياه و أرخصها و أشقاها، و يفضلونها على الآخرة (٢).

ص: ٣٠٤

١-١) - المنار، ج ١، ص ٣٣١.

٢-٢) - الميزان، ج ١، ص ٢٣٠- المنار، ج ١، ص ٣٩٠.

٣- إفرازات العنصريه:

كان التعصّب العنصرى وراء كثير من الحروب و المآسى التى حدثت على الساحة البشرىه خلال جميع عصور التاريخ، و فى عصرنا الحديث كان التعصّب العرقى الألمانى عاملا فعالا فى إشعال لظى الحربين العالميتين الاولى و الثانىه.

و اليهود يحتلون دون شك مكان الصداره بين العنصريين المتعصبين على مرّ التاريخ، و ها هى دولتهم المسماه بإسرائيل أقيمت على أساس هذه العنصرىه المقيته، و ما يرتكبه هذا الكيان العنصرى الصهيونى من جرائم فظيحه إنما هو استمرار لجرائمه التاريخيه الناشئه عن عنصريته البغيضه.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتىّ تعاليم موسى، و يزيلوا عنصر الدعوه من دينهم، كى لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم.

و هذه النزعه الأنانيه هى التى جعلت هؤلاء القوم منبوذين ممقوتين من قبل كل شعوب العالم.

التعصّب العنصرى شعبه من الشرك، و لذلك حاربه الإسلام بشده، مؤكداً أن كل أبناء البشر من أب واحد و أمّ واحده، و لا تمايز إلا بالتقوى و العمل الصالح.

٤- عوامل الخوف من الموت:

أكثر الناس يخافون من الموت، و خوفهم هذا يعود إلى عاملين:

١- الخوف من الفناء و العدم، فالذين لا يؤمنون بالآخره لا يرون بعد هذه الحياه استمرار لحياتهم، و من الطبيعى أن يخاف الإنسان من الفناء، و هذا الخوف يلاحق هؤلاء حتىّ فى أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم فى أفواههم.

٢- الخوف من العقاب، و مثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخره، فيخافون أن يحين حينهم و هم مثقلون بالآثام و الأوزار، فينالوا جزاءهم، و لذلك يؤدّون أن تتأخر ساعه انتقالهم إلى العالم الآخر.

الأنبياء العظام أحيوا فى القلوب الإيمان باليوم الآخر، و بذلك أبعادوا شبح الفناء و الانعدام من الأذهان، و بينوا أن الموت انتقال إلى حياه أبدية خالده منعمه.

من جهه اخرى دعا الأنبياء إلى العمل الصالح، كى يبتعد الإنسان عن الخوف من العقاب، و لكى يزول عن القلوب و الأذهان كل خوف من الموت.

ص: ٣٠٦

اشاره

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

اسباب النزول

روى عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآيه، ما

روى أن ابن صوريا وجماعه من يهود أهل فديك، لما قدم النبي صلى الله عليه و اله و سلم المدينة، سألوه أسئلته، و كان رسول الله يجيبهم و هم يصدقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمّد كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النبي الذي يأتي فى أواخر الزمان، فقال: تنام عيناى و قلبى يقظان.

قالوا: صدقت يا محمّد... ثم قال له ابن صوريا: خصله واحده إن قلتها آمنت بك و اتبعتك: أى ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال و الشده و الحرب، و ميكائيل ينزل باليسر و الرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذى يأتيك لآمنا بك!! (١).

ص: ٣٠٧

قوم جادلون:

سبب نزول الآية الكريمة يبين طبيعه العناد و اللجاج و الجدل فى اليهود، ابتداء من زمان موسى عليه السلام و مرورا بعصر خاتم الأنبياء و حتى يومنا هذا يعرضون عن الحق بألوان الحجج الواهيه.

حجتهم فى هذا الموضوع المذكور فى الآية ثقل التكليف التى يأتى بها جبرائيل، و عداؤهم لهذا الملك، و رغبتهم فى أن يكون ميكائيل أمينا للوحي!! و كأن الملائكة هم مصدر الأحكام الإلهيه! و القرآن الكريم يصرح بأن الملائكة ينقادون أوامر الله و لا ينحرفون عن طاعته: لا يعصون الله ما أمرهم (١).

القرآن يجيب عن ذريعه هؤلاء: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ و ما جاء به جبرائيل يصدق ما نزل فى الكتب السماويه السابقه:

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

و هو إضافه إلى كل هذا: وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ .

فالجواب فى هذه الآية ينطوى على ثلاث شعب:

أولاً: إن جبريل لا يأتى بشيء من عنده، بل ما يأتى به هو بإذن الله .

ثانياً: ما جاء به جبريل تصدقه الكتب السماويه السابقه، لانطباقه على العلامات و الدلالات المذكوره فى تلك الكتب.

ثالثاً: محتوى ما جاء به جبرائيل يدل على أصالته و حقانيته.

الآيه التاليه تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيداً مقرونا بالتهديد و تقول: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٢) مشيره بذلك إلى أن موقف الإنسان من الله و ملائكته و رسله و من جبرائيل و ميكائيل، لا يقبل التفكيك، و أن الموقف المعادى من أحدهم هو معاداه للآخرين (٣).

ص: ٣٠٨

١-١) -التحریم، ٦.

٢-٢) -البقره، ٩٨.

٣-٣) -الميزان، فى تفسير الآيه المذكوره.

و بعبارة اخرى:الأوامر الإلهية الباعثة على تكامل الإنسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، وإن كان بين مهمات الملائكة اختلاف،فذلك يعود إلى تقسيم المسؤوليات لا إلى التناقض بين المهمات،و اتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء الله سبحانه.

جبريل و ميكال

ورد اسم جبريل ثلاث مرات،و اسم ميكال مره واحده فى القرآن الكريم (١).

و يستفاد من الآيات أَنَّهُما ملكان مقربان من ملائكة الله تعالى. قيل إن اسم جبرئيل عبرى يعنى «رجل الله» أو «قوه الله»(جبر:تعنى الرجل أو القوّه،و ئيل:

بمعنى الله).

هذه الآيات الكريمه تعرّف جبريل أنه رسول الوحي الإلهى إلى النبى،و منزل القرآن على قلبه،و لواسطه الوحي اسم آخر فى الآيه ١٠٢ من سوره النحل هو:

رُوحُ الْقُدُسِ أَمَّا الْآيَةُ ١٩١ من سوره الشعراء فتسميه الرُّوحُ الْأَمِينُ ، و يصرّح المفسرون أن المقصود من روح المقدس و الروح الأمين،هو جبرئيل.

و هناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعدده لدى نزوله على النبى،و كان فى المدينه ينزل على صورته(دحيه الكلبى)و هو رجل جميل الطلعه.

يستفاد من سوره النجم أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شاهد جبرائيل مرّتين على هيئته الأصليه (٢).

ذكرت المصادر الإسلاميه أسماء أربعه من الملائكة المقربين هم:جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل،و أعظمهم مرتبه جبرائيل.

و فى كتب اليهود ورد ذكر جبريل و ميكال،و من ذلك ما ورد فى كتاب دانيال

ص: ٣٠٩

١ - ١) -اسم «جبريل»ورد مرّتين فى هذه الآيات و مرّه فى سوره التحريم الآيه(٤)و اسم ميكال لم يرد إلا فى هذا الموضوع من القرآن.

٢ - ٢) -أعلام القرآن،ص ٢٧٧ و ٦٢٩.

حيث وصف جبرائيل بأنه الغالب لرئيس الشياطين، و وصف ميكائيل بأنه حامى قوم بنى إسرائيل (١).

ذكر بعض المحققين أن المصادر اليهوديه خاليه من الدلاله على خصومه جبرائيل لهؤلاء القوم، و هذا يؤيد أن ادعاءات اليهود بشأن موقفهم من جبرائيل، لم يكن إلا ذريعه للتنصل من الإسلام إذ لا يوجد فى مصادرهم الدينيه ما يشير إلى وجود مثل هذه العداوه بينهم و بين جبرئيل.

ص: ٣١٠

١-١) - أعلام القرآن، ص ٢٧٧ و ٢٢٩.

إشاره

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبِيذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

سبب النزول

قال ابن عباس: إن ابن سوريا- وهو من أحبار اليهود- قال لرسول الله صلى الله عليه و اله و سلم:

يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، و ما أنزل الله عليك من آية بينه فنتبعك لها، فأنزل الله هذه الآية (١)

التفسير

إشاره

الناكثون من اليهود

الآية الاولى تشير إلى الآيات و العلامات و الدلائل الكافية الواضحه التي

ص: ٣١١

توفرت لدى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتؤكد أن المعرضين عن هذه الآيات البيّنات أدركوا في الواقع حقّانيه الدعوه، لكنهم هبوا للمعارضه مدفوعين بأغراضهم الشخصيه: **وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ .**

التفكير في آيات القرآن ينير الطريق لكل طالب حق منصف، وبمطالعه هذه الآيات يمكن فهم صدق دعوه نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعظمه القرآن.

لكن هذه الحقيقه الواضحه لا يفهمها الذين انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نرى الفاسقين الملوّثين بالخطايا يعرضون عن الإيمان بالرساله.

ثم يتطرق القرآن إلى صفه مجموعه من اليهود، وهى صفه النكول و نقض العهود و الموائيق، و كأنها صفه تأريخيه تلازمهم على مرّ العصور **أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .**

لقد أخذ الله ميثاقهم في جانب الطور أن يعملوا بالتوراه لكنهم نقضوا الميثاق، و أخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنبي الخاتم المذكور عندهم في التوراه فلم يؤمنوا به.

يهود «بنى النضير» و «بنى قريضه» عقدوا الميثاق مع النبي لدى هجرته المباركه إلى المدينه أن لا يتواطؤوا مع أعدائه، لكنهم نقضوا العهد، و تعاونوا مع مشركى مكه في حرب الأحزاب ضد المسلمين.

و هذه الخصله في هذا الفريق من اليهود نجدها اليوم متجسده في الصهيونيه العالميه التى تضع كل الموائيق و القرارات و المعاهدات الدوليه تحت قدميها، متى ما تعرّضت مصالحها للخطر.

الآيه الأخيره تؤكد بصراحه أكثر على هذا الموضوع: **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .**

كان أحبار اليهود يبشرون الناس قبل البعثه النبويه بالرّسول الموعود

و يذكرون لهم علاماته و صفاته، فلَمَّا بعث نبي الإسلام، أعرضوا عمَّا جاء في كتابهم، و كأنهم لم يروا و لم يقرءوا ما ذكرته التوراه في هذا المجال.

هذه هي النتيجة الطبيعيه للأفراد الغارقين في ذاتياتهم، هؤلاء-حتى في دعوتهم إلى حقيقه من الحقائق-لا- يتجدون عن ذاتياتهم، فإن وصلوا إلى تلك الحقيقه و وجدوها تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها و نبذوها وراء ظهورهم.

بحوث

١- واضح أن تعبير «التزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الكريم لا- يعنى الانتقال المكاني من الأعلى إلى الأسفل و أن الله مثلا في السماء و أنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانه رب العالمين.

٢- كلمه «فاسق» من ماده «فسق» و تعنى خروج النّواه من الرطب، فقد تسقط الرطبه من النخله، و تنفصل عنها النّواه. و يقال عن هذا الانفصال في العريبه «فسقت النّواه»، ثم أطلقت الكلمه على كل انفصال عن خط طاعه الله، و عن طريق العبوديه.

فكما أن النّواه تفسق إذا نزع لباسها الحلو المفيد المغذى، كذلك الفاسق ينزع عنه بفسقه كل قيمه و شخصيته الإنسانيه.

٣- القرآن في حديثه عن اليهود لا- يوتّخ الجميع بسبب ذنوب الأ-كثريه، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنه المتقيه، و طريقه القرآن هذه في حديثه عن الأمم درس لنا كى لا نحيد في أحاديثنا و مواقفنا عن الحقّ و الحقيقه.

اشاره

وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانِ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا يَكْفُرُ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيْطَانِ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَكِينَ بِبَابِ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

التفسير

اشاره

سليمان و سحره بابل

يفهم من الأحاديث أن مجموعه من الناس مارست السحر في عصر النبي سليمان عليه السلام، فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم و كتاباتهم، و احتفظ بها في مكان خاص. (لعل الاحتفاظ بها يعود إلى إمكان الاستفادة منها في إبطال سحر

بعد وفاه سليمان عمدت جماعه إلى إخراج هذه الكتابات، و بدأوا بنشر السحر و تعليمه. و استغلت فته هذه الفرصه فأشاعت أن سليمان لم يكن نبيا أصلا، بل كان يسيطر على ملكه و يأتي بالأمور الخارقه للعاده عن طريق السحر! مجموعه من بنى إسرائيل سارت مع هذه الموجه و لجأت إلى السحر، و تركت التوراه.

عند ما ظهر النبي الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم، و جاءت آيات القرآن مؤيده لنبوه سليمان، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمّد يقول: سليمان نبي و هو ساحر! و جاءت الآيه ترد على مزاعم هؤلاء و تنفى هذه التهمه الكبرى عن سليمان عليه السلام (١).

الآيه الاولى إذن تكشف فضيحه اخرى من فضائح اليهود و هى اتهامهم لنبي الله بالسحر و الشعوذه، تقول الآيه عن هؤلاء القوم: **وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .**

و الضمير فى «و اتبعوا» قد يعود إلى المعاصرين للنبي، أو إلى أولئك اليهود المعاصرين لسليمان، أو لكلا الفريقين.

و المقصود بكلمه «الشياطين» قد يكون الطغاه من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآيه على نفى الكفر عن سليمان: **وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ .**

فلسليمان عليه السلام لم يلجأ إلى السحر، و لم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذه:

وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

هؤلاء اليهود لم يستغلوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساؤوا

الاستفاده أيضا من تعليمات هاروت و ماروت: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ لِهَارُوتَ وَمَارُوتَ (١).

هاروت و ماروت ملكان إلهيان جاءا إلى الناس في وقت راج السحر بينهم و ابتلوا بالسحره و المشعوذين، و كان هدفهما تعليم الناس سبل إبطال السحر، و كما إن إحباط مفعول القبله يحتاج إلى فهم لطريقه فعل القبله، كذلك كانت عمليه إحباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، و لكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط في الفتنه بعد تعلم السحر وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ .

و سقط أولئك اليهود في الفتنه، و توغلوا في انحرافهم، فزعموا أن قدره سليمان لم تكن من النبوه، بل من السحر و السحره. و هذا هو دأب المنحرفين دائما، يحاولون تبرير انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا في هذا الاختبار الإلهي، فأخذوا العلم من الملكين و استغلوه على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدره الله فوق قدرتهم و فوق قدره ما تعلموه: فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يُتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ .

لقد تهافتوا على اقتناء هذا المتاع الدنيوي و هم عالمون بأنه يصادر آخرتهم و لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢). لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المتاع الرخيص و لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

لقد أضعوا سعادتهم و سعادته مجتمعهم عن علم و وعى، و غرقوا في مستنقع الكفر و الانحراف و لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ص: ٣١٦

١-١) - بعض المفسرين عطفوا جمله «ما أنزل» على «ما تتلوا» و على هذا الأساس فسرنا الآية أعلاه، و بعضهم عطفوها على (السحر).

٢-٢) - الخلاق يعنى الخلق، و قد يعنى الحظّ و النصيب و هذا هو معنى الكلمه في الآية.

١- قصة هاروت و ماروت

كثير الحديث بين أصحاب القصص و الأساطير عن هذين الملكين، و اختلطت الخرافة بالحقيقة بشأنهما، حتى ما عاد بالإمكان استخلاص الحقائق مما كتب بشأن هذه الحادثة التاريخية، و يظهر أن أصح ما قيل بهذا الشأن و أقربه إلى الموازين العقلية و التاريخية و الأحاديث الشريفة هو ما يلي:

شاع السحر في أرض بابل و أدى إلى إخراج الناس و ازعاجهم، فبعث الله ملكين بصوره البشر، و أمرهما أن يعلما الناس طريقه إحياء مفعول السحر، ليتخلصوا من شر السحر.

كان الملكان مضطرين لتعليم الناس اصول السحر، باعتبارها مقدمه لتعليم طريقه إحياء السحر. و استغلت مجموعه هذه الأصول، فانخرط في زمرة الساحرين، و أصبحت مصدر أذى للناس.

الملكان حذرا الناس - حين التعليم - من الوقوع في الفتنة، و من السقوط في حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر في مجموعه منهم (١).

و هذا الذي ذكرناه ينسجم مع العقل و المنطق، و تؤيده أحاديث أئمة آل البيت عليهم السلام منها ما ورد في كتاب عيون أخبار الرضا (و قد أورده في أحد طرقه عن الإمام الرضا عليه السلام في طريق آخر عن الامام الحسن العسكري عليه السلام) (٢).

أمّا ما تتحدث عنه بعض كتب التاريخ و دوائر المعارف بهذا الشأن فمشوب بالخرافات و الأساطير، و بعيد كل البعد عما ذكره القرآن، من ذاك مثلا أن الملكين أرسلوا إلى الأرض ليثبت لهما سهوله سقوطهما في الذنب إن كانا مكان البشر، فنزلا و ارتكبا أنواع الآثام و الذنوب و الكبائر!! و النص القرآني بعيد عن هذه الأساطير

ص: ٣١٧

١-١) - مجمع البيان، في تفسير الآية المذكوره. الوسائل، ج ١٢، ص ١٠٦-١٠٧.

٢-٢) - نفس المصدر.

٢- لفظ هاروت و ماروت

زعم بعض المحققين أن «هاروت» و «ماروت» لفظان فارسيان قديمان.

و قال: إن كلمه «هوروت» تعنى «الخصب»، و «موروت» تعنى «عديم الموت» و اسما هاروت و ماروت مأخوذان، من هذين اللفظين (١).

و هذا الاتجاه فى فهم معنى الاسمين لا يقوم على دليل.

و فى كتاب «أوستا» وردت ألفاظ مثل: «هرودات» و يعنى «شهر خرداد»، و كذلك «أمردات» بمعنى عديم الموت، و هو نفسه اسم «شهر مرداد» (٢).

و فى معجم (دهخدا) تفسير للفظين شبيه بما سبق.

و العجيب أن البعض ذهب إلى أن هاروت و ماروت من البشر و من سكنه بابل!، و قيل أيضا أنّهما من الشياطين!! و الآيات المذكوره ترفض ذلك طبعاً.

٣- كيف يكون الملك معلماً للإنسان؟

يبقى السؤال عن الرابطة بين الملك و الإنسان، و هل يمكن أن تكون بينهما رابطة تعليميه؟ الآيات المذكوره تصرح بأن هاروت و ماروت علما الناس السحر، و هذا تمّ طبعاً من أجل إحياء سحر السحره فى ذلك المجتمع. فهل يمكن للملك أن يكون معلماً للإنسان؟ الأحاديث الوارده بشأن الملكين تجيب على هذا السؤال، و تقول: إن الله بعثهما على شكل البشر، و هذه الحقيقه يمكن فهمها من الآيه التاسعه لسوره الأنعام أيضاً، حيث يقول تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا**.

ص: ٣١٨

١-١) - أعلام القرآن، ص ٦٥٥.

٢-٢) - نفس المصدر.

٤- لا قدره لأحد على عمل دون إذن الله

نفهم من قول الله في هذه الآيات أن السحر ما كانوا قادرين على إنزال الضّر بأحد دون إذن الله سبحانه، وليس في الأمر «جبر» ولا إرغام، بل إن هذا المعنى يشير إلى مبدأ أساس في التوحيد، وهو إن كلّ القوى في هذا الكون تنطلق من قدره الله تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق بإذن الله، والسكين إذ تقطع إنما تقطع بأمر الله. لا يمكن للساحر أن يتدخل في عالم الخليفة خلافا لإرادة الله.

كلّ ما نراه من آثار وخواص إنما هي آثار وخواص جعلها الله سبحانه للموجودات المختلفه، و من هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهبة الإلهيه و منهم من يسيء الاستفادة منها. و«الإختيار» الذي منحه الله للإنسان إنما هو وسيله لاختباره و تكامله.

٥- السحر و تأريخه:

إشارة

الحديث عن السحر و تاريخه طويل، و نكتفى هنا بالقول إن جذوره ضاربه في أعماق التاريخ، و لكن بداياته و تطوراته التاريخيه يلفّها الغموض و لا يمكن تشخيص أول من استعمل السحر.

و بشأن معناه يمكن القول: إنه نوع من الأعمال الخارقه للعادة، تؤثر في وجود الإنسان، و هو أحيانا نوع من المهاره و الخفه في الحركة و إيهاّم للأنظار، كما إنه أحيانا ذو طابع نفسى خيالى.

و السحر في اللغة له معنيان:

١- الخداع و الشعوذه و الحركة الماهره.

٢- كل ما لطف و دقّ.

و الراغب ذكر للفظ السحر ثلاثه معان قرآنيه:

الأول: الخداع و تخييلات لا حقيقه لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار

عما يفعله لخفه يده، و ما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع.

الثاني: استجلاب معاونه الشيطان بضرب من التقرب إليه.

الثالث: هو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغيّر الصور و الطبائع فيجعل الإنسان حماراً، و لا حقيقه لذلك (١).

نستنتج من دراسته ٥١ موضعاً من مواضع ذكر كلمه «سحر» في القرآن الكريم أن السحر ينقسم في رأى القرآن الكريم على قسمين:

١- الخداع و الشعبذه و خفه اليد و ليس له حقيقه كما جاء في قوله تعالى:

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى

(٢)

و قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَزْهَبُوهُمْ (٣) و يستفاد من هذه الآيات أن السحر ليس له حقيقه موضوعيه حتى يمكنه التأثير في الأشياء، بل هو خفه حركه اليد و نوع من خداع البصر فيظهر ما هو خلاف الواقع.

٢- يستفاد من آيات اخرى أن للسحر أثراً واقعياً، كقوله سبحانه:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ

و قوله: وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ كما مرّ في الآيات التي نحن بصدددها.

و هل إن للسحر تأثيراً نفسياً فقط، أم يتعدى ذلك إلى الجسم أيضاً؟ لم تشر الآيات أعلاه إلى ذلك، و يعتقد بعض الناس أن هذا التأثير نفسى لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تمارس عن طريق الاستفاده من خواص المواد الكيمياويه و الفيزياويه لخداع الناس. فيحدثنا التاريخ أن سحره فرعون وضعوا داخل حبالهم و عصيهم ماده كيمياويه خاصّه (و لعلها الزئبق)، كانت تتحرك بتأثير حراره الشمس أو أيه حراره اخرى، و توحى للمشاهد أنها حيّه. و هذا اللون من السحر ليس بقليل في عصرنا الزاهن.

ص: ٣٢٠

١-١) - مفردات الراغب، ماده سحر.

٢-٢) - طه، ٦٦.

٣-٣) - الأعراف، ١١٦.

السحر في رأى الإسلام

أجمعت الفقهاء على حرمة تعلم السحر و ممارسته، و

جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «من تعلم من السحر قليلا أو كثيرا فقد كفر و كان آخر عهده برّبه» (١).

و لكن - كما ذكرناه يجوز تعلم السحر لإبطال سحر السحرة، بل يرتفع الجواز أحيانا إلى حد الوجوب الكفائي، لإحباط كيد الكائدين و الحيلولة دون نزول الأذى بالناس من قبل المحتالين. دليلنا على ذلك حديث

روى عن الإمام أبي عبد الله جعفر محمد الصادق عليه السلام:

«كان عيسى بن شقفي ساحرا يأتيه الناس و يأخذ على ذلك الأجر فقال له جعلت فداك أنا رجل كانت صناعتى السحر و كنت آخذ عليه الأجر و كان معاشى و قد حججت منه و منّ الله عليّ بلقائك و قد تبت إلى الله عزّ و جلّ فهل لى فى شىء من ذلك مخرج فقال له أبو عبد الله حلّ و لا تعقد» (٢).

و يستفاد من هذا الحديث أن تعلم السحر و العمل به من أجل فتح و حلّ عقد السحر لا إشكال فيه.

السحر في رأى التوراه

أعمال السحر و الشّعبيه فى كتب العهد القديم (التوراه و ملحقاتها) هى أيضا ذميمه غير جائزه. فالتوراه تقول: «لا تلتفتوا إلى الجان و لا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم و أنا الربّ إلهكم» (٣).

و جاء فى موضع آخر من التوراه: «و النفس التى تلتفت إلى الجان و إلى

ص: ٣٢١

١-١) - وسائل الشيعه، الباب ٢٥، من أبواب ما يكتسب به، حديث ٧.

٢-٢) - وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ١٠٥، ح ٥.

٣-٣) - الكتاب المقدس سفر لاويين الإصحاح، ١٩ الرقم ٣١.

التوايح لترنى ورائهم اجعل وجهى ضد تلك النفس و اقطعها من شعبها» (١).

و يقول قاموس الكتاب المقدس: «واضح أن السحر لم يكن له وجود فى شريعه موسى، بل إن الشريعه شددت كثيرا على أولئك الذين كانوا يستمدون من السحر».

و من الطريف أن قاموس الكتاب المقدس الذى يؤكد على أن السحر مذموم فى شريعه موسى، يصرح بأن اليهود تعلموا السحر و عملوا به خلافا لتعاليم التوراه فيقول: «...و لكن مع ذلك تسرّبت هذه الماده الفاسده بين اليهود، فأمن بها قوم، و لجأوا إليه فى وقت الحاجه» (٢).

و لذلك ذمهم القرآن، و أدانهم لجشعهم و طمعهم و تهافتهم على متاع الحياه الدنيا.

السحر فى عصرنا

توجد فى عصرنا مجموعه من العلوم كان السحره فى العصور السالفه يستغلونها للوصول إلى مآربهم.

١- الاستفاده من الخواص الفيزيائويه و الكيمياءويه للأجسام، كما ورد فى قصّه سحره فرعون و استفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحريك الحبال و العصى.

واضح أن الاستفاده من الخصائص الكيمياءويه و الفيزيائويه للأجسام ليس بالعمل الحرام، بل لا بدّ من الاطلاع على هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبيعه، لكن المحرم هو استغلال هذه الخواص المجهوله عند عامه الناس لإيهام الآخرين و خداعهم و تضليلهم، مثل هذا العمل من مصاديق السحر، (تأمل بدقه).

ص: ٣٢٢

١- ١) - الكتاب المقدس سفر لاويين الإصحاح ٢٠ الرقم ٦.

٢- ٢) - قاموس الكتاب المقدس، تأليف المستر هاكس الأمريكى، ص ٤٧١.

٢- الاستفادة من التنويم المغناطيسى، و الهينوتيزم، و المانيهتيزم، و التله باتى (انتقال الأفكار من المسافات البعيده).

هذه العلوم هى أيضا إيجابيه يمكن الاستفادة منها بشكل صحيح فى كثير من شؤون الحياه. لكن السحره كانوا يستغلونها للخداع و التضليل.

و لو استخدمت هذه العلوم اليوم أيضا على هذا الطريق المنحرف فهى من «السحر» المحرّم.

بعبارة موجزه: إن السحر له معنى واسع يشمل كل ما ذكرناه هنا و ما أشرنا إليه سابقا.

و من الثابت كذلك أن قوة الإراده فى الإنسان تنطوى على طاقات عظيمه.

و تزداد هذه الطاقات بالرياضات النفسيه، و يصل بها الأمر أنها نستطيع أن تؤثر على الموجودات المحيطه بها، و هذا مشهود فى قدره المرتاضين على القيام بأعمال خارقه للعادة نتيجة رياضاتهم النفسيه.

جدير بالذكر أن هذه الرياضات تكون مشروعه تاره، و غير مشروعه تاره اخرى. الرياضات المشروعه تخلق فى النفوس الطاهره
قوه إيجابيه بناءه، و الرياضات غير المشروعه تخلق قوه شيطانيه، و قد تكون كلا- القوتين قادرتين على القيام بأعمال خارقه
للعادة، لكن الاولى إيجابيه بناءه، و الاخرى مخربه هدامه.

ص: ٣٢٣

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

سبب النزول

روى عن ابن عباس أنه قال: إن الصحابه كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم لدى تلاوته الآيات و بيانه الأحكام الإلهيه أن يتمهل فى حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، و حتى يعرضوا عليه أسئلتهم، و كانوا يستعملون لذلك عباره: «راعنا» أى أمهلنا. و اليهود حوروا معنى هذه الكلمه لتكون من «الرعونه» فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعاء، و اتخذوا ذلك وسيله للسخرية من النبى و المسلمين.

الآيه تطلب من المسلمين أن يقولوا «انظرننا» بدلا من «راعنا» لسد الطريق أمام طعن الأعداء.

و قال بعض المفسرين: إن عباره «راعنا» فى كلام اليهود سبه تعنى «اسمع و لما تسمع»، و كانوا يرددون هذه عباره مستهزئين!

و قيل إن اليهود كانوا يقولون بدلا من راعنا «راعينا» (راعى+نا)

و يخاطبون بذلك النبي ساخرين (١). و ليس بين هذه العلل المذكوره لنزول الآيه الكريمه تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحه.

التفسير

اشاره

لا توفروا للأعداء فرصه الطعن:

الآيه الكريمه تخاطب المسلمين قائله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

مما سبق من سبب نزول هذه الآيه الكريمه نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصه الطعن بهم، و أن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعه يسيئون بها إلى الجماعه المسلمه. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عباره يستغلها العدو لصالحه.

الآيه تصرّح بالنهي عن قول عباره تمكن الأعداء أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، و تأمرهم باستعمال كلمه اخرى غير تلك الكلمه القابله للتحريف و لطن الأعداء.

حين يشدّد الإسلام إلى هذا الحد في هذه المسأله البسيطه، فإن تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالميه أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، و أن لا يفتحوا ثغره ينفذ منها المفسدون الداخليون و الأجانب للإساءه إلى سمعه الإسلام و المسلمين.

جدير بالذكر أن عباره راعنا-إضافه إلى ما فيها من معنى آخر استغله اليهود-فيها نوع من سوء الأدب، لأنها من باب المفاعله، و باب المفاعله يفيد المبادله و الاشتراك، و هي لذلك تعنى: راعنا لنراعيك، و قد نهى القرآن عن ترديدها (٢).

ص: ٣٢٥

١-١) -تفسير القرطبي، و تفسير المنار و تفسير الفخر الرازي، ذيل الآيه المذكوره.

٢-٢) -تفسير الفخر الرازي، و المنار، ذيل الآيه المذكوره.

الآية التالية تكشف عن حقيقته ما يكفنه مجموعه من أهل الكتاب و المشركين من حقد و عدااء للجماعه المؤمنه: **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ**، و سواء و د هؤلاء أم لم يودوا فرحمه الله لها سنه إلهيه و لا تخضع للميول و الأهواء: **وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**.

الحاقدون لم يطبقوا أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل و نعمه، و ما من عليهم من رساله عظيمه، و لكن فضل الله عظيم.

بحث

مغزى قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ** موضعا خاطب الله المسلمين فى كتابه الكريم بهذه العبارة، و كل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت فى المدينة، و لا-وجود لهذه العبارة فى الآيات المكيه، و لعل ذلك يعود إلى تشكل الجماعه المسلمه فى المدينة، و إلى ظهور المجتمع الإسلامى بعد الهجره. و لذلك خاطب الله الجماعه المؤمنه بعبارة **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**.

و هذا الخطاب يتضمن إشاره إلى ميثاق التسليم الذى عقدته الجماعه المسلمه مع ربها بعد الإيمان به، و هذا الميثاق يفرض على الجماعه الطاعه و الانصياع لأوامر رب العالمين، و الاستجابه لما يأتى بعد هذه العبارة من أحكام.

جدير بالذكر أن كثيرا من المصادر الإسلاميه بما فى ذلك مصادر أهل السنه،

روت عن الرسول صلى الله عليه و اله و سلم قوله: «ما أنزل الله آيه فيها يا أيها الذين آمنوا إلا و على رأسها و أميرها» (1).

ص: ٣٢٦

(١-١) - الدر المنثور، نقلا عن أبى نعيم فى «حليه الأولياء» عن ابن عباس.

اشاره

مَنْ نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

التفسير

اشاره

الغرض من النسخ

الآيه الاولى تشير أيضا إلى بعد آخر من أبعاد حملته التشكيك اليهوديه ضد المسلمين .

كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحيانا قائلين لهم إن الدين دين اليهود و أن القبلة قبله اليهود، و لذلك فإن نبيكم يصلى تجاه قبلتنا(بيت المقدس)، و حينما نزلت الآيه ١٤٤ من هذه السوره و تغيرت بذلك جهه القبلة، من بيت المقدس إلى مكه، غير اليهود طريقه تشكيكهم، و قالوا: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحه، فلم هذا التغيير؟ و إذا كانت القبلة الثانيه هى الصحيحه، فكل أعمالكم السابقه -إذن -باطله.

القرآن الكريم فى هذه الآيه يردّ على هذه المزاعم و ينير قلوب المؤمنين (١).

و يقول: مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْ مِنْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا... و ليس مثل هذا التغيير على الله بعسير أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟! الآيه التاليه تؤكد مفهوم قدره الله سبحانه و تعالى و حاكميته فى السماوات و الأرض و فى الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، و فى هذه العبارة من الآيه أيضا تثبيت لقلوب المؤمنين، كى لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، و تستمر الآيه فى تعميق هذا التثبيت، مؤكداً أن المجموعه المؤمنه ينبغى أن تعتمد على الله وحده، و تستند إلى قوته و قدرته دون سواه، فليس فى هذا الكون سند حقيقى سوى الله سبحانه: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ .

بحوث

اشاره

١- هل يجوز النسخ فى الأحكام؟

النسخ فى اللغه الإزاله، و فى الاصطلاح تغيير حكم شرعى و إحلال حكم آخر محله، من ذلك:

١- المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، و استمروا على ذلك ستة عشر شهرا، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبه.

٢- الآيه ١٥ من سوره النساء قررت معاقبه الزانيه بعد شهاده أربعة شهود يامساکها فى البيت حتى الوفاء، أو يجعل الله لها سيلا، و الآيه الثانيه من سوره

ص: ٣٢٨

(١- ١) - يحتمل أيضا أن تشير الآيه إلى نسخ أحكام إسلاميه اخرى، كما ذكر الفخر الرازى فى تفسيره، و سيد قطب فى ظلاله.

النور نسخت الآيه المذكوره و بدلت الحكم بمائه جلده.

و هنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان فى الحكم مصلحه فلما ذا نسخ؟ و إن لم يكن كذلك فلما ذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعه منذ البدايه حكما غير قابل للنسخ؟ علماء الإسلام أجابوا منذ القديم على هذا السؤال، و تقرير هذا الجواب باختصار كما يلى:

نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا- تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطره الإنسان و طبيعته، و بعضها الآخر تتغير بتغير الزمان و ظروف البيئه، و هذه المتغيرات قد تضمن سعادته الإنسان فى زمن معين، لكنها تصبح عقبه أمام تقدم الفرد فى زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعا للمريض فى ظرف زمنى معين، و قد لا يكون نافعا- بل ضارا- فى مرحله نقاهه المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء فى وقت، ثم يأمر بقطعه و الامتناع عن تناوله فى وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيدا للطالب فى مرحله دراسيه معينه، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة فى المراحل الدراسيه التاليه. المنهج التعليمى الصحيح ينبغى أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجه الطالب فى كل مرحله من مراحلته الدراسيه.

هذه المسأله تتضح أكثر فى إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان و المجتمع الإنسانى، هذا القانون لا بد أن يتضمن متغيرات كى يكون المنهج التكاملى مفيدا لكل مراحل مسيره المجتمع. و تزداد أهميه هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الاجتماعيه و العقائديه، و تزداد ضروره مواكبه متطلبات التغيير فى كل مرحله من مراحل الثوره.

لا بد من التأكيد أن اصول الأحكام الإلهيه ثابتة لا يعترىها التغيير، فالتوحيد

و العدالة الاجتماعيه و سائر الأصول و المبادئ المشابهه ثابتة لا تتغير، و إنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعيه و الثانويه.

و من الضروري أن نؤكد أيضا أن تكامل الدين قد يبلغ مرحله يصبح فيها (الدين الخاتم)، و تصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسأله خاتميته الرساله في تفسير الآيه ٤٠ من سوره الأحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبله الاولي، أقروا النسخ في الأحكام الإلهيه، و استنادا إلى ما جاء في مصادرهم الدينيه.

تذكر التوراه أن كل الحيوانات كانت حلالا لنوح عليه السلام حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نسخ في شريعته موسى، و حرّم قسم من الحيوانات (١).

٢- المقصود من الآيه

الآيه في اللغة العلامه، و في القرآن لها معان متعدده:

١- مقاطع من القرآن، مفصوله عن بعضها بعلائم خاصه، و هذا المعنى للآيه نجده في قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ (٢).

٢- المعجزه سميت في القرآن آيه كقوله سبحانه: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٣).

٣- الدليل على وجود الله أو المعاد كقوله: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَتَيْنِ (٤) و قوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْمَارِضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥).

٤- الأشياء البارزه الملفتة للأنظار كالأبنيه الشاهقه، كما في قوله تعالى:

ص: ٣٣٠

١- ١) - سفر التكوين، الفصل ٩، الفقره ٣.

٢- ٢) - البقره، ٢٥٢.

٣- ٣) - طه، ٢٢.

٤- ٤) - الإسراء، ١٢.

٥- ٥) - فصلت، ٣٩.

و المعنى المشترك بين كل هذه المعاني هو «العلامة».

و قوله سبحانه: **مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ...** يشير إلى نسخ الأحكام، فالحكم النَّاسخ خير من المنسوخ أو مثله، أو إنه يشير إلى نسخ معجزه الأنبياء، فيكون المعنى أن معجزه النبي التالي أفصح و أوضح من معجزه النبي السابق.

ثمَّ روايات في تفسير هذه الآية ذكرت أن المقصود من نسخ الآية هو وفاة الإمام و مجيء الإمام التالي بعده، و هذا طبعاً بيان مصداق من مصاديق الآية، لا تحديداً لمفهومها.

٣- تفسير عبارته «نسخها»

جملة «نسخها» في الآية معطوفة على جملة «نسخ» و هي من مادة «أنساء» بمعنى التأخير أو الحذف من الأذهان (٢).

فما هو معنى هذه العبارة في الآية الكريمة؟ المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آية أو تؤخر نسخها استناداً إلى مصالح معينة... نأت بخير منها أو مثلها....

فعبارة «نسخ» تشير إلى النسخ على المدى القصير، و عبارة «نسخها» النسخ على المدى البعيد، (لا حظ بدقته).

ثمَّ احتمالات أخرى ذكرت في هذا المجال لا تبلغ أهميتها ما ذكرناه.

٤- تفسير «أَوْ مِثْلَهَا»

سؤال آخر يطرح في هذا المجال بشأن عبارة «أو مثلها» فلو كان الحكم

ص: ٣٣١

الناسخ مثل الحكم المنسوخ فلا فائده من هذا التغيير،النسخ تظهر فائدته حين يكون الناسخ خيرا من المنسوخ.

و الجواب على ذلك هو أن الآيه الناسخه لها آثار في زمانها كتلك الآثار التي كانت الآيه المنسوخه في زمانها.

بعبارة أوضح:قد يكون لحكم اليوم فوائد معينه،لكن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحكم غدا،و لا بدّ أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر تكون له في زمن لاحق -على الأقل- نفس الفوائد التي كانت للمنسوخ في زمن سابق.

ص: ٣٣٢

اشاره

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

سبب النزول

تعددت الآراء فى كتب التفسير حول سبب نزول هذه الآيه الشريفه، إلا أنها متقاربه فى المضمون و النتيجة.

فقد نقل عن ابن عباس أنه: جاء وهب بن زيد، و رافع بن حرملة إلى رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم و قالوا: إئت لنا بكتاب من الله مرسل إلينا نقرأه لكى نؤمن بك، أو أجز الأنهار لنا حتى نتبعك! و قال بعض آخر إن جماعه من الاعراب جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم و طلبوا منه ما طلب بنو إسرائيل من موسى، فقالوا: أرنا الله جهره.

و قال آخرون: إنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم أن يجعل لهم صنما من شجره خاصه (ذات أنواط) ليعبدوه كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. و الآيه أعلاه نزلت جواباً لهؤلاء.

هذا الآيه الكريمة، وإن كانت تخاطب مجموعه من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلا أنها ترتبط أيضا بمواقف اليهود.

لعل هذا السؤال وجه إلى الرسول بعد تغيير القبلة، وبعد حملات التشكيك التي شنها اليهود بين المسلمين و غير المسلمين، والله سبحانه في هذه الآيه الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفه أم تُريدون أن تَشْتَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؟! مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان و اتجاه نحو الكفر، ولذلك قالت الآيه:

وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

الإسلام طبعاً لا يمنع طرح الأسئلة العلميه و المنطقيه، ولا يحول دون طلب المعجزه من أجل اثبات صحه الدعوه، لأن مثل هذه الأسئلة و الطلبات هي طريق الإدراك و الفهم و الإيمان. و هذه الآيه الكريمة تشير إلى أولئك الذين يتذرعون بمختلف الحجج الواهيه كي يتخلصوا من حمل أعباء الرساله.

هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرسول معاجز كافيه لإيمانهم بالدعوه و صاحبها، لكنهم يتقدمون إلى النبي بطلب معاجز اقتراحيه اخرى! المعجزه ليست العوبه بيد هذا و ذاك كى تحدث وفق الميول و الاقتراحات و المشتبهات، بل إنها ضروره لازمه للاطمئنان من صدق أقوال النبي صلى الله عليه و اله و سلم، و ليست مهمه النبي صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزه.

ثم هناك من الأسئلة ما هو بعيد عن العقل و المنطق، كرؤيه الله جهره، و كطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الكريم ينبه في هذه الآيه بأن المجموعه البشريه التي لا تسلك طريق العقل و المنطق في اسئلتها و مطالباتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

اشاره

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا
حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

التفسير

اشاره

حسد و عناد

كثير من أهل الكتاب و خاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودون أن يرتد المسلمون عن دينهم، و لم يكن ذلك إلا عن حسد يستعر في أنفسهم، تقول الآية: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ .

و أمام هذه المواقف الدينيه و النظرات الضيقه و الآمال التافهه و النوايا الخبيثه التي تحملها الفئه الكافره، يحدد الإسلام موقف الجماعه المسلمه، على أساس من رحابه الصدر وسعه الأفق و بعد النظره

فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذا الإيمر الإلهي نزل حيث كان المسلمون بحاجة إلى بناء المجتمع الإسلامي. وفي تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا إلى سلاح العفو و الصفح حتى يأتي الله بأمره.

كثير من المفسرين قالوا إن «أمر الله» في هذه الآية يعني «أمر الجهاد»، و لعل الجماعة المسلمه لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة داميه حين نزلت هذه الآية، و لذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

و لعل التعبير بالنسخ في هذا الموضوع ليس بصحيح، لأن الآية تحمل في عبارتها الإطار الذي يحدّها بفترة زمنية محدوده.

الآيه التاليه تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاه باعتبارها رمز ارتباط الإنسان بالله، و إيتاء الزكاه و هي أيضا رمز التكافل بين أبناء الامه المسلمه، و كلاهما ضروريان لتحقيق الإنتصار على العدو: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ .

ثم تؤكد الآية على خلود العمل الصالح و بقاءه: وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ . و الله سبحانه عالم بالسرائر، و يعلم دوافع الأعمال، و لا يضيع عنده أجر العاملين إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

بحوث

١- «اصفحوا» من «صفح»، و صفح الشيء عرضه و جانبه كصفحه الوجه و صفحه السيف و صفحه الحجر، و الأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكنّ عطفها على «فاعفوا» يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفاء، بل عن عفو و سماح.

و هذا التعبير يوحي أيضا أن المسلمين كانت لهم قدره المقابله و عدم الصفح،

لكن الأمر بالعفو و الصفح يستهدف إتمام الحُجّه على العدو، كى يهتدى من هو قابل للإصلاح. بعبارة اخرى: ممارسه القوّه ليست المرحلة الاولى فى مواجهه العدو، بل العفو و الصفح، فإن لم يجد نفعا فالسيف.

٢- عبارة إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قد تشير إلى أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، و لكن طبيعه حياه البشر و الكون قائمه على أن الأعمال لا تتم إلا بالتدرّيج و بعد توفّر المقدمات.

٣- عبارة حَسِيداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قد تكون إشاره إلى توغل هؤلاء الحسدّه فى ذاتياتهم، فالحسد قد يتخذ أحيانا طابع الدين و الرساله، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى هذا الظاهر، بل كان ضيقا شخصيا (١).

و يحتمل أيضا أن تكون إشاره إلى أن الحسد متجذّر فى نفوسهم.

ص: ٣٣٧

اشاره

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

التفسير

احتكار الجنة! القرآن في هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغه لمجموعه من اليهود و النصارى، وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى (١)، ثم يجيبهم جوابا رادعا قائلا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ثم تخاطب الآيه رسول الله و تقول: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمه له، و أنه مجرد أمنيته تخامر

ص: ٣٣٨

١- ١) -واضح أن المقصود من «قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنة خاصه بهم، و ادعاء النصارى من جهة اخرى بأن الجنة حكر عليهم.

أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنة على شكل قانون عام بليّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
و من هنا فالمشمولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

بعبارة موجزة: الجنة و مرضاه الله و السعادة الخالده ليست حكرا على طائفة معينه، بل هي نصيب كل من يتوفر فيه شرطان:

الأول: التسليم التام لله تعالى، أو الانصياع لأوامره سبحانه، و عدم التفريق بين هذه الأوامر، أى عدم ترك ذلك القسم من الأوامر
الذى لا ينسجم مع المصالح الفرديه الذاتيه.

الثانى: و هو ما يترتب على التسليم فى المرحله الاولى، من القيام بالأعمال الصالحه و الإحسان فى جميع المجالات.

و القرآن، بطرحه هذه الحقيقه، يرفض بشكل تام مسأله التعصب العنصرى و يكسر طوق احتكار فئه معينه للسعاده، و يضع ضمينا
معيار الفوز متمثلا بالإيمان، و العمل الصالح.

بحوث

١- «الأمانى» جمع «أمنيه» و هى الرجاء الذى لا يتحقق للإنسان.

و الآيه تطرح أمنيه واحده من أمنيات أهل الكتاب، و لكن هذه الأمنيه- أى أمنيه احتكار الجنة- هى مصدر أمان اخرى، و بعبارة
اخرى: أمنيتهم لها فروع و امتدادات، و لذلك عبر عنها القرآن بلفظ (أمانى).

٢- نسبت الآيه الكريمة التسليم إلى (الوجه): بليّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ... ، و ذلك يعود إلى أن الإنسان حين يستسلم لشيء، فأوضح
مظهر لهذا الاستسلام هو أن يولى وجهه تجاه ذلك الشيء. و من المتحمل أيضا أن «الوجه» يعنى فى الآيه

الذات، و يكون المعنى أن هؤلاء أسلموا بكل وجودهم لأوامر الله.

٣- الآيتان المذكورتان تعلمان المسلمین عدم الانجراف وراء الادعاءات الباطله غير القائمه على دليل، و تعلمهم أن يطلبوا الدليل و البرهان من صاحب الادعاء، و بذلك يسدّ القرآن الطريق أمام الانجراف الأعمى وراء التقليد، و يجعل التفكير المنطقی سائداً فى المجتمع.

٤- ذكر عبارته وَ هُوَ مُحْسِنٌ بعد طرح مسأله التسليم، إشاره إلى أن الإحسان بالمعنى الواسع للكلمه لا يتحقق إلا برسوخ الإيمان فى النفوس. كما تفهم عبارته أن صفه الإحسان ليست طارئة فى نفوس المؤمنین، بل هى خصله نافذه فى أعماق هؤلاء.

و نفى الخوف و الحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيويه التافهه، بل يخشون أموراً خرافيه موهومه تقلقهم و تقض مضاجعهم.

ص : ٣٤٠

اشاره

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

سبب النزول

قال ابن عباس أنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم آتتهم أحوار اليهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء، و جحد بنبؤه عيسى و كفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شيء، و جحد بنبؤه موسى و كفر بالتوراه، فأنزل الله هذه الآية. (١)

التفسير

اشاره

تعصّب و تناقض

فيما مرّ بنا من آيات رأينا جانبا من الادعاءات الفارغه التي أطلقها جمع من

ص: ٣٤١

(١-١) - تفسير مجمع البيان، و تفسير القرطبي، و تفسير المنار في تفسير الآية المذكوره.

اليهود و النصارى، و رأينا أن هذه الادعاءات الفارغه تستتبعها روح احتكاريه ضيقه، ثم وقوع فى التناقضات.

تقول الآيه: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ .

عبارة «ليست على شىء» تعنى أن أفراد هذا الدين لا مكانه لهم و لا منزله لدى الله سبحانه، أو تعنى أن هذا الدين لا وزن له و لا قيمه.

ثم تضيف الآيه: وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ .

أى إن هؤلاء لديهم الكتاب الذى يستطيع أن يبين لهم الطريق فى هذه المسائل، و مع ذلك ينطلقون فى أحكامهم من التعصب و اللجاج و العناد!! ثم تقول الآيه: كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

و هذه الآيه الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعه من أهل الكتاب المتعصبين شبيهه بأقوال الجهله من الوثنيين. بعبارة اخرى: هذه الآيه تقرر أن المصدر الأساس للتعصب هو الجهل و البعد عن العلم، لأن الجاهل مطوق بمحيطة المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره و إن كان خرافيا، و يرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآيه بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت فى هذه الدنيا، فهى لا تخفى فى الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

و هذه الآيه فيها أيضا تثبيت للقلوب و طمأنه للنفس، فهى تؤكد للمسلمين أن الطوائف التى تجهزت لمحاربتهم لا- تتميز بالانسجام و الوحده، بل إن مجاميعها يكفر بعضهم بعضا، و الذى يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، و بالتالى التعصب الناشئ عن هذا الجهل.

اشاره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

سبب النزول

روى عن ابن عباس أن الآيه نزلت في «فطلوس» الرومى و جنده النصرارى الذين حاربوا بنى إسرائيل، و أحرقوا التوراه، و أسروا الأبناء و هدموا بيت المقدس.

و عن ابن عباس أيضا أنها نزلت في الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه حتى أظهر الله المسلمين عليهم.

و

عن الإمام الصادق عليه السلام أنها نزلت في قريش حين حالوا دون دخول الرسول صلى الله عليه و اله و سلم مدينه مكه و المسجد الحرام.

وقيل إنها نزلت في مشركى مكه ممن هدموا الأماكن التى اتخذها المسلمون

للصلاة في مكة، بعد هجره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منها (١).

و لا يمنع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الأحداث، و بذلك يكون كل واحد من أسباب النزول المذكوره قد تناول بعدا واحدا من أبعاد المسأله.

التفسير

إشاره

أظلم الناس

أسباب النزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود و النصارى و المشركين، مع أن الآيات السابقه تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود و أحيانا عن النصارى.

على أى حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسأله تغيير القبله، سعوا إلى أن يتجه المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، و ليحطوا من مكانه الكعبه (٢).

و«مشركو مكة» بمنعهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المسلمين زياره الكعبه سعوا عمليا في هدم هذا البناء الإلهى.

و«النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس و العبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا في تخريبه.

القرآن يقول لهؤلاء جميعا و لكل من يسلك طريقا مشابها لهؤلاء: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَمِعِي فِي خَرَابِهَا .**

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»، و على العاملين اسم «أظلم الناس» و أى ظلم أكبر من تخريب قاعده التوحيد، و صدّ الناس عن ذكر الله؟! ثم تقول الآية: **أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ .**

ص: ٣٤٤

١-١) -مجمع البيان، و الميزان في تفسير الآية المذكوره.

٢-٢) -تفسير الفخر الرازى، الآية المذكوره.

أى إن المسلمين و الموحدين ينبغي أن يكونوا على درجه من القوه و المقاومه بحيث لا يستطيع الظلمه أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسه، و لا يستطيعون أن يدخلوها جهره بدون خوف أو خشيته.

و من المحتمل أيضا أن الآيه تقول: إن الظلمه لن يستطيعوا أبدا أن ينجحوا فى الاستيلاء على هذه المراكز العباديه، بل إنهم سوف لا يستطيعون فى المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلا و هم خائفون مذعورون، تماما كالمصير الذى لاقاه مشركو مكه بشأن المسجد الحرام.

و الآيه تبين بعد ذلك العقاب الذى ينتظر هؤلاء الظلمه ممن يريد أن يفصل بين الله و عباده: لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

بحثان

اشاره

١- تخريب المساجد

مفهوم الآيه المذكوره واسع -دون شك- غير محدود بزمان أو مكان معينين.

إنها مثل سائر الآيات التى نزلت فى ظروف خاصه لكن حكمها ثابت على مرّ العصور و الدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع فى تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي و العذاب العظيم.

من الضرورى أن تؤكد أن منع الذكر فى مساجد الله و السعى فى خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدي إلى القضاء على دور المسجد فى المجتمع مشمول بهذه الآيه.

و سوف نرى فى الآيه إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ... (١) أن المقصود من العمران -استنادا إلى الأحاديث و الروايات الصريحه- ليس هو تشييد البناء فحسب، بل

ص: ٣٤٥

الحضور فيها و احيائها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم أنواع العمران.

و فى النقطة المقابله-إذن-يكون كل عمل يبعد الناس عن المساجد،و يبعد المساجد عن دورها ظلما كبيرا.

و من المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعه جاهله متعصبه متعننه بعيده عن المنطق،تطلق على نفسها اسم الوهابيه تسعى فى تخريب المساجد بحجه إحياء التوحيد!! هؤلاء عمدوا إلى تخريب المساجد المبيته على قبور الأئمه و الصالحين، و التى كانت مركزا للذكر و الدعاء و الارتباط بالله و بخط الصالحين من آل الله.

و من الغريب أنهم يمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مكافحه الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر.

و لو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع فى بعض هذه الأماكن الدينيه من قبل الجهله،فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال،لا أن تتجه الجهود إلى تخريب هذه القواعد التوحيديه،فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهليين.

٢- أكبر الظلم

و مسأله اخرى تلفت النظر فى هذه الآيه،هى وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم الناس.و هم كذلك،لأن تعطيل المساجد و تخريبها و منع ذكر الله فيها،يؤدى إلى ابتعاد الناس عن الدين،و بالتالى إلى عواقب سيئه و مأساه اجتماعيه عظيمه.

و صفه «الأظلم» ذكرها القرآن الكريم فى مواضع اخرى للحكايه عن كبائر اخرى،لكن كل هذه الذنوب تعود إلى أصل واحد هو صدّ الناس عن طريق التوحيد.

و سيأتى شرح ذلك أكثر فى المجلد الرابع من هذا التفسير عند الحديث عن الآيه ٢١ من سوره الأنعام.

اشاره

وَ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

سبب النزول

اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآيه:

روى عن ابن عباس أن الآيه ترتبط بتغيير القبلة، فعند ما تغيرت قبله المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبه بدأ اليهود يشككون قائلين: و هل من الممكن أن تتغير الكعبه؟ فنزلت الآيه ترد عليهم و تقول إن المشرق و المغرب لله.

و

روى أيضا: أن الآيه نزلت في الصيلاه المستحبه يستطيع الإنسان أن يؤديها على راحته أينما اتجهت الرّاحله، دون اشتراط الاتجاه نحو القبله.

و

روى عن جابر أن الرسول صلى الله عليه و اله و سلم بعث جماعه في غزوه، فجنّ عليهم الليل و لم يستطيعوا أن يعرفوا اتجاه القبله، فصلّت كلّ مجموعته صوب جهه، و بعد طلوع الشمس تبين أنهم لم يستقبلوا القبله سألوا النبي عن ذلك فنزلت الآيه الكريمه (هذا الحكم له شروط طبعا تذكره الكتب الفقيهيه).

و من الممكن أن تكون أسباب النزول المذكوره كلها ثابتة للآيه، أضف الى

ذلك أن كل آية في القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، وربما استخراج منها أحكام متعددة.

التفسير

إشارة

أينما تولوا فثم وجه الله:

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و يسعون في خرابها، وهذه الآية توصل موضوع الآية السابقة فتقول: **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** .

تؤكد هذه الآية أن منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم و غربه لله سبحانه، وأينما تولوا وجوهكم فالله موجود. و تغيير القبلة تم لظروف خاصة، و ليس له علاقة بمكان وجود الله، فالله سبحانه و تعالى لا يحده مكان، و لذلك تقول الآية بعد ذلك: **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** .

واضح أن المقصود بالمشرق و المغرب في الآية ليس هو الجهتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات. كأن يقول أحد مثلاً: أعداء على عليه السلام سعوا لتغطيه على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم و غربه، (أى في كل العالم).

و لعل سبب شيوع استعمال الشرق و الغرب في الكلام أن الإنسان يتعرف أولاً على هاتين الجهتين، ثم يعرف بقيه الجهات عن طريق هاتين الجهتين.

و في آية اخرى يقول القرآن الكريم: **وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا (١)**

ص: ٣٤٨

١- فلسفه القبلة

اللّه موجود فى كل جهه و مكان، فلما ذا وجب الاتجاه نحو القبلة فى الصلاة؟ واضح أن الاتجاه نحو القبلة لا يعنى تحديد ذات البارى تعالى فى مكان و فى جهه، بل إن الإنسان موجود مادى، و لا بدّ أن يصلّى باتجاه معين، ثم إن ضروره الوحده و التنسيق فى صفوف المسلمين تفرض اتجاههم فى الصلاة نحو قبله واحده، و إلاّ ساد الهرج و الفوضى، و تفرقت الصفوف و تشتتت.

أضف إلى ذلك أن الكعبه التى جعلت قبله للمسلمين بقعه مقدسه و من أقدم قواعد التوحيد، و الاتجاه نحوها يوقظ فى النفوس ذكريات المسيره التوحيديه.

٢- عبارته وَجْهُ اللَّهِ لَا تَعْنِي هَذَا الْوَجْهَ الْمَتَعَارِفَ، بل تعنى ذات الله تعالى. □

٣- استدلت الروايات بهذه الآيه على صحه الصلاة إلى غير القبلة لسهو أو اضطرار، و على صحه الصلاة على ظهر الراحله.

(لمزيد من التوضيح راجع وسائل الشيعه، كتاب الصلاة، باب القبلة).

اشاره

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ مِّمَّا يَدْعُونَ (١١٦) يَدْعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

التفسير

اشاره

خرافات اليهود والنصارى و المشركين

المسيحيون و جمع من اليهود و المشركون تبنا عقيدته تافهه بشأن اتخاذ الله ابنا.

قال سبحانه: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (١).

و قال عز شأنه: قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ (٢).

و هناك آيات اخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.

و هذه الآيه الكريمه التي نحن بصددھا تقول: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ثُمَّ

ص: ٣٥٠

١- (١) -التوبه، ٣٠.

٢- (٢) -يونس، ٦٨.

تجيب عليهم أولاً- بتنزيه الله عن هذه النسبه: سُبْحَانَهُ، فما حاجه الله إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل؟! نعم، لا يمكن نسبه أى احتياج إلى الله بلُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ جَمِيع الكون خاضع له كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ .

و ليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها... بل مبدعها أى موجدتها دون احتياج إلى ماده أوليه فى هذا الإيجاد بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ما حاجه الله إلى الولد و هو النافذ الإراده فى جميع الموجودات؟! وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١)

بحوث

اشاره

١- دلائل نفي الولد

نسبه الولد إلى الله سبحانه، هى دون شك وليده سداجه فكريه، قائمه على أساس مقارنه كل شىء بالوجود البشرى المحدود.

الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديده: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

و من جهه اخرى هو ذو قوه محدوده تضعف بالتدريج، و يحتاج لذلك- و خاصه فى فتره الشيخوخه- إلى من يساعده فى أعماله.

و هو أيضا ينطوى على عواطف و حبّ للأنيس، و ذلك يتطلب وجود فرد أنيس فى حياه الإنسان، و الولد يلبي هذه الحاجه.

ص: ٣٥١

واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوما بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود و القادر على كل شىء، وهو الأزلى الأبدى.

أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسما و الله منزّه عن ذلك (1).

٢- تفسير كُنْ فَيَكُونُ

هذا التعبير ورد فى آيات عديدة منها الآية ٤٧ و ٥٩ من سورة آل عمران، و الآية ٧٣ من سورة الأنعام، و الآية ٤٠ من سورة النحل و الآية ٣٥ من سورة مريم، و الآية ٨٢ من سورة يس، و غيرها، و المراد منها الإرادة التكوينية لله تعالى و حاكميته فى الخليقه.

بعبارة أوضح: المقصود من جملة كُنْ فَيَكُونُ ليس هو صدور الأمر اللفظى «كن» من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق إرادة الله سبحانه حينما تقتضى إيجاد شىء من الأشياء، صغيرا بحجم الذره كان، أم كبيرا بحجم السماوات و الأرض، بسيطا كان أم معقدا، دون أن يحتاج فى ذلك الإيجاد إلى أية علة اخرى، و دون أن تكون هناك أية فتره زمنيه بين الإرادة و الإيجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر و الكينونه، و لذلك فإن الفاء فى جملة «فيكون»، لا تدل على تأخير زمنى كما هو الحال فى الجمل الاخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير فى الرتبة (الفلسفه أثبتت تأخر المعلول عن العله، و هذا التأخر ليس زمنيا، بل فى الرتبة- تأمل بدقه-).

ليس المقصود أن الشىء يصبح موجودا متى ما أراد الله ذلك، بل المقصود أن الشىء يصبح موجودا بالشكل الذى أراده الله.

على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات و الأرض فى ستة أيام،

ص: ٣٥٢

(١-١) - هذه المسأله بحثناها فى سورة الأنبياء، الآية ٢٦، المجلد العاشر من هذا التفسير.

لكان ذلك، دون زياده أو نقص، و لو أراد أن توجد في لحظه واحده لوجدت بأجمعها في لحظه واحده، فذلك تابع لكيفيه إرادته و لما يراه من مصلحه.

و لو شاء الله-مثلا- أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعه أشهر و تسعه أيام ليطوى مراحل تكامله، لما زادت هذه المده و ما نقصت. أمّا لو شاء أن يطوى هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظه واحده لحدث ذلك قطعاً، لأن إرادته علّه تامّه للخليقه، و لا يمكن أن توجد فاصله بين العله التامه و وجود المعلول.

٣- كيف يوجد الشيء من العدم؟

إشارة

كلمه «بديع» من «بدع»، و الإبداع إنشاء صنعه بلا احتذاء و اقتداء منه، و في الآيه بمعنى إيجاد الشيء من غير ماده سابقه (١).

و السؤال الذى يطرح فى هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشيء من العدم، فكيف يمكن للعدم- و هو نقيض الوجود- أن يكون منشأ للوجود؟ و هذه هى الشبهه التى يوردها الماديون فى مسأله «الإبداع» ليستنتجوا منها أن ماده الأصلية للعالم أزليه أبدية، و لا يطرأ عليها وجود و عدم إطلاقاً.

الجواب

فى المرحله الاولى، يوجه نفس هذا الاعتراض إلى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن ماده هذا العالم قديمه أزليه، و لم ينقص منها شيء حتى الآن، و الذى نراه يتغير هو «الصوره» و حدها، لا أصل الماده. و نحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصوره الحاليه للماده و لم تكن موجوده من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقه).

ص: ٣٥٣

على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحه زيتيه مرسومه على ورقه أنّ زيوت التلوين كانت موجوده، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه «الصورة» التي لم تكن موجوده من قبل؟ كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أيضا بشأن إيجاد «الماده».

و في المرحله الثانيه، ينبغي التأكيد على أن خطأ الماديين ناتج عن كلمه «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضده وجدت من الخشب) حيث لا- بدّ من وجود الخشب أولاً- لكي توجد المنضده. بينما جمله «وجود العالم من العدم» لا تعنى ذلك. بل تعنى «أن العالم لم يكن موجودا ثم وجد». و هل فى هذه العبارة تضاد أو تناقض؟! و بالتعبير الفلسفى: كل موجود ممكن (الذى لا- يملك الوجود ذاتيا) له جانبان: ماهيه و وجود، «الماهيه» هى «المعنى الاعتبارى» الذى يتساوى فى نسبته للعدم و الوجود. بعبارة اخرى، الماهيه هى المقدار المشترك الذى نفهمه من ملاحظه وجود شىء و عدمه. فهذه الشجره لم تكن موجوده سابقا و هى موجوده الآن، و الشخص الفلانى لم يكن موجودا سابقا و هو الآن موجود، و ما أسندنا إليه الحالتين (الوجود و العدم) هى «الماهيه».

من هنا يكون معنى قولنا (إن الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحانه نقل الماهيه من حاله العدم إلى حاله الوجود، و بعبارة اخرى وضع لباس «الوجود» على جسد «الماهيه» (1).

ص: ٣٥٤

١-١) -راجع لمزيد من التوضيح كتاب: خالق العالم.

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

التفسير

اشاره

حجج اخرى

بمناسبه ذكر حجج اليهود فى الآيات السابقه، تتحدث الآيه عن حجج مجموعه اخرى من المعاندين و يبدو أنهم المشركون العرب فتقول: وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .

هؤلاء الجاهلون-أو الذين لا يعملون-بتعبير الآيه، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

١- أن يكلمهم الله: لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ .

٢- أن تنزل عليهم آيه: أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .

و القرآن يجب على هذه الطلبات التافهه قائلا: كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

لو أن هؤلاء يستهدفون حقا إدراك الحقيقة، ففي هذه الآيات النازل على رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم دلالة واضحة بينه على صدق أقواله، فما الداعي إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟! مثل هذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة المدثر: **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً** .

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه -إضافه إلى عدم ضرورته- مخالف لحكمه البارى سبحانه، لما يلي:

أولاً: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكن عن طريق الآيات التى تنزل عليهم.

ثانياً: لا يمكن للآيات و المعاجز أن تنزل على أى فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعاً من اللياقة و الاستعداد و الطهارة الروحيه. فالأسلاك الكهربائيه تتحمل من التيار ما يتناسب مع ضخامتها. الأسلاك الرقيقه لا تتحمل التيار العالى، و لا يمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمه القادره على توصيل التيارات العالیه.

و المهندس يفزق بين الأسلاك التى تستقبل التيارات العالیه من المولدات مباشره، و الأسلاك التى تنقل التيار الواطئ داخل البيوت.

الآيه التاليه تخاطب النبى صلى الله عليه و اله و سلم، و تبين موقفه من الطلبات المذكوره و تقول:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا

فمسئوليه الرسول بيان الأحكام الإلهيه، و تقديم المعاجز، و توضيح الحقائق، و هذه الدعوه ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين و إنذار العاصين و هذه مسئوليتك أيها الرسول، و أما الفئه التى لا تدعن للحق بعد كل هذه الآيات فأنت غير مسئول عنها: **وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** .

١- نَسَابَتْ قُلُوبُهُمْ

مرّ علينا في الآيه أن القرآن يصف الحجج الواهيه التي يطرحها المعاصرون لصاحب الرساله الخاتمه، بأنها شبيهه بتلك التي كان يتذرع بها المنحرفون من الأمم السابقه، فقلوبهم متشابهه.

القرآن يشير بهذا التقريع و اللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغي أن يكون عاملا- على زياده وعى الأجيال البشريه، و على تفهّم هذه الأجيال اللا-حقه أكثر من السابقه لتعاليم الأنبياء، لكن مرور الزمن لا- يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحدا متشابهها على مرّ الأجيال و كأنها متعلقه بآلاف الأعوام السالفه.

٢- أصلان تربويان

«البشاره» و «الإنذار» أو «التشجيع» و «التهديد» من أهم الأصول اللازمه للتربيه و للحركه الاجتماعيه. ينبغي أن يلقي الفرد تشجيعا على أعماله الصالحه، و توبيخا على أعماله الطالحه، كي يواصل مسيره الأول، و يرتدع عن ارتياد المسير الثاني.

«التشجيع» و حده لا- يكفي لدفع الفرد و المجتمع على طريق التكامل، لأن الإنسان سوف يكون مطمئنا من عدم الخطر في حاله ارتكاب المعاصي.

على سبيل المثال، نرى ارتكاب المعاصي بين النصارى الحاليين أمرا عاديا، لأنهم يعتقدون بالفداء، أى بأن السيد المسيح عليه السلام قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرين أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتى، منها منح صكوك الغفران. أو يبيعون لهم الجنّه مثل هؤلاء القوم يسمحون لأنفسهم ارتكاب الذنوب بسهولة.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: «...الفداء أيضا إشاره إلى كفاره دم

المسيح،الذى أخذ على عاتقه كل ذنوبنا و تحمل ذنوبنا فى جسده على الصليب».

هذا المنطق يجعل الأفراد دون شك جريئين على ارتكاب المعاصى.

بعبارة اخرى،من يرى أن التشجيع وحده كاف لتربيته الإنسان(طفلا كان أم كبيرا)،و ضروره ترك التهديد و التقرير،فهو بجانب للصواب و مخطئ تماما.

و هكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربيه ينبغى أن تقوم على أساس التخويف و التأنيب لا غير.

الفريقان المذكوران خاطئان فى فهم الإنسان،حيث إن الإنسان يتجاذبه كلّ الخوف و الرجاء،حبّ الذات و كره الفناء، تحصيل المنفعه و دفع الضرر.و هل يمكن لموجود يحمل فى ذاته هذين البعدين أن يربّى وفق بعد واحد؟! و التعادل ضرورى بين هذين الجانبين،فلو تجاوز التشجيع حدّه لأذى إلى التجرؤ و الغفله،و لو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس و القنوط و انطفاء شعله الشوق و التحرك فى النفوس.

مما سبق نفهم سبب اقتران البشاره بالإنذار أو«البشير»ب«النذير»فى القرآن الكريم،فتاره تقدم كلمه البشير على النذير كآليه التى نحن بصدها: بَشِيرًا وَ نَذِيرًا و تاره تقدم كلمه النذير كقوله تعالى فى الآيه ١٨٨ من سوره الأعراف:

□
إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

و أكثر الآيات القرآنيه فى هذا المورد تتقدم فيها صفه البشير،و لعل ذلك يعود إلى أن رحمه الله من حيث المجموع سابقه على غضبه:يا من سبقت رحمته غضبه.

اشاره

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ إِبْرَاهِيمَ أَخَاهُ هُمْ بَعْدَ الَّذِي لَجَأَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

أسباب النزول

روى عن ابن عباس بشأن نزول الآية الاولى أن يهود المدينة و نصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبله المسلمين موافقه دائما لقبلتهم، فلما تغيرت قبله المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبه يشسوا من نبى الإسلام.

و لعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبته أن لا يحدث عملا يؤدي إلى إزعاج اليهود و النصارى (١).

الآيه الاولى نزلت لتعلن للنبي أن هذه الفئه من اليهود و النصارى لا ترضى

ص: ٣٥٩

١- ١) - تفسير أبى الفتوح الرازى، و تفسير الفخر الرازى (مع اختلاف بسيط).

عنك بالاشتراك في قبلتهم ولا بأى شيء آخر، إلا أن تقبل كل ما يتبعونه.

وقيل: إن الآية نزلت إثر إصرار النبي على إرضاء أهل الكتاب طمعا في قبولهم الإسلام، فنزلت الآية لتؤكد أن رضى هؤلاء غايه لا تدرك إلا باعتناق دينهم (١).

و بشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفه، قيل إنها نزلت فيمن التحق بجعفر بن أبي طالب لدى عودته من الحبشه و هم أربعون نفرا، اثنان و ثلاثون من أهل الحبشه و ثمانية رهبان فيهم «بحيرا» الراهب المعروف. وقيل إنها نزلت في يهود أسلموا و حسن إسلامهم من أمثال: عبد الله بن سلام و سعيد بن عمرو، و تمام بن يهودا (٢).

التفسير

إشارة

إرضاء هذه المجموعه محال

الآيه السابقه رفعت المسؤوليه عن النبي صلى الله عليه و اله و سلم إزاء الضالين المعاندين. و الآية أعلاه توصل الموضوع السابق و تخاطب الرسول بأن لا يحاول عبثا في كسب رضا اليهود و النصارى لأنه: **وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**.

واجبك أن تقول لهم: **إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ**، هدى الله هو الهدى البعيد عن الخرافات و عن الأفكار التافهه التي تفرزها عقول الجهال، و يجب إتباع مثل هذا الهدى الخالص.

ثم تقول الآية: **وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**.

ص: ٣٦٠

١-١) -مجمع البيان، الآية المذكوره.

٢-٢) -تفسير أبي الفتوح الرازي، و مجمع البيان.

و بعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكوره من اليهود و النصارى، أشاد بأولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب و انضموا تحت رايه الرساله الخاتمه الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ - اى بالتفكر و التدبر ثم العمل به- أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَيْ يُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

هؤلاء كانوا قد تلووا كتابهم السماوى حقاً، و كان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرءوا فيه بشارات ظهور النَّبِيِّ الْمَوْعُودِ، و قرءوا صفاته المنطبه مع صفات نبيّ الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَمَّنُوا بِهِ، و اللَّهُ مَدَحَهُمْ وَ أَشَادَ بِهِمْ.

بحوث

اشاره

١- سؤال عن عصمه الأنبياء

العباره القرآنيه: وَ لَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ قَدْ تَثِيرَ سَوْالاً- بشأن عصمه الأنبياء، فهل يمكن للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ- و هو معصوم- أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود و النصارى؟ فى الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت فى القرآن الكريم، و لا تتعارض مع مقام عصمه الأنبياء، لأنها- من جهه- جمله شرطيه، و الجملة الشرطيّه لا تدل على تحقق الشرط.

و من جهه اخرى، عصمه الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالاً، بل المعصوم له قدره على ارتكاب الذنب، و لم يسلب منه الإختيار، و مع ذلك لم يتلوث بالذنوب. بعبارة اخرى: إن المعصوم قادر على الذنب، و لكن إيمانه و علمه و تقواه بدرجه لا تجعله يتجه معها إلى ذنب. من هنا فالتحذيرات المذكوره بشأنهم مناسبه تماماً.

من جهه ثالثه، هذا الخطاب و إن اتجه إلى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و لكن قد يكون موجهاً

إلى الناس جميعا.

٢- للاسترضاء حدود

صحيح أن الإنسان الرّسالى يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوه، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرنين اللتين، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغى أن يكون غير ذلك. لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لا بدّ من الإعراض عنهم و تركهم.

٣- إن هدى الله هو الهدى

نفهم من الآيه المذكوره أن القانون الوحيد القادر على إنقاذ البشريه هو قانون الهدايه الإلهيه، لأن علم البشر- مهما قدر له من التكامل- يبقى مخلوطا بالجهل و الشك و القصور فى جهات مختلفه. و الهدايه فى ضوء مثل هذا العلم الناقص لا يمكن أن تكون هدايه مطلقه، و لا- يستطيع أن يضع للإنسان برنامج «الهدايه المطلقه» إلا- من له «علم مطلق»، و من هو خال من الجهل و النقص، و هو الله وحده.

٤- حق التلاوه

عبر القرآن عن الفئه المهتمديه من أهل الكتاب بأنهم يُتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، و هو تعبير عميق يرسم لنا سبيلا واضحا تجاه القرآن الكريم و الكتب السماويه، فالتاس أمام الآيات الإلهيه على أقسام:

قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح و على قواعد التجويد، و يشغل ذهنهم دوما الوقف و الوصل و الإدغام و الغنه فى التلاوه، و لا يهتمون إطلاقا بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! و هؤلاء بالتعبير القرآنى كَمَثَلِ

ص: ٣٦٢

و قسم يتجاوز إطار الألفاظ، و يتعمق فى المعانى، و يدقق فى الموضوعات القرآنيه، و لكن لا يعمل بما يفهم! و قسم ثالث، و هو المؤمنون حقًا يقرءون القرآن باعتباراه كتاب عمل، و منهجا كاملا للحياه، و يعتبرون قراءه الألفاظ و التفكير فى المعانى و إدراك مفاهيم الآيات الكريمه مقدمه للعمل، و لذلك تصحو فى نفوسهم روح جديده كلما قرءوا القرآن، و تتصاعد فى داخلهم عزيمة و إراداه و استعداد جديد للأعمال الصالحه، و هذه هى التلاوه الحقه.

ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه: «يرتلون آياته، و يتفقهون به، و يعملون بأحكامه، و يرجون وعده، و يخافون وعيده، و يعتبرون بقصصه، و يأترون بأوامره، و ينتهون بنواهيه، ما هو و الله حفظ آياته و درس حروفه، و تلاوه سوره و درس أعشاره و أخماسه (٢)، حفظوا حروفه و أضاعوا حدوده، و إنما هو تدبر آياته و العمل بأركانها، قال الله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (٣).

ص: ٣٦٣

١- (١) -الجمعه، ٥.

٢- (٢) -المقصود من الأعشار و الأخماس تقسيمات القرآن.

٣- (٣) -الميزان، نقلا عن إرشاد الديلمى.

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

التفسير

مره اخرى يتجه الخطاب الإلهي إلى بني إسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أحيطوا بها، وخاصة نعمه تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآيه: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ أى على كل من كان يعيش فى ذلك الزمان.

كل نعمه تقترن بمسؤوليه، و تقترن بالتزام و تكليف إلهي جديد، و لذلك قال سبحانه فى الآيه التاليه: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ... وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ أى غرامه أو فديته، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، و لا يستطيع أحد غير الله أن يساعد أحداً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

فكل سبيل النجاه التى تتوسلون بها فى هذه الدنيا موصله يوم القيامة،

و الطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان و العمل الصالح، و طريق التوبه من الذنوب.

هذه المفاهيم مطروحه فى الآيتين ٤٧ و ٤٨ من هذه السوره حيث تعرضنا لها بالتفصيل، و نكتفى هنا بهذا القدر.

ص: ٣٤٥

اشاره

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

التفسير

اشاره

الإمامه قمه مفاخر إبراهيم عليه السلام

هذه الآيه و ما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبى الله الكبير إبراهيم على نبينا و عليه الصلاه و السلام، و عن بناء الكعبه و أهميه هذه القاعده التوحيديه العباديه.

و الهدف من هذه الآيات- و عددها ثمانى عشره آيه- ثلاثه أمور:

أولاً: أن تكون مقدمه لمسأله تغيير القبله التى ستطرح بعد ذلك، كى يعلم المسلمون أن هذه الكعبه من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، و لكى يفهموا أن التلويث الذى طرأ على الكعبه إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحى لا يحط من قيمه الكعبه و مكانتها.

ثانياً: لفضح ادعاءات اليهود و النصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، و أنهم ورثه

دينه و طريقته، و لتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن مله إبراهيم.

ثالثاً: لفهيم مشركى العرب أيضا ببعدهم عن منهج النبى الكبير محطم الأصنام، و الرد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم و بين إبراهيم.

الآيه الكريمه تقول أولاً: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .

هذه الفقره من الآيه تشير إلى الاختبارات المتتاليه التى اجتازها إبراهيم عليه السّلام بنجاح، و تبين من خلالها مكانه إبراهيم و عظمته و شخصيته.

و بعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير قال إني جاعلك للناس إماماً .

و هنا تمنى إبراهيم عليه السّلام أن يستمر خط الإمامه من بعده، و أن لا يبقى محصوراً بشخصه قال وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي .

لكن الله أجابه: قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .

و قد استجيب طلب إبراهيم عليه السّلام فى استمرار خط الإمامه فى ذريته، لكن هذا المقام لا يناله إلا الطاهرون المعصومون من ذريته لا غيرهم.

بحوث

اشاره

١- المقصود من «الكلمات»

من دراسه آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السّلام، و ما أدّاه هذا النبى العظيم من أعمال جسيمه استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعه المسؤوليات و المهام الثقيله الصعبه التى وضعها الله على عاتق إبراهيم عليه السّلام، فحملها و أحسن حملها، و أدّى ما عليه خير أداء، و هى عباره عن:

أخذ ولده إلى المذبح و الاستعداد التام لذبحه، إطاعه لأمر الله سبحانه.

إسكان الزوج و الولد فى واد غير ذى زرع بمكه، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عبده الأصنام و تحطيم الأصنام، و الوقوف ببطوله فى تلك المحاكمه التاريخيه، ثم إلقاءه فى وسط النيران. و ثباته و رباطه جأشه فى كل هذه المراحل.

الهجره من أرض عبده الأصنام و الابتعاد عن الوطن، و الاتجاه نحو أصقاع نائيه لأداء رسالته... و أمثالها (1).

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلًا و صعبًا حقًا، لكنه بقوه إيمانه نجح فيها جميعًا، و أثبت لياقته لمقام «الإمامه».

٢- من هو الإمام؟

يتبين من الآيه الكريمه التى نحن بصدددها، أن منزله الإمامه الممنوحه لإبراهيم عليه السلام بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزله النبوه و الرساله.

و لتوضيح ذلك نقول: إن للإمامه معانى مختلفه:

١- الإمامه بمعنى الرئاسه و الزعامه فى أمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنه).

٢- الإمامه بمعنى الرئاسه فى أمور الدين و الدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنه).

٣- الإمامه بمعنى تحقيق المناهج الدينيه بما فى ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومه، و إجراء الحدود و أحكام الله، و تطبيق العداله الاجتماعيه، و تربيه الأفراد فى محتوهم الداخلى و فى سلوكهم الخارجى. و هذه المنزله أسمى من منزله النبوه و الرساله، لأن منزله النبوه و الرساله تقتصر على إبلاغ أوامر الله، و البشاره و الإنذار، أما الإمامه فتشمل مسؤوليات النبوه و الرساله إضافه إلى

ص: ٣٦٨

١- ١) - روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنيه فكانت ثلاثين موضعًا (تفسير المنار، تفسير الآيه المذكوره)، و خلاصتها ما ذكرناه.

«إجراء الأحكام» و«تربيته النفوس ظاهريا و باطنيا» (من الواضح أن كثيرا من الأنبياء كانوا يتمتعون بمنزله الإمامه).

منزله الإمامه هي في الحقيقه منزله تحقيق أهداف الدين و الهدايه، أي «الإيصال إلى المطلوب»، و ليست هي «إراءه الطريق» فحسب.

و مضافا لما سبق فإن الإمامه تتضمن أيضا على «الهدايه التكوينية»، أي النفوذ الروحي للإمام، و تأثيره على القلوب المستعده للهدايه المعنويه (تأمل بدقه).

الإمام في ذلك يشبه الشمس التي تبعث الحياه في النباتات، فكذلك دور الامام في بعث الحياه الروحيه و المعنويه في الكائنات الحيه؟.

يقول سبحانه: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (١).

و من هذه الآيه نفهم بوضوح أن رحمه الله الخاصه و المعونه الغيبية للملائكه بإمكانها أن تخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور.

هذا الموضوع يصدق على الإمام أيضا، فالقوة الروحيه للإمام و للأنبياء الحائزين على منزله الإمامه و خلفائهم، لها التأثير العميق على تربيته الأفراد المؤهلين، و إخراجهم من ظلمات الجهل و الضلاله إلى نور الهدايه.

لا شك أن المراد من الإمامه في الآيه التي نحن بصدد تفسيرها هو المعنى الثالث للإمامه، لأنه يستفاد من آيات متعدده أن مفهوم «الإمامه» ينطوي على مفهوم «الهدايه»، كقوله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢).

هذه الهدايه لا تعنى إراءه الطريق، لأن إبراهيم عليه السلام كانت له قبل ذلك مكانه

ص: ٣٦٩

١-١) - الأحزاب، ٤٣.

٢-٢) - السجده، ٢٤.

النُّبوه و الرسالة، أى مكانه إراءه الطريق.

القرائن الواضحه تشير إلى أن منزله الإمامه الممنوحه لإبراهيم عليه السّلام بعد الامتحانات العسيره، و اجتياز مراحل اليقين و الشجاعه و الاستقامه، هى غير منزله البشاره و الإبلاغ و الإنذار.

إذن، الهدايه التى يتضمونها مفهوم الإمامه ما هى إلاّ «الإيصال إلى المطلوب» و «تحقيق روح الدين»، و تطبيق المناهج التربويه فى النفوس المستعده.

هذا الحقيقه يوضحها بإجمال حديث عميق المعنى

روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام يقول:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جُمِعَ لَهُ الْأَشْيَاءُ، قَالَ: إِنِّي جَاءَ عَلَيْكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ: فَمَنْ عَظَمَهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ قَالَ: لَا يَكُونُ السَّفِيهَ إِمَامًا التَّقَى» (١).

٣- الفرق بين النبوه و الإمامه و الرساله

يفهم من الآيات الكريمه و المأثور عن المعصومين، أن حملة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفه:

١- منزله النبوه: أى استلام الوحي من الله، فالنبي هو الذى ينزل عليه الوحي، و ما يستلمه من الوحي يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.

٢- منزله الرساله: وهى منزله إبلاغ الوحي، و نشر أحكام الله، و تربيته الأفراد عن طريق التعليم و التوعيه. فالرسول إذن هو المكلف بالسعى فى دائره مهمته

ص: ٣٧٠

لدعوه الناس إلى الله و تبليغ رسالته، و بذل الجهد لتغيير فكرى عقائدى فى مجتمعه.

٣- منزله الإمامه: و هى منزله قياده البشريه، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام الله عمليا عن طريق إقامه حكومه إلهيه و استلام مقاليد الأمور اللازمه. و إن لم يستطع إقامه الدوله يسعى قدر طاقته فى تنفيذ الأحكام.

بعباره اخرى، مهمه الإمام تنفيذ الأوامر الإلهيه، بينما تقتصر مهمه الرسول على تبليغ هذه الأوامر. و بتعبير آخر أيضا، مهمه الرسول، إراءه الطريق، و مهمه الإمام «الإيصال إلى المطلوب» (إضافه إلى المهام الثقيله الاخرى المذكوره).

من نافله القول أن كثيرا من الأنبياء كنبى الإسلام عليه أفضل الصلاه و السلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، و يبلغون أوامر الله، و يسعون إلى إقامه الحكومه و تنفيذ الأحكام، و ينهضون-بما لهم من تأثير روحى- بمهمه تربيته النفوس.

الإمامه-بعباره موجزه-هى منزله القياده الشامله لجميع المجالات الماديه و المعنويه و الجسميه و الروحيه و الظاهريه و الباطنيه. الإمام رئيس الدوله و زعيم المجتمع و معلم الأخلاق و قائد المحتوى الداخلى للأفراد المؤهلين.

فهو بقوته المعنويه يقود النفوس المؤهله على طريق التكامل.

و بقدرته العلميه يعلم الجهله.

و بقوه حكومته أو أليه قوه تنفيذه اخرى يطبق مبادئ العداله.

٤- الإمامه آخر مراحل مسيره إبراهيم التكامليه

بما تقدم فى بيان حقيقه الإمامه يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزله النبوه و تبليغ الرساله، بينما لا- تكون له منزله الإمامه. و هذه المنزله تحتاج إلى مؤهلات كثيره فى جميع المجالات. و هى المنزله التى نالها إبراهيم عليه السلام بعد كل

هذه الامتحانات و المواقف العظيمة، و كانت آخر مرحله من مراحل مسيرته التكاملية.

من ذهب إلى أن الإمامه هي «أن يكون الفرد لائقاً و نموذجياً» فقط، ما فهم أن هذه الصفه كانت موجوده في إبراهيم عليه السّلام منذ بدايه النبوه.

و من قال إنّ المقصود من الإمامه «أن يكون الفرد قدوه»، فاته أن هذه صفه جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوه النبوه، و لذلك وجب أن يكون النبي معصوماً لأن أعماله قدوه للآخرين.

من هنا، فمنزله الإمامه أسمى ممّا ذكر، بل أسمى من النبوه و الرساله، و هي المنزله التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الامتحان تلو الامتحان.

٥- من الظالم؟

المقصود من «الظلم» في التعبير القرآني: لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، و قد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمه، و يقع في النقطه المقابله للعدل: و هو وضع الشيء في محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشيء في غير مكانه المناسب.

و لما كانت منزله الإمامه و القياده الظاهرية و الباطنيه للبشريه منزله ذات مسؤوليات جسيمة هائله عظيمه، فإن لحظه من الذنب و المعصيه خلال العمر تسبب سلب لياقه هذه المنزله عن الشخص.

لذلك نرى أئمه آل البيت عليهم السّلام يشبّون بهذه الآيه تعين الخلفه بعد النبي مباشره لعلّ عليه السّلام و انحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهليه، و علّى عليه السّلام وحده لم يسجد لصنم. و أى ظلم أكبر من عباده الأصنام؟! ألم يقل لقمان

لابنه: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١)؟! من هذه الاستدلالات ما

رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «قد كان إبراهيم نبيا و ليس بإمام، حتى قال الله: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، فقال الله لا ينال عهدى الظالمين، من عبد صنما أو وثنا لا يكون إماما» (٢).

و في حديث آخر عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و اله و سلم: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ لإِبْرَاهِيمَ «لَا أُعْطِيكَ عَهْدًا لِلظَّالِمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَ مِنَ الظَّالِمِ مَنْ وَلَدَى الَّذِي لَا يِنَالُ عَهْدَكَ؟ قَالَ: مَنْ سَجَدَ لَصْنَمٍ مِنْ دُونِي لَا أَجْعَلُهُ إِمَامًا أَبَدًا، وَ لَا يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا» (٣).

٦- تعيين الامام من قبل الله

من الآيه مورد البحث نفهم ضمنا أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معينا من قبل الله سبحانه، لما يلي:

أولا: الإمامه ميثاق إلهي، و طبعي أن يكون التعيين من قبل الله، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانيا: الأفراد الذين تلبسوا بعنوان الظلم، و ما رسوا في حياتهم لحظه ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظه شرك مثلا، لا يليقون للإمامه، فالإمام يجب أن يكون طيله عمره معصوما.

و هل يعلم ذلك في نفوس الأفراد إلا الله؟! و لو أردنا بهذا المعيار أن نعين خليفه لرسول الله صلى الله عليه و اله و سلم، فلا يمكن أن يكون غير على عليه السلام.

ص: ٣٧٣

١-١) - لقمان، ١٣.

٢-٢) - أصول الكافي، ج ١، باب «طبقات الأنبياء و الرسل» حديث ١.

٣-٣) - أمالي الشيخ المفيد، و مناقب ابن المغازلي، نقلا عن الميزان، تفسير الآيه المذكوره.

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الخلافه لا تليق إلا بالعلويين، و من هنا أجاز الخروج على حكومه العباسيين، و من هنا أيضا رفض منصب القضاء فى حكومه خلفاء بنى العباس.

و يقول صاحب المنار أيضا: إن أئمه المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، و كانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامه المسلمين، لأنهم ظالمون (١).

و من العجيب أن كثيرا من علماء أهل السنه فى عصرنا هذا، يؤيدون و يدعمون الحكومات الظالمه المتجبره المرتبطه ارتباطا واضحا جليًا بجبهه الكفر العالميه، و المفسده فى الأرض إفسادا لا يخفى على أحد، بل أكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام «أولى الأمر» و يركزون على وجوب طاعتهم!!

٧- جواب عن سؤاليين

١- قلنا فى تفسير معنى الإمامه أن عمل الإمامه هو «الإيصال إلى المطلوب» و «تنفيذ المناهج الإلهيه»، و هنا قد يقول قائل: إن هذا المعنى لم يتحقق فى كثير من الأنبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبه للنبي الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم و الأئمه الأطهار فى المقياس العام، فقد كان يقف فى مقابلهم دوما أفراد ضالون مضلون.

جوابا على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الإمام لا يعنى أن الإمام يجزّ الامّه قسرا نحو الحق، بل إن الأفراد يستطيعون- و هم مختارون- أن يهتدوا بما يمتلكه الإمام من قوه ظاهريه و باطنيّه، على شرط امتلاك هؤلاء الأفراد للياقه و الاستعداد.

و هذا كقولنا الشمس خلقت لاستمرار حياه الموجودات الحيّه، أو أن المطر يعمل على إحياء الأرض الميتّه، تأثير الشمس و المطر له طابع عام، لكنه لا يصدق

ص: ٣٧٤

إلا في الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثير.

٢- التفسير المذكور للإمام يستدعي أن يكون كل إمام نبيا ورسولا أولا، و بعد ذلك يبلغ درجه الإمامه.بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبي الإسلام صلى الله عليه و اله و سلم كذلك.

نقول في الجواب:لا- يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتما منزله النبوه و الرساله، فالذى اجتمعت فيه منزله النبوه و الرساله و الإمامه (مثل النبي الخاتم) يمكن لخليفته أن يواصل طريق الإمامه، و ذلك حين تنتفى الحاجه إلى رساله جديده كما هو الحال بعد خاتم الأنبياء.

بعبارة اخرى، حين تكون مرحله استلام الوحي الإلهي و تبليغ جميع الأحكام قد انتهت و بقيت المرحله التنفيذيه، فإن خليفه النبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذى، و لا حاجه لأن يكون هذا الخليفه نبيا أو رسولا.

٨- شخصيه إبراهيم المثاليه

ورد اسم إبراهيم عليه السلام فى ٦٩ موضعا من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس و عشرين سوره. و القرآن يثنى كثيرا على هذا النبي الكريم و يذكره بصفات جليله عظيمه.

إنه قدوه و أسوه فى كل المجالات، و نموذج للإنسان الكامل.

مكانته فى سلم معرفه الله... و منطق الصريح أمام عبده الأوثان... و نضاله المير ضد الجباره... و تضحياته على طريق الله، و صموده الغريب أمام عواصف الحوادث و الاختبارات الصعبه... كل واحده من هذه الصفات تشكل النموذج الأعلى للسائرين على طريق التوحيد.

ص: ٣٧٥

إبراهيم كما يصفه القرآن من [المُحْسِنِينَ \(١\)](#)، و من الصالحين [\(٢\)](#)، و من القانتين [\(٣\)](#)، و من الصديقين [\(٤\)](#)، و إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ [\(٥\)](#)، و إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [\(٦\)](#)، ذو سخاء عظيم و شجاعه منقطعه النظير.

فى تفسير سورة إبراهيم (خاصه فى القسم الأخير من السوره) سنفصل الحديث فى هذا المجال. (راجع المجلد السابع من هذا التفسير).

ص: ٣٧٦

-
- ١-١ - الصافات، ١٠٥.
 - ٢-٢ - النحل، ١٢٢.
 - ٣-٣ - النحل، ١٢٠.
 - ٤-٤ - مريم، ٤١.
 - ٥-٥ - التوبه، ١١٤.
 - ٦-٦ - النجم، ٣٧.

اشاره

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

التفسير

اشاره

عظمه بيت الله

بعد الإشاره إلى مكانه إبراهيم عليه السلام في الآيه السابقه، تناولت هذه الآيه موضوع عظمه الكعبه التي وضع قواعدها إبراهيم عليه السلام، فهي تبدأ بالتذكير بعباره «و إذ» أى اذكروا: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا .

المثابه من الثوب، أى عوده الشىء إلى حالته الاولى. و لما كانت الكعبه مركزا يتجه إليه الموحدون كل عام، فهي محل لعوده جسميه و روحيه إلى التوحيد و الفطره الاولى، و من هنا كانت مثابه. و كلمه «مثابه» تتضمن معنى الراحة و الاستقرار، لأن بيت الإنسان -و هو محل عودته الدائم- مكان للراحة و الاستقرار، و هذا المعنى تؤكد كلمه «أمنًا» التي تلى كلمه «مثابه» في الآيه.

و كلمه «للناس» توضح أنه ملجأ عام لكل العالمين، و لكل الشعوب المحرومه.

و هذه الصفه للبيت هي في الحقيقه استجابته لأحد مطالب إبراهيم عليه السلام من ربه

ما سيأتي.

ثُمَّ تَضِيفُ الْآيَةَ: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى .

اختلف المفسرون في معنى «مقام إبراهيم»، قيل: إن كل الحج هو مقام إبراهيم. وقيل: إنه «عرفه» و«المشعر الحرام» و«الجمار الثلاث»، وقيل: كل حرم مكة مقام.

ولكن يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، وذهبت إلى ذلك الروايات وكثير من المفسرين. وعلى الحجاج أن يصلوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان هذا المقام «مصلًى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بشأن تطهير البيت للطائفتين والمجاورين والمصلين: وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لوته وجود الأصنام. وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم وأحشاء الذبائح التي كان يلقي بها الجهله في البيت.

وقيل: إنه يعنى إخلاص النية عند بناء البيت.

ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهى تعنى تطهير هذا البيت ظاهريا ومعنويا من كل تلويث.

لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير فى الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، وبعضها بأنه تطهير البدن وإزاله الأدران.

بحثان

إشارة

١- الآثار الاجتماعية والتربوية للبيت الآمن:

الكعبة-طبعاً للآية أعلاه-ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسه عن كل نزاع و اشتباك و حرب و إراقه

ص: ٣٧٨

دماء. و ليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات و الطيور آمنه أيضا في هذه البقعه، و لا يحق لأحد أن يمسه بسوء.

و في عالم يعجّ دوما بالنزاع و الصراع، يستطيع مثل هذا المركز الآمن أن يكون له الأثر العميق في حل المشاكل و فضّ النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أن يجلسوا حول طاولة واحده عند هذا البيت الآمن، و يفتحوا بينهم حورا قد يكون مقدمه لإزاله الخصومات و النزاعات.

و قد يتفق أن ترغب الأطراف المتنازعه في إجراء مباحثات، لكنهم لا- يتفقون على مكان مقبول و محترم و آمن لدى جميع الأطراف، و الإسلام أقرّ مكه لتكون مركزا كهذا.

و اليوم، إذ المسلمون- مع الأسف الشديد- يعانون من ألوان النزاعات و الاختلافات حرى بهم أن يستفيدوا من قداسه هذا البيت و آمنه لفتح باب المحادثات بينهم، و لرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنويه هذا المكان المقدس. (1)

٢- بيت الله

و صفت الكعبه بأنها بيت الله، و عبرت الآيه عن الكعبه ب«بيتي». و واضح أن الله ليس بجسم، و لا- يحده بيت، و لا يحتاج إلى ذلك، و هذه الإضافه هي «إضافه تشريفيه» تبين قدسيه الشئ الذى ينسب إلى الله، و لذلك كان شهر رمضان «شهر الله» و كانت الكعبه «بيت الله».

ص: ٣٧٩

١-١) - بشأن أمن أرض مكه لنا بحث آخر في تفسير الآيه ٣٥ من سوره إبراهيم. (راجع المجلد السابع من هذا التفسير).

اشاره

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

التفسير

اشاره

إبراهيم يدعو ربه

في هذه الآيه توجه إبراهيم إلى ربه بطليين هامين لسكنه هذه الأرض المقدسه، أشرنا إلى أحد هما في الآيه السابقه. القرآن يذكر بما قاله إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا .

و كما ذكرنا في الآيه السابقه، استجاب الله لدعاء إبراهيم، وجعل هذه الأرض المقدسه مركزا آمنا بالمعنى الواسع لكلمه لأمن.

و الطلب الآخر هو: وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

و هكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أولا، ثم «المواهب الاقتصاديه»، إشاره إلى أنّ الإقتصاد السالم لا يتحقق إلا بعد الأمن الكامل.

و للمفسرين آراء عديدة فى معنى «الثمرات»، و يبدو أن معناها واسع يشمل النعم الماديه و النعم المعنويه. و

عن الإمام الصادق عليه السلام: «هى ثمرات القلوب» إشاره إلى جعل قلوب الناس تهوى إلى هذه الأرض.

إبراهيم فى دعائه اقتصر على المؤمنين بالله و اليوم الآخر، و لعل ذلك كان بعد أن قال له الله سبحانه: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ
ففهم أن مجموعته من ذريته سيسلكون طريق الشرك و الظلم، فاستنابهم فى دعائه.

و الله سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثانى أيضا، و لكنه قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا فى الدنيا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ يَبْسُ
الْمُصِيرُ فى الحياه الآخره.

هذه فى الواقع صفه «الرحمانيه» و هى الرحمه العامه للبارى تعالى التى تشمل كل المخلوقات، صالحهم و طالحهم فى الدنيا. أما
الآخره فهى عالم رحمته الخاصه التى لا ينالها إلا من آمن و عمل صالحا.

اشاره

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

التفسير

اشاره

إبراهيم بينى الكعبه

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبه كان موجودا قبل إبراهيم، و كان قائما منذ زمن آدم. تتحدث الآيه ٣٧ من سوره إبراهيم عن لسان إبراهيم تقول: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .

و هذه الآيه تدل على أن بيت الكعبه كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجته و ابنه الرضيع إلى مكه.

و تقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا. و من المؤكد أن عباده الله و إقامه أماكن العباده لم تبدأ فى زمن إبراهيم، بل كانت منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

عبارة الآية الأولى من الآيات محل البحث يؤكد هذا المعنى، إذ تقول: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

فإبراهيم و إسماعيل قد رفعا قواعد البيت التى كانت موجوده.

و فى خطبه للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام فى نهج البلاغه، و هى المسماه بالقاصعه، يقول:

«الأ- ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار... فجعلها بيته الحرام... ثم أمر آدم عليه السلام و ولده أن يثنوا أعطافهم نحوه (١)...» (٢) .

القرائن القرآنيه و الروايه تؤيد أن الكعبه بنيت أولا- بيد آدم، ثم انهدمت فى طوفان نوح، ثم أعيد بناؤها على يد إبراهيم و إسماعيل (٣) .

فى الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم و إسماعيل إلى رب العالمين بخمسه طلبات هامه. و هذه الطلبات المقدسه حين الإشتغال بإعادة بناء الكعبه جامع و دقيقه بحيث تشمل كل احتياجات الإنسان الماديه و المعنويه، و تفصح عن عظمه هذين النبيين الكبارين.

قالا أولا: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ .

ثم أضافا: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ .

ص: ٣٨٣

١-١) - أى أن يطوفوا حوله.

٢-٢) - نهج البلاغه، صبحى صالح، ص ٢٩٢- (الخطبه القاصعه).

٣-٣) - صاحب المنار، ينكر هذا الموضوع بالمره، و يرى أن إبراهيم و إسماعيل أول من بنى الكعبه، و هذا ما لا تؤيده الروايات و لا عبارات القرآن الكريم.

و طلبا تفهم طريق العباده: وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا، ليعبد الله حقَّ عبادته.

ثم طلبا التوبه: وَ تُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

الآيه الأخيره تضمنت الطلب الخامس، و هو هدايه الذريه رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يَزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

بحثان

اشاره

١- هدف بعثه الأنبياء

في الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم و إسماعيل من الله ظهور نبي الإسلام، يذكران ثلاثه أهداف لبعثته:

الأول: تلاوه آيات الله على الناس، أى إيقاط الأفكار و الأرواح في ظل الآيات الإلهيه المبشره و المنذره.

«يتلوا» من تلا، أى اتبع الشيء بالشيء، و سميت «التلاوه» كذلك لأنها قراءه وفق تتبع و نظم. هي مقدمه لليقظه و الإعداد و التعليم و الترييه.

الثانى: «تعليم الكتاب و الحكمه» و لا تتحقق الترييه إلا بالتعليم.

و لعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمه» في أن الكتاب يعنى الكتب السماويه، و الحكمه تعنى العلوم و الأسرار و العلل و النتائج الموجوده في الأحكام، و هي التى يعلمها النبى أيضا.

الثالث: «التركيه» و هو الهدف الأخير.

و «التركيه» فى اللغه هي الإنماء، و هي التطهير أيضا.

و بذلك يتلخص الهدف النهائى من بعثه الأنبياء فى دفع الإنسان على مسيره التكامل «العلمى» و «العملى».

ينبغي التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدوده، مقرونه بآلاف الفجوات المبهمه و الأخطاء الكبيره، و الإنسان أيضا لا يطمئن بدقه إلى معلوماته، لأنه شاهد أخطائه و أخطاء الآخرين.

من هنا كان من الضروري مجيء الأنبياء بعلومهم الحقه الخاليه من الأخطاء المستمده من مبدأ الوحي إلى الناس، ليزيلوا أخطاءهم، و يملأوا فراغات جهلهم، و يبعثوا فيهم اطمئنانا بعلمهم.

و يلزم التأكيد أيضا على أن الشخصيه البشريه تتكون من «عقل» و «غرائز»، و لذلك كان الإنسان بحاجه إلى «التربيه» بقدر حاجته إلى «العلم»، و ينبغي أن يتكامل عقله، و أن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فإن الأنبياء معلمون، و مربون، و يزودون الناس بالعلم، و بالتربيه.

٢- «التعليم» مقدم أو «التربيه»؟

فى أربعة مواضع ذكر القرآن مسأله التربيه و التعليم باعتبارهما هدف الأنبياء، و فى ثلاثه مواضع منها قدمت «التربيه» على «التعليم» (البقره، ١٥١-آل عمران، ١٦٤-الجمعه، ٢).

و فى موضع واحد تقدم التعليم على التربيه (آيه بحثنا). و نعلم أن التربيه لا تتم إلا بالتعليم.

لذلك حين يتقدم التعليم على التربيه فى الآيه فإنما ذلك بيان للتسلسل المنطقى الطبيعى لهما. و فى المواضع التى تقدمت فيها التربيه، فقد يكون ذلك إشاره إلى أنها الهدف، لأن الهدف الاصلى هو التربيه، و ما عداها مقدمه لها.

٣- النبى من الناس -تعبير «منهم» فى الآيه وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يشير إلى أن قاده البشريه ينبغي أن يكونوا بشرا بنفس صفات البشر الغريزيه، كى يكونوا القدوه اللائقه فى الجوانب العمليه. و من الطبيعى أنهم -لو كانوا من غير البشر- ما استطاعوا إدراك حاجات الناس و المشكلات العويصه الكامنه لهم فى حياتهم، و لا أمكنهم أن يكونوا قدوه و أسوه لهم.

اشاره

وَمَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

التفسير

اشاره

إبراهيم الإنسان النموذج

الآيات السابقة ألقى الضوء على جوانب من شخصيه إبراهيم عليه السلام، فتحدثت عن بعض خدماته و طلباته الشامله للجوانب الماديه و المعنويه.

من مجموع ما مرّ نفهم أن الله سبحانه شاء أن يكون هذا النبي، شيخ الموحدين و قدوه الرساليين، على مرّ العصور.

لذلك تقول الآيه الاولى من آيات بحثنا هذا: وَمَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ؟! أليس من السفاهه أن يعرض الإنسان عن مدرسه الطهر و النقاء و الفطره و العقل و سعادته الدنيا و الآخرة، و يتجه إلى طريق الشرك و الكفر و الفساد و ضياع

العقل و الانحراف عن الفطره و فقدان الدين و الدنيا؟! ثم تضيف الآية: وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ

نعم، إبراهيم عليه السلام اصطفاه الله في الدنيا ليكون «الأسوه» و «القدوه» للصالحين .

الآيه التاليه تؤكد على صفه اخرى من صفات إبراهيم التي هي الواقع أساس بقيه صفاته العظيمه و تقول: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

هذا الإنسان المتحرر من الانشدادات الوضيعه يسارع إلى التسليم التام حال سماعه نداء ربّه: «أسلم»، و لا يتوانى في رفض كل أوهام زمانه القائمه على عباده النجوم و الشمس و القمر، فيتركها بعد أن رآها محكومه بالقوانين التي تسود الخليفه و يقول: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) .

مرّ بنا في الآيات السابقه أن إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام بعد بناء الكعبه طلبا من الله سبحانه أن يتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلك طلبا أن يمنّ عليهما الله بنعمه التسليم لوجهه الكريم: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مثل هذا طلباه لذرّيتهما: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّهٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ .

ذلك لأن الخطوه الاولى في سموّ الشخصيه الإنسانيه الطهر و الإخلاص، و من هنا أسلم إبراهيم عليه السلام وجهه لربه دون سواه، و لذلك عرف هو و دينه بهذا العنوان.

حياه إبراهيم عليه السلام بأجمعها كانت مفعمه بأعمال جسيمه نادره، نضاله المرير ضد المشركين، صموده الكبير في قلب النيران، هذا الصمود الذي أثار إعجاب نمرود الطاغيه نفسه حيث راح يردد دون وعى: من اتخذ إلها فليخذ إلها مثل إله إبراهيم (٢) .

و كذلك إسكان الزوج و الطفل الرضيع في تلك الأرض الجافه القاحله...

ص: ٣٨٧

١-١ (١) - الأنعام، ٧٩.

٢-٢ (٢) - نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٣٩.

و المقدسه، و بناء الكعبه، و تقديم الولد على مذبح التضحيه و الفداء استجابته لأمر الله تعالى... كل واحده من هذه الأعمال قمه من سلسله قمم حياه إبراهيم عليه السلام.

و وصيه إبراهيم بنيه فى أواخر أيام حياته تجسيد آخر لهذه الحياه الشامخه:

وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ

...فكل من إبراهيم و يعقوب و صيا أبناء هما بالقول: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

لعلّ القرآن الكريم، بنقله وصيه إبراهيم، يريد أن يقول للإنسان إنه مسئول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوى قبل أن يهتم بمستقبلهم المادى.

يعقوب كإبراهيم وصى أيضا أبناءه، بنفس هذه الوصايا، و أكد لأبنائه أن رمز نجاحهم يتلخص فى جملة واحده، هى التسليم لرب العالمين.

ربّما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الأنبياء، إلى أن اليهود و النصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم إلى يعقوب بشكل من الأشكال، فأرادت الآيه أن توضح لهم أن خط الشرك الذى يسلكونه لا يتناسب مع منهج يعقوب، و هو منهج التسليم المحض لرب العالمين.

اشاره

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

سبب النزول

كان جمع من اليهود يعتقدون أن يعقوب عند ما حضرته الوفاة أوصى بنيه أن يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، والله سبحانه أنزل هذه الآية (١).

التفسير

كما رأينا في سبب النزول، و ظاهر الآية يدل على ذلك أيضا، كان جمع من

ص: ٣٨٩

منكرى الإسلام ينسبون ما لا ينبغي نسبه إلى النبي يعقوب، و القرآن يرد عليهم بالقول: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ؟! هذا الذى نسبه إليه ليس بصحيح، بل الذى حدث آنذاك إِذْ قَالَ لِيُنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ فى الجواب قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

أجل فإن يعقوب لم يوص أبناءه بشيء غير التوحيد و التسليم لرب العالمين و الذى هو الأساس لبرنامج الأنبياء.

من الآيه يبدو أن قلقا ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، و عبر عن قلقه هذه متسائلا: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ و إنما قال: مَا تَعْبُدُونَ... و لم يقل «من تعبدون...» لتلوث البيئه الاجتماعيه آنذاك بالشرك و الوثنيه، أى بعباده الأشياء من دون الله. فأراد يعقوب أن يفهم ما فى قراره نفوس أبنائه من ميول و اتجاهات، و بعد أن استمع الجواب اطمأنت نفسه.

و يلفت النظر هنا أن إسماعيل لم يكن أبا ليعقوب و لا- جدّه، بل عمّه، بينما الآيه استعملت كلمه «آباء»، و يتضح من ذلك أن كلمه «الأب» تطلق أيضا على «العم» توسعا، و من هنا نقول بالنسبه لآزر، الذى ذكره القرآن باعتباره والد إبراهيم، أنه لا يمنع أن يكون عم إبراهيم لا والده. (تأمل بدقه).

آخر آيه فى بحثنا، تجيب على توهم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء و الأجداد و قرب منزله أسلافهم من الله تعالى، فلا يرون بأسا فى انحرافهم هم ظانين أنهم ناجون بوسيله أولئك الأسلاف.

يقول القرآن: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و بذلك أرادت الآية أن توجه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم و سلوكهم و أفكارهم، و تصرفهم عن الانغماس فى الافتخار بالماضين.
هذه الآية-و إن اتجهت فى الخطاب إلى فئة اليهود، أهل الكتاب فى عصر البعثة-تخاطبنا نحن المسلمين أيضا، و تطرح أمامنا
مبدأ:

إن الفتى من يقول ها أنا ذا

ليس الفتى من يقول كان أبى

ص: ٣٩١

اشاره

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

سبب النزول

عن ابن عباس أن جماعه من علماء اليهود و نصارى أهل نجران خاصموا أهل الإسلام، كل فرقه تقول إنها أحق بدين الله من
غيرها، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، و كتابنا التوراه أفضل الكتب، و قالت النصارى: عيسى أفضل الأنبياء، و كتابنا الإنجيل
أفضل الكتب، و كل فريق منهما قال للمؤمنين:

كونوا على ديننا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نحن على حق لا غيرنا!

التمحور و الانغماس فى الذاتيه يۇدى إلى أن يحتكر الإنسان الحق لنفسه، و يعتبر الآخرين على باطل، و يسعى إلى أن يجرهم إلى معتقداته الآيه الاولى تتحدث عن مجموعه من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقه، و نقلت عنهم القول: وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا .

فيرد عليهم القرآن مؤكداً أن الأديان المحرفه لا- تستطيع إطلاقاً أن تهدي الإنسان قُلْ بَلَّغْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

التدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدى الخالص غير المشوب بالشرك.

و رعايه هذا الأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحه و الأديان المنحرفه.

يعلمنا الإسلام أن لا نفرق بين الرسل، و أن نحترم رسالاتهم، لأن المبادئ الأساسية للأديان الحقّه واحده، موسى و عيسى كانا أيضاً من أتباع مله إبراهيم...

أى من أتباع الدين التوحيدى الخالص من الشرك، و إن حرّف المغرضون من أتباعهما ما جاء به، و جعلوه مشوبا بالشرك. و(كلامنا هذا لا يتنافى طبعاً مع إيماننا بأن البشره يجب أن تتبع آخر الأديان السماويه أى الإسلام).

الآيه التاليه تأمر المسلمين أن قولوا آمنا بالله و مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا و مَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ و إسماعيلَ و إسحاقَ و يعقوبَ و الأسباطِ و مَا أُوتِيَ موسى و عيسى و مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

لا- يجوز أن نطلق من محور الذاتيه فى الحكم على هذا النبى أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى الأنبياء بمنظار رسالى، و نعتبرهم جميعاً رسل رب العالمين و معلّمى البشره، قد أدى كل منهم دوره فى مرحله تاريخيه معينه، و كان هدفهم واحداً، و هو هدايه الناس فى ظل التوحيد الخالص و الحق و العداله.

ثم يضيف القرآن قائلاً: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

و لو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم و ذاتياتهم، و آمنوا بجميع أنبياء الله فقد اهدوا أيضا، و إلا فقد ضلوا سواء السبيل.

و«الشقاق» النزاع و الحرب، و فسرت في الآيه بالكفر و بالضلال، و بالابتعاد عن الحق و الاتجاه نحو الباطل، و كل هذه المعاني تعود إلى حقيقه واحده.

ذكر بعض المفسرين أن الآيه السابقه التي ساوت بين عيسى و سائر الأنبياء.

أثارت اعتراض جمع من النصارى و قالوا: إن عيسى ليس كسائر الأنبياء، بل هو ابن الله، فنزلت هذه الآيه لتؤكد على انحراف هؤلاء و أنهم في شقاق.

ثم تثبت الآيه على قلوب المؤمنين و تبعث فيهم الثقة و الطمأنينه بالقول:

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ

لأقوالهم العليم بمؤامراتهم.

بحوث

اشاره

١- وحده دعوه الأنبياء

في مواضع عديده أكد القرآن على أن هدف الأنبياء واحد، و لا انفصال في خط النبوات، فكل الأنبياء عليهم السلام يصدر عن منبع الوحي الإلهي، و لذلك يوصى القرآن باحترام جميع الأنبياء، لكن هذا لا يمنع - كما قلنا - أن تنسخ كل رساله جديده تنزل من الله سبحانه الرسالات السابقه، و الإسلام خاتم الرسالات السماويه.

أنبياء الله كالمعلمين، ربى كل منهم البشريه في فصل دراسي، و بعد انتهاء المرحله الدراسيه الخاصه به يسلم المجتمع البشرى إلى معلم آخر ليجتاز الأفراد مرحله دراسيه أعلى. و من هنا فالمجتمع البشرى مكلف بتحمل مسئوليات ما يأتي به آخر نبي، و هذا لا يتعارض مع كون سائر الأنبياء على حق.

٢- من هم الأسباط؟

الأسباط جمع سبط، والأسباط أحفاد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً، أو أنهم قبائل من بني إسرائيل، والسبط في اللغة: الجماعة يرجعون إلى أب واحد، والسبط (على وزن درج) قد يأتي بمعنى: الشجر، والأسباط الذين هم من شجره واحده، ويقال: سبط عليه العطاء، إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الأسباط-إذن-ليس أبناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعاً ذنبا بحق أخيهم ولا يصلحون للنبوّه، بل المقصود قبائل بني إسرائيل، أو أحفاد يعقوب ممن كان لهم أنبياء. ولما كان بين هؤلاء الأسباط أنبياء، فالآية عدتهم بين أولئك الذين نزلت عليهم آيات الله.

٣- الحنيف

الحنيف، من ماده حنف: أى مال عن الأديان الباطله إلى الدين الحق، و به سميت الحنيفيه، لأنها مالت عن اليهوديه و النصرانيه. و عكس ذلك «جنف» أى مال عن الطريق المستقيم إلى الانحراف. و لهذا السبب كان أحد معانى الحنيف هو المستقيم و الذى لا عوج فيه.

و للمفسرين آراء فى الحنيفيه، منها حج بيت الله، و أتباع الحق، و أتباع إبراهيم، و الإخلاص فى العمل، و كلها ترجع إلى معنى عام و شامل، ما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.

اشاره

صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَسْأَلُونَكَ فِي اللَّهِ وَمَنْ رَّبُّكُمْ وَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ لَأَكْثَرُ
أَعْمَالِكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أ
أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ
لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

التفسير

اشاره

التَّخْلَى عَنْ غَيْرِ صِبْغَةِ اللَّهِ:

بعد الدَّعْوَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ لِاتِّبَاعِ الْأَدْيَانِ بِشَأْنِ انْتِهَاجِ طَرِيقِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوَّلُ آيَةٍ فِي بَحْثِنَا تَأْمُرُهُمْ جَمِيعًا بِتَرْكِ
كُلِّ صِبْغَةٍ، أَيْ دِينٍ، غَيْرِ «صِبْغَةِ اللَّهِ» (١).

ص: ٣٩٦

١- ١) - «صِبْغَةٍ» مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا مَفْعُولٌ مَطْلُوقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ أَيْ (اصْطَبَغُوا) صِبْغَةَ اللَّهِ، أَوْ أَنَّهَا بَدَلٌ مِنْ «مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»

ثم تضيف الآية: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً؟! أى لا أحسن من الله صبغه، وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ فى اتباع مله إبراهيم التى هى صبغه الله، وقيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته، لا ما صبغنا عليه الآباء والأجداد (١).

و بهذا أمر القرآن بالتخلي عن الصبغات العنصريه و الطائفيه و الذاتيه و عن كل الصبغات المفرّقه، و الاتجاه نحو صبغه الله.

ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم فى ماء أصفر اللون، و يسمونه غسل التعميد، و يجعلون ذلك تطهيرا للمولود من الذنب الذاتى الموروث من آدم! القرآن يرفض هذا المنطق الخاوى، و يقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهريه الخرافيه المفرقه، و تصطبغوا بصبغه الله، لتطهر روكم.

ما أجمل تعبير «الصبغه» فى هذه الآية! ما أروع هذه الدعوه إلى الاصطباغ بصبغه الله! لو حدث ذلك... لو اختارت البشريه صبغه الله... أى صبغه الطهر و التقوى و العداله و المساواه و الأخوه... صبغه التوحيد و الإخلاص... لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك و النفاق و التفرقه... إنها فى الحقيقه الصبغه التى لا لون بها و تطهر الإنسان من جميع الألوان.

و

عن الإمام الصادق عليه السلام: أن «صبغه الله» هى الإسلام (٢)، و هذا إشاره إلى ما ذكرناه.

كان اليهود و غيرهم يحاجون المسلمين بصور شتى، كانوا يقولون: إن جميع الأنبياء مبعوثون منا، و إن ديننا أقدم الأديان، و كتابنا أعرق الكتب السماويه.

(١)

فى الآيات المتقدمه، أو مفعول به لفعل محذوف و التقدير (اتبعوا صبغه الله) و الله أعلم!

ص: ٣٩٧

١-١) -مجمع البيان، الآية.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٢.

و كانوا يقولون: إن عنصرا نأسمى من عنصر العرب، و نحن المؤهلون لحمل الرسالة لا غيرنا، لأن العرب أهل أوثان.

و كانوا يدعون أحيانا أنهم أبناء الله و أن الجته لهم لا لغيرهم.

القرآن يرد على كل هذه الأقاويل و يقول: أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ .

فالله سبحانه ليس رب شعب أو قبيله معينه، إنه رب العالمين.

و اعلموا أيضا أن لا امتياز لأحد على غيره إلا بالأعمال، و كل شخص رهن أعماله و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم .

مع فارق، هو إن كثيرا منكم يشركون في توحيدهم: وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ .

الآيه التاليه تجيب على واحد آخر من هذه الادعاءات الفارغه و تقول: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَشْيَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى؟! ثم تجيب الآيه عن هذا الادعاء بشكل رائع فتقول: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ؟! فالله أعلم أنهم ما كانوا يهودا و لا نصارى.

و قد تعلمون أنتم أيضا أن هؤلاء الأنبياء أدوا رسالتهم قبل موسى و عيسى.

و إن كنتم لا- تعلمون فإطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم و تثبيت تهمه و ذنب، و كتمان للحقيقه و من أظلم ممن كتم شهادته عنده من الله .

اعلموا أنه و ما الله بغافل عما تعملون .

حين ينتهج الإنسان خط العناد و اللجاج فإن إعراضه عن الحقيقه لا حد له، ينكر أبسط المسلمات، و يرفض أوضح الواضحات. و الآيه تذكر نموذجا لذلك في هذه المجموعه التي بلغ بها العناد و اللجاج أن تعتبر أنبياء الله-الذين سبقوا موسى و عيسى من أمثال إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب-من اليهود أو النصارى.

و بذلك يكتمون حقيقه واضحه لها ارتباط بإيمان الناس و معتقداتهم، و لذلك يصف

القرآن هؤلاء الذين يكتمون الحقائق بأنهم أظلم الناس، لأنه لا ظلم أكبر من كتمان الحقائق عن الناس عمداً، وجزّ الآخرين إلى طريق الضلال.

في آخر آيه من الآيات التي نحن بصددّها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين: افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنه تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

الأمّة الحيه ينبغي أن تعتمد على أعمالها لا على ذكريات تاريخها، والإنسان يجب أن يستند إلى فضائله، لا أن يجترّ مفاخر الآباء و الأجداد.

الجزء الثاني من القرآن الكريم من الآيه مائه و اثنتين و أربعين إلى الآيه مائه و سبع و ثمانين من سوره البقره

ص: ٤٠١

اشاره

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
(١٤٢)

التفسير

اشاره

تغيير القبلة

هذه الآيه و آيات تاليه تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامى، كان له آثاره الكبيره فى المجتمع آنذاك.

رسول الإسلام صَلَّى الله عليه و اله و سلم صَلَّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدّه ثلاثه عشر عاما بعد البعثه فى مكه، و بضعه أشهر فى المدينه بعد الهجره. ثم تغيّرت القبلة، و أمر الله المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبه).

و اختلف المفسرون فى المدّه التى صَلَّى خلالها المسلمون بعد الهجره تجاه بيت المقدس، فذكروا مددا مختلفه تتراوح بين سبعة أشهر و سبعة عشر شهرا.

كانت الجماعه المسلمه تتعرض خلال كل هذه المدّه (مده صلاه المسلمين تجاه بيت المقدس) إلى لوم اليهود و تفريعهم، و كان اليهود يقولون عن المسلمين:

إن هؤلاء غير مستقلين لأنهم يصلون تجاه قبلتنا، وهذا دليل أننا على حق.

كانت هذه الأقوال تؤلم الرسول و صحبه، فالأمر الإلهي يوجب أن يصلوا تجاه بيت المقدس، و اليهود لا- ينفكون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم و تقريعهم.

و بلغ الأمر أن الرسول صَلَّى الله عليه و اله و سلم بدأ يقلب وجهه في السماء انتظارا للوحي.

و استمر الانتظار مدّة، حتى نزل الوحي يأمر بتغيير القبلة، كان الرسول صَلَّى الله عليه و اله و سلم في مسجد «بنى سالم» يصلى الظهر، فما إن أتت ركعتين حتى أمر جبرائيل أن يأخذ بعضد الرسول و يدير وجهه تجاه الكعبة (1).

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكلٍ آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، و القرآن الكريم يتحدث عن هذه الاعتراضات: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هي الصحيحة فلم هذا التغيير؟ و إن كانت الثانية صحيحة فلما ذا صلى المسلمون أكثر من ثلاثة عشر عاما تجاه بيت المقدس؟! و الله سبحانه يجب على هذا الاعتراض، فأمر رسوله أن قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

فليس لمكان قداسه ذاتيه، إنما يكتسب قداسه بإذن الله، و كل مكان ملك لله، و المهم هو الطاعة و الاستسلام لرب العالمين.

تغيير القبلة في الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهي، و كل مرحلة خطوه على الصراط المستقيم نحو الهدايه الإلهيه.

ص: ٤٠٤

١- «السفهاء» جمع «سفيه» أطلقت في الأصل على من خفت حركه جسمه، و قيل: زمام سفيه، أى كثير الاضطراب خفيف الوزن. ثم استعملت الكلمه فى خفه النفس لنقصان العقل فى الأمور الدينيه و الدنيويه.

٢- ذكرنا أن مسأله «النسخ» فى الأحكام و تغيير المنهج التربوى بتغير المراحل الزمانيه ليست مسأله غريبه جديده فى تاريخ الرسالات. لكن هؤلاء القوم العنودين الجدليين من اليهود اتخذوا من هذا التغيير ذريعه لإعلامهم المضاد، و القرآن يجيبهم بشكل يفهمهم.

٣- جمله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لَا - تعنى كما ذكرنا أن هدايه الله ليس لها حساب، لأن المشيئه الإلهيه تنطلق من «حكمه» الله، و من محاسبات المصالح و المفساد.

اشاره

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

التفسير

اشاره

الأمه الوسط

هذه الآيه تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أولاً: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا أى كما جعلنا القبلة وسطاً، كذلك جعلناكم أمه في حاله اعتدال، لا يشوبها إفراط ولا تفريط في كل جوانب حياتها.

أما سبب كون قبله المسلمين قبله وسطاً، فلأن النصارى-الذين يعيش معظمهم في غرب الكره الأرضيه- يولون وجوههم صوب الشرق تقريبا حين يتجهون إلى قبلتهم في بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح. و اليهود-الذين يتواجدون غالباً في الشامات و بابل- يتجهون نحو الغرب تقريبا حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أما «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين في المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفي خط وسط.

و هذا ما يفهم من عبارته «وكذلك»، وإن كان للمفسرين آراء أخرى في هذه العبارة لا تخلو من مناقشه.

القرآن يؤكد أن المنهج الإسلامي في كل أبعاده-لا في بعد القبلة فقط-يقوم على أساس التوازن والاعتدال.

والهدف من ذلك لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .

و«شهادة» الأمة المسلمة على الناس، و«شهادة» النبي على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الأسوة والقُدوة، لأن الشاهد ينتخب من بين أزرى الناس و أمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الأمة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة و منهج، كما أن النبي صلى الله عليه و اله و سلم فرد نموذجي بين أبناء الأمة.

الأمة المسلمة بعملها و بتطبيقها المنهج الإسلامي تشهد أن الإنسان بمقدوره أن يكون رجل دين و رجل دنيا... أن يكون إنسانا يعيش في خضم الأحداث الاجتماعية وفق معايير روحية و معنوية. الأمة المسلمة بمعتقداتها و مناهجها تشهد بعدم وجود أى تناقض بين الدين و العلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية إلى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ .**

الآية لم تقل: يتبعك، بل قالت: يتبع الرسول إشارة إلى أن هذا الإتياع إنما هو تسليم لأمر الله، و كل اعتراض إنما هو عصيان و تمرد على الله، و لا يصدر ذلك إلا عن مشرك جاهلي.

و عبارته **مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ** تعنى في الأصل الرجوع على مؤخر

الرجل، و تعنى هنا الانتكاس و التراجع.

ثم تضيف الآية: وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ .

لو لا الهدايه الإلهيه، لما وجدت فى نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر الله. المهم أن يكون الإنسان المسلم مستسلما إلى درجه لا يحسّ معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها و حلوتها.

و أمام وسوسه الأعداء المضللين و الأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون فى صحه ما سبق من العبادات قبل تغيير القبله، تقول الآية: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ .

فأوامر الله مثل و صفات الطيب لكل مرحله من مراحل العلاج- نسخه خاصه، و كلها شافيه وافيه تضمن سعادته الإنسان و سلامته، و العمل بأجمعها صحيح لا غبار عليه.

بحوث

إشاره

١- أسرار تغيير القبله

تغيير القبله من بيت المقدس إلى الكعبه أثار لدى الجميع تساؤلات عديده، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغى أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبله الصحيحه هى الكعبه، فلما ذا لم يؤمر المسلمون بالصلاه نحوها منذ البدء، و إن كانت بيت المقدس فلم هذا التغيير؟! و أعداء الإسلام وجدوا الفرصه سانحه لبث سمومهم و لإعلامهم المضاد.

قالوا إن تغيير القبله تمّ بدافع عنصري، و زعموا أن النّبي اتجه أولا- إلى قبله الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبله قومه بعد تحقيق انتصاراته! و قالوا: إن محمدا صلى الله عليه و اله و سلم أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبله له، و لَمَّا يئس منهم استبدل

الكعبة بها.

واضح مدى القلق و الاضطراب الذى تتركه هذه الوسوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم و الإيمان فى كل زواياه، و لم يتخلص بعد تماما من رواسب الشرك و العصبية.

لذلك تصرّح الآيه أعلاه أن تغيير القبلة اختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة ما يلى:

لما كانت الكعبة فى بدايه البعثه المباركه بيتا لأصنام المشركين، فقد أمر المسلمون مؤقتا بالصلاه تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الانفصال التام بين الجبهه الإسلاميه و جبهه المشركين.

و بعد الهجره و إقامه الدوله الإسلاميه و المجتمع الإسلامى، حدث الانفصال الكامل بين الجبهتين، و لم تعد هناك ضروره لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعده توحيديه، و أعرق مركز للأنبياء.

و من الطبيعى أن يستثقل الصلاه نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوى لقوميتهم، و أن يستثقلوا أيضا العوده إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وضعوا فى بوتقه الاختبار، لتخليصهم ممّا علّق فى نفوسهم من آثار الشرك، و لتقطع كل انشاداتهم بماضيهم المشرك، و لتنمو فى وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

إن الله سبحانه ليس له مكان و محل - كما ذكرنا- و القبلة رمز لوحده صفوف المسلمين و لإحياء ذكريات خط التوحيد، و تغييرها لا يغيّر شيئا، المهم هو الاستسلام الكامل أمام الله، و كسر أوثان التعصب و اللجاج و الأنانيه فى النفوس.

ص: ٤٠٩

«الوسط» ما توسط بين شيئين، و بمعنى الجميل و الشريف، و المعنيان يعودان ظاهرا إلى حقيقه واحده لأن الجمال و الشرف فيما اعتدل و ابتعد عن الإفراط و التفريط.

ما أجمل التعبير القرآني عن الأئمة المسلمه...الأئمة الوسط.

الوسط: المعتدله في «العقيده» لا- تسلك طريق «الغلو» و لا- طريق «التقصير و الشرك»، لا- تنحو منحى «الجبر» و لا- «التفويض»، و لا تؤمن «بالتشبيه» في صفات الله و لا «بالتعطيل».

معتدله في «القيم الماديه و المعنويه» لا تغط في عالم الماده و تنسى المعنويات، و لا تغرق في المعنويات و تنسى الماديات. ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى الماده، و ليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماما.

معتدله في «الجانب العلمى»... لا ترفض الحقائق العلميه، و لا تقبل كل نعره ترتفع باسم العلم.

معتدله في «الزوابط الاجتماعيه» لا- تضرب حولها حصارا يعزلها عن العالم، و لا تفقد استقلالها و تذوب في هذه الكتله أو تلك، كما نرى الذائبين في الشرق و الغرب اليوم! معتدله في «الجانب الأخلاقى»... في عباداتها... في تفكيرها... و في جميع أبعاد حياتها.

المسلم الحقيقى لا- يمكن إطلاقا أن يكون إنسانا ذا بعد واحد، بل هو إنسان ذو أبعاد مختلفه... مفكر، مؤمن، عادل، مجاهد، مكافح، شجاع، عطوف، واع، فعّال، ذو سماح.

عبارة الأئمة الوسط توضّح من جانب مسأله شهاده الأئمة الإسلاميه، لأن من يقف على خطّ الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط الانحرافيه المتجهه نحو

و من جانب آخر تحمل العبارة دليلها و تقول: «إنما كنتم شهداء على الناس لأنكم معتدلون و أنكم أمه وسط» (١).

٣- الامه الشاهده

لو اجتمعت الصفات التي ذكرناها للامه الوسط في أمه، فهذه الامه دون شك رائده للحق، و شاهده على الحقيقه، لأن مناهجها تشكل الميزان و المعيار لتمييز الحق عن الباطل.

ورد عن أمه أهل البيت عليهم السلام قولهم: «نحن الامه الوسطى، و نحن شهداء الله على خلقه و حججه في أرضه... نحن الشهداء على الناس... إلينا يرجع الغالى و بنا يرجع المقصر»

(٢)

مثل هذه الروايات- كما ذكرنا- لا تحدد المفهوم الواسع للآيه، بل تبين المصداق الأمثل للامه الوسط، و تعطى نموذجا متكاملًا لها.

٤- علم الله

عبارة لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ... و أمثالها من التعبيرات القرآنيه، لا- تعنى أن الله لم يكن يعلم شيئًا، ثم علم به بعد ذلك، بل تعنى تحقّق هذه الواقعيات.

بعبارة أوضح، الله سبحانه يعلم منذ الأنزل بكل الحوادث و الموجودات، و إن ظهرت بالتدرّيج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات و الأحداث لا يزيد الله علما، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان في علم الله. و هذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم إلى بناء عملي.

و المهندس يقول حين ينفذ تصميمه على الأرض: أريد أن أرى عمليا ما كان في

ص: ٤١١

١- ١) - المنار، تفسير الآيه المذكوره.

٢- ٢) - نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٤.

علمى نظرياً. (علم الله يختلف دون شك عن علم البشر اختلافاً كبيراً كما ذكرنا ذلك فى بحث صفات الله، وإنما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ تَوْضِيحَ حَقِيقَةِ الصَّعُوبَةِ فِى مَخَالَفَةِ الْعَادَةِ الْجَارِيَةِ، وَفِى التَّخْلِصِ مِنْ سَيِّطَرِهِ الْعَوَاطِفِ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ، إِلَّا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ حَقًّا، وَاسْتَسْلَمُوا لِأَمْرِهِ.

ص: ٤١٢

اشاره

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَهُ تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ
وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

التفسير

اشاره

كل الوجوه شطر الكعبه

ذكرنا أن بيت المقدس كان القبلة الاولى المؤقتة للمسلمين. و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان ينتظر الأمر الإلهي بتغيير القبلة، خاصة و أن اليهود استغلوا مسأله اشتراك المسلمين معهم فى القبلة، ليوجها سهاام إعلامهم المضاد للمجموعه المسلمه، مرددين أن المسلمين لا- استقلال لهم، و أنهم لا- يعرفون معنى القبلة و إنما اقتبسوه منّا، و أن قبولهم قبلتنا يعنى اعترافهم بديننا! و أمثال هذه الأفاويل.

الآيه تشير إلى هذه المسأله و تقول:

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَهُ تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

ذكرت الروايه- كما أشرنا من قبل- أن هذا الأمر الإلهي نزل فى لحظه

حساسه ملفته للأنظار، حين كان الرسول و المسلمون يؤدون صلاه الظهر. فأخذ جيرائيل بذراع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أدار وجهه نحو الكعبه. و تذكر الروايه أن صفوف المسلمين تغيّرت على أثر ذلك، و ترك النساء مكانهنّ للرجال و بالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريبا، بينما كان اتجاه الكعبه نحو الجنوب).

من المفيد أن نذكر أنّ تغيير القبلة من علامات نبي الإسلام المذكوره في الكتب السابقه. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النبي المبعوث «يصلّى إلى القبلتين».

لذلك تضيف الآيه: وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ .

أضف إلى ذلك أن دلائل نبوه رسول الإسلام، تحرره من التأثير بعبادات بيئته الاجتماعيه، و تركه الكعبه التي كانت موضع تقديس العرب، و اتجاهه نحو قبله أقلية محدوده.

ثم تقول الآيه: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء في كتبهم بشأن تغيير قبله نبي الإسلام، و يستغلون هذه الحادثه لإثارة ضجه بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلا على صدق دعوى النبي، سيلاقون جزاء أعمالهم، و الله ليس بغافل عن أعمالهم و نياتهم.

بحوث

اشاره

١-نظم الآيات

محتوى هذه الآيه يبين بوضوح أنها نزلت قبل الآيه التي سبقتها في الترتيب القرآني. ذلك لأن القرآن لم تجمع آياته حسب نزوله، بل كان ترتيب الآيات يتم استنادا إلى مناسبات معينه بتعيين من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و بأمر من الباري سبحانه.

(و من تلك المناسبات مثلا رعايه الأولويه و أهميه الموضوعات).

٢- انتظار صعب!

يستفاد من هذه الآيه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان مرتبطا بالكعبه ارتباطا خاصا، و منتظرا لأمر تغيير القبلة، و لعنا نستطيع أن نلمس سبب ذلك في ارتباط النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بإبراهيم عليه السلام، أضف إلى ذلك أن الكعبه أقدم قاعده توحيديه، و أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يعلم بوقوع هذا التغيير، و كان يترقب حدوثه.

و هنا تبرز ظاهره الاستسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردد على لسانه طلب بهذا الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظرا بتلّهُف نزول الوحي.

و تعبير «السماء» في الآيه قد يشير إلى انتظاره هبوط «جبرائيل» من الأعلى، و إلا فالله لا مكان له، و هكذا وحيه المرسل.

٣- معنى الشطر

يشير الالتفات أن الآيه لم تأمر المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبه، بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلك يعود إلى صعوبه بل تعذّر محاذاه الكعبه على المصلين البعيدين عن الكعبه. لذلك ذكر المسجد الحرام بدل الكعبه لأنه أوسع، ثم كلمه «شطر» تعنى سمت و الجانب، و بذلك كان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملا ميسورا للجميع، و خاصه لصفوف الجماعه الطويله التي يزيد طولها غالبا على طول الكعبه.

بديهي أن المحاذاه الدقيقه للكعبه -و حتى للمسجد الحرام- عمل صعب على المصلين البعيدين، لكن الوقوف شطره يخلو من كل صعوبه (١).

ص: ٤١٥

١-١) - من المفسرين من قال إن أحد معاني «شطر»: النصف، و من هنا فإن مفهوم «شطر المسجد الحرام» يساوى

كل خطابات القرآن هي دون شك-شامله لكل المسلمين- وإن اتجهت إلى النبي صلى الله عليه و اله و سلم (اللهم إلا- في مواضع دل الدليل على أنها خاصه بالنبي)، من هنا يطرح سؤال بشأن سبب اتجاه الآية التي نحن بصددتها في الخطاب إلى النبي تارة تأمره أن يصلي شطر المسجد الحرام، و تارة اخرى إلى عامه المسلمين.

هذا التكرار قد يعود إلى أن تغيير القبلة مسأله مثيره حساسه، و من الممكن أن تؤدي الضججه التي تثيرها هذه المسأله إلى اضطراب بين المسلمين، و قد يتذرع بعض في وسط هذه الضججه بأن الخطاب «فولّ وجهك» موجّه إلى النبي خاصه، فلا يصلى تجاه الكعبه. لذلك خاطبت الآية الرسول مره و عامه المسلمين مرّه اخرى لتؤكد أن هذا التغيير غير خاص بالرسول، بل يشمل عامه المسلمين أيضا.

٥- هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى النبي؟

عبارة «قبله ترضاها» قد توهم أن هذا التغيير تم إرضاء للنبي صلى الله عليه و اله و سلم، و يزول هذا التوهم لو علمنا أن بيت المقدس كان قبله مؤقتة، و أن النبي كان ينتظر القبلة النهائيه، و بصدور أمر التغيير وضع حد لظعن اليهود من جهه، و توفرت أرضيه استماله أهل الحجاز المرتبطين ارتباطا خاصا بالكعبه نحو الإسلام من جهه اخرى، كما أن إعلان بيت المقدس كقبله اولى أزال عن الإسلام الطابع القومى، و أسقط اعتبار الأصنام المتواجده في الكعبه.

٦- الكعبه مركز دائره كبرى

لو نظر شخص من خارج الكره الأرضيه إلى المصلين المسلمين لرأى دوائر

(١)

مفهوم «وسط المسجد الحرام» و نعلم أن الكعبه تقع وسط المسجد الحرام. (التفسير الكبير، الفخر الرازى، الآية المذكوره).

متعدده بعضها داخل بعض و تضيق بالتدريج لتصل إلى المركز الأصلي المتمثل بالكعبه. و هذه الصوره توضح محوريه و مركزيه بيت الله الحرام. و هذه ظاهره متميزه في الإسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضروره اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعنا على تطور علم الهيئه و علم الجغرافيا و الفلك عند المسلمين بسرعه مدهشه خلال العصور الإسلاميه الاولى، لأن معرفه جهه القبلة في مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسره من دون معرفه بهذه العلوم.

ص: ٤١٧

اشاره

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

التفسير

اشاره

لا يرضون بأى ثمن

مرّ بنا فى تفسير الآيه السابقه أن تغيير القبله من بيت المقدس إلى الكعبه لا- يمكن أن يثير شبهه حول النبى، بل إنه من دلائل صحه دعواه، فأهل الكتاب قد قرءوا عن صلاه النبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.

و الإنسان، حين لا يواجه المسائل بقناعات مسبقه، يكون مستعدا للتفاهم و لتصحيح تصوراته بالدليل و المنطق، أو عن طريق إراءه المعجزه.

أمّا حينما يكون قد كوّن له رأيا مسبقا قاطعا، و خاصّه حين يكون مثل هذا الفرد جاهلا متعصبا، فلا يمكن تغيير رأيه بأى ثمن.

لذلك تقول الآيه: وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ .

فلا تتعب نفسك إذن، لأن هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، و لا توجد فيهم روح طلب الحقيقه.

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الأفراد، و هم إما أثرياء متنفذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ .

أى إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مَرّه اخرى قبله المسلمين، فهذه هي القبلة الثابتة النهائية.

و هذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، و من الضروري فى مثل هذه الظروف أن يعلن الإنسان المسلم أمام الأعداء كلمته صريحه قويه، مؤكداً أنه لا ينثنى أمام هذه الانفعالات.

ثم تقول الآية: وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ .

لا النصرارى بتابعين قبله اليهود، و لا اليهود بتابعين قبله النصرارى.

ولمزيد من التأكيد و الحسم ينذر القرآن النبى و يقول: وَلَيَنْ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

و فى القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدى للنبى بأسلوب القضييه الشرطيه، و الهدف من ذلك ثلاثه أشياء:

الأول: أن يعلم الجميع عدم وجود أى تمييز بين الناس فى إطار القوانين الإلهيه، و حتى الأنبياء مشمولون بهذه القوانين. و من هنا فلو صدر عن النبى -على الفرض المحال- انحراف، فسيشمله العقاب الإلهى، مع استحاله صدور ذلك عن النبى (بعبارة اخرى القضييه الشرطيه لا تدل على تحقق الشرط).

الثانى: أن يتنبه الناس إلى واقعهم، فإذا كان ذلك شأن النبى، فمن الأولى أن يكونوا هم أيضا واعين لمسئولياتهم، و أن لا يستسلموا إطلاقا لميول الأعداء و ضجاتهم المفتعله.

الثالث: أن يتضح عدم قدره النبى على تغيير أحكام الله، و عدم إمكان الطلب إليه أن يغير حكما من الأحكام، فهو عبد أيضا خاضع لأمر الله تعالى.

اشاره

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

التفسير

اشاره

يعرفون حق المعرفه و لكن...

استمرارا لحديث القرآن عن تعصب مجموعه من أهل الكتاب و لجاجهم، تقول الآيه: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ .

إنهم يعرفون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَاسْمَهُ وَعَلَامَاتِهِ مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و هناك طبعا فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات و العلامات فى نبي الإسلام، مثل عبد الله بن سلام و هو من علماء اليهود، و نقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منى بابنى» (١).

هذه الآيه تميظ اللثام فى الواقع عن حقيقه هامه، هى إن صفات نبي الإسلام

ص: ٤٢٠

الجسميه و الروحيه و خصائصه كانت بقدر من الوضوح فى الكتب السماويه السابقه، بحيث ترسم الصوره الكامله فى أذهان المطلعين على هذه الكتب.

و هل من الممكن أن تصرح الآيه بوجود اسم النبى و علاماته فى كتب أهل الكتاب إذا لم تكن بالفعل موجوده عندهم؟! ألا يدل عدم معارضه علماء اليهود لهذا التصريح، بل اعتراف بعضهم به و استسلامهم للحق، أن اسم النبى الخاتم و صفاته كانت معروفه لديهم؟! هذه الآيات-إذن-دليل على صدق دعوه الرسول و صحه نبوته.

ثم تؤكد الآيه ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبله، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّرِينَ** أى المترددين.

و بهذه العبارة تثبت الآيه فؤاد النبى، و تنهاه عن أى ترديد أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبله و غيرها، و إن جئنا هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربه.

المخاطب فى الآيه و إن كان شخص النبى صلى الله عليه و اله و سلم، و لكن الهدف هو تربيته البشريه كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النبى المتصل بالوحى الإلهى لا يعتريه تردد، لأن الوحى بالنسبه له ذو جانب حسى و عين اليقين.

اشاره

وَ لِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ اَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا اِنَّ اللهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ (١٤٨)

التفسير

اشاره

لكل أمه قبله

هذه الآيه الكريمه ترد على الضجه التي أثارها اليهود حول تغيير القبله و تقول: وَ لِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا ۗ كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ وَ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ يُولُونَهَا، وَ لَيْسَتْ الْقَبْلَةُ كَأَصُولِ الدِّينِ لَا- تُقْبَلُ التَّغْيِيرُ، وَ لَا- أَمْرًا تَكْوِينِيًّا لَا يُمْكِنُ مَخَالَفَتُهُ، فَلَا تَطِيلُوا الْحَدِيثَ فِي أَمْرِ الْقَبْلَةِ، وَ بَدَلِ ذَلِكَ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، لِأَنَّ مَعْيَارَ الْقِيَمَةِ الْوُجُودِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ هِيَ أَعْمَالُ الْبِرِّ وَ الْخَيْرِ.

مثل هذا المعنى تضمنته الآيه ١٧٧ من هذه السوره: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ .

إن كنتم تريدون اختبار الإسلام أو المسلمين، فاختبروهم بهذه الأمور لا بمسأله تغيير القبله.

ثم تتغير لهجه الآية إلى نوع من التحذير و التهديد لأولئك المفترين، و التشجيع للمحسنين فتقول: **أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً** فى تلك المحكمه الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون و المشاغبون المخربون مع المحسنين المؤمنين، و لا بدّ من يوم ينال كل فريق جزاءه.

و قد يخال بعض أن جمع النَّاسِ لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثره لترتدى ثانيه حلّه الحياه؟! لذلك تجيب الآية بالقول: **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**.

هذه العبارة الأخيره فى الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقه: **أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً**.

بحثان

إشارة

١- يوم يجتمع أصحاب المهدي عليه السلام

ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير **أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً** أن المقصود بهم أصحاب المهدي عليه السّلام.

من ذلك

ما ورد فى «روضه الكافى» عن «الإمام الباقر» عليه السّلام أنه تلا الفقرة المذكوره من الآية ثم قال: «يعنى أصحاب القوائم الثلاثمائة و البضعه عشر رجلا، و هم و الله الأئمة المعدوده، قال: يجتمعون و الله فى ساعه واحده قزع (١) كقزع الخريف»

(٢)

و روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أيضا: «و ذلك و الله أن لو قام قائمنا يجمع الله إليه جميع شيعتنا من جميع البلدان»

(٣)

ص: ٤٢٣

٢-٢) - نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٩.

٣-٣) - مجمع البيان، الآية.

هذا التفسير للآيه دون شك يتحدث عن «بطن» الآيه، و الأحاديث ذكرت أن لكلام الله ظاهرا لعامة الناس، و باطنا لخاصتهم.

بعبارة اخرى: هذه الروايات تشير إلى حقيقه، هي إن الله القادر على أن يجمع الناس من ذرات التراب المتناثره في يوم القيامه، لقادر على أن يجمع أصحاب المهدي في ساعه بسهوله، من أجل انقذاح الشراره الاولى للثوره العالميه الرّاميه إلى إقامه حكم الله على ظهر الأرض، و إزالة الظلم و العدوان عن وجهها.

٢-عبارة وَ لِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فسرناها سابقا بأنها إشاره للقبلاّت المتعدده للأمم. و من المفسرين من توسع في المعنى و قال إنها تعبر عن القضاء و القدر التكوينيّين أيضا (تأمل بدقه) (١).

و لو خلت الآيه ممّا يحيطها من قرائن قبلها و بعدها لأمكن مثل هذا التفسير، لكن القرائن تدل على أن المراد هو المعنى الأول. و لو افترضنا أن الآيه تشير إلى المعنى الثّاني، فلا تعنى إطلاقا القضاء و القدر الجبريين، بل القضاء و القدر المنسجمين مع الإراده و الإختيار (٢).

ص: ٤٢٤

١-١) -تفسير الميزان، ج ١، ص ٣٣١.

٢-٢) -لمزيد من التوضيح راجع (انگيزه پيدايش مذهب) دافع وجود الدين، فصل القضاء و القدر.

اشاره

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

التفسير

الخوف من الله فقط هذه الآيات تتابع الحديث عن مسأله تغيير القبله و نتائجها.

الآيه الاولى تأمر النبي عليه السلام و تقول: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ... من أيه مدينه، و أيه ديار فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

و لمزيد من التأكيد تقول الآيه: وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ .

و تنتهي الآيه بتهديد المتأمرين: وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

هذه التأكيدات المتواليه في الآيه و في الآيه التاليه تبين أن مسأله تغيير القبله كانت صعبه و ثقيله على مجموعه من المسلمين حديثي العهد بالإسلام، كما كانت

ذريعه بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبث سموهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائما موقفا قاطعا حاسما ينهى كل شك و ريبه، من هنا توالى التأكيدات القرآنيه القارعه لتبعث العزم و اليقين فى نفوس الأتباع، و تعمق اليأس و الخيبه بين الأعداء. و هذا أسلوب اتبعه القرآن فى مواقف عديده.

إضافه إلى ما سبق، فالتكرار فى هذه الآيات يتضمن أيضا أحكاما جديده.

على سبيل المثال، الآيات السابقه و ضحت حكم القبله فى المدينه التى يسكنها المسلمون. و هذه الآيه و الآيه التاليه أوضحت الحكم لدى السفر و الخروج من المدن و الديار.

الآيه التاليه كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .**

صحيح أن هذه العبارة القرآنيه تخاطب النبى صلى الله عليه و اله و سلم، لكنها تقصد دون شك مخاطبه عامه المسلمين، و لمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التاليه المسلمين و تقول: **وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .**

ثم تشير الآيه إلى ثلاث مسائل هامه:

١- إجماع المعارضين - تقول الآيه: **لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ .**

قبل تغيير القبله كانت ألسنه المعارضين من اليهود و المشركين تقذف المسلمين بالتهم و الحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النبى الموعود يصلى إلى قبلتين، و هذه العلامه غير متوفره فى محمد صلى الله عليه و اله و سلم، و المشركون يعترضون على النبى صلى الله عليه و اله و سلم قائلين: كيف ترك محمد الكعبه و هو يدعى أنه بعث لإحياء مله إبراهيم.

هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، و أن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآيه: **إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .**

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاه

اتهموكم بالذليله و عدم الأصاله، و حين عدلتم إلى الكعبه و صفوكم بعدم الثبات! هؤلاء المفترون ظالمون حقاً... ظالمون لأنفسهم، و ظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهدايه.

٢- حين وصف الآيه هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفاً في نفوس البعض لذلك قالت الآيه: **فَلَا تَخْشَوْهُمْ** وَ **أَخْشَوْنِي** .

و هذه الفقره من الآيه تطرح أصلاً عاماً أساسياً من أصول التربيه التوحيديه الإسلاميه، هو عدم الخوف من أى شىء سوى الله (أو بعبارته أصح الخوف فقط من معصيه الله)، و إذا ترسخ هذا المبدأ التربوي في نفوس الجماعه المسلمه، فلن تفشل و لن تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تاره، و من «الغرب» تاره اخرى، و من «المنافقين الداخلين» و من «الأعداء الخارجيين» و من كل شىء سوى الله. و هؤلاء دائماً أذلاء ضعفاء مهزومون.

٣- و آخر هدف ذكر لتغيير القبله هو إتمام النعمه: **وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** .

تغيير القبله كان في الواقع نوعاً من التربيه و التكامل و النعمه للمسلمين كي يتعرفوا على الانضباط الإسلامى و يتخلصوا من التقليد و التعصب، فالله سبحانه أمر المسلمين في البدايه أن يصلوا تجاه بيت المقدس كي تنزل صفوف المسلمين - كما قلنا - عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبه. و بعد الهجره و إقامة الدوله الإسلاميه صدر الأمر بالصلاه نحو الكعبه... نحو أقدم بيت توحيدى، و بذلك تحقق اجتياز مرحله من مراحل تكامل المجتمع الإسلامى.

اشاره

كَلِمًا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

التفسير

اشاره

مهمته رسول الله:

ذكرت الفقرة الأخيره من الآيه السابقه أن أحد أسباب تغيير القبله هو إتمام النعمه على الناس و هدايتهم،و الآيه أعلاه ابتدأت بكلمه «كما» إشاره إلى أن تغيير القبله ليس هو النعمه الوحيده التي أنعمها الله عليكم،بل منّ عليكم بنعم كثيره كما أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ .

و كلمه «منكم»قد تعنى أن الرسول بشر مثلكم،و الإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربّى البشر و قدوتهم و أن يتحسس آمالهم و آلامهم،و تلك نعمه كبرى أن يكون الرسول بشرا «منكم».

و قد يكون المعنى أنه من بنى قومكم و وطنكم،فالعرب الجاهليون قوم متعصبون عنصريون،و ما كان بالإمكان أن يخضعوا لنبي من غير قومهم،كما قال سبحانه في الآيتين:(١٩٨ و ١٩٩)من سوره الشعراء: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ

الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ .

كان هذا طبعا المرحلة الاولى من الدعوه، و فى المراحل التاليه ألغيت مسائل القوميه و الوطن (الجغرافى)، و ربّى الإسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالمية» كوطن، و «الإنسانيه» كقوميه.

بعد ذكر هذه النعمه يشير القرآن إلى أربع نعم عادت على المسلمين ببركه هذه النبى صلى الله عليه و اله و سلم:

١- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا، و يتلو من التلاوه، أى من إتيان الشىء متواليا، و الإتيان بالعبارات المتواليه (و بنظام صحيح) هى التلاوه.

النبى صلى الله عليه و اله و سلم إذن يقرأ عليكم آيات الله متتاليه، لتنفذ إلى قلوبكم، و لإعداد أنفسكم إلى التعليم و التريه.

٢- وَ يُزَكِّكُمْ .

و «التزكيه» هو الزياده و الإنماء، أى إنّ النبى بفضل آيات الله يزيدكم كمالاتا ماديا و معنويا، و ينمى أرواحكم، و يربى فى أنفسكم الطهر و الفضيله، و يزيل ألوان الرذائل التى كانت تغمر مجتمعكم فى الجاهليه.

٣- وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ .

التعليم طبعا مقدم بشكل طبيعى على التريه، و لكن القرآن- كما ذكرنا- يقدم التريه فى مواضع تأكيدا على أنها هى الهدف النهائى.

الفرق بين «الكتاب» و «الحكمه» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشاره إلى آيات القرآن و الوحي الإلهى النازل على النبى بشكل إعجازى، و الحكمه حديث النبى صلى الله عليه و اله و سلم و تعاليمه المسماه بالسنه.

و قد يكون الكتاب إشاره إلى أصل التعاليم الإسلاميه، و الحكمه إشاره إلى أسرارها و عللها و نتائجها.

و من المفسرين من احتمال أن «الحكمه» إشاره إلى الحاله و الملكه الحاصله من تعاليم الكتاب. و بامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع الأمور في نصابها (١).

صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمه «السنه»، و يستدل على رفضه بالآيه الكريمه ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ (٢).

لكننا نعتقد أن الحكمه لها معنى واسع يشمل الكتاب و السنه معا، أما استعمالها القرآني مقابل «الكتاب» (كما في هذه الآيه) فيشير إلى أنها «السنه» لا غير.

٤- وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ و هذا الموضوع طرحته الفقرات السابقه من الآيه، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب و الحكمه. لكن القرآن عاد فأكد ذلك في فقره مستقله تنبئها على أن الأنبياء هم الذين بينوا لكم المعارف و العلوم، و لولا هم لخفى كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قاده أخلاقيين و اجتماعيين فحسب، بل كانوا هداه طريق العلم و المعرفه، و بدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانيه.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهيه في الآيه، تذكر الآيه التاليه أن هذه النعم تستدعي الشكر، و بالاستفاده الصحيحه من هذه النعم يؤدي الإنسان حق شكر البارئ تعالى: فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ .

واضح أن عبارته فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ لا تشير إلى معنى عاطفي بين الله و عباده كما يقول الناس لبعضهم ذلك. بل تشير إلى أصل تربوي و تكويني، أي اذكروني... اذكروا الذات المقدسه التي هي معدن الخيرات و الحسنات و المبررات و لتطهر أرواحكم و أنفسكم، و تكون قابله لشمول الرحمه الإلهيه. ذكركم لهذه الذات المقدسه يجعل تحرككم أكثر إخلاصا و مضاء و قوه و اتحادا.

كذلك المقصود من «الشكر و عدم الكفران» ليس تحريك اللسان بعبارات

ص : ٤٣٠

١- ١) - في ظلال القرآن، ج ١، ص ١.

٢- ٢) - الإسراء، ٣٩.

الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمه في محلها و على طريق نفس الهدف الذى خلقت له، كى يؤدى ذلك الى زياده الرحمه الإلهيه.

بحثان

اشاره

١- أقوال المفسرين فى تفسير فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

للمفسرين آراء متنوعه فى تفسير هذه الآيه، و فى بيان كيفية ذكر العبد و ذكر الله.

الفخر الرازى فى تفسيره لخصها فى عشره:

١- اذكرونى «بالإطاعه» كى اذكركم «برحمتى». و الشاهد على ذلك قوله تعالى: [□]وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١).

٢- اذكرونى «بالدعاء» كى اذكركم «بالإجابه»، دليل ذلك قوله تعالى:

أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .

٣- اذكرونى «بالثناء و الطاعه» لأذكركم «بالثناء و النعمه».

٤- اذكرونى فى «الدنيا» لأذكركم فى «الآخره».

٥- اذكرونى فى «الخلوات» كى اذكركم فى «الجمع».

٦- اذكرونى «لدى وفور النعمه» لأذكركم فى «الصعاب».

٧- اذكرونى «بالعباده» لأذكركم «بالعون»، و الشاهد على ذلك قوله: [□]إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

٨- اذكرونى «بالمجاهده» لأذكركم «بالهدايه»، الشاهد على ذلك قوله

ص: ٤٣١

سبحانه فى الآيه ٦٩ من سورة العنكبوت: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .

٩- اذكرونى «بالصدق و الإخلاص» لأذكركم «بالخلاص و مزيدا للاختصاص».

١٠- اذكرونى «بالربوبيه» لأذكركم بالرحمه. دليل ذلك مجموع آيات سورة الحمد. (١)

كل واحده من التفاسير المذكوره هى طبعاً مظهر من مظاهر المعنى الواسع للآيه. و لا تقتصر هذه المظاهر على ما سبق فيشمل المعنى أيضاً: اذكرونى «بالشكر» لأذكركم «بزيادة النعمه» كما ورد فى قوله سبحانه: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٢) كل ذكر لله- كما قلنا- له أثر تربوى فى وجود الإنسان إذ يجعل روحه مستعدة لنزول بركات جديده متناسبه مع طريقه الذكر.

٢- المقصود من ذكر الله

من المؤكد أن ذكر الله ليس بتحريك اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجه بكل الوجود إلى ذات البارى سبحانه، ذلك التوجه الذى يصون الإنسان من الذنب و يدعوهُ إلى الطاعه.

و من هنا ورد فى أحاديث عديده عن المعصومين: أن ذكر الله ليس باللسان فحسب، و من ذلك

حديث عن الرسول صلى الله عليه و اله و سلم يوصى به علياً قائلاً:

«ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساه للأخ فى ماله، و إنصاف الناس من نفسه، و ذكر

ص: ٤٣٢

(١- ١) - التفسير الكبير، الفخر الرازى، ج ٤، ص ١٤٤، مع شىء من التصرف.

(٢- ٢) - إبراهيم، ٧.

اللّٰه على حال، و ليس هو سبحانه اللّٰه و الحمد لله و لا- إله إلا اللّٰه و اللّٰه أكبر، و لكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللّٰه تعالى عنده و تركه»

(١)

على أيه حال، لا ينبغي أن نغفل عن الروعه في هذا الاقتران...اللّٰه سبحانه على عظمته و جلاله و جبروته يقرن ذكره بذكر عبده الضعيف المحدود الصغير، إنه تكريم ما بعده تكريم للإنسان.

ص: ٤٣٣

(١ - ١) - كتاب الخصال، نقلا عن تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٤٠.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَ
لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

سبب النزول

روى عن ابن عباس بشأن نزول الآيه الثانيه إنها نزلت فى قتلى بدر، و عددهم أربعة عشر، ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار. و بعد انتهاء الغزوه قال بعض المسلمين عن هؤلاء الشهداء إنهم «أموات» فنهت الآيه عن ذلك.

التفسير

اشاره

الشهداء أحياء

الآيات السابقه عرضت مفاهيم التعليم و الترييه و الذكر و الشكر، و هى مفاهيم ذات معنى واسع جدا، و تتضمن أغلب التعاليم الدينيه، و فى الآيه الاولى من آيتى بحثنا دار الحديث حول الصبر الذى لا تتحقق المفاهيم السابقه بدونه.

تقول الآيه أولا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ .

واجهوا المشاكل و الصعاب بهاتين القوتين، فالنصر حليفكم: إِنَّ اللَّهَ مَعَ

خلافًا لما يتصور بعض النَّاسِ «الصَّبْر» لا يعنى تحمل الشقاء و قبول الذله و الاستسلام للعوامل الخارجيه، بل الصبر يعنى المقاومه و الثبات أمام جميع المشاكل و الحوادث.

لذلك قال علماء الأخلاق إن الصبر على ثلاث شعب:

الصبر على الطاعة: أى المقاومه أمام المشاكل التى تعترى طريق الطاعه.

الصبر على المعصيه: أى الثبات أمام دوافع الشهوات العاديه و ارتكاب المعصيه.

الصبر على المصيبه: أى الصمود أمام الحوادث المرّه و عدم الانهيار و ترك الجزع و الفزع.

قلّما كرر القرآن موضوعا و أكد عليه كموضوع «الصبر»، ففى سبعين موضعا قرآنيا تقريبا دار الحديث عن الصبر. بينها عشره تختص بالنبي صلى الله عليه و اله و سلم.

تاريخ العظماء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم- بل أهمها- صبرهم و استقامتهم. و الأفراد الفاقدون لهذه الصفه سرعان ما ينهزمون و ينهارون. و يمكن القول أن دور هذا العامل فى تقدم الأفراد و المجتمعات يفوق دور الإمكانيات و الكفاءات و الذكاء و نظائرها.

من هنا طرح القرآن هذا الموضوع بعبارات مؤكده كقوله تعالى: **إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١)** و فى موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: **فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٢)** من خصائص الصبر أن بقيه الفضائل لا يكون لها قيمه بدونّه، لأن السند

ص: ٤٣٥

١-١) - الزمر، ١٠.

٢-٢) - لقمان، ١٧.

و الرصيد في جميعها هو الصبر، لذلك

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام: «و عليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، و لا خير في جسد لا رأس معه و لا في إيمان لا صبر معه»

(١)

الروايات الإسلامية ذكرت أن أسمى مراحل الصبر ضبط النفس تتجلى في مقاومه الإنسان عند توفر وسائل المعاصي و الذنوب.

الآية التي يدور حولها بحثنا تؤكد للجماعة المسلمة التأثير في صدر الإسلام خاصة أن الأعداء يحيطونهم من كل حذب و صوب، و تأمرهم أن يستعينوا بالصبر أمام الحوادث، فنتيجة ذلك استقلال الشخصية و الاعتماد على النفس و الثقة بالذات في كنف الإيمان بالله. و تاريخ الإسلام يشهد بوضوح أن هذا الأصل كان أساس كل الانتصارات.

الموضوع الآخر الذي أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاة».

و روى أن علياً عليه السلام: «كان إذا أهاله أمر فرغ قام إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية: **إِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ...**»

(٢)

و لا- عجب في ذلك، فالإنسان حين يرى نفسه أمام عواصف المشاكل المضنيه، و يحسّ بضعفه في مواجهتها، يحتاج إلى سند قوى لا متناه يعتمد عليه.

و الصلاة تحقق الارتباط بهذا السند، و تخلق الطمأنينه الروحيه اللازمه لمواجهه التحديات.

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامّين: الأول- الاعتماد على الله، و مظهره الصلاة، و الآخر- الاعتماد على النفس، و هو الذي عبرت عنه الآية بالصبر.

و بعد ذكر الصبر و الاستقامه تتحدث الآية التاليه عن خلود الشهداء، الذين يجسّدون أروع نماذج الصابرين على طريق الله.

ص: ٤٣٦

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٨٢.

٢-٢) - الكافي، نقلا عن الميزان، ج ١، ص ١٥٤.

تقول الآية: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ثُمَّ توكّد هذا المفهوم ثانيه بالاستدراك بَلْ أَمْوَاتٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ .

في كل حركة-أساسا-تنزوي مجموعه محبه للعافيه،و تتعد عن الامه النائره،و لا تكتفى هي بالتعاس و التكاسل،بل تسعى إلى تثبيت عزائم الآخرين و بثّ الرخوه و التماهل في المجتمع. و ما أن تظهر حادثه مؤلمه حتى يعربون عن أسفهم و ينقمون على الحركة التي أدت إلى هذه الحادثه،غافلين أن كل هدف مقدس يحتاج إلى توضيحات،و تلك سنه كونه.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئه كرارا و يؤنبهم بشده.

ثمه أفراد من هؤلاء كانوا يتظاهرون بالتأسف و التألم على(موت)شهيد من شهداء الإسلام في المعركة،و يبعثون بذلك القلق و الاضطراب في النفوس.

و الله سبحانه يرد على هذه الأقاويل السامه بالكشف عن حقيقه كبرى هي إن الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله ليسوا بأموات...هؤلاء أحياء...و يتمتعون بنعم الله و رضوانه،لكن البشر المحدودين في عالم الحس لا يدركون هذه الحقائق.

بحوث

اشاره

١-خلود الشهداء

للمفسرين آراء مختلفه في معنى حياه الشهداء و خلودهم.ظاهر الآيه يشير دون شك إلى أنهم يتمتعون بنوع من الحياه البرزخيه الروحيه،لأن أجسامهم قد تلاشت،فهم يعيشون تلك الحياه بجسم مثالي (١) كما يقول الإمام الصادق عليه السلام (٢).

ص: ٤٣٧

١-١) -سنشرح ذلك في تفسير الآيه ١٠٠ من سوره(المؤمنون).«و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون».

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٥٩.

من المفسرين من قال إنها «حياه غيبية» خاصه بالشهداء لا تتوفر لدينا تفاصيلها و خصائصها.

و قيل إن الحياه المذكوره فى الآيه تعنى الهدايه، و الموت يعنى الضلال، فتكون الآيه قد نهت عن وصف الشهداء بالضلاله، بل هم مهتدون. و قيل إن الشهداء أحياء لأن هدفهم حى و رسالتهم حيه.

و لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار التفسير الأول للحياه يتضح أن المعانى فى الاخرى غير مقبوله. فلا حاجه لأن نتكلف التفسيرين التاليين، و لا- أن الحياه البرزخيه مختصه بالشهداء فهم يحيون حياه برزخيه روحانيه، و يتنعمون كذلك بالقرب من رحمه الله و بأنواع نعمه.

٢- الشَّهاده سعاده فى الإسلام

قرر الإسلام مسأله الشهاده و بيّن منزلتها العظيمه فى الآيه أعلاه و آيات اخرى لتكون عاملاً فعّالاً هاماً على ساحه المواجهه بين الحق و الباطل. و هذا العامل أمضى من أى سلاح و أقوى من كل المؤثرات، و هو قادر على أن يجابه أخطر الأسلحه و أفتكها فى عصرنا الراهن، و تجربه الثوره الإسلاميه فى إيران أثبتت ذلك بوضوح. و قد شاهدنا بأمر أعيننا انتصار المندفعين نحو الشهاده- بالرغم من ضعف إمكاناتهم الماديه- على أعتى القوى المتجبره.

و لو ألقينا نظره على تاريخ الإسلام، و الملاحم التى سطرها المسلمون فى جهادهم الدّامى، و التضحيات التى قدمها المجاهدون على طريق الرساله، لألقينا أن الدافع الأساس لكل هذه التضحيات هو درس الشهاده الذى لقنه الإسلام لأبنائه، و بموجبه آمنوا أن الشهاده على طريق الله و طريق الحق و العداله لا تعنى الفناء، بل السعاده و الحياه الخالده.

المقاتلون الذين تلقوا مثل هذا الدرس فى مثل هذه المدرسه الكبرى، لا

يقاسون بالمقاتلين العاديين الذين يفكرون في صيانه ارواحهم. أولئك يحاربون من أجل الرساله و يندفعون بشوق عظيم نحو كسب و سام الشهاده.

٣- الحياه البرزخيه و بقاء الروح

هذه الآيه تثبت بوضوح بقاء الروح و الحياه البرزخيه للبشر(الحياه بعد الموت و قبل البعث)،و تردّ بصراحه على أولئك الذين ينكرون تعرض القرآن للحياه البرزخيه و بقاء الروح.

سنفصل الحديث في هذا الموضوع،و في موضوع خلود الشهداء و منزلتهم العظيمه،في المجلد الثاني من هذا التفسير عند تناولنا الآيه ١٦٩ من سوره آل عمران.

ص: ٤٣٩

اشاره

وَ لَنْبُلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

التفسير

اشاره

الدنيا دار اختبار إلهي

بعد ذكر مسأله الشهاده فى سبيل الله، و الحياه الخالده للشهداء، و مسأله الصبر و الشكر... و كلها من مظاهر الاختبار الإلهي، تعرضت هذه الآيه للاختبار الإلهي العام، و لمظاهره المختلفه، باعتباره سنه كونه لا تقبل التغيير وَ لَنْبُلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ .

و لما كان الإنتصار فى هذه الاختبارات، لا يتحقق إلا فى ظل الثبات و المقاومه، قالت الآيه بعد ذلك وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ .

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآيه التاليه تعرف الصابرين و تقول: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ

الإقرار التام بالعبودية المطلقة لله، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنه سبحانه مالكا و مالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إياها، و إن استوجبت المصلحه أخذها منا، و فى المنحه و المحنه مصلحه لنا.

و الالتفات المستمر إلى حقيقه عودتنا إلى الله سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياه، و بأن نقص المواهب الماديه و وفورها غرض زائل، و وسيله لارتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبوديه و العوده فى عباره **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** له الأثر الكبير فى تعميق روح المقاومه و الاستقامه و الصبر فى النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقه، و الالتفات إلى ما تنطوى عليه من توحيد و إيمان.

و آخر آيه فى بحثنا هذا، تتحدث عن الألفاظ الإلهيه الكبرى، التى تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهيه: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ (١)**.

هذه الصلوات و الرحمه تجعل هؤلاء على بصيره من أمرهم، فى مسيرتهم الحياتيه المحفوفه بالمزالق و الأخطار، لذلك تقول الآيه: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**.

و بهذه العبارات المختصره المقتضبه، يطرح القرآن مسأله الامتحان الكبير بأبعاده المختلفه، و عوامل النجاح فيه و نتائجه.

ص: ٤٤١

١-١) - قيل إن الصَّلوات هنا ألوان التكريم و التأييد و رفعه المقام، و عن ابن عباس أنها غفران الذنوب (المنار، ج ٢، ص ٤٠)، و واضح أن الصَّلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور و سائر النعم الإلهيه.

١- لماذا الاختبار الإلهي؟

فى مجال الاختبار الإلهى تطرح بحوث كثيرة، و أول ما يتبادر للذهن فى هذا المجال هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجعله عنهم. فهل أن الله سبحانه و تعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعباده، و هو العالم بكل الخفايا و الأسرار؟! و هل هناك شىء خفى عنه حتى يظهر له بهذا الامتحان؟! و الجواب أن مفهوم الاختبار الإلهى يختلف عن الاختبار البشرى.

اختباراتنا البشرية-هى كما ذكرت آنفا-تستهدف رفع الإبهام و الجهل، و الاختبار الإلهى قصده «التربية».

فى أكثر من عشرين موضعا تحدث القرآن عن الاختبار الإلهى، باعتباره سنّه كونه لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنه، و نقلها من القوّه إلى الفعل، و بالتالى فالاختبار الإلهى من أجل تربيته العباد، فكما أن الفولاذ يتخلص من شوائبه عند صهره فى الفرن، كذلك الإنسان يخلص و ينقى فى خضمّ الحوادث، و يصبح أكثر قدره على مواجهه الصعاب و التحديات.

الاختبار الإلهى يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحه فى الأرض الصالحه، كى تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعه و تبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذره كل المشاكل و الصعاب بالتدرىج، و تقاوم الحوادث المختلفه كالرياح العاتيه و البرد الشديد و الحر اللافح، لتخرج بعد ذلك نبتة مزهره أو شجره مثمره، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

و من أجل تصعيد معنويات القوات المسلحه، يؤخذ الجنود إلى مناورات و حرب اصطناعيه، يعانون فيها من مشاكل العطش و الجوع و الحر و البرد و الظروف الصعبه و الحواجز المنيعه.

و هذا هو سرّ الاختبارات الإلهيه.

يقول سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز: **وَ لِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** (١).

و يقول أمير المؤمنين على عليه السلام في بيان سبب الاختبارات الإلهية: «...و إن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، و لكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب و العقاب»

(٢)

أى أن الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معيارا للثواب و العقاب، فلا بد أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، و الله يختبر عباده ليتجلى ما يضمرونه في أعمالهم، و لكي تنتقل قابلياتهم من القوه إلى الفعل، و بذلك يستحقون الثواب أو العقاب. لو لم يكن الاختبار الإلهي لما تفجرت هذه القابليات، و لما أثمرت الكفاءات، و هذه هي فلسفه الاختبار الإلهي في منطق الإسلام.

٢- الاختبار الإلهي عام

نظام الحياه في الكون نظام تكامل و تربيته، و كل الموجودات الحيه تطوى مسيره تكاملها، حتى الأشجار تعبّر عن قابلياتها الكامنه بالأثمار، من هنا فإن كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهي كي تنجلي قدراتهم.

الامتحانات تشمل الجميع و إن اختلفت شدتها و بالتالي تختلف نتائجها أيضا، يقول سبحانه: **أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ** (٣).

القرآن يعرض نماذج لاختبارات الأنبياء إذ يقول: **وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** (٤).

و يقول في موضع آخر بشأن اختبار سليمان: **فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ:**

هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...

(٥)

ص: ٤٤٣

١-١ - آل عمران، ١٥٤.

٢-٢ - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٩٣.

٣-٣) - العنكبوت، ٢.

٤-٤) - البقره ١٢٤.

٥-٥) - النمل، ٤٠.

٣- طرق الاختبار

ذكرت الـايه أعلامه نماذج ممّا يختبر به الإنسان، كالخوف و الجوع و الأضرار المـاليه و الموت... لكن سبل الاختبار الإلهي لا تنحصر بما تقدم فذكر القرآن منها فى مواضع اخرى: البنين، و الأنبياء، و أحكام الله، بل حتى بعض ألوان الرؤيا:

وَ نَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَ الْخَيْرِ

(١)

نعلم أن الناس إزاء الاختبارات الإلهيه على نوعين: متفوق فى الامتحان، و خاسر.

فحيثما تسود حاله «الخوف» مثلا، ترى جماعه يتراجعون كى لا- يصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤليه، أو يلجأون إلى المداهنه أو التماس الأعذار، كقولهم الذى يحكيه القرآن: نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (٢).

و ثمة جماعه تقف كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، تزداد تو كلاً و إيماناً، و هؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (٣).

و هكذا موقف الناس من ألوان الامتحانات الاخرى، يعرض القرآن نماذج لموقف الناجحين و الفاشلين فى الاختبار الإلهي، سنتناولها فى مواضعها.

٤- عوامل النجاح فى الامتحان

هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، و هو أنه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للامتحان الإلهي، فما هو السبيل لـحراز النجاح و التوفيق فى هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل فى القسم الأخير من آيه بحثنا و فى آيات اخرى:

ص: ٤٤٤

١-١) - الأنبياء، ٣٥.

٢-٢) - المائدة، ٥٢.

٣-٣) - آل عمران، ١٧٣.

١-أهم عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارته: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، فالآية تبشّر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، و مؤكده أن الصبر رمز الانتصار.

٢-الالتفات إلى أن نكبات الحياه و مشاكلها مهما كانت شديده و قاسيه فهي مؤقتة و عابره و هذا الإدراك يجعل كل المشاكل و الصعاب عرضا عابرا و سحابه صيف، و هذا المعنى تضمنته عبارته: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

«كلمه الاسترجاع» هذه خلاصه كل دروس التوحيد، و الانقطاع إلى الله، و الاعتماد على ذاته المقدسه فى كل شىء و فى كل زمان. و أولياء الله ينطلقون من هذا التعليم القرآنى، فيسترجعون لدى المصائب كى لا تهزمهم الشدائد، و كى يجتازوا مرحله الاختبار بسلام فى ظل الإيمان بمالكيه الله و الرجوع إليه.

قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى تفسير الاسترجاع: «إِنَّ قَوْلَنَا: إِنَّا لِلَّهِ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمَلِكِ، وَ قَوْلُنَا: إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهَلِكِ».

(١)

٣-الاستمداد من قوه الإيمان و الألفاف الإلهيه عامل مهم آخر فى اجتياز الاختبار دون اضطراب و قلق و فقدان للتوازن. فالسائرون على طريق الله يتقدمون بخطوات ثابتة و قلوب مطمئنه لوضوح النهج و الهدف لديهم. و ترافقهم الهدايه الإلهيه فى اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (٢).

٤-التدقيق فى تأريخ الأسلاف، و إمعان النظر فى مواقفهم من الاختبارات الإلهيه، عامل مؤثر فى إعداد الإنسان لاجتياز الامتحان الإلهي بنجاح.

لو عرف الإنسان بأن ما أصيب به ليس حاله شاذة، و إنما هو قانون عام شامل لكل الأفراد و الجماعات، لهان الخطب عليه، و لتفهم حاله بوعى، و لاجتاز مرحله بمقاومه و ثبات. و لذلك يثبت الله سبحانه على قلب نبيه و المؤمنين

ص: ٤٤٥

١- (١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٩٩.

٢- (٢) - العنكبوت، ٦٩.

باستعراض تاريخ الماضين، وما واجهه الأنبياء، والفئات المؤمنه من محن و مصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ . (١).

و يقول تعالى: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا (٢).

٥-الالتفات الى حقيقه علم الله سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر فى التثبيت و زياده المقاومه.

المتسابقون فى ساحة اللعب يشعرون بالارتياح حينما يعلمون أنهم فى معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، و يندفعون بقوة أكثر فى تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الأصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤيه الله لما يجرى على الإنسان و هو على ساحة الجهاد و المحنه؟! ما أعظم القوه التى يمنحها هذا الاستشعار لمواصله طريق الجهاد و تحمل مشاق المحنه! حين واجه نوح عليه السلام أعظم المصائب و الضغوط من قومه و هو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الإلهى ليقول له: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (٣).

و عبارته «بأعيننا» كان لها-دون شك- وقع عظيم فى نفس هذا النبى الكريم، فاستقام و واصل عمله حتى المرحله النهائيه دون الالتفات إلى تقريع الأعداء و استهزائهم.

ورد عن سيد الشهداء الحسين بن على عليه السلام أنه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه فى كربلاء، و استشهد أصحابه و أهل بيته: «هَوَّنَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ»

(٤)

ص: ٤٤٦

١- (١) - الأنعام، ١٠.

٢- (٢) - الانعام، ٣٤.

٣- (٣) - هود، ٣٧.

٤- (٤) - بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٦.

٥- الاختبار بالخير والشر

الامتحان الإلهي لا يجري عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن الله عبده بالخير و بوفور النعمه، كما يقول سبحانه: وَ تَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الخَيْرِ فِتْنَةً (١).

و يقول سبحانه على لسان نبيه سليمان: هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (٢).

و هنا ينبغي أن نشير إلى عدّه مسائل أحدها: أنه ليس من الضروري أن يختبر جميع الناس بجميع وسائل الاختبار، بل من الممكن أن يكون اختبار كل فئه بلون من الامتحان يتناسب مع الوضع الفردي و الاجتماعي لتلك الفئه.

و الاخرى: أنه من الممكن أن يجتاز الإنسان بعض الامتحانات، بينما يفشل في امتحانات اخرى.

و قد يكون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، كأن يكون موت ولد لإنسان موضع امتحان أصدقائه و أقاربه، ليرى مدى اتخاذهم موقف المواساه من صاحبهم.

و أخيراً، فالاختبار الإلهي - كما ذكرنا - شامل عام يدخل في نطاقه حتى الأنبياء عليهم السّلام، بل إن اختبارهم بسبب ثقل مسئوليتهم أشدّ بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صوراً لاختبارات شديده مرّ بها الأنبياء عليهم السّلام و بعضهم مرّ بمراحل طويله شاقه قبل وصوله إلى مقام الرساله، كى يكون على أتم الاستعداد لتحمل أعباء قياده أمتّه.

ص: ٤٤٧

١-١) - الأنبياء، ٣٥.

٢-٢) - النمل، ٤٠.

و بين أتباع مدرسه الأنبياء نماذج رائعه للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوه على ساحه الامتحان الإلهي.

فقد روى «أنَّ أمَّ عَقِيلٍ كانت امرأه في البادية فتزل عليها ضيفان و كان ولدها عَقِيلٌ مع الإبل فأخبرت بأنَّه ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فهلك فقالت المرأه للنَّاعِي انزل و اقض ذمام القوم و دفعت إليه كبشاً فذبحه و أصلحه و قرَّب إلى القوم الطَّعام فجعلوا يأكلون و يتعجَّبون من صبرها(قال الزَّواي) فلَمَّا فرغنا خرجت إلينا و قالت يا قوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم. قالت: فاقرأ عليَّ آيات أتعزِّي بها عن ولدي فقرأت: «و بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مِصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ و إِنَّا إليه راجعون إلى قوله المهتدون».

«فقال السَّلام عليكم، ثمَّ صَفَّتْ قدميها وصلَّت ركعات ثمَّ قالت: اللَّهُمَّ إِنِّي فعلت ما أمرتني فانجز لي ما وعدتني. و لو بقي أحد لأحد- قال فقلت في نفسي لبقى ابني لحاجتي إليه- فقالت لبقى محمَّد صَلَّى اللهُ عليه و اله و سلَّم لأُمَّته، فخرجت» (1)

ص: ٤٤٨

١-١) -سفينه البحار، ج ٢، ص ٧، (ماده صبر).

اشاره

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ
(١٥٨)

النزول

كان المشركون في الجاهلية يأتون مكة لأداء مناسك الحج، وكانت هذه المناسك ذات أصل إبراهيمي مع كثير من التحريف و الخرافات و الشرك. فكانت المناسك عباره عن الوقوف بعرفات و الاضحيه و الطواف و السعى بين الصفا و المروه. و لكن بشكل خاص بالجاهليين.

و جاء الإسلام و أصلح هذه المناسك، و طهرها مما علق بها من تحريف، و أقر ما كان صحيحا منها و من جملتها السعى بين الصفا و المروه.

و استنادا إلى روايات المؤرخين من الشيعة و أهل السنة أن المشركين كانوا يسعون بين الصفا و المروه، و قد وضعوا على الصفا صنما اسمه «أساف»، و على المروه صنما آخر سموه «نائله» و كانوا يتمسحون بهما لدى السعى، من هنا خال المسلمون أن السعى بين الصفا و المروه عمل غير صحيح، و كرهوا أن يفعلوا ذلك.

الآيه المذكوره نزلت لتعلن أن الصفا و المروه من شعائر الله، و تلويتها بالشرك على

يد الجاهليين لا يبرر إعراض المسلمين عن السعى بينهما.

و اختلف المفسرون في وقت نزول الآيه، منهم من قال إنها نزلت في (عمره القضاء) في السنه السابعه للهجره، و كان من شروط النبي صلى الله عليه و اله و سلم مع المشركين في هذه السفره رفع الصنمين من الصفا و المروه، و قد عملوا بهذا الشرط، لكنهم أعادوهما إلى محلتهما. و هذا أدى إلى كراهه المسلمين و السعى بين الصفا و المروه، فنزلت الآيه لنتهاهم عن هذه الكراهه.

و قيل إنها نزلت في حجه الوداع في السنه العاشره للهجره. و من المؤكد أن مكه كانت في هذه السنه خاليه من الأصنام. و من هنا يلزمنا أن نعتبر كراهه المسلمين السعى بين الصفا و المروه بسبب السوابق التاريخيه لهذين المكانين حيث انتصب فيهما «أساف و نائله».

التفسير

إشارة

أعمال الجهله لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآيه الكريمه تستهدف إزاله ما علق في ذهن المسلمين و نفوسهم من رواسب بشأن الصفا و المروه كما مرّ في سبب النزول، و تقول للمسلمين: إِنَّ الصَّفاَ وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ .

و من هذه المقدمه تخرج الآيه بنتيجه هي: فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا .

لا ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملا على إيقاف العمل بهذه الشعيره، و على تقليل شأن و قدسيه هذين المكانين.

ثم تقول الآيه أخيرا: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

فالله يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيرا، و هو سبحانه عالم

بسرائرهم، يعلم من تعلّق قلبه بهذه الأصنام و من تبرّأ منها.

بحوث

إشاره

١- الصفا و المروه

الصفا و المروه اسمان لجبلين صغيرين فى مكه، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، فى الضلع الشرقى للمسجد، فى الجهه التى يقع فيها الحجر الأسود و مقام إبراهيم.

يفصل بين الجبلين ٤٢٠ مترا تقريبا، و المسعى اليوم بدل بصاله كبيره مسقفه ذات طابقين يسعى الحجاج فيهما، و ارتفاع الصفا خمسه عشر مترا، و المروه ثمانيه أمتار.

و اللفظان اليوم علمان لهذين الجبلين، و فى الأصل الصفا هى الصخره الملساء القويه المختلطه بالحصى و الرمل، و المروه الصخره القويه المتعرجه.

و الشعائر جمع شعيره أى علامه، و شعائر الله أى العلامات التى تذكر الإنسان بالله، و تعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسه.

و«اعتمر» أى أدى العمره، و العمره فى الأصل الملحقات الإضافيه فى البناء، و فى الشريعه تطلق على الأعمال الخاصه، التى يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها فى العمره المفرده. و بينها و بين أعمال الحج أوجه اشتراك و افتراق.

٢- من أسرار السعى بين الصفا و المروه

صحيح أن قراءه تاريخ حياه عظماء التاريخ يدفع الإنسان إلى الاقتداء بهم، لكن هناك طريقا أكثر تأثيرا، و هو مشاهدته المعالم الأثريه التى كافح عليها هؤلاء

ص: ٤٥١

الرجال، و سجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هي في الواقع ليست مثل كتب التاريخ الميته، بل هي تاريخ حيّ ناطق، يستطيع أن يحلّق بالإنسان عبر القرون و الأعصار، ليَجعله يعيش مع الحوادث الماضيه بكل مشاعره.

الأثر التربوي لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب و المحاضرات و أمثالها... فهنا الشعور لا الإدراك، و التصديق لا التصور، و العينه لا الذهنيه.

من جهه اخرى، قلّ أن يوجد بين الأنبياء نبى كإبراهيم عليه السلام، خاض ألوان النضال و تعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عما اختبر به: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١)**.

و هذه المعاناه الطويله التي عاشها إبراهيم هي التي أهلته لأن ينال مقام «الإمامه».

مناسك الحج تجسّد في الأذهان دوره كامله من مشاهد كفاح إبراهيم و مراحل تكامله التوحيدى و عبوديته و تضحياته و إخلاصه.

لو فهم المسلمون-لدى أدائهم مناسك الحج-روح الحج و أسرارها، و تعمّقوا في جوانبه «الرمزيه» لكان الحج دوره تربويه في حقل معرفه الله و التّبوه و الشخصيه الإنسانيه.

بعد هذه المقدمه نعود إلى الخلفيه التاريخيه للصفّ و المروه.

إبراهيم عليه السّلام بلغه الكبر و لم يرزق ولدا، فدعى ربّه أن لا- يتركه فردا، فاستجاب له، و رزقه من جاريتة هاجر ولدا سمّاه «إسماعيل».

لم تستطع «ساره» زوجته الاولى أن تطيق الحاله الجديده، و قد رزق إبراهيم ولدا من غيرها، فأمر الله إبراهيم أن يهاجر بالطفل و الأم إلى مكه حيث الأرض

ص: ٤٥٢

القاحله المجديه آنذاك، ويسكنهما هناك.

امثل إبراهيم أمر ربه، و ذهب بهما إلى صحراء مکه و أسكنهما فى تلك الأرض، و هم بالرجوع، فضجت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأه وحيدته مع طفل رضيع فى مثل هذه الأرض؟! بكاء هاجر و معه بكاء الطفل الرضيع هز إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربه قائلا: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِغَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (١)، ثم ودع زوجته و طفله بحزن و ألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الأيم و ماؤها، و جف لبنها. بكاء الطفل أضرم فى نفس الأم نارا، و دفعها لأن تبحث بقلق و اضطراب عن الماء. اتجهت أولا إلى جبل «الصفاء» فلم تجد للماء أثرا، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروه» فأسعدت إليه فوجدته سرايا، ثم رأت عند المروه بريقا لدى الصفا أسعدت إليه فما وجدت شيئا، و هكذا جالت سبع مرات بين الصفا و المروه بحثا عن الماء. و فى النهايه، و بعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأه عين زمزم، فشرب الطفل و أمه و نجيا من الموت المحقق.

الماء، رمز الحياه، و انفجار العين جر الطيور من الآفاق نحو هذه الأرض، و القوافل شاهدت حركه الطيور، فاتجهت هى أيضا نحو الماء و ببركه هذه العائله تحولت أرض مکه إلى مركز حضارى عظيم.

و يقع جوار الكعبه حجر إسماعيل حيث مدفن تلك المرأه و ابنها، و على الحاج أن يضمه إلى البيت فى طوافه، أى يجب على الحاج أن يطوفوا خارج هذه الحجر و كأنه جزء من الكعبه.

ص: ٤٥٣

فى الصفا و المروه درس فى التضحيه بكل غال و نفيس،حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ و العقيدة.

السعى بينهما يعلمنا أن نعيش دائما أمل النجاح و الإنتصار،حتى فى أشدّ لحظات الشدّه،فهاجر بذلت سعيها و جاءها رزق الله من حيث لا تحتسب.

السعى بين الصفا و المروه يقول لنا:إن هاتين الشعيرتين كانتا يوما و كرا لصنمين من أصنام العرب،و أصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيد بفضل جهاد رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم،من حق جبل الصفا أن يفخر و يقول:أنا أول منطلق لدعوه رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم،فحينما كانت مكه تغطّ فى ظلمات الشرك و بزغ من عندى فجر الهدايه.

و اعلّموا أيّها الساعون بين الصفا و المروه أن رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم صعد يوما على هذا الجبل ليدعو الناس إلى الله،فلم يجبه أحد،و اليوم فإن الآلاف المؤلفه تجيب الدعوه و تحج بيت الله على النهج المحمّدى الإبراهيمى.و إنه لدرس لكم يعلمكم أن تسيروا على طريق الحقّ دونما يأس،و إن قلّ الناصر و المجيب.

السعى بين الصفا و المروه يقول لنا:اعرفوا قدر نعمه هذا الدين و هذا المركز التوحيدى،فتمه أفراد حفظوا الشريعه و شعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس و المشاعر فى النفوس،أمر الله الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا و المروه.

أضف إلى ما تقدم أن السعى يقضى على كبر الإنسان و غروره،فلا أثر للتبختر و التصنع فى السعى،بل لا بدّ من قطع هذه المسافه ذهابا و مجيئا مع كافه الناس،و بنفس لباس الناس،و بهروله أحيانا!!و لذلك ورد فى الروايات أن السعى إيقاظ للمتكبرين.

على أيه حال،بعد أن ذكرت الآيه أن الصفا و المروه من شعائر الله،أكدت عدم وجود جناح على من يطوّف بهما فى الحج و العمره،و الطواف بين الصفا و المروه هو السعى بينهما،لأن الحركه التى يعود فيها الإنسان إلى حيث ابتداء هى

طواف و إن لم تكن الحركة دائريه.

٣- جواب على سؤال

لفظ **فَلَا جُنَاحَ** يشير إلى عدم حرمة السعى بين الصفا و المروه و جواز ذلك، و قد يسأل سائل عن سبب وجوب السعى في الفقه الإسلامي، بينما الآية تبيحه فقط؟ الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآية. فالمسلمون كرهوا السعى بين الصفا و المروه، بعد أن شاهدوا بأم أعينهم مدى عبث المشركين بهذا المكان، و مدى تلوينهم إياه بالأصنام. فخالوا أن من غير اللائق بالمسلم أن يسعى في هذا المكان.

جاءت الآية لتقول لهم: إن الصفا و المروه من شعائر الله، و عبارة **فَلَا جُنَاحَ** (١) لإزاله ما تصوروه من كراهه لهذا العمل.

و ثمه تعبيرات مشابهه ذكرها القرآن لأحكام اخرى كصلاه المسافر في قوله تعالى: **وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ** (٢).

و نعلم أن القصر واجب في صلاه المسافر، لا جائز. بشكل عام قد تستعمل كلمه (لا جناح) لإزاله التوهم بحرمة الشيء أو بكراهته، و هذا المعنى يؤكد حديث عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في كتاب «من لا يحضره الفقيه».

٤- معنى التطوع

التطوع في اللغة: قبول الطاعة و الانصياع للأوامر، و في الفقه يطلق على

ص: ٤٥٥

١ - ١) - (الجناح) في الأصل الميل نحو اتجاه معين، و قيل للذنب جناح لأنه يميل بالإنسان عن طريق الحق. (قاله الراغب في المفردات).

٢ - ٢) - النساء، ١٠١.

الأعمال المستحبه، من هنا ذهب أغلب المفسرين إلى تفسير «و من تطوع...» بالحج المستحب و العمرة المستحبه، أو الطواف، أو أى عمل مستحب آخر.

فالعباره تعنى إذن أن الله شاكر لمن يعمل الخيرات امثالاً لأوامره سبحانه، و الله عليم بكل هذه الأعمال.

و من المحتمل أيضاً أن تكون العباره تأكيداً لما سبقها، و يكون المقصود بالتطوع حينئذ قبول الطاعه فى أداء الأعمال الشاقه.

معنى العباره، على هذا، على الحجاج السعى بين الصفا و المروه بكل ما فيه من مشاق و رغم كراحتكم لذلك... هذه الكراهه الناتجه عن سوء تصرف الجاهليين بهذا المكان المقدس.

٥- شكر الله

ينبغى الالتفات هنا إلى عباره الشاكر فى الآيه، و هو تعبير فى غايه الروعه، و إنه لتكريم ما بعده تكريم للإنسان، أن يشكره الله على أعماله الخيره.

و حين يكون الله شاكرًا لعبده على بّره، فمن الأولى أن يكون العبد شاكرًا لربّه على نعمه التى لا تحصى، و شاكرًا لمن أحسن إليه من العباد.

ص: ٤٥٦

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

سبب النزول

روى جلال الدين السيوطى عن ابن عباس، أن عددا من المسلمين أمثال «معاذ بن جبل» و«سعد بن معاذ» و«خارجة بن زيد» سألوا أحبار اليهود عن مسائل فى التوراه قد ترتبط بظهور النبى الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم، فأبى الأحبار أن يجيبوا و كتموا ما عندهم من علم (١).

التفسير

اشاره

حرمه كتمان الحق

الآيه-و إن خاطبت كما فى أسباب النزول، علماء اليهود-غير محدوده

ص: ٤٥٧

بمخاطبيها، بل تبين حكما عاما بشأن كاتمي الحق.

الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشده و تقول: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

فالله سبحانه و عباده الصالحون و ملائكته المقربون يلعنون من يكتم الحق، و بعبارة اخرى، كل أنصار الحق يغضبون على من كتم الحق. و أية خيانه للعالم أكبر من محاولة العلماء كتمان آيات الله المودعه عندهم من أجل مصالحتهم الشخصية و لتضليل الناس.

و عبارة مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ إشاره إلى أن هؤلاء الأفراد يصادرون في الواقع جهود الأنبياء و توضيحات أولياء الله الصالحين، و هو ذنب عظيم.

و الفعل (يلعن) تكرر في الآية للتأكيد، و استعمل بصيغه المضارع لبيان استمرار اللعن، و من هنا فإن لعنه الله و لعنه اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات الله باستمرار، و ذلك أقسى صور العقاب.

«البيئات» و «الهدى» لهما معنى واسع يشمل كل وسائل الهدايه و التوعيه و الإيقاظ و إنقاذ الناس.

و لما كان القرآن كتاب هدايه، فإنه لا- يعلق منافذ الأمل و التوبه أمام الأفراد، و لا يقطع أملهم في العوده مهما ارتكسوا في الذنوب، لذلك تبين الآية التاليه طريق النجاه من هذا الذنب الكبير و تقول: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

عبارة أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ جاءت بعد عبارة فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ للدلاله على كثره محبه الله، و سبق عطفه على عباده التائبين. فيقول سبحانه لهؤلاء: إن تبتم، أى عدتم إلى نشر الحقائق، فأنا أعود أيضا إلى إغداق الرحمه و المواهب

عليكم.

و من الملفت للنظر، أن الله لم يقل أنه يقبل التوبه ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضا أتوب عليه، و الفرق في التعبيرين واضح، فالثاني فيه من التوّدّد و التحنن و إغداق اللطف ما لا يمكن وصفه.

ثم استعمال الضمير (أنا) في هذا الموضع يستهدف نوعا من التوّدّد و بيان الارتباط المباشر بين المتكلم و السّامع و خاصه إذا قال عظيم من العظماء: «أنا أتكفل لك بالعمل الفلاني» حيث يختلف عما لو قال: «سنقوم نحن بإنجاز العمل» فالمحبّه الكامنه في الأسلوب الاول غير خافيه على أحد.

و كلمه «توّاب» صيغه مبالغه تبعث الأمل في نفوس المذنبين و تمزق أستار اليأس، عن سماء أرواحهم خاصه و أنها اقتربت بكلمه (رحيم) التي تشير إلى الرحمه الالهيه الخاصه.

بحوث

اشاره

١- مفاسد كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التي عانت منها المجتمعات البشريه على مرّ التاريخ، و كان لها دوما آثار سيئه عميقه استمرت قرونا و اعصارا. و يتحمل تبعه هذه المساويء دون شك أولئك العلماء الذين يعلمون تلك الحقائق و يكتمونها.

لعل القرآن لم يهدد و يذمّ فئه كما هدّد و ذم هذه الفئه الكاتمه للحقائق. و لم لا؟ فإن عمل هؤلاء يجرّ أجيالا متعاقبه إلى طريق الضلال و الفساد، كما أن نشر الحقائق يدفع بالأمم إلى طريق الهدايه و الصلاح.

البشريه تميل للحقائق بفطرتها، و كتمان الحقائق عنها يعنى صدّ البشريه عن طريق تكاملها الفطري المرسوم لها.

ص: ٤٥٩

لو أن علماء اليهود و النصارى أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النبي الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم، و نشرها ما جاء في العهدين من بشائر حول رسول الإسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت رايه الإسلام، و لأصبحوا مع المسلمين أمه واحده.

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك في كتمان علامات النبوه و البشائر بالنبي الخاتم صلى الله عليه و اله و سلم، بل يشمل كتمان كل حقيقه تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمه.

السكوت في مواضع يجب فيها البيان قد يكون من مصاديق كتمان الحق، و ذلك يكون في موارد يحتاج الناس فيها بشده إلى فهم الحقائق و يستطيع العلماء فيها أن يلتوا هذه الحاجه.

بعباره اخرى: نشر الحقائق التي يعانى منها الناس لا يتوقف على السؤال، و ما يذهب إليه صاحب المنار من أن كتمان الحقائق يكون في مواضع السؤال ليس بصحيح. خاصه و أن القرآن لا يتحدث عن كتمان الحقائق فحسب، بل يتحدث في مواضع اخرى عن تبين الحقائق أيضا، و هذا يرد على أولئك الذين يلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات بحججه عدم وجود سائل يطرح عليهم سؤالا بشأن تلك الانحرافات. يقول سبحانه:

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ

(١)

جدير بالذكر أن إلهاء الناس بالمسائل الفرعيه، لصرف أنظارهم عن المسائل السياسيه الحياتيه نوع من كتمان الحقائق. إذا لم يشملها فرضا تعبير «كتمان الحقائق» فهو مشمول حتما بملاك و فلسفه كتمان الحق.

ص: ٤٦٠

(١-١) - آل عمران، ١٨٧.

٢- كتمان الحق في الأحاديث

حملت الأحاديث بشدّه أيضا على كاتمي الحق،

فروى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»

(١)

و نعيد هنا القول أن ابتلاء الناس بمسأله و الحاجه الى بيانها يحل محل السؤال. و بيان الحقائق في هذه الحالة واجب.

و

سئل الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ شَرَّ خَلْقِ اللَّهِ بَعْدَ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ؟ قَالَ: الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا، هُمُ الْمَظْهُرُونَ لِلْأَبْطِيلِ، الْكَاتِمُونَ لِلْحَقَائِقِ، وَفِيهِمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (٢)»

٣- معنى اللعن

اللعن في الأصل: الطرد و الإبعاد الممزوج بالغضب و الاستياء. فاللعن الإلهي إذن إبعاد الإنسان عن رحمه الله، و عن جميع المواهب المغدقه على عباده.

و ما قيل بشأن تقسيم اللعن إلى: لعن في الآخرة، و هو العذاب و العقوبه، و لعن في الدنيا و هو سلب التوفيق، إنما هو من قبيل بيان المصداق، لا حصر اللعن بهذين القسمين.

و كلمه (اللاعنون) لها معنى واسع لا يقتصر على الملائكه و المؤمنين، بل يشمل كل الموجودات التي تتحدث بلسان القال أو الحال. و في بعض الروايات نرى أن كل الموجودات تدعو لطلب العلم

كقول المعصوم: «وإنه يستغفر لطالب العلم من في السماء و من في الأرض حتّى الحوت في البحر»

(٣)

ص: ٤٦١

١-١) - مجمع البيان، في تفسير الآيه.

٢-٢) - الاحتجاج للطبرسي، نقلا عن نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٩.

و إن استغفرت هذه الموجودات لطالب العالم، فمن الطبيعي أن تلعن كاتمته.

٤- كلمه (توّاب) صيغه مبالغه من تاب: عاد، و تبين حقيقه انفتاح باب التوبه أمام الإنسان، حتى و لو انخدع الإنسان بوساوس الشيطان بعد توبته، فيستطيع أن يتوب ثانيه و يعود إلى الله و يكشف ما عنده من الحق، فالله توّاب، و لا يجوز اليأس من رحمته و عفوه.

ص: ٤٤٢

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

التفسير

اشاره

الَّذِينَ مَاتُوا وَ هُمْ كَفَّار

تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الذين يواصلون طريق الكفر و الكتمان و العناد إلى آخر عمرهم.

تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

هؤلاء أيضا مثل كاتمي الحق، مستحقون لعنة الله و الملائكة و جميع الناس، مع اختلاف هو أن هؤلاء المصيرين على الكفر حتى نهايه حياتهم لا رجعه لهم طبعاً و لا توبه.

ثم تقول الآية التاليه إن هؤلاء الكفار المصيرين على كفرهم حتى اللحظات

الأخيره من حياتهم: خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

و لما كان التوحيد ينهى كل هذه المصائب، فالآيه الثالثه تطرح هذا الأصل و تقول: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .

ثم تؤكد هذا الأصل و تقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

بعد ذلك تصف الآيه الله بأنه الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لتقول إن الله الذى تشمل رحمته العامه كل الموجودات، و رحمته الخاصه المؤمنين، هو اللائق بالعبوديه لا الموجودات المحتاجه.

بحوث

اشاره

١- يوضح القرآن فى مواضع متعدده

، أن الذين ماتوا على كفرهم لا نجاه لهم، و هذا أمر طبيعى، لأن سعادته الحياه الآخره و شقاءها نتيجته مباشره لما ادخره الإنسان من أعمال فى هذه الحياه. و من أحرقت جناحيه فى الحياه الدنيا بنار الكفر و الانحراف لا يستطيع طبعاً أن يحلّق فى الآخره، و لا بدّ من سقوطه فى درك الجحيم. و واضح أيضاً أن هذا الفرد سيبقى على وضعه هذا فى عالم الآخره، لأن ذلك العالم ليس عالم الحصول على وسيله.

هذا يشبه إنساناً فقد عينه بسبب جنوحه و اتباعه الشهوات و الأهواء عالماً عامداً، فلا بدّ له أن يعيش أعمى طول حياته.

و بديهى أن هذا مصير الكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم و عمد.

(و سنوضح مسأله الخلود أكثر فى تفسير الآيتين ١٠٧ و ١٠٨ من سوره هود، فى المجلد السابع من هذا التفسير).

٢- الآيه الثالثه فى بحثنا هذا تبين أحديه الله بشكل ينفى كل شرك و انحراف.

قد نرى أحياناً موجودات منفرده فى صفه من صفاتها، لكن هذه الموجودات

تتفرد في صفه أو عدّه صفات. أمّا الله فهو أحد في ذاته، و أحد في صفاته، و أحد في أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلا، إنه أحد أزلي و أبدي لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد في الذهن و خارج الذهن. إنه أحد في أحديته!

٣- ألا يكفي لعن الله!؟

الآيه أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا و هم كفار، مشمولون بلعنه الله و الملائكه و الناس أجمعين. و هنا قد يسأل سائل: أ ليست لعنه الله كافيه؟ الجواب واضح، فلعنه الملائكه و الناس زيدت على لعنه الله للتأكيد، و لبيان كراهه الناس لمثل هؤلاء المذنبين.

و لو قيل لم ذكرت الآيه (الناس) بشكل عام، بينما يوجد بين الناس من هم شركاء في الجريمة، و هؤلاء لا- يلعنون أولئك المجرمين؟ و الجواب: إن هؤلاء أيضا كارهون لأعمال أولئك، فهؤلاء يكرهون مثلا كتمان الحقائق عنهم، و يلعنون من يستر عنهم الحقيقه، لكنهم يفعلون هم أيضا هذه السيئه إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

اشاره

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

التفسير

اشاره

مظاهر عظمه الله في الكون

آخر آيه في المبحث الماضي دارت حول توحيد الله، وهذه الآيه تقدم الدليل على وجود الله و وحدانيته.

قبل أن ندخل في تفسير الآيه، لا بد من مقدمه موجزه. حيثما كان «النظم و الانسجام»، فهو دليل على وجود العلم و المعرفه، و أينما كان «التنسيق» فهو دليل على الوحده. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم و الانسجام في الكون من جهه، و التنسيق و وحده العمل فيه من جهه اخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم و القدره صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر في الأغشيه الستة للعين الباصره و نرى جهازها البديع،

نفهم أن الطبيعه العمياء الصماء لا يمكن إطلاقاً أن تكون مبدأ مثل هذا الأثر البديع، ثم حينما ندقق فى التعاون و التنسيق بين هذه الأغشيه، و التنسيق بين العين بكل أجزائها و بين جسم الإنسان، و التنسيق الفطرى الموجود بين الإنسان و بين سائر البشر، و التنسيق بين بنى البشر و بين كل مجموعه نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، و كل ذلك من آثار و قدره ذات مقدسه واحده.

ألا تدل القصيده الجميله العميقه المعنى على ذوق الشاعر و قريحته؟! ألا يدلّ التنسيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعاً صادره من قريحه شاعر مقتدر واحد؟ بعد هذه المقدمه نعود إلى تفسير الآيه، هذه الآيه الكريمه تشير إلى سته أقسام من آثار النظم الموجود فى عالم الكون، و كل واحد آيه تدل على وحدانيه المبدأ الأكبر.

١- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...

من العلامات الداله على ذات الله المقدسه و على قدرته و علمه و وحدانيته، السماء و كرات العالم العلوى، أى هذه المليارات من الشمس المشرقه و النجوم الثابته و السياره، التى ترى بالعين المجرده أو بالتلسكوبات، و لا- يمكن رؤيه بعضها بأقوى أجهزه الإرساد لبعدها الشاسع... الشاسع للغاية، و التى تنتظم مع بعضها فى نظام دقيق مترابط.

و هكذا الأرض بما على ظهرها من حياه، تتجلى بمظاهر مختلفه و تتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات و الحيوان.

و من المدهش أن عظمه هذا العالم و سعته و امتداده تظهر أكثر كلما تقدّم العلم، و لا ندرى المدى الذى سيبلغه العلم فى فهم سعه هذا الكون! يقول العلم لنا اليوم: إن فى السماء آلاف مؤلفه من المجرات، و منظومتنا الشمسيه جزء من واحده من المجرات، و فى مجرتنا وحدها مئات الملايين من

الشموس و النجوم السّاطعه، و حسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحيّه! حقا ما أعظم هذا الكون! او ما أعظم قدره خالقه!! ٢- وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ...

من الدلائل الاخرى على ذاته المقدسه و صفاته المباركه تعاقب الليل و النهار، و الظلمه و النور بنظام خاص، فينقص أحد هما بالتدريج ليزيد في الآخر، و ما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، و تكامل النباتات و سائر الأحياء في ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغيير التدريجي، أو انعدم النظام في هذا التدريج، أو انعدم تعاقب الليل و النهار لانمحت الحياه من وجه الكره الأرضيه، و لو بقيت و استمرت -فرضا- لأصابتها الفوضى و الخبط (١).

٣- وَ الْفَلَمَكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ الْإِنْسَانَ يَمْخَرُ عِبَابَ الْبِحَارِ وَ الْمَحِيطَاتِ بِالسَّفَنِ الْكَبِيرَةِ وَ الصَّغِيرَةِ، مُسْتَعْدِمًا هَذِهِ السَّفَنَ لِلسَّفَرِ وَ لِنَقْلِ الْمَتَاعِ. و حركه هذه السفن خاصه الشراعيه منها تقوم على عدّه أنظمه:

الأول، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكره الأرضيه، فهناك الرياح القاريه التي تهبّ من القطبين الشمالى و الجنوبى نحو خطّ الإستواء و بالعكس و تدعى «اليزه» و «كنتراليزه»؟؟. و هناك الرياح الإقليميه التي تهب وفق نظام معين، و تعتبر قوه طبيعيه لتحريك السفن نحو مقاصدها.

ص: ٤٦٨

١ - ١) - «الاختلاف» قد يعنى التعاقب أى مجيء شىء و ذهاب آخر، و قد يعنى الزيادة و النقصان فى الليل و النهار، و على المعنيين تتحدث الآيه عن نظام خاص لليل و النهار لا يمكن أن يكون قائما على الصدفة. و من دون تدخل وجود عالم و قادر فى ذلك. و لهذا ورد فى القرآن الكريم، هذا المعنى فى موارد متعدده كدليل على الذات المقدسه.

و هكذا خاصيه الخشب،أو خاصيه القوّه الدافعه التى يسلطها الماء على الأجسام الغاطسه فيه،فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.

أضف إلى ذلك خاصيه القطبين المغناطيسيين للكره الأرضيه،التى تساعد البحاره باستخدام البوصله أن يعرفوا اتجاههم فى وسط البحار،إضافه إلى استفادتهم من نظام حركه الكواكب فى معرفه جهه السير.

كل هذه الأنظمه تساعد على الاستفاده من الفلك (1)، و تعطى دليلا- محسوسا على قدره الله و عظمته،و تعتبر آيه من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقوديه بدل الأشرعه فى السفن اليوم،لم يقلل أهميه هذه الظاهره،بل زادها عجبا و دهشه،إذ نرى اليوم السفن العملاقه التى تشبه مدينه بجميع مرافقها، تطفو على سطح الماء و تنتقل بفنادقها و ساحات لعبها و أسواقها،بل و مدارج للطائرات فيها...على ظهر البحار و المحيطات.

٤- وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ... .

من مظاهر قدره الله و عظمته المطر الذى يحيى الأرض،فتهتز ببركته و تنمو فيها النباتات و تحيا الدواب بحياه هذه النباتات،و كل هذه الحياه تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياه فيها.

٥- وَ تَصِيرُ رِيْفِ الرِّيَاحِ... ،لا- على سطح البحار و المحيطات لحركه السفن فحسب،بل على الجبال و الهضاب و السهول أيضا لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها اليانعه.

و تاره تعمل على تحريك أمواج المحيطات بصوره مستمره و مخضها مخض السقاء لإيجاد محيط مستعد لنمو و حياه الكائنات البحريه.

ص: ٤٦٩

١-١) -الفلك،هى السفينه أو السفن،فاللفظ مفرد و جمع.

و اخرى تقوم بتعديل حراره الجو و تلطيف المناخ بنقلها حراره المناطق الاستوائيه إلى المناطق الباردة،و بالعكس.
و أحيانا تقوم بنقل الهواء الملوث الفاقد للاوكسجين من المدن إلى الصحارى و الغابات لمنع تراكم السموم فى الفضاء.
أجل فهبوب الرياح مع كل تلك البركات و الفوائد علامه اخرى على حكمه البارى و لطفه الدائم.

٤- وَ السَّحَابِ الْمُسِيَّخِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ السَّحَابِ الْمَتْرَاكِمِ فِي أَعَالِي الْجَوِّ، الْمَحْمَلِ بِمِلياراتِ الْأَطْنَانِ مِنَ الْمِيَاهِ خِلافا
لقانون الجاذبيه،و المتحرکه من نقطه إلى اخرى دون إيجاد خطر،من مظاهر عظمه الله سبحانه.

إضافه إلى أن هذا الودق(المطر)الذى يخرج من خلال السحاب يحيى الأرض،و بحياه الأرض تحيا النباتات و الحيوانات و
الإنسان،و لو لا ذلك لتحولت الكره الأرضيه إلى أرض مقفره موحشه.و هذا مظهر آخر لعلم الله سبحانه و قدرته.

و كل تلك العلامات و المظاهر لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، لا للغافلين الصم البكم العمى.

إشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَأَلْنَا لَهُمْ أَنْ يَكْتُمُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسِيرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

التفسير

إشارة

أئمة الكفر يتبرّعون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود الله سبحانه وإثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، وثاروا على طريق الشرك والوثنية وتعدّد الآلهة.. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيقة، ويتعشقونها و يشغفون بها حباً لا يليق إلا بالله سبحانه مصدر كل الكمالات و واهب جميع النعم.

تقول الآية: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا (١).

و لم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعباده فحسب، بل يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ .

و الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

،لأنهم أصحاب عقل و إدراك، يفهمون أن الله سبحانه مصدر كل الكمالات، و هو وحده اللائق بالحب، و لا يجون شيئاً آخر إلا من أجله. و قد غمر الحب الإلهي قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«فهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك؟!»

(٢)

الحب الحقيقي يتجه دائماً نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يحبّ العدم و النقص، بل يسعى دوما وراء الوجود و الكمال، و لذلك كان الأكمل في الوجود و الكمال أحق بالحب.

الآية أعلاه تؤكد أن حبّ المؤمنين لله أشدّ من حبّ الكافرين لمعبوداتهم.

و لم لا يكون كذلك؟! فلا يستوى من يحبّ عن عقل و بصيره، و من يحبّ عن جهل و خرافه و تخيل.

حبّ المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، و حبّ المشركين سطحي تافه لا بقاء له و لا استمرار.

لذلك تقول الآية: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِرَأَوْا سُوءَ فَعْلَمِهِمْ وَ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ (٣).

في هذه اللحظات تزول حجب الجهل و الغرور و الغفلة من أمام أعينهم، و حين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون إلى قادتهم و معبوديهم، و لات حين ملاذ بغير الله إذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

ص: ٤٧٢

١- ١) - الأنداد جمع (ند) و هو (المثل)، و قال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه في الجوهر، أي إن المشركين كانوا يعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهية!

٢- ٢) - من دعاء علي عليه السلام المروى على لسان كميل بن زياد المعروف بدعاء (كميل).

٣- ٣) - هذا على تفسير «لو» شرطية و جوابها محذوف، و من المفسرين من قال إن (لو) هنا للتمنى.

واضح أن المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاه الجبابرة الذين استعبدوا الناس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء و الطاعة، و استسلموا لهم دون قيد أو شرط.

هُؤَلَاءِ الْغَافِلُونَ الْمَغْفُلُونَ حِينَ يَرَوْنَ مَا حَلَّ بِهِمْ يَمْنُونَ أَنفُسَهُمْ: وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْهَا لَكِنَّا آمَنِيهِ لَا- تتحقق، و عبرت آيه اخرى عن مثل هذا التمنى على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبُئْسَ الْقَرِينُ (١).

ثم تقول الآية: كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

ليس لهم إلا أن يتحسروا، يتحسرون على أموالهم التي كنزوها و استفاد منها غيرهم... و على فرصه الهدايه و النجاه التي هيئت لهم فلم يستثمروها... و على عبادتهم لآلهه زائفه بدل عباده الله الواحد الأحد.

لكنها حسره غير نافعه... فالיום الجزاء على ما جنته يد الإنسان من أخطاء، و ليس يوم تلافى الأخطاء.

ص: ٤٧٣

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ لِمَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

سبب النزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف و خزاعه، حرموا على أنفسهم بعض النباتات و الحيوانات دونما دليل، (و نسبوا التحريم إلى الله أيضا)، فنزلت الآيتان تنهاهم عن ذلك.

التفسير

اشاره

خطوات الشيطان!

ذمت الآيات السابقه الشرك و المشركين، و أحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين و التشريع و تقرير الحلال و الحرام إلى غير الله.

الآيه أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانيا و قالت: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

تكرر في القرآن طلب الاستفاده من الأطمعه، و ورد الطلب عاده مقيدا

بالحلال و بالطيب.

و«الحلال» ما أبيع تناوله، و الطيب ما طاب و وافق الطبع السليم، و يقابله «الخبيث» الذى يشمأز منه الإنسان.

و«الخطوات» جمع «خطوه» و هى المرحله التى يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه و للتغريب بالناس.

عبارة لا- تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ تكرر خمس مرات فى القرآن الكريم، و كانت فى موضعين بشأن الاستفاده من الأطمعه و الرزق الإلهي. و هى تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهيه فى غير موضعها. و حث على الاستفاده منها على طريق العبوديه و الطاعه لا الفساد و الطغيان فى الأرض.

النهى عن اتباع خطوات الشيطان فى استثمار مواهب الطبيعه، توضحه آيات اخرى تنهى أيضا عن الإفساد فى استثمار ما وهبه الله للناس، كقوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١)، و كقوله سبحانه كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطَعُوا فِيهِ (٢).

هذه المواهب و الإمكانيات ينبغى أن تكون طاقه دافعه نحو الطاعه لا وسيله لارتكاب الذنوب.

عبارة إِنَّهُ لَكُمْ عِدُوٌّ مُبِينٌ تكرر فى القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كى تحفز الإنسان، و تجعله متأهبا لمجابهه هذا العدو اللدود الظاهر.

الآيه التاليه تؤكد على عداه الشيطان، و على هدفه المتمثل فى شقاء الإنسان، و تقول: إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشَاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

منهج الشيطان يتلخص فى ثلاثه أبعاد هى: السوء، و الفحشاء، و التقول على الله.

ص: ٤٧٥

١- (١) - البقره، ٦٠.

٢- (٢) - طه، ٨١.

الفحشاء من «الفحش»، وهو كل عمل خارج عن حد الاعتدال، ويشمل كل المنكرات و القبائح المبطنه و العلنيه. و استعمال هذه المفردة حاليا بمعنى الأعمال المنافيه للعفه هو من قبيل استعمال اللفظ الكلى فى بعض مصاديقه.

عبارة تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قد تشير إلى تحريم بعض الأطعمة المحلله، كما مرّ بنا فى سبب التّزول. و هو عمل بعض القبائل العربيه فى الجاهليه، و قيل: إن رواسته كانت باقيه فى ذهن بعض المسلمين الجدد (1).

و قد يتسع معناها ليشمل الشرك و التشبيه بالله أيضا.

على أيه حال، العبارة تشير إلى القول غير القائم على العلم، و هو قول شيطانى مذموم، خاصه إذا كان متضمنا نسبه شىء إلى الله. الإسلام يحثّ دوما على الانطلاق من العقل و المنطق فى اتخاذ المواقف و فى إصدار الأحكام، و لو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء.

كل ما دخل فى الأديان الإلهيه من تحريف و مسخ إنما كان على يد أفراد بعيدين عن المنطق، و الجانب الأكبر من الانحرافات العقائديه يعود إلى عدم رعايه هذا الأصل، لذلك كان محورا من محاور النشاط الشيطانى بعنوان مستقل فى مقابل السوء و الفحشاء فى الآيه المذكوره.

بحوث

اشاره

١- أصل الحليه:

هذه الآيه تدل على أنّ الأصل فى كل الأغذيه الموجوده على ظهر الأرض

ص: ٤٧٤

الحليّه،و المستثناه هى الأغذيه المحرمه.من هنا فإن الحرمة تحتاج إلى دليل لا الحليه.و هذا ما يقتضيه أيضا طبيعه الخليقه.إذ لا بدّ من وجود تنسيق بين القوانين التشريعيه و القوانين التكوينيّه.

بعباره أوضح ما خلقه الله لا بدّ أن ينطوى على فائده لعباده.من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأوّلى للأطعمه على ظهر الأرض التحريم.فكل غذاء إذن حسب هذه الآيه الكريمه حلال ما لم تثبت حرمة دليل صحيح،و ما دام لا يشكل ضررا على الفرد و المجتمع.

٢- الانحرافات التدريجيّه

عباره **خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ** قد تشير إلى مسأله تربويه دقيقه،هى إنّ الانحرافات تدخل ساحه الإنسان بشكل تدريجى،لا دفعى فورى.فتلوّث شاب بالقمار،أو شرب الخمر،أو بالمخدرات مثلا يتم على مراحل:

يشترك أوّلا متفرجا فى جلسه من جلسات الخمارين أو المقامرين،ظانا أنه عمل اعتيادى لا ضير فيه.

ثم يشترك فى القمار للترويح عن النفس(دون ربح أو خساره)،أو يتناول شيئا من المخدرات بحجه رفع التعب أو المعالجه أو أمثالها من الحجج.

و فى الخطوه الاخرى يمارس العمل المحرم قاصدا أنه يمارسه مؤقتا.

و هكذا تتوالى الخطوات واحده بعد اخرى و يصبح الفرد مقامرا محترفا أو مدمنا خطرا.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصوره التدريجيّه نحو هاويه السقوط،و ليست هذه طريقه الشيطان الأصلى فحسب،بل كل الأجهزه الشيطانيه تنفذ خططها المشؤومه على شكل «خطوات»لذلك يحذّر القرآن كثيرا من اتّخاذ الخطوه الاولى على طريق الانزلاق.

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غير القائمة على أساس منطقي اعتبرتها النصوص الإسلامية من «خطوات الشيطان».

وقد ورد في رجل أقسم أن يذبح ابنه،

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ذلك من خطوات الشيطان»

(١)

و عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «كل يمين بغير الله فهو من خطوات الشيطان».

(٢)

و

عن الامام الصادق أيضا: «إذا حلف الرجل على شيء و الذي حلف عليه إتيانه خير من تركه فليات الذي هو خير و لا كفاره له و إنما ذلك من خطوات الشيطان» (٣).

٣- الشيطان عدو قديم

الآية الكريمة و صفت الشيطان أنه عدو مبین، و ذلك إما لعذائه لآدم بعد أن أبى السجود له، و خسر كل شيء على أثر ذلك. و إما بسبب إغوائه الواضح لبنى البشر و دفعهم على طريق الإجرام. و واضح أن هذا الدفع لا يصدر إلا من عدو لدود. أو لأن الشيطان أعلن عداه صراحة للإنسان، و عاهد نفسه على إغوائهم إذ قال: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

٤- طريقه الوسوسة الشيطانية

الآية الكريمة تحدثت عن أمر الشيطان: فقالت: إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ... و هذا الأمر هو الوسوسة الشيطانية. و قد يطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشيطانية إذ لا يحس الإنسان بأمر خارجي يصدر إليه حين يرتكب

ص: ٤٧٨

١-١) - تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٢٨.

٢-٢) - نفس المصدر.

٣-٣) - نفس المصدر.

السيئات، ولا يتلمس سعيًا شيطانيًا لإضلاله.

الجواب هو أن هذه «الوسوسة» تأثير خفى عبّرت عنه بعض الآيات بالإيحاء: **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (١)**. و الإيحاء من «الوحي» الذى هو تأثير غيبى خفى أو التأثيرات اللاواعية أحيانًا.

و ثمه فرق بين «الإلهام الإلهي» و«الوسوسة الشيطانية» هو إن الإلهام الإلهي لانسجامه مع فطره الإنسانيه و مع تركيب الجسم و الروح، يترك في النفس حاله انبساط و انشراح.

بينما الوسوسة الشيطانية لتناقضها مع فطره الإنسانيه السليمه، تجعل القلب يحسّ بظلام و انزعاج و ثقل. و إن لم يحدث فيه مثل هذا الإحساس قبل ارتكاب السيئه فإنه يحسّ بها بعد الارتكاب. هذا هو الفرق بين الإلهامات الشيطانية و الإلهامات الإلهيه.

ص: ٤٧٩

١-١) - الأنعام، ١٢١.

اشاره

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

التفسير

اشاره

التقليد الأعمى

تشير الآية إلى منطق المشركين الواهى فى تحريم ما أحل الله، أو عباده الأوثان و تقول: وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .

و يدين القرآن هذا المنطق الخرافى، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء و الأجداد، فيقول: أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .

أى إن اتباع الآباء صحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل و الهدايه. أمّا إذا كانوا لا يعقلون و لا يهتدون، فما اتباعهم إلا تركيز للجهل و الضلال.

الإنسان الجاهلى لا يستند إلى قاعده ايمانيه يحس معها بوجوده و بشخصيته و بأصالته، لذلك يستند إلى مفاخر الآباء و عاداتهم و تقاليدهم، ليصطنع له شخصيه

كاذبه و أصاله موهومه. و هذه عاده الجاهليين قديما و حديثا في تعصبهم القومى و خاصه فى ما يتعلق باسلافهم.

الإسلام أَدان المنطق الرجعى القائم على تقديس ما عليه الآباء و الأجداد، لأنه ينفى العقل الإنسانى. و يرفض تطوّر التجارب البشرية، و يصادر الموضوعيه فى معالجه قضايا السلف.

هذا المنطق الجاهلى يسود اليوم— مع الأسف— فى بقاع مختلفه من عالمنا، و يظهر هنا و هناك بشكل «صنم» يوحى بعبادات و تقاليد خرافيه مطروحه باسم «آثار الآباء» و مؤامره باسم الحفاظ على المآثر القوميه و الوطنيه، مشكّلا بذلك أهم عامل لانتقال الخرافات من جيل إلى جيل آخر.

لا- مانع طبعا من تحليل عادات الآباء و تقاليدهم، فما انسجم منها مع العقل و المنطق حفظ، و ما كان وهما و خرافه لفظ. المقدار المنسجم مع العقل و المنطق من العادات و التقاليد يستحق الحفظ و الصيانه باعتباره تراثا قوميا. أما الاستسلام التام الأعمى لتلك العادات و التقاليد فليس إلا الرجعيه و حماقه.

جدير بالذكر أن الآيه أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشركين و تقول عنهم إنهم لا يعلمون، و لا يهتدون. و هذا يعنى إمكان الاقتداء باثنين. بمن كان يملك الفكر و العقل و العلم، و من كان قد اهتدى بالعلماء.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، و لم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم و هذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب فى تخلف البشريه لأنه تقليد الجاهل للجاهل.

الآيه التالیه تبين سبب تعصّب هؤلاء و إعراضهم عن الانصياع لقول الحق تقول: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً. تقول الآيه:

إن مثلك فى دعوه هؤلاء المشركين إلى الايمان و نبذ الخرافات و التقليد الأعمى كمن يصيح بقطع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) و لكن الأغنام لا تدرک منه سوى أصوات غير مفهومه.

أجل فهؤلاء الكفار و المشركين كالحيوانات و الانعام التي لا تسمع من راعيها الذي يريد لها الخير سوى أصوات مبهمه.

ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد و التوضيح أن هؤلاء صُمُّ بكم عمى فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ (١). □

و لذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئه لآبائهم، و يعرضون عن كل دعوه بناءه.

و قيل فى تفسير الآية أيضا إن معناها: مثل الذين يدعون أصنامهم و آلهتهم الكاذبه كالذى يدعو البهائم، لا الحيوانات تفهم النداء و لا تلك الأصنام، لأن هذه الأصنام صماء بكماء عمياء لا تعقل.

أكثر المفسرين على التفسير الأول للآيه، و الروايات الإسلاميه تؤيده و نحن على ذلك أيضا.

بحثان

اشاره

١- سبل المعرفة

يحتاج الإنسان فى ارتباطه بالخارج دون شك إلى سبل، تسمى سبل المعرفة. أهم هذه السبل العين و الأذن للرؤيه و السماع، و اللسان للسؤال.

لذلك، بعد أن تصف الآية هؤلاء بأنهم صم بكم عمى، تستنتج باستعمال فاء التفریع و تقول: فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ. □

من هنا يقرر القرآن أن أساس العلوم العين و الأذن و اللسان، العين و الأذن للفهم المباشر، و اللسان لإقامه الارتباط بالآخرين و كسب علومهم.

ص: ٤٨٢

١- ١) -وفقا لهذا التفسير فان المعنى بحاجه إلى تقدير، ففى الأصل: مثل الداعى للذين كفروا إلى الايمان... و على هذا تكون جمله «صم بكم عمى فهم لا يعقلون» و صفيه لهؤلاء الأشخاص الذين فقدوا جميع آليات الإدراك عمليا. لا أنهم فقدوا العين و الاذن و اللسان و لكن بما أنهم لم ينتفعوا بها بالوجه الصحيح، فكانما قد فقدوها.

و الفيلسفه أثبتت أيضا حقيقه انطلاق العلوم غير الحسيه أيضا من العلوم الحسيه، و هو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (لمزيد من التوضيح عن نعمه أدوات المعرفه راجع المجلد الثامن من هذا التفسير، في شرح الآيه ٧٨ من سوره النحل).

٢- نَعْقُ الْغُرَابِ:

إذا صَوَّت دون أن يمدَّ عنقه، فإذا مدَّ عنقه و حركها ثم صاح قيل: نَعَقَ (بالغين) (١).

ثم تَوَسَّعُوا في نَعَقٍ لتشمل كل صوت تنادى به البهائم، و واضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئاً من هذا النداء و إن أبدت ردَّ فعل تجاه هذا النداء، فإنما هو لدويّ هذا الصوت و طريقه أدائه الخاصه.

ص: ٤٨٣

(١- ١) - مجمع البيان، تفسير الآيه مورد البحث.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)

التفسير

اشاره

الطيبات و الخبائث

القرآن يتهج أسلوب التأكيد و التكرار بأشكال مختلفه فى معالجته للانحرافات المزمناه. و فى هذه الآيات عوده إلى مسأله تحريم المشركين فى الجاهليه لبعض الأَطعمه دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتجه فى هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقه جميع الناس.

تقول الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

هذه النعم الطيبه المحلله المتناسبه مع الفطره الإنسانيه السليمه قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟! هذه الأَطعمه تمنحك القوه على أداء مهامكم، و تذكركم بشكر خالقكم

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ (١) لفهمنا نكتتين:

تقول الآية هنا: مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، بينما تقول تلك مِمَّا فِي الْأَرْضِ .

و لعل هذا الاختلاف يشير إلى أن النعم الطيبه مخلوقه أصلا للمؤمنين، و غير المؤمنين يتناولون هذه الأَطعمه ببركه المؤمنين، كالماء الذى يستعمله البستاني لسقى أشجاره و أغراسه، بينما تستفيد من هذا الماء أيضا الأعشاب و النباتات الطفيليه.

و الاخرى، أن الآية تقول لعامة الناس: كُلُوا ... وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ و هذه الآية تخاطب المؤمنين و تقول: كُلُوا ... وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ أَى لا تكتفى هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفاده من هذه النعم، بل تحثهم على حسن الاستفاده منها.

فالمتوقع من الناس العاديين أن لا يذنبوا فى استهلاك هذه النعم، بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها فى أفضل طريق.

و قد يشر تكرر التأكيد فى القرآن الكريم على الاستفاده من الأَطعمه الطيبه تساؤلا عن سبب هذا التكرار. أمّا لو عدنا إلى تاريخ العصر الجاهلى لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرّموا على أنفسهم بعض الأَطعمه دونما دليل، و تناقلت أجيالهم هذا التحريم و كأنه وحى منزل، و نسبوه أحيانا بصراحه إلى الله، و القرآن استهدف اقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافيه من أذهانهم.

ثم إن التركيز على كلمه «طيب» يتضمن أيضا دعوه إلى اجتناب ما خبث من الأَطعمه، كالميتة و الوحوش و الحشرات، و كالمسكرات السائده بين الناس بشده

فى تفسير الآيه ٣٢ من سوره الأعراف تحدثنا بالتفصيل عن استثمار المؤمنين الأطمعه الطيبه و الزينه المعقوله (المجلد الخامس من هذا التفسير).

الآيه التاليه تبين بعض ألوان الأطمعه المحرمه، و تقول: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخَنزِيرِ وَ مَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .**

تذكر الآيه ثلاثه أنواع من اللحوم المحرمه إضافه إلى الدم، و هى من أكثر المحرمات انتشارا فى ذلك العصر، فى بعضها خبث ظاهر لا يخفى على أحد كالميته و الدم و لحم الخنزير، و فى بعضها خبث معنوى كالتى ذبحت من أجل الأصنام.

الحصر فى الآيه بكلمه «إنما» هو «حصر إضافى» لا يستهدف منه بيان جميع المحرمات، بل نفى ما ابتدعه بشأن بعض اللحوم المحلله. بعبارة اخرى، هؤلاء الجاهليون حرموا بعض الأطمعه الطيبه استنادا إلى ما توارثوه من خرافات و أوهام، لكنهم بدلا من ذلك كانوا يعمدون عند قله الطعام إلى أكل الميته أو الخنزير أو الدم.

القرآن يقول لهؤلاء إن هذه هى الأطمعه المحرمه لا تلك (و هذا هو معنى الحصر الإضافى).

و لما كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطمعه المحرمه حفظا لحياته، فقد استثنت الآيه هذه الحاله و قالت: **فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ .**

و من أجل أن تقطع الآيه الطريق أمام من يتذرع بالاضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». و الباغى هو الطالب، و المراد هنا طالب اللذه و العادى هو المتجاوز للحد، أى المتجاوز حد الضروره، فالرخصه هنا إذن لمن لا يريد اللذه فى تناول هذه الأطمعه، و لا يتجاوز حد الضروره اللازمه لنجاته من

الموت.

و لأن معنى البغى الظلم أيضا ذهب بعض المفسرين إلى أن الرخصه ممنوحه لأولئك الذين يضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفر المعصيه.

فالمسافرون لهدف غير مشروع قد يجب عليهم تناول الأَطعمه المحرمه لحفظ النفس من التلف، إلا أن هذا العمل يكتب في صحيفه أعماله من الذنوب.

بعباره اخرى: هؤلاء العاصون قد يجب عليهم عقلا- في أسفارهم المحرمه أن يتناولوا شيئا من الأَطعمه المحرمه لدى الاضطرار، لكن هذا الوجوب لا يرفع عنهم المسؤوليه، لأنهم أجبروا على ذلك و هم على مسير خاطئ.

و هناك روايات تذكر أن الآيه تشير إلى السائرين على طريق الخروج على إمام المسلمين، فهؤلاء مستثنون من هذه الرخصه. و هذه الروايات تشير في الواقع إلى نفس الحقيقه المذكوره، و هكذا الأمر في أحكام صلاه المسافر، فالمسافر يقصر الصلاه في السفر إلا ما كان سفرا حراما، و لذلك يستدل بعباره (غير باغ و لا عاد) للحكمين معا، حكم صلاه المسافر، و حكم ضروره تناول اللحوم المحرمه (1) و في الختام تقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي حَرَّمَ تِلْكَ الْأَطْعَمَةَ أَبَاحَ تَنَاوُلِهَا فِي مَوَارِدِ الضَّرُورَةِ بِرَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ.

بحوث

اشاره

١- فلسفه تحريم اللحوم المحرمه:

الأغذيه المحرمه التي ذكرتها الآيه الكريمه أعلاه لها- كسائر المحرمات الإلهيه- فلسفتها الخاصه. و قد شرّعت انطلاقا من خصائص الإنسان جسميا

ص: ٤٨٧

١ - ١) - روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَنَّ (الباغى) هو الذَّاهِبُ لِلصَّيْدِ عَلَى سَبِيلِ التَّنَزُّهِ، وَ (العادى) هو السَّارِقُ، وَ هَذَا مَسْتَثْنَانِ مِنْ رِخْصَةِ أَكْلِ المَيْتَةِ وَ قِصْرِ الصَّلَاةِ»، (وسائل الشيعه، ج ٥، ص ٥٠٩)

و روحيا. و الروايات الإسلاميه ذكرت علل بعض هذه الأحكام، و العلوم الحديثه أماطت اللثام أيضا عن بعض هذه العلل.

على سبيل المثال،

روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «...أما الميتة فإنه لم ينل منها أحد إلا ضعف بدنه، و ذهبت قوته، و انقطع نسله، و لا يموت آكل الميتة إلا فجأه»

(١)

و لعل هذه المفساد تعود إلى أن جهاز الهضم لا- يستطيع أن يصنع من الميتة دما سالما حيا، إضافة إلى أن الميتة مرتع أنواع الميكروبات، و الإسلام اعتبر الميتة نجسه، كى يتعد عنها المسلم فضلا عن عدم تناولها.

و المحرّم الثانى فى هذه الآيه «الدم»، و شرب الدم له مفساد أخلاقيه و جسميه، فهو وسط مستعد تماما لتكاثر أنواع الميكروبات.

الميكروبات التى تدخل البدن تتجه أول ما تتجه إلى الدم، و تتخذ مركزا لنشاطهم، و لذلك اتخذت الكريات البيضاء مواقعها فى الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحياء المجهرية فى الدم المرتبط بكل أجزاء الجسم.

و حين يتوقف الدم عن الحركة و تنعدم الحياه فيه، يتوقف نشاط الكريات البيض أيضا، و يصبح الدم على بذلك وسطا صالحا لتكاثر الميكروبات دون أن تواجه عقبه فى التكاثر. و لذلك نستطيع القول إن الدم- حين يتوقف عن الحركة- يكون أكثر أجزاء جسم الإنسان و الحيوان تلوثا.

و من جهه اخرى ثبت اليوم فى علم الأغذيه، أن الأغذيه لها تأثير على الأخلاق و المعنويات عن طريق التأثير فى الغدد و إيجاد الهورمونات. و منذ القديم ثبت تأثير شرب الدم على تشديد قسوه الإنسان، و أصبح ذلك مضرب الأمثال. لذلك نرى الروايه

عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام تقول:

«أما الدم فإنه يورث القسوه فى القلب و قلّه الرأفه و الرحمه حتى لا يؤمن أن يقتل

ص: ٤٨٨

ولده و والديه و لا يؤمن على حميمه و لا يؤمن على من يصحبه» (١).

ثالث: المحرمات المذكوره فى الآيه «لحم الخنزير».

الخنزير-حتى عند الأوروبيين المولعين بأكل لحمه-رمز التحلل الجنسى.

و هو حيوان قدر للغايه، و تأثير تناول لحمه على التحلل الجنسى لدى الإنسان مشهود.

حرمه تناول لحمه صرحت بها شريعته موسى عليه السلام أيضا، و فى الأناجيل شبه المذنبون بالخنزير، كما أن هذا الحيوان مظهر الشيطان فى القمص.

و من العجيب أن أناسا يرون بأعينهم قذاره هذا الحيوان حتى إنه يأكل عذرتة، و يعلمون احتواء لحمه على نوعين خطرين من الديدان، و مع ذلك يصرون على أكله.

دوده «التريشين» التى تعيش فى لحم هذا الحيوان تتكاثر بسرعه مدهشه، و تبيض فى الشهر الواحد خمسه عشر ألف مره، و تسبب للإنسان أمراضا متنوعه كفقير الدم، و الغثيان، و حمى خاصه، و الإسهال، و آلام المفاصل، و توتر الأعصاب، و الحكه، و تجمع الشحوم داخل البدن، و الإحساس بالتعب، و صعوبه مضغ الطعام و بلعه، و التنفس و....

و قد يوجد فى كيلو واحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دوده من هذه الديدان!! و لذلك أقدمت بعض البلدان الأورويه فى السنوات الماضيه على منع تناول لحم هذا الحيوان.

و هكذا تتجلى عظمه الأحكام الإلهيه بمرور الأيام أكثر فأكثر.

يقول البعض أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضى على ديدان هذا الحيوان، و لكن على فرض اننا استطعنا بواسطه العقاقير، أو بالاستفاده من الحراره

ص: ٤٨٩

الشديده فى طبخه، إلا أن أضراره الأخرى ستبقى. وقد ذكرنا أن للأطعمه تأثيرا على أخلاق الإنسان عن طريق تأثيرها على الغدد و الهورمونات و ذلك الأصل علمى مسلم، و هو أن لحم كل حيوان يحوى صفات ذلك الحيوان أيضا. من هنا تبقى للحم الخنزير خطورته فى التأثير على التحلل الجنسى للأكلين، و هى صفة بارزه فى هذا الحيوان.

و لعل تناول لحم هذا الحيوان أحد عوامل التحلل الجنسى فى أوربا.

رابع، المحرمات فى الآيه **مَّا أَهْلًا بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ**، و هى الحيوانات التى تذبح على غير اسم الله، كالتى كانت تقدم للأصنام فى الجاهليه.

و تحريم لحوم هذه الحيوانات لا يلزم بالضروره أن تكون لها إضرار صحيه حتى؟ يقال: إن ذكر اسم الله أو غير الله حين الذبح لا ربط له بالأمر الصحيحه.

فليس من الحتم أن تكون للحم آثار صحيه حتى تكون محرمة. لان المحرمات فى الإسلام لها أبعاد مختلفه، فتاره بسبب الصحه و حفظ البدن و اخرى يكون للتحريم جانب معنوى و أخلاقى و تربوى، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن الله، و لها تأثير نفسى و تربوى سلبى على الأكل، لأنها من سنن الشرك و الوثنيه و تعيد إلى الذهن تلك التقاليد الخرافيه.

٢- التكرار و التأكيد

تحريم المواد الأربع المذكوره تكرر فى أربع سور من القرآن، سورتين مكيتين (الأنعام، ١٤٥ و النحل، ١١٥) و سورتين مدينيتين (البقره، ١٧٣ و المائده، ٣).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولا فى أوائل البعته، ثم أعلن ثانيه فى أواخر إقامة الرسول صلى الله عليه و اله و سلم فى مكه، و تكرر الإعلان ثالثه فى أوائل الهجره إلى المدينه، ثم أعيد التأكيد رابعه فى أواخر عمر الرسول فى سوره المائده و هى آخر

كل هذا التأكيد يعود إلى أهميه الموضوع و إلى ما فى هذه المواد من أخطار جسميه و روحيه، و إلى اتساع نطاق تلوث الناس آتند بها.

٣-حقن الدم

واضح أن تحريم تناول الدم فى الآيه لا- يشمل موارد الاستفاده المعقوله من هذه ماده مثل حقن الدم لإنتقاذ الجرحى و المرضى، كما لا يتوفر لدينا دليل على حرمة بيع الدم و شرائه فى هذه الموارد، لأنها موارد استفاده عقلائيه مشروعه عامه.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

سبب النزول

أجمع المفسرون على نزول هذه الآيه في أهل الكتاب، وقيل إنها نزلت خاصه في علماء اليهود. فقد كانوا قبل ظهور الإسلام يبشرون بصفات النبي المرتقب و بعلماته. و بعد البعثه خاف هؤلاء الأبحار على مصالحهم فكفوا عن طريقتهم السابقه، و كتموا ما عندهم في التوراه من صفات النبي، فنزلت الآيات تؤنبهم.

التفسير

اشاره

إدانه كتمان الحق مره اخرى

هذه الآيات تأكيد على ما مر في الآيه ١٥٩ بشأن كتمان الحق. و هي -و إن

كانت تخاطب أحبار اليهود-لها مفهوم عام، لا يقتصر- كما ذكرنا مرارا-على سبب نزولها.فسبب النزول-فى الواقع-وسيله لبيان الأحكام الكليه العامه، و مصادق من مصاديق الحكم الكلى للآيه.

فكل الذين يكتمون أحكام الله و ما يحتاجه الناس من حقائق طلبا للرئاسه أو الثروه،قد ارتكبوا خيانه كبرى،و عليهم أن يعلموا أنهم باعوا حقيقه نفسه بثمان بخس،و هى تجاره خاسره.

الآيه الاولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ .

هذه الهدايا و العطايا التى ينالونها من هذا الطريق نيران محرقه تدخل بطونهم.هذا التعبير يوضح ضمنيا مسأله تجسيم الأعمال فى الآخره و تدل على أن الأموال المكتسبه عن هذا الطريق المحرّم،هى فى الواقع نيران تدخل فى بطونهم و ستتجسّم بشكل واقعى فى الآخره.

ثم تتعرض الآيه إلى عقاب معنوى سينال هؤلاء أشدّ من العقاب المادى، و تقول: وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و فى موضع آخر ذكر القرآن مثل هذا اللون من العقاب لأولئك الذين ينكثون عهد الله من أجل مصالح تافهه،فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١).

يستفاد من هذه الآيه و الآيه التاليه أن واحده من أعظم المواهب الإلهيه فى الآخره أن يكلم الله المؤمنين تطفيا بهم.أى إن المؤمنين سينالون فى الآخره نفس المنزله التى نالها أنبياء الله فى الدنيا،و سيلتذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهى

ص: ٤٩٣

المنزله التي نالها أنبياء الله في الدنيا، و سيلتذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهي... و أيه لذه أعظم من هذه اللذه؟! أضف إلى ذلك إن الله ينظر إليهم بعين لطفه، و يطهرهم بماء عفوه و رحمته، و أيه نعمه أعظم من هذه النعمه؟! بديهي أن تكليم الله عباده لا يعنى أن الله له جسم و لسان، بل إنه بقدرته الواسعه يخلق فى الفضاء أموجا صوتيه خاصه قابله للسمع و الإدراك، (كما كلم الله موسى عند جبل الطور)، أو أنه يتكلم مع خاصه عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

على أيه حال، هذا اللطف الإلهي الكبير، و هذه اللذه المعنويه المنقطعه النظير، للعباد المخلصين الذين ينطقون بالحق و يعرفون الناس بالحقائق، و يلتزمون بعهودهم و موثيقهم، و لا يضحون برسالتهم من أجل مصالحهم الماديه.

و قد يسأل سائل عن تكليم الله المجرمين يوم القيامه، استنادا الى ما ورد فى الآيات كقوله تعالى: **قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** (١). و هذا جواب من الله لأولئك الذين يطلبون الخروج من النار. و مثل هذا الحوار نجده فى الآيتين ٣٠ و ٣١ من سوره الجاثيه.

و الجواب: أن المقصود من التكليم فى آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف و حبّ و احترام، لا عن تحقير و طرد و عقوبه فذلك من أشدّ الجزاء.

من الواضح أن عباره **يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا** لا تعنى السماح بأن يشتروا به ثمنا باهظا، فالمقصود أن الثمن المادى مهما زاد فهو تافه لا قيمه له أمام كتمان الحق، حتى و لو كان الثمن الدنيا و ما فيها.

الآيه التاليه تحدد وضع هذه المجموعه و تبين نتيجه صفقتها الخاسره و تقول:

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ

ص: ٤٩٤

فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحيه تركهم الهدايه و اختيار الضلاله، و من ناحيه حرمانهم من رحمه الله و استحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهي، و هذه مبادله لا يقدم عليها إنسان عاقل.

لذلك تتحدث الآيه عن هؤلاء بلغه التعجب و تقول: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى الدَّارِ؟! آخر آيه في بحثنا تقول إن ذلك التهديد و الوعيد بالعذاب لكاتمي الحق، يعود إلى أن الله أنزل القرآن بالدلائل الواضحه، حتى لم تبق شبهه لأحد: ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ .**

مع ذلك فإن زمره محرفه تعتمد إلى كتمان الحقائق صيانه لمصالحها، و تثير الاختلاف في الكتاب السماوى لتصيد في الماء العكر.

مثل هؤلاء الذين يثيرون الاختلاف في الكتاب السماوى بعيدون عن الحقيقه: **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .**

كلمه «شقاق» تعنى في الأصل الشق و الانفصال، و لعل المراد به أن الإيمان و التقوى و نشر الحقائق رمز وحده المجتمع الإنسانى، أما الخيانه و كتمان الحقائق فعامل التفرقه و التبعر و الإنشقاق لا الإنشقاق السطحي الذى يمكن التغافل عنه بل البعيد و العميق.

اشاره

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

النزول

تغيير القبلة أثار بين الناس ضجه، و خاصة بين اليهود و النصارى الذين كانوا يرون فى اتباع المسلمين لقبلتهم سند افتخار لهم. القرآن الكريم رد فى الآيه ١٤٢ من هذه السوره على اعتراضاتهم فى قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ... و فى هذه الآيه يطرح المعيار الصحيح لتقييم المجموعه البشريه.

التفسير

اشاره

أساس البر

ذكرنا فى تفسير آيات تغيير القبلة، أن النصارى كانوا يتجهون فى عباداتهم

نحو الشرق و اليهود نحو الغرب، و قرر الله الكعبه قبله للمسلمين، و كانت فى اتجاه الجنوب وسطا بين الاتجاهين.

و مرّ بنا الحديث عن الضَّجَّة التى أثرت بين اعداء الإسلام و المسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة.

الآيه أعلاه تخاطب هؤلاء و تقول: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ .

«البر» فى الأصل التوسُّع، ثم أطلق على أنواع الإحسان، لأن الإنسان بالإحسان يخرج من إطار ذاته ليتسع و يصل عطاؤه إلى الآخرين.

و«البر» بفتح الباء، فاعل البرّ، و هى فى الأصل الصحراء و المكان الفسيح، و أطلقت على المحسن بنفس اللحاظ السابق.

ثم يبين القرآن أهم أصول البرّ و الإحسان و هى ستة، فيقول: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكُتُبِ وَ النَّبِيِّينَ .

هذا هو الأساس الأوّل: الإيمان بالمبدأ، و المعاد، و الملائكة المأمورين من قبل الله، و المنهج الإلهي، و النبيين الدعاة إلى هذا المنهج. و الإيمان بهذه الأمور يضئ وجود الإنسان، و يخلق فيه الدافع القوى للحركة على طريق البناء و الأعمال الصالحة.

جدير بالذكر أن الآيه تقول: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ... و لم تقل و لكن البرّ بفتح الباء، أو البار بصيغته اسم الفاعل. أى أن الآيه استعملت المصدر بدل الوصف، و هذا يفيد بيان أعلى درجات التأكيد فى اللغة العربية. فحين يقول أحد: على عليه السلام هو العدل فى عالم الإنسانية. فهو يقصد أنه عادل للغاية و أن العدالة قد ملأت وجوده بحيث أن من يراه فكأنما لا يرى سوى العدالة متجسده. و حين يقول: بنى أميه ذلّ الإسلام، فيعنى أن كل وجودهم ذلّ للإسلام.

ثم تذكر الآيه الإنفاق بعد الإيمان، وتقول: وَ آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ .

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، خاصة إذا بلغ الإنفاق درجة الإيثار، لأن حب المال موجود بدرجات متفاوتة في كل القلوب. و عبارته على حُبِّه إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحب للمال من أجل رضا الله سبحانه.

الآيه عددت ستة أصناف من المحتاجين إلى المال:

ذكرت بالدرجة الاولى ذوى القربى، ثم اليتامى و المساكين، ثم أولئك الذين اعترتهم الحاجة مؤقتا كابن السبيل و هو المسافر المحتاج، ثم تذكر الآيه بعد ذلك السائلين إشاره إلى أن المحتاجين ليسوا جميعا أهل سؤال. فقد يكونون متعفين لا تبدو على سيماهم الحاجة. لكنهم فى الواقع محتاجون، و عن هؤلاء قال القرآن فى موضع آخر: يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (١).

ثم تشير الايه إلى الرقيق الذين يتعطشون إلى الحرية و الاستقلال بالرغم من عدم احتياجهم المادى و تأمين نفقتهم على عهده مالكيهم.

و الأصل الثالث من أصول البر: إقامة الصلاة: وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ . و الصلاة إن أداها الفرد بشروطها و حدودها، و بإخلاص و خضوع، تصد عنه كل ذنب و تدفعه نحو كل سعادة و خير.

و الأصل الرابع: أداء الزكاة و الحقوق الماليه الواجبه: وَ آتَى الزَّكَاةَ .

فالآيه سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، و هنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات فى الإنفاق و يتساهل فى الواجب، و بعضهم يلتزم

ص: ٤٩٨

بالواجب فقط و لا ينفق درهما فى إيثار.و المحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون فى المجالين معا.

يلفت النظر أن الآيه ذكرت عباره عَلَى حُبِّهِ بعد الإنفاق المستحب.و لم تذكر ذلك مع الزكاه الواجبه.و لعل ذلك يعود إلى أن أداء الحقوق الواجبه وظيفه إلهيه و اجتماعيه،و الفقراء-فى منطق الإسلام-شركاء فى أموال الأغنياء،و دفع المال للشريك لا يحتاج إلى عباره المذكوره.

الخامس من الأصول:الوفاء بالعهد: وَ الْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا،فالثقه المتبادله رأس مال الحياه الاجتماعيه.و ترك الوفاء بالعهد من الذنوب التى تزلزل الثقه و توهن عرى العلاقات الاجتماعيه،من هنا وجب على المسلم أن يلتزم بثلاثه أمور تجاه المسلم و الكافر،و إزاء البرّ و الفاجر،و هى:الوفاء بالعهد،و أداء الأمانه،و احترام الوالدين (١).

الأساس السادس و الأخير من أسس البرّ فى نظر الإسلام:الصبر وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ (حال الفقر و المسكنه) وَ الضَّرَّاءِ (حال المرض) وَ حِينَ الْبَأْسِ (حال القتال مع الأعداء) (٢).

ثم تؤكد الآيه على أهميه الأسس الستة و على عظمه من يتجلى بها،فتقول:

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

صدقهم يتجلى فى انطباق أعمالهم و سلوكهم مع إيمانهم و معتقداتهم،و تتجلى تقواهم فى التزامهم بواجبهم تجاه الله و تجاه المحتاجين و المحرومين و كل المجتمع الإنسانى.

ص: ٤٩٩

١-١) -أصول الكافى، ج ٢،باب البر بالوالدين،ص ١٢٩،حديث ١٥.

٢-٢) -البأساء من البؤس و هو الفقر،و الضراء تعنى الألم و المرض،و حين البأس أى حين الحرب(مجمع البيان، الآيه).

و الملفت للنظر أن الصفات الست المذكوره تشمل الأصول الاعتقاديه و الأخلاقيه و المناهج العمليه. فتضمنت الآيه كل أسس العقيدته، و كذلك أشارت إلى الإنفاق و الصلاه و الزكاه بين المناهج العمليه، و هي أسس ارتباط المخلوق بالخالق، و المخلوق بالمخلوق. و فى الحقل الأخلاقي ركزت الآيه على الوفاء بالعهد، و على الصبر و الاستقامه و الثبات، و هي أساس كل الصفات الأخلاقيه الساميه.

ص : ٥٠٠

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغَاءً بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَالْقِصَاصُ حَيَاةٌ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

سبب النزول

شاع بين القبائل العربيه انتقام قبيله من قبيله اخرى، و لم يكن لهذا الانتقام حدود، فقد يقتل رجل فتهدد قبيلته قتل كل رجال قبيله القتال، فنزلت الآيه و شرعت حكم القصاص.

و هذا الحكم الإسلامى جاء ليقرر الموقف من عرفين قائمين عن العرب، عرف يرى حتميه القصاص، و عرف يرى حتميه الديه. فجاءت الآيه لتقرر القصاص عند عدم موافقه أولياء المقتول على أخذ الديه، و إن وافقوا فالديه.

التفسير

اشاره

فى القصاص حياه

الآيات السابقه طرحت المنهج الإسلامى فى «البر»، و هنا يقدم القرآن

الكريم-و هكذا فى الآيات التالىة-مجموعه من الأحكام الإسلاميه، إكمالاً لبيان المنهج الإسلامى فى الحياه.

تبدأ هذه الأحكام من مسأله حفظ حرمة الدماء، وهى مسأله هامه فى الحياه الاجتماعيه، فتنفى العادات و التقاليد الجاهليه، و تقول للمؤمنين: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ** .

عبارة **كُتِبَ عَلَيْكُمُ** تبين أهميه الموضوع، و توحى بالتأكيد عليه، و ذكرت فى آيات اخرى بشأن الصوم و الوصيه، و لا يكتب من المسائل عاده إلا ما كان قاطعاً و جاداً.

و«القصاص» من «قَصَّ»، يقال قَصَّ أثره: أى تلاه شيئاً بعد شىء. و منه القصاص لأنه يتلو أصل الجنايه و يتبعه، و قيل هو أن يفعل بالثانى مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثله، و منه أخذ القصاص كأنه يتبع آثارهم شيئاً بعد شىء (1).

الآيه كما ذكرنا تستهدف بيان الموقف الصحيح من المجرم، و لفظ القصاص يدل على إنزال عقوبه بالمجرم مماثله لما ارتكبه هو، لكن الآيه لا تكتفى بذلك، بل بينت التفاصيل فقالت: **الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى** .

و سنوضح إن شاء الله مسأله قصاص الأنثى بالأنثى، و نبين أن الرجل قاتل المرأه يمكن إنزال عقوبه القتل بحقه ضمن شروط.

ثم تبين الآيه أن القصاص، حق لأولياء المقتول، و ليس حكماً إلزامياً، فإن شأؤوا أن يعفوا و يأخذوا السديه، و إن شأؤوا ترك السديه فلهم ذلك، و تقول: **فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَبِعْدِ حُكْمِ الْقِصَاصِ عِنْدَ عَفْوِ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ إِلَى دِيهِ فَالْبَّاعِ بِالْمَعْرُوفِ** أى فعل العافى إتباع بالمعروف، و هو أن لا يشدد فى طلب السديه و ينظر من عليه السديه و أداءً إليه بإحسان أى على المعفو عنه أن يبادر إلى

ص: ٥٠٢

دفع الدية عند الإمكان، وأن لا يماطل.

التوصية إلى من له الدية أن لا يشدد في طلبه، وأن يستوفي حقه بشكل معقول...و على من عليه الدية أن يؤديها بإحسان، وأن لا يسوّف و يماطل.

ثم تؤكد الآية على ضروره الالتزام بحدود ما أقره الله، و عدم تجاوز هذه الحدود: **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**.

و هذا الأمر بالقصاص و بالعفو يشكل تركيبا انسانيا منطقيا. فهو من جهة يدين التقاليد السائدة في الجاهلية الأولى و الجاهليات التالية إلى يومنا هذا القاضيه بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

و من جهة اخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم و ردع القاتلين.

و من جهة ثالثة، لا يحق للطرفين بعد العفو و أخذ الدية التّعدّي، خلافا للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحيانا حتى بعد العفو و أخذ الدية.

الآية التالية قصيره العبارة و افره المعنى، تجيب على كثير من الأسئلة المطروحة في حقل القصاص، و يقول: **وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**.

هذه الآية بكلماتها العشر، تضع الإطار العام-ببلاغه و فصاحه متناهيين- للقصاص في الإسلام، و تبين أن القصاص ليس انتقاما، بل السبيل إلى ضمان حياة الناس.

إنه يضمن حياة المجتمع، إذ لو انعدم حكم القصاص، و تشجع القتل القساة على تعريض أرواح الناس للخطر- كما هو الحال في البلدان التي ألغت حكم القصاص- لارتفعت إحصائيات القتل و الجريمة بسرعة.

و هو من جهة اخرى، يصون حياة القاتل، بعد أن يصدّه إلى حدّ كبير عن

ارتكاب جريمته.

كما أنه يصون المجتمع بجعله قانون المماثلة من الانتقام و الإسراف فى القتل على طريقه التقاليد الجاهليه التى تبيح قتل الكثير مقابل فرد واحد. و هو بذلك يصون حياه المجتمع.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار أن القصاص مشروط بعدم العفو عن القاتل فهذا الشرط نافذه أمل للحياه أيضا بالنسبه للقاتل.

و عبارته لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ تحذير من كل عدوان لتكميل هذا الحكم الإسلامى العادل الحكيم.

بحوث

اشاره

١- القصاص و العفو تركيب عادل

النظره الإسلاميه نظره شموليه فى كل المجالات، قائمه على احتساب جميع جوانب الأمر الذى تعالجه. مسأله صيانته دم الأبرياء عالجه الإسلام بشكل دقيق بعيد عن كل إفراط أو تفريط، لا كما عالجتها الديانه اليهوديه المحرّقه التى اعتمدت القصاص، و لا الديانه المسيحيه المحرّفه التى ركزت على العفو... لأن فى الاولى خشونه و انتقاما، و فى الثانيه تشجيعا على الإجرام.

و لو افترضنا أنّ القاتل و المقتول أخوان أو قريبان أو صديقان، فإن الإجبار على القصاص يدخل لوعه اخرى فى قلب أولياء المقتول، خاصّه إذا كان هؤلاء من ذوى العواطف الإنسانيه المرهفه. و تحديد الحكم بالعفو يؤدى إلى تجرؤ المجرمين و تشجيعهم.

لذلك ذكرت الآيه حكم القصاص باعتباره أساسا للحكم، ثم ذكرت إلى

ص: ٥٠٤

جانبه حكم العفو.

بعبارة أوضح، إن لأولياء المقتول أن ينتخبوا أحد ثلاثة أحكام:

١- القصاص.

٢- العفو دون أخذ الدية.

٣- العفو مع أخذ الدية (و في هذه الحالة تشترط موافقه القاتل أيضا).

٢- هل يتعارض القصاص مع العقل و العواطف الإنسانية؟

إشارة

ثمّه فئه يحلو لها أن توجه إلى الإسلام-دون تفكير-اعتراضات و كثير شبهات، خاصه بالنسبه لمسأله القصاص. يقول:

١- الجريمه لا تزيد على قتل إنسان واحد، و القصاص يؤدّي إلى تكرار هذا العمل الشنيع.

٢- القصاص ينمّ عن روح الانتقام و التشفّي و القسوه، و يجب إزاله هذه الروح عن طريق الترييه، بينما يعمّق القصاص هذه الروح.

٣- القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لا بدّ أن يكون القاتل مصابا بمرض نفسى، و يجب علاجه، و القصاص ليس بعلاج.

٤- قوانين النظام الاجتماعى يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. و لا يمكن لقانون سنّ قبل أربعة عشر قرنا أن يطبق اليوم.

٥- من الأفضل الاستفاده من القاتل بتشغيله فى معسكرات العمل الإجبارى، و بذلك نستفيد من طاقاته و نصون المجتمع من شروره.

هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

الجواب

لو أمعنا النظر فى آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه

الاعتراضات: وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .

فالحياه الاجتماعيه لا يمكن أن تطوى مسيرتها الحياتيه التكاملية،دون اقتلاع العوامل المضره الهدامه فيها.و لما كان القصاص فى هذه المواضع يضمن استمرار الحياه و البقاء،فإن الشعور بضروره القصاص أودع على شكل غريزه فى وجود الإنسان.

أنظمه الطب و الزراعه و الرعى قائمه على أساس هذا الأصل العقلى،و هو إزاله الموجودات المضره الخطره.فترى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطوره على بقيه أعضاء الجسد،و تقتلع النباتات و الأغصان المضره من أجل استمرار نمو النباتات المفيده بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون فى الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر،ينظرون إلى المسأله من منظار فردى.و لو أخذوا بنظر الإعتبار مصلحه المجتمع،و علموا ما فى القصاص من دور فى حفظ سائر أفراد المجتمع و تربيتهم،لأعادوا النظر فى أقوالهم.

إزاله مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع،كقطع العضو الفاسد من جسد الإنسان،و كقطع الغصن المضر من الشجره.و لا أحد يعترض على قطع ذلك العضو و هذا الغصن.هذا بشأن الاعتراض الأول.

و بالنسبه إلى الاعتراض الثانى،لا بدّ من الالتفات إلى أن تشريع القصاص لا ارتباط له بمسأله الانتقام.لأن الهدف من الانتقام إطفاء نار الغضب المتأججه لمسأله شخصيه،بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم فى المجتمع،و حمايه سائر الأبرياء.

و بشأن الاعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسياً،و لا تصدر هذه الجريمه من إنسان طبيعى،لا بدّ أن نقول:هذا الكلام صحيح فى بعض المواضع،

و الإسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون و أمثاله، و لكن لا يمكن اعتبار المرض عذرا لكل قاتل، إذ لا يخفى ما يجزّ إليه ذلك من فساد، و من تشجيع القتل على ارتكاب جرائمهم.

و لو صح هذا الاستدلال بالنسبة للقاتل، لصح أيضا بشأن جميع المعتدين على حقوق الآخرين. لأن الإنسان العاقل المعتدل لا يعتدى إطلاقا على الآخرين. و بذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، و يجب إرسال المعتدين و المجرمين إلى مستشفيات الأمراض النفسية بدل السجن.

أما ادعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، و بسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة التي ترتكب في عصرنا الراهن، و أمام التجاوزات الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفه من عالمنا بسبب الحروب و غير الحروب.

و لو أتيح للبشرية أن تقيم مجتمعا إنسانيا متطورا حقيقيا، فإن مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجأ إلى العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام ذلك، و من المؤكد أن المجتمع المتطور في آفاقه الإنسانية سيفضّل عفو القاتل. أما في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفه، فإن إلغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلا اتساعا و ضراوه.

و حول حفظ القتل في السجن، فإن هذه العمليه لا تحقق هدف الإسلام من القصاص. فالقصاص - كما ذكرنا - يستهدف حفظ حياه المجتمع، و الحيلولة دون تكرار القتل و الجريمة. السجن و أمثالها لا تستطيع أن تحقق هذا الهدف (خاصه السجن الحاليه التي هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). و لا أدل على ذلك من ارتفاع إحصائيات جرائم القتل خلال فتره قصيره، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. و لو كانت أحكام السجن عرضه للتقلّص بسبب أحكام العفو - كما هو

سائد اليوم-فإن المجرمين يعمدون إلى ارتكاب جرائمهم دون تخوّف أو تردّد.

٣- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قد يظن البعض أن قانون القصاص الإسلامى قد انتقص المرأة حين قرّر أن «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أى إن الرجل-قاتل المرأة- لا يقتص منه.

و ليس الأمر كذلك، مفهوم الآية لا يعنى عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل- كما هو مبين فى كتب الفقه-يجوز لأولياء المقتوله أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته.

بعبارة اخرى:المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة،هو القصاص دون شرط،أما إذا دفعت نصف ديته فيجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل،لا يعنى انتقاص الإسلام للمرأة،بل يعنى جبران الضرر المالى الذى يصيب عائله الرجل القاتل بعد قتله،(تأمل بدقه).

و لمزيد من التوضيح نقول:الرجال يتحملون غالبا مسؤوليات إعالة الأسره، و يؤمنون نفقاتها الاقتصادية،و لا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل و غياب المرأة على العائله اقتصاديا،و لو لم يراع هذا الفرق لأصبحت عائله المقتص منه بأضرار مالىه،و لوقعت فى حرج اقتصادى،و دفع نصف الدية يحول دون تزلزل تلك العائله اقتصاديا.و لا- يسمح الإسلام أن يتعرض أفراد أسره لخطر اقتصادى و تغط حقوقهم تحت شعار«المساواه».

قد تكون امراه فى أسرتها عضوه فعاله اقتصاديا أكثر من الرجل،و لكن الأحكام و القوانين لا- تقوم على أساس الحالات الاستثنائيه،بل على أساس الوضع العام،و فى هذه الحاله يجب أن نقارن كل الرجال بكل النساء.(تأمل بدقه).

٤-يلفت النظر أيضا فى الآية عبارته مِنْ أَخِيهِ،فالقرآن يركز على مفهوم

الأخوه بين المسلمين، حتى يطلق هذا التعبير على القاتل. و بهذا التعبير يضرب القرآن على وتر العاطفه الأخويه بين المسلمين، كى يشجع أولياء المقتول على العفو!! هذا طبعا بالنسبه للقاتل الذى انزلق فى هاويه الجريمه فى ظروف عصبيه خاصه، و ندم بذلك على فعلته. أمّا المجرمون الذى يفخرون بجرائمهم، و لا يشعرون بندم على ما ارتكبوه فلا يستحقون اسم الأخ و لا العفو.

ص: ٥٠٩

إشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

التفسير

إشاره

الوصيه بالمعروف

الآيات السابقه ذكرت تشريع القصاص، و هذه الآيات تذكر تشريع الوصيه، باعتباره جزءا من النظام المالى، و تذكر بأسلوب الحكم الإلزامى فتقول: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ .

ثم تضيف الآيه أن هذه الوصيه كتبت حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

ذكرنا أن تعبير كُتِبَ عَلَيْكُمْ يدل على الوجوب، من هنا كان هذا التعبير وقع بحث لدى المفسرين فى هذه الآيه، و لهم فيها أقوال مختلفه:

١- جاء فى الآيه الكريمه بشأن كتابه الوصيه كونها حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ، من

هنا فإنها مستحبه استحبابا مؤكدا، و لو كانت واجبه لقات الآيه، «حقاً على المؤمنين».

٢- قيل أيضاً: إن هذه الآيه نزلت قبل نزول أحكام الإرث، و كانت الوصيه آئذ واجبه، كى لا يقع نزاع بين الورثه. ثم نسخ هذا الوجوب بعد نزول آيات الإرث، و أصبح حكماً استحبابياً. و فى تفسير «العناشى» حديث يؤيد هذا الاتجاه.

٣- يحتمل أيضاً أن يكون حديث الآيه عن موارد الضروره و الحاجه، أى حين يكون الإنسان مديناً، أو فى ذمته حق، و الوصيه واجبه فى هذه الحالات.

يبدو أن التفسير الأول أقرب من بقيه التفاسير.

يلفت النظر أن الآيه الكريمه عبرت عن المال بكلمه «خير» فقالت: *إِنْ تَرَكَ خَيْرًا*. و هذا يعنى أن الإسلام يعتبر الثروه المستحصله عن طريق مشروع، و المستخدمه على طريق تحقيق منافع المجتمع و مصالحه خيراً و بركه. و يرفض النظرات الخاطئه التى ترى الثروه شراً ذاتياً، و يردّ على أولئك المتظاهرين بالزهد، القائلين إن الزهد مساو للفقر، مسبباً بذلك ركود المجتمع الإسلامى اقتصادياً، و مؤديناً بمواقفهم الانزوائيه إلى فسح المجال لاستثمار الطامعين خيرات أمتهم.

هذا التعبير يشير ضمناً إلى مشروعيه الثروه، لأن الأموال غير المشروعه ليست خيراً بل شراً وبالاً.

و يستفاد من بعض الروايات أن تعبير «خيراً» يراد به الأموال الموفوره، لأن المال اليسير لا يحتاج إلى وصيه، و يستطيع الورثه أن يقسموه بينهم حسب قانون الإرث. بعبارته اخرى المال اليسير ليس بشىء يستدعى أن يفصل الإنسان ثلثه

عن طريق الوصيه (١).

و جمله إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَبَيَّنَ آخِرُ فُرْصَةٍ لِلْوَصِيَّةِ، وَ هَذِهِ الْفُرْصَةُ الْآخِرَةُ إِنْ فَاتَتْ أَيْضًا فَلَا فُرْصَةَ بَعْدَهَا... أَيْ لَا مَانِعَ أَنْ يَكْتُبَ الْإِنْسَانُ وَصِيَّتَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَفَادُ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ هَذَا عَمَلٌ مُسْتَحْسَنٌ.

و لا- قيمه لتلك التصورات المتشائمه من كتابه الوصيه، فالوصيه إن لم تكن باعثا على طول العمر، لا تبعث إطلاقا على تقريب أجل الإنسان! بل هي دليل على بعد النظر و تحسب الاحتمالات.

تقييد الوصيه بِالْمَعْرُوفِ إشاره إلى أن الوصيه ينبغي أن تكون موافقه للعقل من كل جهه، لأن «المعروف» هو المعروف بالحسن لدى العقل. يجب أن تكون الوصيه متعقله في مقدارها و في نسبه توزيعها، دون أن يكون فيها تمييز، و دون أن تؤدي إلى نزاع و انحراف عن أصول الحق و العدالة.

حين تكون الوصيه جامععه للخصائص المذكوره فهي محترمه و مقدسه، و كل تعديل و تغيير فيها محظور و حرام. لذلك تقول الآيه التاليه: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ .

و لا يظن المحرفون المتلاعبون أن الله غافل عما يفعلون، كَلَّا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

و لعل هذه الآيه تشير إلى أن تلاعب «الوصي» (و هو المسؤول عن تنفيذ الوصيه) لا يصادر أجر الموصى. فالموصى ينال أجره، و الإثم على الوصي المحرف في كميته الوصيه أو كفيته أو في أصلها.

و يحتمل أيضا أن الآيه تبرئ ساحه غير المستحقين الذين قسم بينهم الإرث عند عدم التزام الوصي بمفاد الوصيه. و تقول إن هؤلاء (الذين لا يعملون

ص: ٥١٢

بتلاعب الوصى) لا إثم عليهم، بل الإثم على الوصى المحرّف، ولا تناقض بين التفسيرين، فالآية تجمع التفسيرين معا.

بين القرآن فيما سبق الأحكام العامّة للوصيه، و أكد على حرمة كل تبديل فيها، و لكن في كل قانون استثناء، و الآيه الثالثه من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء و تقول: **فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

الاستثناء يرتبط بالوصيه المدونه بشكل غير صحيح، و هنا يحق للوصى أن يتبه الموصى على خطئه إن كان حبا، و أن يعدل الوصيه إن كان ميتا، و حدّد الفقهاء مواضع جواز التعديل فيما يلي:

١- إذا كانت الوصيه تتعلق بأكثر من ثلث مجموع الثروه، فقد أكدت نصوص المعصومين على جواز الوصيه فى الثلث، و حضرت ما زاد على ذلك (١).

من هنا لو وصّى شخص بتوزيع كل ثروته على غير الورثه الشرعيين، فلا تصح وصيته، و على الوصى أن يقلل إلى حدّ الثلث.

٢- إذا كان فى الوصيه ما يؤدى إلى الظلم و الإثم، كالوصيه بإعانه مراكز الفساد، أو الوصيه بترك واجب من الواجبات.

٣- إذا أدت الوصيه إلى حدوث نزاع و فساد و سفك دماء، و هنا يجب تعديل الوصيه بإشراف الحاكم الشرعى.

عبرت الآيه «بالجنف» عن الانحرافات التى تصيب الموصى فى وصيته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرافات العمديه.

عباره **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى عند ما يعدل الوصيه المنحرفه، و تقول: إن الله يعفو عن مثل هذا الخطأ.

ص: ٥١٣

١- ١) - وسائل الشيعه، ج ١٣، ص ٣٦١ (كتاب أحكام الوصايا، الباب العاشر).

١- فلسفه الوصيه

الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينه على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب و الأصدقاء و المعارف من له حاجه ماسه إلى المال، ولكن لا- سهم له فى قانون الإرث. وقد يكون بين الورثه من له حاجه أكبر إلى المال من بقيه الورثه.

من هنا وضع الإسلام قانون الوصيه إلى جانب قانون الإرث، و أجاز للمسلم أن يتصرّف فى ثلث أمواله (بعد الوفاه) بالشكل الذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التى ما أتيح له أن يعملها فى حياته، و منطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

الوصيه غير محصوره بالموارد المذكوره طبعاً، بل على الإنسان أن يشخص فى وصيته ما لديه من أمانات و ما عليه من ديون و أمثاله، حتى لا يبقى فى أمواله شىء مبهم من حقوق الناس و حقوق الله.

النصوص الإسلاميه أكّدت على ضروره الوصيه كثيراً، من ذلك

ما روى عن رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلم: «ما ينبغى لامرئ مسلم أن يبيت ليله إلاّ و وصيته تحت رأسه»

(١)

و المقصود بوضع الوصيه تحت الرأس إعدادها و تهيئتها طبعاً.

و فى روايه اخرى: «من مات بغير وصيته مات ميتة جاهليّه»

(٢)

٢- العدالة فى الوصيه

فى الروايات الإسلاميه تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرار» فى

١-١) - وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٥٢.

٢-٢) - نفس المصدر.

الوصيه، يستفاد منها جميعا أنّ تعدى الحدود الشرعيه المنطقيه فى الوصيه عمل مذموم و من كبائر الذنوب.

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من عدل فى وصيّته كان كمن تصدّق بها فى حياته، و من جار فى وصيّته لقى الله عزّ و جلّ يوم القيامة و هو عنه معرض»

(١)

و الجور فى الوصيه هو الوصيه بأكثر من الثلث، و حرمان الورثه من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثه بسبب عواطف شخصيه سطحيه. و أوصت النصوص الإسلاميه أيضا بعدم الوصيه بالثلث إن كان الورثه فقراء محتاجين، و تقليل النسبه إلى الربع و إلى الخمس (٢).

موضوع العدالة فى الوصيه يبلغ درجه من الأهميه نراها فى هذه

الروايه: «أنّ رجلا من الأنصار توفى و له صبيه صغار و له سته من الرقيق فأعتقهم عند موته و ليس له مال غيرهم فلما علم النبى صلى الله عليه و اله و سلم سأل قومه ما صنعتكم بصاحبكم قالوا دفناه قال: أما إننى لو علمته ما تركتكم تدفونونه مع أهل الإسلام ترك ولده صغارا يتكفّفون الناس» (٣).

٣- الوصايا الواجبه و المستحبه

الوصيه و إن كانت مستحبه بطبيعه حالها- كما أشرنا إليه- و لكن قد تكون واجبه لأمر طارئه، مثل أن يكون على الإنسان حقوق واجبه للناس أو لله قصير فى أدائها، أو كانت عنده أمانات و ديون أو مثل ذلك بحيث لو لم يوص ضياع حقوق الناس بذلك، و أهم من الكل أن يكون للإنسان مكانه خاصه فى المجتمع لو لم يوص لمن بعده وقعت اضطرابات و أمور مؤسفه فى جميع هذه الصور تجب الوصيه.

ص: ٥١٥

١-١) - وسائل الشيعه، ج ١٣، ص ٣٥٩.

٢-٢) - وسائل الشيعه، ج ١٣، ص ٣٦٠.

٣-٣) - سفينه البحار، ج ٢، ص ٦٥٩، مادّه وصى.

٤- الوصيه قابله للتغيير خلال الحياه

القوانين الإسلاميه أجازت للموصى أن يعيد النظر فى وصيته ما دام على قيد الحياه. و جواز هذا التغيير يشمل الوصى و كيفيه الوصيه. ذلك لأن مرور الزمان قد يغير نظرات الموصى، و يغير المصالح المرتبطه بالوصيه.

٥- جدير بالذكر أن الإنسان ينبغى أن يجعل وصيته وسيله لتلافى ما مضى من تقصير، و أن يتودّد بها إلى من جفاه من أقاربه أيضا. و فى الروايات أن قاده الإسلام كانوا يوصون خاصه لمن جفاهم من أقاربهم و يخصصون لهم مبلغا من المال، كى يعيدوا ما انقطع من أواصر الودّ، و يحررون عبيدهم، أو يوصون بتحريرهم.

ص: ٥١٦

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لَتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لَتَكْبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

التفسير

اشاره

الصوم مدرسه التقوى

في سياق طرح مجموعه من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحده من أهم العبادات، وهي عباده الصوم، و بلهجه مفعمه بالتأکید قالت الآية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

ثم تذكر الآيه مباشرة فلسفه هذه العباده التربويه، فى عبارته قليله الألفاظ، عميقه المحتوى، و تقول: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

نعم، الصوم- كما سيأتى شرح ذلك- عامل فعّال لتربيته روح التقوى فى جميع المجالات و الأبعاد.

لما كانت هذه العباده مقرونه بمعاناه و صبر على ترك اللذائذ الماديه، و خاصه فى فصل الصيف، فإن الآيه طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعه لتهيئ روح الإنسان لقبول هذا الحكم.

تبتدى الآيه أولاً بأسلوب خطابى و تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و هو نداء يفتح شغاف القلب، و يرفع معنويات الإنسان، و يشحذ همته، و فيه لهذه

قال عنها الإمام الصادق عليه السلام: «لذّه ما فى النداء-أى يا أيّها الذين آمنوا-أزال تعب العباده و العناء»

(١)

ثم تبين الآيه أن الصوم فريضه كتبت أيضاً على الأمم السابقيه.

ثم تبين الآيه فلسفه الصوم و ما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العباده محبوبه ملتصقه بالنفس.

الآيه التاليه تتجه أيضاً إلى التخفيف من تعب الصوم و تقول:

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

فالفريضه لا تحتل إلا مساحه صغيره من أيام السنه.

ثم تقول فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، فالمرضى و المسافر معفوان من الصوم، و عليهما أن يقضيا صومهما فى أيام اخرى.

ثم تصدر الآيه عفوا عن الطّاعنين فى السنّ، و عن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، و ترفع عنهم فريضه الصوم ليدفعوا بدلها كفاره، فتقول:

ص: ٥١٨

ثم يقول الآيه فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ (٢) أى من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له.

و أخيرا تبين الآيه حقيقه هي: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

استدل بعض بهذه الآيه على أن الصوم كان فى بدايه التشريع واجبا تخييريا، و كان المسلمون مخيرين بين الصوم و الفديه، ثم نسخ هذا الحكم بعد أن تعود المسلمون على الصوم و أصبح واجبا عيئيا، و لكن ظاهر الآيه يدل على تأكيد آخر على فلسفه الصوم، و على أن هذه العباده-كسائر العبادات-لا تزيد الله عظمه أو جلالا، بل تعود كل فوائدها على الناس.

الشاهد على ذلك ما جاء فى القرآن من تعبير مشابه لذلك، كقوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاه الجمعة: ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٣).

و قوله تعالى: وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤).

بهذا تبين أن عبارته وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ موجهه إلى كل الصائمين لا إلى

ص: ٥١٩

١ - ١) - «يطيقونه» من «الطوق» و هو الحلقه التى تلقى على العنق، أو توجد عليه بشكل طبيعى (كطوق الحمام) ثم أطلقت الكلمه على نهايه الجهد و الطاقه، و الضمير فى «يطيقونه» يعود على الصوم، أى الذين يبذلون غايه طاقتهم لدى الصوم، أو بعبارته اخرى: الذين يجهدهم الصوم و يثقل عليهم، و هم الطاعنون فى السن و المرضى الذين لا-يرجى علاجهم، فهؤلاء معفوون من الصوم و عليهم أن يدفعوا الفديه بدل ذلك (و على المرضى الذين يشفون أن يقضوا صومهم). و قيل «الذين يطيقونه» يعنى الذين كانوا يطيقونه، و لم يعودوا اليوم قادرين على الصوم (و هذا المعنى جاء فى بعض الروايات).

٢ - ٢) - قيل فى عبارته «تطوع خيرا» إنها إشاره إلى الصوم المستحب، و قيل أيضا: إنها تأكيد على أن الصوم ينبغى أن يكون عن رغبه و طواعيه، لا عن إجبار و إكراه.

٣ - ٣) - الجمعة، ٩.

٤ - ٤) - العنكبوت، ١٦.

آخر آيه فى بحثنا تتحدث عن زمان الصوم و بعض أحكامه و معطياته تقول:

شَهْرُ رَمَضَانَ

هو الشهر الذى فرض فيه الصيام.

و هو الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ، أى معيار معرفه الحق و الباطل.

ثم تؤكد ثانيه حكم المسافر و المريض و تقول: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَ مَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (١).

تكرار حكم المسافر و المريض فى هذه الآيه و الآيه السابقه، قد يكون سبب كراهيه بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى و لو كانوا مرضى أو مسافرين. و القرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم فى حاله السلام و الحضر حكم إلهى، و الإفطار فى حال السفر و المرض حكم إلهى أيضا لا تجوز مخالفته.

و فى آخر الآيه إشاره اخرى إلى فلسفه تشريع الصوم، تقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ. فالصوم-و إن كان على الظاهر نوعا من التضييق و التحديد-مؤداه راحه الإنسان و نفعه على الصعيدين المادى و المعنوى، (و سيأتى تفصيل ذلك فى بحث فلسفه الصوم).

و لعل هذه العبارة إشاره إلى أن الأوامر الإلهيه ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففى الصوم رخص حيثما كان فيه مشقه على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم-على أهميته-عن المريض و المسافر و الضعيف.

ثم تقول الآيه: وَ لِتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ أى يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهرا، فذلك ضرورى لتربيه جسمه و نفسه. لذلك وجب على المريض و المسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العده، و حتى الحائض-التي أعفيت من

ص: ٥٢٠

١-١) -أى من كان فى حضر فليصم شهر رمضان، و قيل إن جمله «من شهد منكم الشهر» تعنى رؤيه الهلال، و هو بعيد، و الحق ما ذكرناه و روايات أئمه أهل البيت تؤيد ذلك.

قضاء الصلاة-غير معفوّه عن قضاء الصوم.

و العبارة الأخرى من الآيه تقول: وَ لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لتكبروه على ما وفر لكم من سبل الهدايه، و لتشكروه على ما أنعم عليكم.

الشكر فى الآيه مسبق بكلمه «علل»، لكن التكبير مؤكّد بشكل قاطع غير مسبق بترجّح. و قد يعود الاختلاف فى التعبير إلى أن عباده (الصوم) هى على كل حال تكبير لله و تعظيم له سبحانه، أما الشكر- هو إنفاق النعم فى مواضعها و الاستفادة من الآثار العمليه للصوم- فله شروط أهمها الإخلاص التام، و فهم حقيقه الصوم، و الاطلاع على أبعاده و أعماقه.

بحوث

إشارة

١- الآثار التربويه و الاجتماعيه و الصحيه للصوم

للصوم أبعاد متعدده و آثار غزيره ماديه و معنويه فى وجود الإنسان، و أهمها البعد الأخلاقى، التربوى.

من فوائد الصوم الهامه «تلطيف» روح الإنسان، و «تقويه» إرادته، و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام و الشراب على الرغم من جوعه و عطشه، و هكذا عليه أن يكف عن ممارسه العمل الجنسى، ليثبت عمليا أنه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف و المضجع، و أنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحه و على أهوائه و شهواته.

الأثر الروحى و المعنوى للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفه هذه العباده.

مثل الإنسان الذى يعيش إلى جوار أنواع الأطمعه و الأشربه، لا يكاد يحس

بجوع أو عطش حتى يمدّ يده إلى ما لذّ و طاب كمثل شجره تعيش إلى جوار نهر وفير المياه، ما إن ينقطع عنها الماء يوما حتى تدبل و تصفرّ.

أما الأشجار التي تنبت بين الصخور و في الصحارى المقفره، و تتعرض منذ أوائل إنباتها إلى الرياح العاتيه، و حراره الشمس المحرقه حيناً، و بروده الجوّ القارصه حيناً آخر، و تواجه دائماً أنواع التحديات، فإنها أشجار قويه صلبه مقاومه.

و الصوم له مثل هذا الأثر في نفس الإنسان، فهذه القيود المؤقتة يمنحه القدره و قوه الإراده و عزيمه الكفاح، كما يبعث في نفسه النور و الصفاء بعد أن يسيطر على غرائزه الجامحه.

بعبارة موجزه: الصوم يرفع الإنسان من عالم البهيميه إلى عالم الملائكه و عبارة لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ تشير إلى هذه الحقائق.

و هكذا

الحديث المعروف: «الصوم جنّه من النار»

(١)

يشير إلى هذه الحقائق.

و عن على عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم أنه سئل عن طريق مجابهه الشيطان، قال:

«الصوم يسوّد وجهه، و الصدقه تكسر ظهره، و الحبّ في الله و المواظبه على العمل الصّالح يقطع دابره، و الاستغفار يقطع وتينه»

(٢)

و في نهج البلاغه عرض لفلسفه العبادات، و فيه يقول أمير المؤمنين على عليه السلام:

«و الصيام ابتلاء لإخلاص الخلق»

(٣)

و روى عن النبي صلّى الله عليه و اله و سلّم قال: «إِنَّ لِلجَنَّةِ باباً يدعى الرِّيَّانُ، لا يدخل فيها إلا الصّائمون».

يقول المرحوم الصدوق في «معاني الأخبار» معلقاً على هذا الحديث: إنما سمي هذا الباب بالرِّيَّان لأن مشقه الصائم إنما تكون في

-
- ١-١ - بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٦.
 - ٢-٢ - بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.
 - ٣-٣ - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٢٥٢.

و عند ما يدخل الصائمون من هذا الباب يرتوون حتى لا يظمأوا بعده أبدا (١).

الأثر الاجتماعي للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواه بين أفراد المجتمع. الموسرون يحسبون بما يعاناه الفقراء المعسرون، و عن طريق الاقتصاد فى استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبوا لمساعدتهم.

قد يمكن تحسيس الأغنياء بما يعاناه الفقراء عن طريق الكلام و الخطابه، لكن المسأله حين تتخذ طابعا حسيا عينيا لها التأثير الأقوى و الأبلغ. الصوم يمنح هذه المسأله الهامه الاجتماعيه لونا حسيا، لذلك

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى جواب عن سؤال بشأن علّة الصوم: «إنما فرض الله الصيام ليستوى به الغنى و الفقير، و ذلك إن الغنى لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، و إن الغنى كلما أراد شيئا قدر عليه فأراد الله تعالى أن يسوى بين خلقه، و أن يذيق الغنى مسّ الجوع و الألم، ليرقّ على الضعيف و يرحم الجائع»

(٢)

ترى، لو أن الدول الغنيه فى العالم صامت عدّه أيام فى السنه و ذاقت مراره الجوع، فهل يبقى فى العالم كل هذه الشعوب الجائعه؟!

الآثار الصحيه للصوم

أهميه «الإمساك» فى علاج أنواع الأمراض ثابتة فى الطب القديم و الحديث.

البحوث الطبيه لا تخلو عاده من الحديث عن هذه المسأله، لأن العامل فى كثير من الأمراض الإسراف فى تناول الأَطعمه المختلفه. المواد الغذائيه الزائده تتراكم فى الجسم على شكل مواد دهنيه، و تدخل هى و المواد السكرية فى الدم، و هذه المواد الزائده وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات و الأمراض، و فى هذه الحاله يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحه هذه الأمراض، و للقضاء على هذه المزابل

ص: ٥٢٣

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٢.

٢- ٢) -وسائل الشيعه، ج ٧، أول كتاب الصوم، ص ٣.

المتراكمه فى الجسم.

الصوم يحرق الفضلات و القمامات المتراكمه فى الجسم، و هو فى الواقع عمليه تطهير شامله للبدن، إضافة إلى أنه استراحة مناسبه لجهاز الهضم و تنظيف له، و هذه الاستراحة ضروريه لهذا الجهاز الحساس للغايه، و المنهمك فى العمل طوال أيام السنه.

بديهى أن الصائم ينبغى أن لا- يكثر من الطعام عند «الإفطار» و«التَّيَّحُور» حسب تعاليم الإسلام، كى تتحقق الآثار الصحيه لهذه العباده، و إلا فقد تكون النتيجة معكوسه.

العالم الروسى «الكسى سوفورين» يقول فى كتابه:

«الصوم سبيل ناجح فى علاج أمراض فقر الدم، و ضعف الأمعاء، و الالتهابات البسيطة و المزمنه، و الدمامل الداخليه و الخارجيه، و السل، و الاسكليروز، و الروماتيزم، و النقرس و الاستسقاء، و عرق النساء، و الخراز (تناثر الجلد)، و أمراض العين، و مرض السكر، و أمراض الكليه، و الكبد و الأمراض الاخرى.

العلاج عن طريق الإمساك لا يقتصر على الأمراض المذكوره، بل يشمل الأمراض المرتبطه بأصول جسم الإنسان و خلاياه مثل السرطان و السفليس، و السل و الطاعون أيضا» (١).

عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم قال: «صوموا تصحوا»

(٢)

و عنه صلى الله عليه و اله و سلم أيضا: «المعده بيت كلّ داء و الحميه رأس كلّ دواء»

(٣)

٢- الصوم فى الأمم السابقه

يظهر من النصوص الموجوده فى التوراه و الإنجيل، أن الصوم كان موجودا

ص: ٥٢٤

١- ١) - كتاب «الصوم طريقه حديثه لعلاج الأمراض»، ص ٦٥، الطبعة الاولى.

٢- ٢) - بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٢٥٥.

٣-٣) - بحار الأنوار، ج ١٤، من الطبعه القديمه.

بين اليهود و النصارى، و كانت الأمم الاخرى تصوم فى أحزانها و مآسيها، فقد ورد فى «قاموس الكتاب المقدس»: «الصوم بشكل عام و فى جميع الأوقات كان متداولاً فى أوقات الأحزان و النوائب بين جميع الطوائف و الملل و المذاهب» (١).

و يظهر من التوراه أن موسى عليه السّلام صام أربعين يوماً، فقد جاء فيها: «أقمت فى الجبل أربعين نهاراً و أربعين ليله لا آكل خبزاً و لا أشرب ماء» (٢).

و كان اليهود يصومون لدى التوبه و التضرع إلى الله: «اليهود كانوا يصومون غالباً حينما تتاح لهم الفرصه للإعراب عن عجزهم و تواضعهم أمام الله، ليعترفوا بذنوبهم عن طريق الصوم و التوبه، و ليحصلوا على رضا حضره القدس الإلهى» (٣).

«الصوم الأعظم مع الكفاره كان على ما يبدو خاصاً بيوم من أيام السنه بين طائفه اليهود، طبعاً كانت هناك أيام اخرى مؤقته للصوم بمناسبه ذكرى تخريب اورشليم و غيرها» (٤).

السيد المسيح عليه السّلام صام أيضاً أربعين يوماً كما يظهر من «الإنجيل»: «ثم اصعد يسوع إلى البريه من الروح ليجرب من إبليس فبعد ما صام أربعين نهاراً و أربعين ليله جاع أخيراً» (٥).

و يبدو من نصوص إنجيل «لوقا» أن حوارىي السيد المسيح صاموا أيضاً (٦).

و جاء فى قاموس الكتاب المقدس أيضاً: «...من هنا كانت حياه الحواريين و المؤمنين مملوءه بالابتعاد عن اللذات و بالأتعاب و بالصوم» (٧).

بهذا نستطيع أن نجد فى نصوص الكتب الدينيه القديمه (حتى بعد تحريفها) شواهد على ما جاء فى القرآن الكريم كما كتبت على الذين من قبلكم .

ص: ٥٢٥

١-١) - قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٧.

٢-٢) - التوراه، سفر التثنيه، الفصل ٩، الرقم ٩.

٣-٣) - قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

٤-٤) - نفس المصدر.

٥-٥) - إنجيل متى، الإصلاح الرابع، الرقم ١ و ٢.

٦-٦) - إنجيل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم ٣٥-٣٣.

٧-٧) - قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٢٨.

هذا الشهر-إنما اختير شهرا للصوم-لأنه يمتاز عن بقية الشهور.و القرآن الكريم بين مزيه هذا الشهر فى الآيه الكريمة بأنه الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أَى القرآن الذى يفصل الصالح عن الطالح و يضمن سعادته البشريه.و فى الروايات الإسلاميه أن كل الكتب السماويه:«التوراه»و«الإنجيل»و«الزبور»و«الصحف» و«القرآن»نزلت فى هذا الشهر (١).فهو إذن شهر تربيته و تعليم،لأن التربيته غير ممكنه دون تعليم صحيح،و منهج الصوم التربوى يجب أن يكون مرافقا لوعى عميق منطلق من تعاليم السماء لتطهير الإنسان من كل أثم.

فى آخر جمعه من شهر شعبان،ألقى رسول الله صَلَّى الله عليه و اله و سلم خطبه أعدّ فيها المسلمين لاستقبال شهر رمضان المبارك قال فيها:

«أيها الناس إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركه و الرّحمه و المغفره،شهر هو عند الله أفضل الشهور،و أيامه أفضل الأيام،و لياليه أفضل الليالي،و ساعاته أفضل الساعات،هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافته الله،و جعلتم فيه من أهل كرامه الله.أنفاسكم فيه تسيح،و نومكم فيه عبادته،و عملكم فيه مقبول،و دعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا الله ربكم بتيات صادقته، و قلوب طاهره أن يوفّقكم لصيامه و تلاوه كتابه،فإن الشقى من حرم غفران الله فى هذا الشهر العظيم،و اذكروا بجوعكم و عطشكم فيه جوع يوم القيامة و عطشه،و تصدّقوا على فقرائكم و مساكينكم،و وقّروا كباركم،و ارحموا صغاركم،و صلوا أرحامكم،و احفظوا ألسنتكم،و غصّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم،و عمّا لا يحلّ الاستماع إليه أسمعكم، و تحنّوا على أيتام الناس يتحنّ على أيتامكم...»

(٢)

٤- قاعده «لا حرج»

آيات بحثنا فيها إشاره إلى أن الله يريد بالناس اليسر و لا يريد بهم العسر،

ص: ٥٢٦

١-١) -وسائل الشيعه، ج ٧، أبواب أحكام شهر رمضان، الباب ١٨، الحديث ١٦.

٢-٢) -وسائل الشيعه، ج ٧، الباب ١٨ من أبواب أحكام شهر رمضان، ح ٢٠.

و هذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم و فوائده و حكم المسافر و المريض، لكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، و يصير منها سنداً لقاعدة «لا حرج» المعروفه.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانين الإسلام على المشقه، و إن أدى حكم إسلامي إلى حرج و مشقه، فإنه يرفع عنه مؤقتاً، و لذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، و الصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف.

و في موضع آخر من القرآن الكريم، يقول سبحانه: هُوَ اجْتَبَاكُمْ و مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (١).

و عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «بعثت على الشريعة السهلة».

ص: ٥٢٧

اشاره

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

سبب النزول

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم عن الله سبحانه، أهو قريب ليناقيه بصوت خفى أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآيه (١).

التفسير

سلاح اسمه الدعاء بعد أن ذكرت الآيات السابقه مجموعه هامه من الأحكام الإسلاميه، تناولت هذه الآيه موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد و المعبود سبحانه. و مجيء هذه الآيه فى سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوما جديدا، إذ أن الدعاء و التقرب إلى الله روح كل عباده.

هذه الآيه تخاطب النبي صلى الله عليه و اله و سلم و تقول: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .

ص: ٥٢٨

إنه أقرب مما تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١).

ثم تقول الآية: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .

إِذْنٌ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَ لِيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

و يلفت النظر في الآية، أن الله سبحانه أشار إلى ذاته المقدسه سبع مرات، و أشار إلى عباده سبعا! مجسدا بذلك غايه لطفه و قربه و ارتباطه بعباده.

روى عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الدعاء يردّ القضاء بعد ما أبرم إبراما فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كلّ رحمه و نجاح كلّ حاجه و لا ينال ما عند الله عزّ و جلّ إلاّ بالدعاء و إنّه ليس باب يكثر قرعه إلاّ يوشك أن يفتح لصاحبه» (٢).

نعم، إنه قريب منا، و كيف يتعد و هو سبحانه يحوّل بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (٣).

بحوث

إشارة

١- فلسفه الدعاء

أولئك الجاهلون بحقيقه الدعاء و آثاره التربويّه و النفسيه، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف الناس عن الفعاليه و النشاط و عن تطوير الحياه، و يدفعهم بدلا من ذلك إلى التوسيل بعوامل غيبية.

و يقولون: إن الدعاء تدخّل في شؤون الله، و الله يفعل ما يريد، و فعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعي إلى الطلب منه و التضرّع إليه؟!!

ص: ٥٢٩

١- ١) - ق، ١٦.

٢- ٢) - أصول الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء (باب إن الدعاء يرد البلاء)، الحديث ٧.

٣- ٣) - الأنفال، ٢٤.

و يقولون أيضا: إنَّ الدعاء يتعارض مع حاله الإنسان الراضى بقضاء الله المستسلم لإرادته سبحانه! هؤلاء- كما ذكرنا- يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربويه و النفسيه و الاجتماعيه للدعاء، فالإنسان بحاجه أحيانا إلى الملجأ الذى يلوذ به فى الشدائد، و الدعاء يضئ نور الأمل فى نفس الإنسان.

من يتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفه نفسيه و اجتماعيه. و على حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الامه عن الدعاء يعنى سقوط تلك الامه! المجتمع الذى قمع فى نفسه روح الحاجه إلى الدعاء سوف لا يبقى مصونا عاده من الفساد و الزوال.

و من نافله القول أنه من العبث الاكتفاء بالدعاء لدى الصباح و قضاء بقيه اليوم كالوحش الكاسر، لا بدّ من مواصلة الدعاء، و من اليقظه المستمره، كى لا يزول أثره العميق من نفس الإنسان». (1)

و أولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديرى لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعنى ترك العلل و الوسائل الطبيعيه و اللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهايه جهدنا للاستفاده من كل الوسائل الموجوده، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، و أعتنا الوسيله، نلجأ إلى الدعاء، و بهذا اللجوء إلى الله يحيى فى أنفسنا روح الأمل و الحركه، و نستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعيه.

«الدعاء-إضافه إلى قدرته فى بث الطمأنينه فى النفس- يؤدى إلى نوع من النشاط الدماغى فى الإنسان، و إلى نوع من الإنشراح و الانبساط الباطنى و أحيانا إلى تصعيد روح البطوله و الشجاعه فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصه فريده

ص: ٥٣٠

(١- ١) -الدعاء، الطبيب و عالم النفس الشهير «الكسيس كاريل».

...صفاء النظره، وقوه الشخصيه، و الإنشراح و السرور، و الثقه بالنفس، و الاستعداد للهدايه، و استقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكثر عظيم دفين فى نفوسنا. و انطلاقا من هذه القوه يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقليه و الأخلاقيه بشكل أفضل، و أكثر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جدا- مع الأسف- فى عالمنا اليوم» (١).

مما تقدم نفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا و التسليم، لأن الدعاء- كما ذكرنا- نوع من كسب القابليه على تحصيل سهم أكبر من فيض الله اللامتاهى.

بعباره اخرى: الإنسان ينال بالدعاء لياقه أكبر للحصول على فيض البارى تعالى. و واضح أن السعى للتكامل و لكسب مزيد من اللياقه هو عين التسليم أمام قوانين الخليقه، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العباده و الخضوع و الطاعه، و الإنسان- عن طريق الدعاء- يزداد ارتباطا بالله تعالى، و كما أن كل العبادات ذات أثر تربوى كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

و القائلون أن الدعاء تدخّل فى أمر الله و أن الله يفعل ما يشاء، لا- يفهمون أن المواهب الإلهيه تغدق على الإنسان حسب استعداده و كفاءته و لياقته، و كلما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ عند الله عزّ و جلّ منزله لا تنال إلاّ بمسأله»

(٢)

و يقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوه لا متناهيه تربط جميع الكائنات مع بعضها» (٣).

ص: ٥٣١

١-١) -الدعاء للكسيس كاريل.

٢-٢) -أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٨، باب فضل الدعاء و الحثّ عليه، حديث ٣.

٣-٣) -آئين زندگى (فارسي)، ص ١٥٦.

و يقول: «إنَّ أحدث العلوم الإنسانيه-أعنى علم النفس-يعلِّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن أطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء و الصلاه و الإيمان القوى بالدين يزيل عوامل القلق و الاضطراب و الخوف و الهيجان الباعثه على أكثر أمراضنا» (١).

٢- المفهوم الحقيقى للدعاء

علمنا أنَّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائره قدرتنا، بعبارة اخرى الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطراب و بعد بذل كل الجهود و الطاقات أمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ (٢). يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئه الأسباب و العوامل الخارجه عن دائره قدره الإنسان، و هذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لا متناهيه و من يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب طبعاً يجب أن لا- يصدر من لسان الإنسان فقط، بل من جميع وجوده، و اللسان ترجمان جميع ذرات وجود الإنسان و أعضائه و جوارحه.

يرتبط القلب و الروح بالله عن طريق الدعاء ارتباطاً وثيقاً، و يكتسبان القدره عن طريق اتصالهما المعنوى بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطره من الماء بالبحر الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعاً آخر من الدعاء يردده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الأمور، ليعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدره البارى تعالى، و ليؤكد أن العلل و العوامل الطبيعیه إنما هي منه سبحانه، و تحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دأنا، فإنّما نبحت عنه لأنّه سبحانه أودع فى الدواء خاصیه الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إليه الروايات الإسلاميه أيضاً).

ص: ٥٣٢

١-١) ن.م. ص ١٥٢.

٢-٢) النمل، ٦٢.

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية و إيقاظ القلب و العقل، و ارتباط داخلي بمبدأ كل لطف و إحسان، لذلك نرى

أمير المؤمنين عليا عليه السلام يقول: «لا يقبل الله عزّ و جلّ دعاء قلب لاه»

(١)

و عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّ و جلّ لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه»

(٢)

٣- شروط استجابته الدعاء

دراسة شروط استجابته الدعاء توضّح لنا كثيرا من الحقائق الغامضة في مسألة الدعاء، و تبين لنا آثاره البناءة، و الروايات الإسلامية تذكر شروطا لاستجابته الدعاء منها:

١- ينبغي لمن يدعو أن يسعى أولا لتطهير قلبه و روحه، و أن يتوب من الذنب، و أن يقتدى بحياه قاده البشريه الإلهيين.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم أن يسأل أحدكم ربّه شيئا من حوائج الدنيا و الاخره حتّى يبدأ بالثناء على الله، و المدحه له و الصّلاه على النبيّ و آله، و الاعتراف بالذنب، ثمّ المسأله»

(٣)

٢- أن يسعى الداعي إلى تطهير أمواله من كل غضب و ظلم، و أن لا يكون طعامه من حرام.

عن رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم قال: «من أحبّ أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه و مكسبه»

(٤)

٣- أن لا- يفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ كل ألوان الفساد، لأنّ الله لا يستجيب ممن ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر،

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَيَنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللهُ شَرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ
فَلا

ص: ٥٣٣

١-١) - أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٤٢، باب الإقبال على الدعاء، الحديث ١.

٢-٢) - نفس المصدر.

٣-٣) - سفينة البحار، ج ١، ص ٤٤٨ و ٤٤٩.

٤-٤) - نفس المصدر.

ترك هذه الفريضة الإلهية (فريضة المراقبة الاجتماعية) يؤدي إلى خلوّ الساحة الاجتماعية من الصالحين، و تركها للمفسدين، و عند ذاك لا أثر للدعاء، لأن هذا الوضع الفاسد نتيجة حتمية لأعمال الإنسان نفسه.

٤- العمل بالمواثيق الإلهية، الإيمان و العمل الصالح و الأمانة و الصلاح من شروط استجابته الدعاء، فمن لم يف بعهده أمام بارئه لا ينبغي أن يتوقع من الله استجابته دعائه.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين على عليه السلام، و شكّا له عدم استجابته دعائه، فقال الإمام:

«إنّ قلوبكم خانت بثمان خصال:

أولها: إنكم عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئاً.

و الثانية: إنكم آمنتم برسوله ثمّ خالفتهم سنّته، و أمّتم شريعته فأين ثمره إيمانكم؟! و الثالثة: إنكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به، و قلمت سمعنا و أطعنا ثمّ خالفتهم! و الرابعة: إنكم قلمت تخافون من النار، و أنتم في كلّ وقت تقدمون إليها بمعاصيكم فأين خوفكم؟! و الخامسة: إنكم قلمت ترغبون في الجنّة، و أنتم في كلّ وقت تفعلون ما يباعدكم منها فأين رغبتكم فيها؟ و السادسة: إنكم أكلتم نعمه المولى فلم تشكروا عليها! و السابعة: إنّ الله أمركم بعبادته الشيطان، و قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، فعاديتموه بلا قول، و واليتموه بلا مخالفه.

و الثامنة: إنكم جعلتم عيوب الناس نصب أعينكم و عيوبكم وراء ظهوركم تلومون

ص: ٥٣٤

من أنتم أحقّ باللوم منه فأىّ دعاء يستجاب لكم مع هذا، وقد سددتم أبوابه و طرقه؟ فاتّقوا الله و أصلحوا أعمالكم و أخلصوا سرائركم و أمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر فيستجيب الله لكم دعاءكم»

(١)

هذا الحديث يقول بصراحه: إن وعد الله باستجابته الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفيذ المواثيق الإلهيه، و إن عمل الإنسان بهذه المواثيق الثمانيه المذكوره فله أن يتوقع استجابته الدعاء، و إلا فلا.

العمل بالأمر الثمانيه المذكوره باعتبارها شروطا لاستجابته الدعاء كاف لتربيته الإنسان و لاستثمار طاقاته على طريق مثمر بناء.

٥- من الشروط الاخرى لاستجابته الدعاء العمل و السعى،

عن على عليه السلام:

«الدّاعي بلا عمل كالزّامي بلا وتر» (٢).

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، و هكذا دور العمل فى الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكوره نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعيه، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط استجابته الدعاء فى أنفسنا، و يحدث بذلك تغييرا كبيرا فى حياه الإنسان و تجديدا لمسيرته، و إصلاحا لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامى أنه مخدر؟!

ص: ٥٣٥

(١ - ١) - نفس المصدر.

(٢ - ٢) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ٣٣٧.

اشاره

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيِّمِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُّوا الصَّيِّمَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَ لَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

سبب النزول

روى أن الأكل كان محرّمًا فى شهر رمضان بالليل بعد النوم، و كان النكاح حرامًا بالليل و النهار فى شهر رمضان. و كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم يقال له مطعم بن جبير شيخًا ضعيفًا، و كان صائمًا، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرّم على الأكل فى هذه الليلة.

فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمى عليه، فرآه رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم فرق له.

و كان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرًا فى شهر رمضان، فأنزل الله هذه

الآية فأحلَّ النكاح بالليل في شهر رمضان، و الأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر (١).

التفسير

إشاره

رخصه في أحكام الصوم

مرّ بنا في سبب نزول الآية أن النكاح كان محرّماً في ليالي شهر رمضان إضافه إلى نهاره، و أن الأكل و الشرب كانا محرّمين في الليل أيضاً بعد النوم، و لعل ذلك كان اختباراً للجيل الإسلامي الأوّل و إعداداً له كي يتقبل أحكام الصوم الثابته.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلاميه في حقل الصوم و الاعتكاف.

تقول أولاً: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ (٢) إِلَىٰ نِسَائِكُمْ .

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ، لَهُنَّ .

و اللباس يحفظ الجسم من الحر و البرد و أنواع الأخطار من جهه، و يستر عيوب الجسم من جهه اخرى، أضف إلى أنه زينه للإنسان، و تشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

الزوجان يحفظ كل منهما الآخر من الانحراف و العيوب، و يوفّر كل منهما سبل الراحة و الطمأنينه للآخر، و كل منهما زينه للآخر.

هذا التعبير يوضّح غايه الارتباط المعنوي بين الرجل و المرأة و مساواتهما في هذا المجال، فالتعبير جاء للرجل كما جاء للمرأة بدون تغيير.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الإلهي و يقول: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ .

فالله سبحانه وسّع عليكم الأمر و خفّفه، و جعل فيه رخصه بلطفه و رحمته، كي

ص: ٥٣٧

(١-١) -مجمع البيان، في تفسير الآية.

(٢-٢) -الرفث: هو الحديث المكشوف عن المسائل الجنسيه، و استعير لمعنى الجماع كما في الآية.

لا تتلوها بالذنوب.

فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

و هذا الأمر لا يعنى طبعاً الوجوب، بل هو رخصه بعد المنع، أو هو بتعبير الأصوليين «الأمر عقيب الخطر»، ويدل على الجواز.

عبارة وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ إشاره إلى أن الاستفاده من هذه الرخصه الكائنه فى مسير قوانين الخلقه و حفظ النظام و بقاء النسل لا مانع فيها.

ثم تبين الآيه الحكم الثانى و تقول: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ .

للمسلم -إذن- أن يأكل و يشرب فى الليل، حتى إذا طلع الفجر يمسك.

و تبين الآيه الحكم الثالث: ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ .

هذه الجملة تأكيد على حظر الأكل و الشرب و النكاح فى أيام شهر رمضان للصائمين، و تشير إلى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر و ينتهى عند الليل.

تطرح الآيه بعد ذلك الحكم الرابع و تقول: وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

هذا الحكم يرتبط بالاعتكاف، و هو شبيه بالاستثناء من الحكم السابق، ففى الاعتكاف الذى لا تقل مدته عن ثلاثه أيام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته لا فى الليل و لا فى النهار.

فى ختام الآيه عبارة تشير إلى كل ما ورد فيها من أحكام تقول: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا لِأَنَّ اقْتِرَابَ مِنَ الْحُدُودِ يَبْعَثُ عَلَى الْوَسْوَسَةِ، و قد يدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود و الوقوع فى الذنب.

نعم، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

١- الحدود الإلهيه:

بعد أن ذكرت الآيه الكريمه بعض أحكام الصوم و الاعتكاف، عبّرت عن هذه الأحكام بالحدود الإلهيه، و هي الحدود بين الحلال و الحرام... بين الممنوع و المباح. و من الملفت للنظر أن الآيه لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت:

فَلَا تَقْرُبُوهَا

لأن الاقتراب منها يؤدي إلى إثارة الوسوس، و قد يؤدي أحيانا إلى تجاوز هذه الحدود.

لذلك نهى الإسلام عن الولوج في مناطق تؤدي إلى انزلاق الإنسان في المحرمات، كالنهى مثلا عن الاشتراك في مجالس شرب الخمر حتى مع عدم التلوث بالخمرة، أو النهى عن الاختلاء بالمرأه الأجنبيةه.

هذا النهى ورد في النصوص الإسلاميه تحت عنوان «حميه الحمى».

ورد عن رسول الله صَلَّى الله عليه و اله و سلم قال: «إِنَّ حمى الله محارمه، فمن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»

(١)

من هنا فالمتقون لا يجتّبون أنفسهم الوقوع في المحرمات فحسب، بل يسعون إلى عدم الاقتراب من حافه الحرام.

٢- الاعتكاف:

العكوف و الاعتكاف أصله اللزوم، يقال: عكفت بالمكان، أى أقمت به ملازما له، و هو في الشرع اللبث في المساجد للعباده، و أقله ثلاثه أيام يصوم خلالها المعتكف و يكفّ عن بعض المباحات.

هذه العباده لها الأثر العميق على تصفيه الروح و القرب من الله، و ذكرت كتب الفقه آدابها و شروطها، هذه العباده مستحبه، و قد تتخذ أحيانا في ظروف استثنائيه

ص: ٥٣٩

طابع الوجوب. في الآيه التي نبحت فيها ورد ذكر أحد شروط الاعتكاف و هو حظر النكاح ليلا و نهارا، و هذه الإشاره جاءت لارتباطها بمسأله الصوم.

٣- طلوع الفجر:

الفجر في الأصل شقّ الشىء شقا واسعا، و سمى الصبح فجرا لأنه فجر الليل.

و عبرت الآيه عن الفجر أيضا بأسلوب حتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. و من الظريف

أن «عدى بن حاتم» قال للنبي: إني وضعت خيطين من شعر أبيض و أسود فكنت أنظر فيهما فلا يتبين لى، فضحك رسول الله صلّى الله عليه و اله و سلّم حتى رؤيت نواجذه ثم قال: «يا ابن حاتم إنّما ذلك بياض النهار و سواد الليل فابتداء الصّوم من هذا الوقت» (١).

و هذا التعبير يوضّح أيضا الفرق بين الصبح الصادق و الصبح الكاذب: لأنّ الفجر فجران: الفجر الكاذب و هو على شكل عمود من الضوء يظهر فى السماء كذب السرحان (الثعلب)، و بعده يظهر الفجر الصادق و هو بياض شفاف أفقى يظهر فى أفق السماء كخيط أبيض يظهر إلى جوار الخيط الأسود. و هذا هو الصبح الصادق و به يتعلق حكم الصوم و الصلاه. و لا يشبه الفجر الكاذب.

٤- التقوى، هى الأوّل و الآخر: فى أوّل آيه ترتبط بأحكام الصوم و ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائى للصوم، و فى آخر آيه أيضا وردت عبارته لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ و هذا يؤكد أن كل مناهج الإسلام و سيله لتربيته الروح و التقوى و الفضيله و الإراده و الإحساس بالمسؤوليه.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

ص: ٥٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩